المحتويات

مقدمة ٥

- الشبهة الأولى ٩

التشكيك في تاريخ بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى والمدة الفاصلة بينهما

- الشبهة الثانية ١٩

الزعم أن القرآن نسب للتاريخ ما ليس منه بذكره حادثة الفيل

- الشبهة الثالثة ٣٣

ادعاء أن إسلام الصحابة الأوائل كان هروبًا من الظلم وطلبًا لرغد العيش

- الشبهة الرابعة ٤٢

الزعم أن عثمان بن عفان ﷺ أسلمَ رغبةً في الزواج من رقية بنت النبي ﷺ

- الشبهة الخامسة ٤٥

ادعاء أن تعذيب المشركين للمسلمين الأوائل كان معنويًا فحسب

- الشبهة السادسة ٥٠

دعوى أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت لأسباب اقتصادية وسياسية

- الشبهة السابعة ٦٠

إنكار حادثة الحصار الاقتصادي على بني هاشم وبني المطلب في شِعْب أبي طالب

- الشبهة الثامنة ٦٦

ادعاء أن الهجرة إلى المدينة كانت هروبًا

- الشبهة التاسعة ٧٤

ادعاء أن الهجرة إلى المدينة كانت بدوافع اقتصادية

- الشبهة العاشرة ٧٩

إنكار عالمية الإسلام

- الشبهة الحادية عشرة ١١١

دعوى انتشار الإسلام بحَدِّ السَّيف وإساءة معاملة الآخر

- الشبهة الثانية عشرة ١٥٤

الزعم أن مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار تدبير عسكري

- الشبهة الثالثة عشرة ١٦٠

ادعاء أن الصحابة انتهكوا حُرْمَة الأشهر الحُرُم

- الشبهة الرابعة عشرة ١٦٣

ادعاء أن انتصار المسلمين في غزوة بدر كان بسبب عدم رغبة المشركين في القتال

- الشبهة الخامسة عشرة ١٧١

ادِّعاء أن المسلمين قتلوا عددًا من أسرى بدر؛ تعطشًا منهم للدماء، وحبًّا للانتقام

- الشبهة السادسة عشرة ١٧٨

الزعم أن معارك المسلمين الأولى ضد أهل مكة كانت مواجهاتٍ يائسة

- الشبهة السابعة عشرة ١٨١

ادِّعاء أن المسلمين فتحوا مكة عَنْوَة

- الشبهة الثامنة عشرة ١٨٩

ادِّعاء أن مؤتمر السَّقِيفة ضم أربعة أحزاب سياسية تصارعت على خلافة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ

- الشبهة التاسعة عشرة ٢٠٠

ادِّعاء التباغض بين الصِّدِّيق وعلي - رضي الله عنهما - بسبب الخلافة

- الشبهة العشرون ٢١٣

ادِّعاء أن حروب الرِّدَّة دافعها السياسة لا الدين

- الشبهة الحادية والعشرون ٢٢١

الزعم أن أبا بكر ﷺ كان يفتقد كثيرًا من الصفات المؤهلة للقيادة

- الشبهة الثانية والعشرون ٢٣٥

الزَّعم أنَّ أبا بكر ﷺ كان دكتاتورًا مستبدًّا لا يَقْبَل النَّقد والتوجيه

- الشبهة الثالثة والعشرون ٢٤٣

التَّشكيك في الجهود الدَّعويَّة لأبي بكر الصديق ﷺ

المصادر والمراجع ٢٥٧

مُقَدِّمَة

إن مما يعلم من واقعنا ـ نحن المسلمين ـ المعيشِ بالضرورة، ومما لا يخفى على ذي بصيرة ـ ما تعرض له تاريخنا الإسلامي ولا سيّما قرونه الأولى من حملات تشكيكية هدّامة، لم تَبْغِ سوى تشويهه وازدرائه وصبغه بصبغةٍ قاتمةٍ تفقد المسلم المعاصر المصداقية في الشخصيات التي تمثل له مُثُلًا عليا ونماذج مُثْلَى.

هذا وقد استخدم من آثار هذه الحملات ـ ومَنْ نهج نهجه ممن انتسب إلى الإسلام ـ وسائل متعددة اتكأ عليها في تحريفه للوقائع التاريخية الصحيحة؛ ومن هذه الوسائل:

- الاختلاق والكذب.
- الإتيان بخبر أو حادثة صحيحة، فيزيدون فيها وينقصون منها؛ حتى تتشوّه وتخرج عن أصلها.
- التأويل والتفسير الباطل للأحداث بوضع الخبر في غير سياقه؛ حتى ينحرف عن معناه ومقصده.
- إبراز المثالب والأخطاء، وإخفاء الحقائق والمحاسن، كقول القائل:

إنْ يسمعوا سُبّةً طاروا بها فَرَحًا ... منّي وما سَمِعوا من صالحٍ دفنوا

- لَيّ أعناق الحقائق التاريخية؛ لكي تسلِم إلى النتيجة التي يبغونها سلفًا، معتسفين إياها اعتسافًا.

ومن هذا المنطلق فإن إعادة النظر في التاريخ الإسلامي مطلب مُلِحّ؛ إذ الحاجة ماسة إلى التثبت من الأخبار وتوثيق النصوص التاريخية الإسلامية، كما الحال في باقي العلوم الإسلامية الأخرى كالتفسير والحديث والفقه؛ ذلك أن معظم البدع التي لا تزال حية في الأمة إنما ترتكز على تزوير تاريخي، وتدليس في رواية أحداث صدر الإسلام خاصة، عِلمًا بأن تاريخ الإسلام في عصر الراشدين هو النموذج الأمثل لتطبيق الإسلام عقيدة وشريعة.

وفي ظل هذا السياق التشكيكي الذي لا يفتأ أصحابه يشوهون ـ أكثر ما يشوهون ـ النموذج القدوة، ويبرزون الجيل الفريد جيلَ الصحابة والتابعين في صورة سيئة، بما ما بجملة القرون التاليات ـ التي حادت نسبيًّا عن اتباع هذا السلف الصالح من المكر والخداع والتآمر والحرص على الدنيا وزخارفها في أحيان كثيرة، ولا يفتئون كذلك يواجهون النظام الإسلامي بمصطلحات ونظريات أيديولوجية مغايرة له تمامًا، ولا تعبر عن واقعه؛ بغية استئصال هذا النظام من صدور ذويه، وهذا ما يُعرف بـ "نظرية التداخل والإحلال"؛ للخلوص إلى تجويف الشخصية الإسلامية وتفريغها من قيمها، وممن تستلهم منه الزهد ومحاربة النفس وكبْت هواها وكبْح جماحها؛ لكي يصلوا في النهاية إلى قطْع الصلة بيننا ـ نحن مسلمي القرن الخامس عشر الهجري ـ وبين تاريخ سلفنا الصالح.

نقول: في ظل هذا السياق التشكيكي كان لزامًا على من نَذَرَ نفسه لدفع شبهات المشككين ودَحْض فِرَاهم[1]

١. الفِرَى: جمع الفِرْيَة، وهي الكَذب.

أن يُولِي كبير اهتمامٍ ووافر جهد لدفع الشبهات التي وُجِّهَت إلى تاريخنا الإسلامي. ولقد تكفَّل بـرَدّ هـذه الـشبهات جزءان من جملة أجزاء هذه الموسوعة، وقد جاءا تحت عنوان: (شبهات حول التاريخ الإسلامي).

وقد اقتضت طبيعة مناقشة هـذه الـشبهات التاريخيـة أن تتسلـسل الـشبهات تسلـسلًا تاريخيًّـا، يبـدأ بالأقـدم فالأحدث. وقد اقتضت هذه الطبيعة التسلسلية التاريخية أن تتتابع أرقـام الـشبهات داخـل الجـزأين كلـيهما تسلـسلًا رقميًّا؛ فعلى حين انتهى الجزء الأول بالشبهة الثالثة والعشرين، بدأ الجزء الثاني بالشبهة الرابعة والعشرين.

ذلك وقد تمحورت قضايا هذين الجزأين في حِقَبٍ تاريخية متعددة، تبعًا للـشبهات المُثـارة نفـسها، وذلـك عـلى النحو الآتي:

١. **حقبة ما قبل الإسلام:** ومن شبهات هذه الحقبة (إنكار حادثة الفيل).

٢. **حقبة العهد النبوي بمرحلتيه (المكية والمدنية):** ولقد ناقشت هذه الحقبة الشبهات التي نالت مـن الـصحابة الكرام، ومن الإسلام، من لدن بعثة النبي ﷺ وحتى وفاته ﷺ، فشملت هذه الفترة الشبهات التي تعلقـت بــ: إسـلام الصحابة الأوائل، وما تعرضوا له من إيذاءات واضطهادات، وهجرتهم إلى الحبشة، والحصار الاقتصادي في شِعْب[1] أبي طالب، والهجرة إلى المدينة ودوافعها، وعالمية الإسلام، وانتشاره..

٣. **حقبة الخلافة الراشدة:** ولقد خصَّت هذه الحقبة الشبهات التي نالت من تاريخ الصحابة الكرام بُعَيْـد وفـاة النبي ﷺ، مرورًا بشبهات خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بـن عفـان ﷺ، وانتهـاءً بالـشبهات التـي طعنت في تاريخ الصحابة الكرام في خلافة علي بن أبي طالب ﷺ.

وقد أولينا مناقشة الشبهات التي نالت من تاريخ الصحابة الكرام في الفتنة الكبرى ـ اهتمامًا كبيرًا.

٤. **حقبة الخلافة الأُمَوية:** ومن شبهات هذه الحقبة الطعن في إسلام بني أمية، وخلافتهم.

٥. **شبهات أخرى:** تناولت حدث الحروب الصليبية، وفترة الخلافة العباسية.

هذا وقد انتهت مناقشة شبهات هذين الجزأين إلى حقائق كلية لا بد أن يقف عليها القارئ الكريم، وسنجملها في هذا التقديم، في نقاط جدّ موجزة:

- الحقبة التاريخية التي عاش فيها النبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ـ هي الحقبة التي طُبِّق فيها الإسلام عقيدة وشريعة، وهي خير مراحل التاريخ على الإطلاق، مصداقًا لقول النبي ﷺ: "خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[2].
- ينبغي أن نضع في اعتبارنا ما استجدّ في عهد الخلفـاء الراشـدين الأربعـة، ممـا لم يكـن موجـودًا عـلى عهـد

---

١. الشِّعْب: هو الطريق في الجبل أو الانفراج بين الجبلين، والجمع شِعاب.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شـهد (٢٥٠٩)، وفي مواضـع أخـرى، ومـسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم (٦٦٣٥).

النبي ﷺ، وأن نفسر ما يقع منهم ـ من اجتهادٍ هم أهله وقياس هم ذووه ـ في ضوء معايير عامة وضوابط كلية، منها رغبتهم في حماية التوحيد، واختلاف منهج أحدهم عن الآخر في السياسة العامة، ورغبتهم في إفساح المجال لطلائع جديدة من القيادات. وهم في البدء والنهاية بشر وليسوا معصومين.

- لا يَصِحّ بحال من الأحوال أن يُعَمَّم ما قد يحدث من خليفة أموي أو عباسي أو... من حَيْدة عن المبادئ الإسلامية، وخروج عن النظام الإسلامي، نقول: لا يصح أن تُعَمّم هذه الجزئيات وتلك الاستثناءات، فيُصْبَغَ بها الحكم الأموي أو العباسي أو... جميعه.

- إن إسقاط المصطلحات الإيديولوجية الحديثة ومفاهيمها ومضامينها الفكرية على نظم الإسلام ومبادئه الكلية العامة يمثل خطأ منهجيًّا فادحًا، ويفتح للغزو الفكري والاختراق الثقافي بابا عَصيًّا إغلاقه، فهذه المصطلحات لا تلبث أن تحلّ محل مصطلحات النظام الإسلامي وأفكاره، بعد مرحلة من التداخل والتشويش، وهذا ما يعرف ـ كما أشرنا منذ قليل ـ بـ "التداخل والإحلال"؛ عن طريق خلط الأوراق وتقديم نموذج شائه[1] من المصطلحات والنظريات الأجنبية التي تستبدل بها المصطلحات الإسلامية.

وها نحن أولاء نضع بين يدي القارئ الكريم هذين الجزأين اللذين يتعهّدان بدفع الشبهات التي شوّهت تاريخنا الإسلامي، ليحق الله الحق ويبطل الباطل، سائلين المولى ﷻ أن ينفع بهما، وأن يلبسهما ثوب القبول.



١. شائه: قبيح.

الشبهة الأولى

التشكيك في تاريخ بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى والمدة الفاصلة بينهما(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن رسول الله ﷺ أخطأ في تحديد الفترة الفاصلة بين بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ويستدلون على ذلك بما روي عن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة[1]، ويتساءلون: إذا كان إبراهيم هو الذي بنى المسجد الحرام، وسليمان هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبين إبراهيم وسليمان أكثر من ألف سنة، فكيف يذكر الحديث أن بين المسجدين أربعين سنة؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في صحة ما أخبر به النبي ﷺ عن أحداث تاريخ ما قبل الإسلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) من الثابت تاريخيًّا أن المسجد الحرام والمسجد الأقصى مرًّا بالعديد من المراحل التي تعرَّضا فيها للبناء والهدم أكثر من مرة.

٢) هناك العديد من الأدلة التي تؤكد صحة هذا الحديث، وتُبطل مزاعم هؤلاء المشككين، ومن هذه الأدلة ما هو قرآني، ومنها ما هو حديث نبوي، ومنها ما هو تاريخي.

التفصيل:

أولا. المراحل التي مرَّ بها بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى:

من الثابت تاريخيًّا أن كلًّا من المسجد الحرام والمسجد الأقصى مرًّا بالعديد من مراحل البناء والهدم؛ تأثرًا بالعوامل الطبيعية تارة وبالعوامل السياسية تارة أخرى، ونبدأ بتحديد المراحل التي مر بها المسجد الحرام.

المراحل التي مر بها بناء المسجد الحرام:

- **المرحلة الأولى. بناء التأسيس:**

لا يوجد اتفاق صريح بين علماء التاريخ حول ابتداء بناء المسجد الحرام، وإن كانت أغلب الآراء التاريخية ترجح أن آدم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام، ومما يؤكد ذلك قول ابن الأثير: "أوحى الله ﷻ إلى آدم: إن لي حرمًا حِيال عرشي، فانْطَلِق وابْنِ لي بيتًا فيه، ثم حُفَّ به كما رأيت ملائكتي يَحُفُّون بعرشي، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي، فقال آدم:

(*) الاعتداءات الباطنية على المقدسات الإسلامية، د. كامل سلامة الدقس، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٦م. مروج الذهب، المسعودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. الروض الأنف، السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ (الصافات)، النسلان في المشي (٣١٨٦)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب منه (١١٨٩).

يا رب، وكيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي إليه؟ فقيض الله ملكًا فانطلق به نحو مكة، وكان آدم إذا مر بروضة قال للملك: انزل بنا ههنا، فيقول الملك: مكانك، حتى قدم مكة فكان كل مكان نزله آدم عمرانًا وما عداه مفاوز، فبنى البيت من خمسة أَجْبُل: من طور سيناء وطور زِيتَا[1] ولُبْنان[2] والجُودِي[3]، وبنى قواعده من حِراء[4]، فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك التي يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة، فطاف بالبيت أسبوعًا، ثم رجع إلى الهند فمات على نود"[5].

وتوجد روايات أخرى تذكر أن بناء الكعبة أول مرة كان على أيدي الملائكة، وهذا ما نقله محمد بن يوسف الصالحي عن الأزرقي صاحب كتاب "أخبار مكة"، وكان مما قاله ـ بعد أن ذكر قصة الملائكة مع الله ﷻ عندما أخبرهم بخلق خليفة في الأرض ـ: "فظنت الملائكة أن ما قالوا ردٌّ على ربهم ﷻ، وأنه قد غضب عليهم من قولهم؛ فلاذوا بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقًا لغضبه، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله تعالى إليهم؛ فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله ﷻ تحت العرش بيتًا على أربع أساطين من زبرجد، وغشَّاهن بياقوتة حمراء وسُمِّي البيت الضُّراح.

ثم قال للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش فصار أهْون عليهم، وهو البيت المعمور الذي ذكره الله ﷻ، يدخله كل يوم وليلة سبعون ألف ملَك لا يعودون إليه أبدًا، ثم إن الله ﷻ بعث ملائكة، فقال: ابنوا لي بيتًا في الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله ﷻ مَن في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل (السماء) بالبيت المعمور"[6].

ويذهب فريق آخر من المؤرخين إلى أن شِيْث بن آدم هو أول من بدأ بناء الكعبة، وكان بناؤها خمس مرات، الأولى: حين بناها شيث بن آدم، ولم يزل البيت معمورًا، يعمره بنو آدم حتى كان زمن نوح ﷺ، فعظَّمه وقدَّسه وحجَّ إليه[7].

ونظرًا لأن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ خَلَوَا من أخبار تتناول حدث بناء الكعبة قبل نبي الله الخليل إبراهيم ﷺ، ومن ثَمَّ يصعب ترجيح إحدى الروايات الواردة عن الإخباريين، بيد أن الثابت أن الكعبة الشريفة قد بُنِيَت قبل الخليل إبراهيم ﷺ، منها بناء الملائكة، وبناء آدم، وبناء ابنه شيث، وأنها كانت مُعظَّمة ومُقدَّسة، وتوارث هذا التعظيم وذلك التقديس حتى بعثة إبراهيم ﷺ.

---

1. طور زِيتَا: بالقدس شرقي وادي سُلْوان، مشرف على المسجد الأقصى.
2. لُبْنان: جبل قرب مكة.
3. الجُودي: جبل في موضع آجا عند جبل أحد.
4. حِراء: جبل بمكة، وفيه الغار الذي كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ.
5. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج١، ص٢٣.
6. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج١، ص١٧٠.
7. للمزيد انظر: الروض الأُنُف، السهيلي، مرجع سابق، ج١، ص٢٢١.

- **المرحلة الثانية. بناء إبراهيم ﷺ:**

بعد أن أسَّس آدم ﷺ الكعبة[١]، وتوالت عليها السنون؛ تآكل بناؤها واختفت من على وجه الأرض، إلى أن جاء إبراهيم ﷺ وأمره الله ﷻ ببناء الكعبة من جديد على القواعد الأولى التي وضعها آدم ﷺ، ففعل هذا بمساعدة ولده إسماعيل ﷺ، فنزل إسماعيل إلى موضع البيت الذي بوَّأه الله ﷻ لإبراهيم.

وموضع البيت رَبْوة حمراء مَدَرةٌ مُشْرفة على ما حولها، فحفر إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وليس معهما غيرهما - أساس البيت يريدان أساس آدم الأول، فحفرا عن رَبَض[٢] البيت، فوجدا صخرة لا يطيقها إلا ثلاثون رجلًا، وحفرا حتى بلغا أساس آدم ﷺ.

فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر - أي المقام - فوضعه له، فقام عليه إبراهيم ﷺ وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة)[٣].

وتذكر بعض الروايات التاريخية القليلة أن العماليق وقبيلة جرهم جددوا بناء الكعبة بعد بناء إبراهيم مرتين، وقيل إن قُصَي بن كلاب قام بعمارتها مرة أخرى قبل أن تعيد قريش بناءها[٤].

- **المرحلة الثالثة. بناء قريش الكعبة:**

قامت قريش ببناء الكعبة الشريفة، وذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ بخمس سنين، وكان بناء الكعبة الشريفة آنذاك على هيئة حجارة منضودة موضوعة بعضها فوق بعض من غير طين، مما جعل السيول التي تجتاح مكة بين الحين والآخر تؤثر على متانة الكعبة؛ فأوْهت بنيانها، وصدعت جدرانها، حتى كادت أن تنهار، فقررت قريش إعادة بنائها بناء متينًا، يصمد أمام السيول، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك، وقف فيهم أبو وهب بن عمرو فقال: "يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس"، لكن قريشًا تهيّبت من هدم الكعبة، وخشيت أن يَحِلّ عليهم بذلك سخط الله، فقال لهم الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول وبدأ بالهدم وهو يقول: اللهم لم نزغ، ولا نريد إلا الخير، فهدم من ناحية الركنين، فترقب الناس ليلتهم ليروا هل أصاب المغيرة شر بسبب ما فعل ؟ فلما رأوه يغدو عليهم لا بأس به، قاموا إلى الكعبة فأكملوا هدمها، حتى لم يبق منها إلا أساس إبراهيم ﷺ.

---

١. للمزيد انظر: أخبار مكة، محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحن، دار الثقافة، مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص٥١: ٥٣. إعلام الساجد، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: الشيخ أبو الوفا مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٥. عُرْف الطيب، محمد بن محمد العاقولي، تحقيق ودراسة: د. صلاح الدين عباس شكر، مطبوعات مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٥٤: ٧١.

٢. رَبَض: حَوْل.

٣. سبل الهدى والرشاد، محمد يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج١، ص١٨١ بتصرف يسير.

٤. للمزيد انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي، تحقيق: محمد عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص١٤٧: ١٥٤ بتصرف.

ثم تلا ذلك مرحلة البناء، فتم تقسيم العمل بين القبائل، وتولت كل واحدة منها ناحية من نواحي الكعبة، فجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود دبَّ الشقاق بين قبائل قريش، فكل يريد أن ينال شرف رفع الحجر إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا فيما بينهم، حتى جاء أبو أمية بن المغيرة المخزومي، فاقترح عليهم أن يُحكّموا فيما اختلفوا فيه أول من يدخل عليهم من باب المسجد الحرام، فوافقوا على اقتراحه وانتظروا أول قادم، فإذا هو رسول الله ﷺ، وما إن رأوه حتى هتفوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، وما إن انتهى إليهم حتى أخبروه الخبر، فقال: هلمّ إلي ثوبًا، فأتوه به فوضع الحجر في وسطه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا، فلما بلغوا به موضعه، أخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه[1].

- **المرحلة الرابعة. بناء عبد الله بن الزبير:**

قد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لأم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها -: "إن قومك قَصُرَت بهم النَّفقة"، قلت: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: "فعل ذلك قومك؛ ليُدْخِلوا مَنْ شاءوا ويمنعوا مَنْ شاءوا، ولولا أن قومك حديثٌ عهدُهم بالجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم أن أُدْخِل الجَدْر[2] في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض"[3].

ولما جاء عهد ابن الزبير رضي الله عنه قرر أن يعيد بناء الكعبة على نحو ما أراد رسول الله ﷺ في حياته، فقام بهدمها سنة ٦٤هـ، وأعاد بناءها، وزاد فيها ما قصرت عنه نفقة قريش - وكان حوالي ستة أذرع -، وزاد في ارتفاع الكعبة عشرة أذرع، وجعل لها بابين، أحدهما من المشرق والآخر من المغرب، يدخل الناس من باب ويخرجون من الآخر، وجعلها في غاية الحسن والبهاء، فكانت على الوصف النبوي كما أخبرته بذلك خالته عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها[4].

- **المرحلة الخامسة. بناء الحجاج بن يوسف الثقفي:**

وفي عهد عبد الملك بن مروان، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي إليه فيما صنعه ابن الزبير في الكعبة، وما أحدثه في البناء من زيادة، وظن أنه فعل ذلك بالرأي والاجتهاد، فرد عليه عبد الملك بأن يعيدها كما كانت عليه من قبل، فقام الحجاج بهدم الحائط الشمالي وأخرج الحَجَر، وجعل للكعبة بابًا واحدًا فقط ورفعه عاليًا، وسد الباب الآخر، ثم لما بلغ عبد الملك بن مروان حديث عائشة - رضي الله عنها - ندم على ما فعل، وقال: "وددنا أنا تركناه وما تولى من ذلك"، فلما قام أبو جعفر المنصور، وأراد أن يبنيها على ما بناها ابن الزبير،

1. انظر: الروض الأنف، السهيلي، مرجع سابق، ج١، ص٢٢١. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج١، ص١٩٢. مروج الذهب، المسعودي، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٥.
2. الجَدْر: مصدر جَدَرْتُ الجِدارَ جدرًا، إذا حوَّطته، والمقصود بالجَدْر: الحِجْر؛ لما فيه من أصول حائط البيت.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو (٦٨١٦)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جَدْر الكعبة وبابها (٣٣١٣).
4. انظر: سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج١، ص١٩٢. الروض الأنف، السهيلي، مرجع سابق، ج١، ص٢٢١.

وشاور في ذلك، فقال مالك بن أنس: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألَّا تجعل هذا البيت مَلْعَبة للملوك بعدك، لا يشاء أحدٌ منهم أن يغيِّره إلَّا غيَّره؛ فتذهب هيبته من قلوب الناس. فصرفه الإمام مالك عن رأيه[1].

- **المرحلة السادسة: مرحلة بناء العثمانيين وغيرهم:**

أعاد سليمان القانوني ـ المشرِّع ـ بناء الكعبة المشرفة والحَرَم، وأعطاهما الهيئة الباقية إلى اليوم على وجه التقريب، وذلك في أيام سلطنته (٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ/ ١٥١٩ـ ١٥٦٦م)، وعندما جاء سيل عَرِم سنة ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م هدم ركنين من أركان الكعبة، فبُنِيَت الكعبة من جديد في عهد السلطان العثماني مراد الرابع (١٠٣٢ـ ١٠٤٩هـ/ ١٦٢٢ـ ١٦٣٩م)، وتم الاحتفاظ ـ كما حدث في كل مراحل بناء الكعبة ـ بقواعد إبراهيم عليه السلام؛ أي: بأساس الكعبة الذي وضعه سيدنا إبراهيم، وقد ظل هذا البناء مكانه حتى القرن الثالث عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي؛ حيث قام والي مصر والحجاز محمد علي بإعادة بناء الحَرَم كله، وتجديد أعمدته وحجارته ورُخامه، وإصلاح مآذنه، وكان ذلك سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م[2].

وأخيرًا، ولتأثر بناء الكعبة المُعظَّمة بعوامل التَّعرية بعد ترميمها الشامل في عهد السلطان مراد العثماني، وبعد مرور ٣٧٦ سنة؛ أمر خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز سنة ١٤١٧هـ بترميم شامل للكعبة المشرفة[3].

تأسيس المسجد الأقصى:

على الرغم من كثرة الأخبار التي تحدثت عن بداية تأسيس البيت الحرام؛ إلا أن ما بين أيدينا من الأخبار عن بداية تأسيس المسجد الأقصى قليل جدًا، من بين الآثار التي تحدثت عن هذه البداية ما رواه محمد بن يوسف الصالحي في كتابه "سبل الهدى والرشاد" حيث قال: أول من أسس المسجد الأقصى آدم عليه السلام[4].

والروايات تؤكد أن أول من بنى المسجد الحرام هو أبو البشر آدم عليه السلام؛ وعليه، فإن أول بناء كان للمسجد الأقصى على عهده، أو في عهد أبنائه، قال ابن حجر: "فقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم، ثم انتشر ولده في الأرض، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس".

وقال أيضًا: "وقد وجدت ما يشهد ويؤيد قول من قال: إن آدم هو الذي أسس كلا المسجدين، فقد ذكر ابن هشام في كتاب "التيجان": أن آدم لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس، وأن يبنيه، فبناه ونسك فيه، وهذا يعني أن المسجد الأقصى بُني قبل إبراهيم وداود، وأنه كان أول بناء بُني في كل أرض الشام بشكل عام، وكان أول بناء بني على أرض القدس الشريف خاصة، إذن، المسجد الأقصى بني في القدس الشريف قبل وجود أي كنيس أو كنيسة

١. انظر: سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج١، ص١٩٤: ١٩٦. الروض الأنف، السهيلي، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٢.

٢. المساجد، د. حسين مؤنس، ص١٦١: ١٦٣.

٣. تاريخ مكة المكرمة قديمًا وحديثًا، د. محمد إلياس عبد الغني، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٢.

٤. سبل الهدى والرشاد، الصالحي، مرجع سابق، ج١، ص١٦٨.

أو مسجد فيها"[1].

وبناء على هذا فمن المنطقي أن تكون المدة الفاصلة بين البناءين، أربعين سنة، وهذا يتفق مع ما ورد في الحديث الشريف، وليس فيه ما يدعو للتشكيك.

ثانيًا. تأكيد العديد من الأدلة القرآنية والحديثية والتاريخية على صحة ما أخبر به الحديث الشريف:

لا مجال للشك في نص الحديث الذي بيَّن فيه رسول الله ﷺ أن المدة الزمنية الفاصلة بين بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى هي أربعون سنة، وقد تضافرت العديد من الأدلة على صحة هذا الحديث، ومن بين هذه الأدلة ما يلي:

1. **الأدلة من القرآن:**

ذكر القرآن أن أول بيت وضع للناس هو البيت الحرام الذي يوجد في مكة فقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران)، وبيَّنت الوقائع التاريخية الصحيحة أن ذلك كان في زمن آدم عليه السلام، وعندما تحدث القرآن الكريم عن بناء الخليل إبراهيم عليه السلام للكعبة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وهناك فرق بين الوضع والرفع؛ فالوضع يكون لبداية تأسيس الشيء، أما الرفع فهو تحديث البناء.

يقول د. كامل سلامة الدقس: وما دمنا بصدد الحديث عن بيت الله فلا بد أن نتعرض لمن بناه؛ إذ إن الشائع عند كثير من المفسرين أن الخليل إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى البيت، وحجتهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وهذا فهم خاطئ - والله ﷻ أعلم - إذ إن النص يصرح بأن إبراهيم هو الذي رفع قواعد البيت، والرفع لغة هو الارتفاع، والقواعد موجودة، والله ﷻ أمر إبراهيم برفعها، بعد أن أطلعه على مكان البيت؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ (الحج).

وعلى هذا الفهم لا يكون إبراهيم هو الباني للبيت؛ لأن البناء مكين ولكن البيت مكان، فليس ميلاد البيت على يد إبراهيم، لأنه كما سبق ثابت قبل الرفع، وقد يساعد على فهم النص كلمتان هما: (وُضِعَ) المبني لما لم يسم فاعله، و(الناس) الموضوعة أصلًا لشمول أفراد الجنس[2].

ومما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه قوله ﷻ: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، فالمفهوم من نص الآية أن البيت الحرام كان موجودًا قبل أن يعيد إبراهيم بناءه هو وابنه إسماعيل؛ لأن إبراهيم عندما دعا بهذا الدعاء كان إسماعيل طفلًا رضيعًا، وكان تجديد بناء الكعبة وعمر إسماعيل ثلاثون سنة، وفي هذا إبطال لقول من يدعي أن إبراهيم هو

1. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، مكتبة المحتسب، عمان، الأردن، توزيع دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ج١، ص٦٦: ٧٧. إتحاف الأخِصَّا، محمد بن شهاب الدين السيوطي، تحقيق: د. أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، ج٢، ص٧، ٨.

2. الاعتداءات الباطنية على المقدسات الإسلامية، د. كامل سلامة الدقس، مرجع سابق، ص٢٤.

الذي أسس البيت الحرام.

٢. الأدلة من السنة:

وقد وردت في السنة أحاديث تؤكد صحة الحديث مثار الشبهة، فقد جاء عن ابن عباس حديثٌ طويلٌ مرفوع، في قصة هاجر وابنها إسماعيل ، ومن ضمن ما ورد في هذا الحديث الطويل: "فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)"[١]، فالسياق يدل كما هو واضح على أن إبراهيم دعا ربه بهذا الدعاء يوم أن ترك ابنه إسماعيل رضيعًا، ونصوص القرآن تُثبت أن رفع القواعد من البيت كان بعد أن وصل إسماعيل سن الشباب، حيث ساعد أباه في البناء، فقوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ يدل على أن البيت كان موجودًا يوم أن وضع إبراهيم ابنه إسماعيل رضيعًا، وهذا يعني أن المسجد الحرام كان قبل إبراهيم ، مما يؤكد أن المسجد الأقصى كان قبل إبراهيم كذلك[٢].

وأكدت أحاديث نبوية أخرى على صحة الحديث الشريف الذي يستدل به هؤلاء على شبهتهم الواهية، ومن ضمن هذه الأحاديث بقية الحديث السابق الذي رواه الإمام البخاري، فكان مما قاله في هذا الحديث الطويل:

"فإذا هي - أي هاجر - بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحثه بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف ... قال: فشربَت وأرضعت ولدها... وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذه عن يمينه وشماله"، فقوله: وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، يدل على أن المسجد الحرام كان قبل نبي الله إبراهيم ، مما يؤكد أن المسجد الأقصى كان قبل إبراهيم كذلك.

وبذلك يتضح لنا أن المسجد الأقصى كان قبل سليمان وداود - عليهما السلام -، وكان قبل تاريخ بني إسرائيل عامة وقبل تاريخ اليهود بشكل خاص.

ومما يؤكد ذلك ويعضده ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إنَّ سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالًا ثلاثة، سأل الله ﷻ حكمًا يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ﷻ ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله ﷻ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه"[٣]، فهي رواية صحيحة، وهي رواية تبين أن سليمان بنى المسجد، وإذا ما راجعنا هذه الرواية نجد أن أحد الأمور الثلاثة التي سألها سليمان ربه "أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ (الصافات): النسلان في المشي (٣١٨٤).

٢. تاريخ بناء المسجد الأقصى، موقع صيد الفوائد.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما (٦٦٤٤)، والنسائي في المجتبى، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه (٦٩٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٣٨٥٣).

الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته، مثل يوم ولدته أمه"، فواضح أن الرواية تعود وتؤكد على مصطلح "المسجد"، فجائز أن يكون مسجد آخر غير المسجد الأقصى، وجائز أن يكون هو المسجد الأقصى المبارك، ووفق الاحتمال الثاني فهذا يعني أن نبي الله سليمان عليه السلام قام ببناء وتوسعة المسجد الأقصى الذي كان قائمًا منذ آدم عليه السلام، ولم يقم نبي الله سليمان عليه السلام ببناء تأسيسي للمسجد الأقصى المبارك، فكما أن نبي الله إبراهيم عليه السلام قام برفع قواعد المسجد الحرام بعد أن كان موجودًا أصلًا منذ آدم عليه السلام؛ فإن سليمان عليه السلام قام بتجديد وتوسعة المسجد الأقصى بعد أن كان موجودًا أصلًا منذ آدم عليه السلام.

ويعلِّق الإمام ابن حجر العسقلاني على حديث النبي ﷺ الذي نصَّ فيه على أن الفترة التي بين بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى هي أربعون سنة، ويذكر اختلافات العلماء حول هذا الحديث فيقول: "قوله: (أربعون سَنة): قال ابن الجوزي: "فيه إشكال؛ لأن إبراهيم بنى الكعبة وسليمان بنى بيت المقدس، وبينهما أكثر من ألف سنة". ومستنده في أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا "أنَّ سليمان لَمَّا بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خِلالًا ثلاثًا..." الحديث[1]. وفي الطبراني من حديث رافع بن عميرة: "أن داود عليه السلام ابتدأ ببناء بيت المقدس، ثم أوحى الله إليه: إني لأقضي بناءه على يد سليمان". وفي الحديث قصة، قال: وجوابه أن الإشارة إلى أن أول البناء ووضع أساس المسجد، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس، فقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم، ثم انتشر ولده في الأرض، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس، ثم بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة بنصِّ القرآن.

وكذا قال القرطبي: "إن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بَنَيَا المسجدين ابتدءا وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسَّسه غيرهما"، وقد تعقَّب الحافظ الضياء بنحو ما أجاب به ابن الجوزي، وقال الخطابي: "يشبه أن يكون المسجد الأقصى أول ما وضع بناءه بعض أولياء الله قبل داود وسليمان، ثم داود وسليمان عليهما السلام، فزادا فيه ووسَّعاه؛ فأُضيف إليهما بناؤه"، قال: "وقد يُنسب هذا المسجد إلى إيلياء، فيُحتَمل أن يكون هو بانيه أو غيره، ولست أحقق لِمَ أُضيف إليه"؟

قلت: "الاحتمال الذي ذكره أولًا موجه، وقد رأيتُ لغيره أن أول من أسَّس المسجد الأقصى آدم عليه السلام. وقيل: الملائكة. وقيل: سام بن نوح عليه السلام. وقيل: يعقوب عليه السلام، فعلى الأولين يكون ما وقع ممن بعدهما تجديدًا كما وقع في الكعبة، وعلى الأخيرين يكون الواقع من إبراهيم أو يعقوب أصلًا وتأسيسًا، ومن داود تجديدًا لذلك وابتداء بناء، فلم يكمل على يده حتى أكمله سليمان عليه السلام.

لكن الاحتمال الذي ذكره ابن الجوزي أوجه،

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما (٦٦٤٤)، والنسائي في المجتبى، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه (٦٩٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٣٨٥٣).

وقد وجدتُ ما يشهد له ويؤيد قول من قال: إن آدم هو الذي أسس كُلًّا من المسجدين، فذكر ابن هشام في كتاب "التيجان" أن آدم لَمَّا بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس، وأن يبنيه، فبناه ونَسَك فيه، وبناء آدم للبيت مشهور، وقد تقدَّم قريبًا حديث عبد الله بن عمرو أن البيت رُفِع زمن الطوفان حتى بوَّأه الله لإبراهيم، وروى ابن أبي حاتم من طريق معمر عن قتادة قال: وضع الله البيت مع آدم لما هبط، ففقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فقال الله له: يا آدم، إني قد أهبطتُ بيتًا يُطاف به كما يُطاف حول عرشي، فانطلق إليه، فخرج آدم إلى مكة؛ وكان قد هبط بالهند، ومُدَّ له في خَطْوه، فأتى البيت فطاف به. وقيل: إنه لَمَّا صلَّى إلى الكعبة أُمِر بالتَّوجُّه إلى بيت المقدس، فاتخذ فيه مسجدًا وصلَّى فيه؛ ليكون قبلة لبعض ذريته.

وأما ظنُّ الخطابي أن إيلياء اسم رجل ففيه نظر، بل هو اسم البلد، فأضيف إليه المسجد، كما يُقال: مسجد المدينة ومسجد مكة"[١].

٣. الأدلة التاريخية:

ورد في كتب التاريخ نصوص عديدة تؤكد على أن البيت الحرام والمسجد الأقصى كانا موجودين قبل أن يرفعها إبراهيم وإسماعيل وداود وسليمان ـ عليهم السلام ـ، ومن هذه الأخبار ما سبق ذكره في مراحل بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ومنها قول ابن الأثير: أصاب الناس في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس، وكان يرى الملائكة تعرج منه إلى السماء؛ لهذا قصده ليدعو فيه، فلما وقف موضع الصخرة دعا الله ﷻ في كشف الطاعون عنهم، فاستجاب له ورفع الطاعون، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدًا، وكان الشروع في بنائه لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، وأوصى سليمان بإتمامه... فلما توفي داود ودفنه سليمان تقدم بإنفاذ أمره، فقتل القائد، واستتم بناء المسجد، بناه بالرخام وزخرفه بالذهب ورصَّعه بالجواهر، وقَوِي على ذلك جميعه بالجن والشياطين[٢].

ففي هذا النص دليل واضح على أن مكان المسجد الأقصى كان معروفًا قبل أن يبني فيه داود وسليمان المسجد ـ عليهما السلام ـ، وهذا ما يؤكد نسبة تأسيس قواعده في زمن آدم عليه السلام.

وبهذا يتبين لنا أن المدة التي حددها النبي ﷺ في الحديث صحيحة، وليس في الحديث ما يدعو للشك؛ حيث إن تأسيس بناء البيت الحرام، والمسجد الأقصى يُنسب لآدم عليه السلام، أما التجديد والرفع والتحديث فيُنسب إلى كل من إبراهيم وداود ـ عليهما السلام ـ، وهذا لا يخالف ما ورد في حديث النبي ﷺ الذي حدد المدة بأربعين سنة بين تأسيس المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

الخلاصة:

- تعرض كل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى للعديد من العوامل الطبيعية والسياسية التي دفعت إلى

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٦، ص٤٧١.

٢. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مرجع سابق، ج١، ص١٢٧.

إعادة بنائهما أكثر من مرة، فالمسجد الحرام مر بست مراحل رئيسة هي:

- **مرحلة التأسيس:** وحولها خلاف بين المؤرخين، ولكن الغالب أن آدم عليه السلام هو مؤسس البيت الحرام بأمر من الله عز وجل.
- **بناء إبراهيم عليه السلام:** وكان هذا بعد أن هُدِمَ البناء الأول الذي وضعه آدم عليه السلام، وكان هذا البناء بأمر الله تعالى لإبراهيم أيضًا.
- **بناء قريش:**

وكان ذلك بعد أن أوْهت السيول بناء الكعبة الشريفة.

- **بناء عبد الله بن الزبير:**

فقد هدم عبد الله البيت الحرام، وأسسه على نحو ما أراد رسول الله ﷺ، فكان النبي ﷺ يرغب في أن يجعل للكعبة بابًا شرقيًّا وآخر غربيًّا، وأن يُدخل الحجر الأسود فيها.

- **بناء الحجاج بن يوسف الثقفي:**

كان ذلك بأمر من عبد الملك بن مروان، الذي ظن أن عبد الله بن الزبير هدم البيت، ثم بناه باجتهاد منه.

- **بناء العثمانيين:**

وكان ذلك بعد أن أضعفت السيول بناء الكعبة، فأمر محمد على ـ والي مصر ـ مجموعة من المهندسين المهرة بإعادة تجديد بنائها.

- أما عن مراحل بناء المسجد الأقصى فإن المصادر التي بين أيدينا تُثبت أن أول من بناه هو آدم عليه السلام، وكل من جاء بعد آدم جدد بناء البيت.
- تؤكد العديد من الشواهد القرآنية والأحاديث والوقائع التاريخية على صحة الحديث الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى أربعين سنة باعتبار بانيهما واحدًا هو آدم وأن كل بناء جاء بعد ذلك هو بناء تجديد لا بناء تأسيس، ومن ذلك ما يلي:

- قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، فكان البيت الحرام موجودًا ـ بنص الآية ـ قبل أن يعيد إبراهيم بناءه.
- الحديث النبوي الطويل الذي تحدث عن قصة هاجر، وكان مما جاء فيه: "...فشربت وأرضعت ولدها... وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية"[1]. فهذا دليل على أن البيت كان موجودًا قبل بناء الخليل إبراهيم عليه السلام له.
- معظم الكتب التاريخية تثبت أن آدم عليه السلام هو الذي بنى البيت الحرام والمسجد الأقصى، فمن المنطقي ـ إذن ـ أن تكون الفترة الفاصلة بين تأسيس آدم عليه السلام للمسجدين أربعين سنة، كما ذكر الحديث النبوي المعجزة، بإخبار الصادق ﷺ عن أمور لم يشهدها بنفسه، وإن ما كان من إبراهيم وإسماعيل وداود وسليمان ـ عليهم السلام ـ وكل من جاء بعد آدم عليه السلام، إنما هو تجديد للأساس الذي وضعه.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ (الصافات): النسلان في المشي (٣١٨٤).

الشبهة الثانية

الزعم أن القرآن نسب للتاريخ ما ليس منه بذكره حادثة الفيل (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن حادثة الفيل سنة ٥٧١م التي أثبتها القرآن الكريم ليست صحيحة تاريخيًّا، ولو افترضنا جدلًا وقوعها فإنها لم تقع بهذه الصورة الدرامية الأسطورية التي قصّها القرآن. ويرى هؤلاء أنه لا مبرر حقيقيًّا لإحاطة البيت الحرام بهالة من التقديس وادعاء الصون والحرمة والعناية الإلهية، ولا مبرر كذلك لاتهام أبرهة بتبييت النية لهدم الكعبة؛ لأن الأحباش - حسب ادعائهم - إنما خرجوا لقتال الفرس، ثم عرَّجوا على الكعبة لينتقموا للصليب من العرب. ويرمون من وراء هذا إلى الطعن فيما يورده القرآن من الأحداث التاريخية، أو اتهامه - على الأقل - بتضخيمها والجنوح بها إلى عالم الخيالوالأساطير.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن في توظيف القرآن الكريم للتاريخ بسرد دقيق وواقعية محكمة، ما يشهد لقصصه على وجه العموم بالصدق التاريخي، وفي رواية أهل مكّة لحادث الفيل، وتأريخهم به، وما سجَّله شعرهم في شأن هذا الحادث، ما يشهد بصحة هذا الحادث وواقعيته، في مقابل ما ادَّعاه بعضهم ممَّا لا يستند إلى دليل قوي أو ضعيف.

٢) إذا كان الأحباش خرجوا لقتال الفرس بالأصالة، فلماذا لم يسلكوا الطريقَ البحري الأقْصر و الأسهل إلى بلاد الفرس؟! وإذا لم يكن إهلاكهم بالحجارة معجزة وصونًا للكعبة وعناية إلهية بها، فلماذا لم يُصِب الهلاك أحدًا سواهم من العرب القريبين منهم والمجاورين لمعسكرهم؟!

التفصيل:

أولا. سرد القرآن للوقائع التاريخية وإحكام توظيفها، ورواية أهل مكة لحادث الفيل وتأريخهم به وتسجيلهم له في شعرهم، شاهدٌ على صحة قصص القرآن:

معلوم - بدءًا - أن سيْر الأفراد والأمم يخضع لسنن دقيقة، ومعلوم - كذلك - أن ازدهار الحضارات وانطفاءها، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم بصورة عشوائية ! وإنما يقع وفق قوانين صارمة صرامة لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادًا.

وقصص القرآن جزء مهم من التاريخ، ومعرفته حصانة للباحثين لا يستغني عنها ذو لب، وهو سرد واع موجّه للتاريخ الإنساني، ليس الغرض منه التسلية والتشويق؛ بل الغرض منه التربية والتوعية وتجديد المعاني بعد ذهاب أهلها لتكون عظة دائمة!!

ومن ثم كان القصص القرآني مجالًا رحبًا لمعالجة النفوس والجماعات من عللها المنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحي حتى قيام الساعة، ولا يُعوَّل فيها على تحديد المولد أو الوفاة أو الموقع أو الهوية بقدر ما تركز على تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال

(*) حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، ترجمة: عبد العزيز جاويش، وعبد الحميد العبادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد المحص، الدار المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

تاريخ صادق وقصص حق[1].

ولعل من أبرز خصائص القصة القرآنية ومما يعنينا في هذا الصدد على وجه الخصوص:

هيمنة الصدق على موضوعات القصة وأحداثها وبثها له في أحاسيس النفس البشرية، توجيهًا وتقويمًا وإيماءً، بعيدًا عن الأساطير والخرافات والأكاذيب، أمَّا صدق القصة فنابع من أصل اشتقاقها في لسان أهل اللغة، فتتبُّع الأثر الذي هو أصل اشتقاقها ينفي أي تخييل أو تلفيق أو تصوير لما لم يقع، ويعني عملًا قياسيًّا كالقياس بالموازين والمكاييل، وعملًا تسجيليًّا لنتيجة القياس.

وهو لا يحتمل في النتيجة أي زيغ عن الحقيقة العلمية المجرَّدة، ويزيد قصص القرآن في كونه خبر الله تعالى، ومن أصدقُ من الله تعالى حديثًا؟! فناهيك عن خبر يُعلي التنزيل أمره، ويعلن شرفه، ويجعله أحسن الأخبار: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ (يوسف)، فما أبعده عن الأساطير والخرافات والأكاذيب[2] ®.

وإذا تقرر في أذهاننا ضرورة استقراء الماضي من منظور القصص القرآني - بليغ السرد، مُحْكَم الرواية - من جهة، واستوثقنا من الهدف الذي رمى إليه السياق القرآني من جهة أخرى؛ يسهل أن نوازن بين مؤدى القصة القرآنية في سورة الفيل مثلًا وبين ما هو ثابت عقلًا ومنطقًا وتاريخًا؛ لنقيِّم مدى التزام معطيات هذه القصة بسَدى الواقع ولُحمته.

ومما يؤكد صحة هذا الحادث، ودقة سرد القرآن له، أدلة وشواهد لا يصمد أمامها الادعاء الواهي المكذِّب لها. **ومن هذه الشواهد:**

- معلوم أن حادث الفيل هذا "وقع في السنة التي ولد فيه النبي ﷺ ومعنى هذا أن سورة الفيل التي عرضت - في إيجاز بليغ معجز - قصة هذا الحادث قد نزلت على النبي ﷺ في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم، أو - على الأقل - سمعوا عنه، وبعضهم من أعداء النبي ﷺ، فلو لم تكن هذه القصة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، وينتهزها فرصة للكيد للنبي ﷺ والطعن عليه، ولا سيما أنهم كانوا وقتئذ يتمنون أن يروا له سقطة أو عثرة أو كذبة، فلولا أنه ذكَّرهم أمرًا لا يتدافعونه، ولا يستطيع العدو إنكاره، للذي يرى من إطباق الجميع عليه - لوجدوا أكبر المقال في تكذيبه والتشنيع عليه"[3].

خاصة إذا تذكرنا - كما هو معلوم - أن "القرآن الكريم كان يتحدى شعور العرب، وكثير من العرب ما

---

١. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٥٤: ١٥٨ بتصرف.

٢. القصص القرآني وأثره في استنباط الأحكام، د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، دار الفتح، القاهرة، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٥، ١٦.

® في **"الصدق التاريخي للقصة القرآنية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

٣. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد محمد المحص، مرجع سابق، ص٨٤، ٨٥.

كانوا يؤمنون بالقرآن، بل كانوا يتربصون به؛ لكي يأخذوا منه مأخذًا يردون به على آياته، وهذا ظاهر من مواقفهم والآيات القرآنية التي تتحدَّاهم بأنكم لن تتمكنوا من أن تأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور أو بسورة من مثله، وهكذا فَهُم أحرص النَّاس على هفوة فيه، ولذا كانوا أولى الناس بالتفتيش عن طريقة للرد على القرآن"[١].

وقصة كتلك التي يدَّعون اختلاق القرآن لها يستحيل منطقًا أن تكون كما ادَّعوا، ثم يتركها العرب دونما تشهير وإبانة وتنديد بها وبالقرآن جملة وتفصيلًا، "لكن شيئًا من ذلك كله لم يحدث؛ وإنما نزلت سورة الفيل على النبي ﷺ في مكة المكرمة، وسط هؤلاء العرب ـ الذين يُفترض أن منهم من عايشها ورآها رأي العين ـ فتلقاها جميعهم بالقبول؛ لأنها تقص عليهم حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها، ولا يستطيع أحد إنكارها"[٢].

- إن فيما أحدثه حادث الفيل في المجتمع المكي ما يكفي لبيان عظيم أثره من جانب، وما يدل دلالة قطعية على صحته التاريخية من جانب آخر؛ "فلقد تركت حملة (الفيل) أثرًا كبيرًا في أهل مكة، حتى اعتُبِرَت مبدأ تقويم عندهم"[٣]؛ وفي هذا ما يدل على أهميته لدرجة تأريخهم به وما يدل بداهة على قطعية ثبوته، وإلا لما ساغ أن

١. www.Moqawama.org

٢. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد محمد المحص، مرجع سابق، ص٨٥ بتصرف.

٣. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، من منشورات جامعة بغداد، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٣، ص٥٢٠.

يبدأوا تقويمهم به، فهل يُعْقَل أن يؤرخ الناس لحياتهم بحدثٍ لم يقع أصلًا؟! إن هذا لا يستقيم عقلًا ومنطقًا!

وقد "كانوا يقولون: فُلان ولد في عام الفيل، أو قبل العام بسنتين، أو بعد العام بخمس سنوات..."[٤].

وهكذا "صار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل (في كتبهم ودواوينهم من سنة الفيل) فلم تزل قريش والعرب بمكة جميعًا تؤرخ بعام الفيل، ثم أرَّخت بعام الفجار، ثم أرَّخت ببنيان الكعبة"[٥].

وهكذا نرى اقتران حادث الفيل بأحداث جسام في الجزيرة العربية ـ كحرب الفجار وبنيان الكعبة ـ، ولما كانت تلك الأحداث ثابتة لا يكاد يطعن فيها منصف، ثبت وقوع ما اقترن بها في التاريخ من حادث الفيل.

إن قدرًا غير قليل من الشعر حفل بتسجيل الحادث بخيوطه ومُلابساته، ولعل الراصد المدقق يقف على ما يثبته هذا التواتر ضِمْنًا، فنحن إذ نستقرئ قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي نجد أن حادثة الفيل حادثة لها خطرها في تاريخ الحجازيين خاصة، والعرب عامة.

وقد هزت الكيان القومي لا للمكيين وحدهم، وإنما للعرب أجمع، فإن البيت الحرام يعتبر رمزًا للوحدة العربية وشعارًا لحرية العرب، وما غزْو أبرهة له إلا محاولة للقضاء على هذه الحرية وتلك الوحدة. ولا غرو إذا ما هتف شعراء الحجاز بالقصيد يصبون جام غضبهم على المعتدي الأثيم، ويهزجون بأهازيج النصر.

٤. www. moqawama. org .

٥. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٥٢٠.

ومن الشعراء الجاهليين الذين نظموا شعرًا في هذه الحادثة يؤيد صدق ما جاء به القرآن: عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وأبو قيس بن الأَسْلَت الأنصاري، وكذلك طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأبو الصَّلْت بن أبي ربيعة الثَّقفي، ونُفَيل بن حبيب الخَثْعمي، وعبد المطلب جدُّ الرسول ﷺ.

ومن هذا الشعر نختار قول عبد الله بن الزَّبعرى:

تنكّلوا عن بَطنِ مَكّةَ إنّها

كانَت قَديمًا لا يُرامُ حَريمُها

لَم تَخلَقِ الشِّعْرَى[1] لَيالي حُرِّمَت

إذ لا عَزيزَ مِنَ الأَنامِ يَرُومُها[2]

سائِلْ أَميرَ الجَيشِ عَنها ما رَأَى

وَلَسوفَ يُنْبِي[3] الجاهِلينَ عَليمُها

سِتُّونَ أَلفًا لَم يَئُوبوا[4] أرضهم

بل لَم يَعِشْ بَعْدَ الإِيابِ سَقِيمُها

ومن قبيل هذا قول أبي الصَّلْت بن ربيعة الثَّقفي:

إنَّ آياتِ رَبِّنا باقياتٌ

ما يُمارِي[5] فيهِنَّ إلا الكَفُورُ

خَلَقَ اللَيلَ وَالنَهارَ فَكُلٌّ

مُسْتَبِينٌ حِسابُهُ مَقْدُورُ

ثُمَّ يَجْلُو النَّهارَ رَبٌّ كَريمٌ

بمَهَاةٍ[6] شُعاعُها مَنْشُورُ

حَبَسَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ[7] حَتَّى

ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ[8]

حولَهُ مِن مُلوكِ كِنْدَةَ أَبْطَا

لٌ مَلاوِيثُ[9] في الحُروبِ صُقُورُ

خَلَّفُوهُ ثُمَّ ابذَعَرُّوا[10] جَميعًا

كُلُّهُم عَظْمُ ساقِهِ مَكسورُ

كذلك روى المؤرخون والمفسرون شعرًا قاله عبد المطلب جد الرسول في هذه الحادثة، فقد راح يقول وهو آخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرون على أبرهة وجنده:

لَاهُمَّ[11] إنَّ المَرْءَ يَمْنَعْ

رَحْلَهُ فامْنَعْ رِحَالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُم

ومِحالُهُم[12] أبدًا مِحَالَكْ

١. الشِّعْرَى: كوكب نيِّر يطلع عند شدة الحر.

٢. يَرُومها: يطلبها.

٣. يُنْبِي: أصلها يَنبأ؛ أي: يُخبر.

٤. يئوبوا: يرجعوا.

٥. يُماري: يُجادل.

٦. المَهَاة: هي البقرة الوحشية، ويُشَبَّه بها كثيرًا في حُسْن العينين، ويقصد بها أيضًا: الشمس، وهذا المعنى الأخير هو المقصود هنا.

٧. المُغَمَّس: اسم المكان.

٨. معقور: مذبوح، أو مقطوع إحدى قوائمه؛ ليسقط ويُتَمَكَّن من ذبحه.

٩. مَلاوِيث: شرفاء.

١٠. ابذَعَرُّوا: تفرَّقوا.

١١. لاهمَّ: أي اللهم.

١٢. المِحَال: الكيد والبَطْش.

إنْ كُنْتَ تارِكَهم وكَعْبَتَنا
فأَمْرٌ ما بَدَا لَكْ
فَلَئِنْ فَعَلْتَ فإنَّه
أَمْرٌ يَتِمُّ بِهِ فِعالَكْ
اسمع بأَرْجَسِ ما أرا
دوا العَدْوَ وانتَهَكُوا حَلالَكْ
جَرُّوا جميعَ بلادِهم
والفِيْلَ كَي يَسْبُوا عِيالَكْ

فكل هذه النماذج من الشعر الجاهلي الذي قيل في حادثة الفيل يؤكد وقوع هذه الحادثة، وصِدْقَ ما جاء في القرآن الكريم عنها.

ولقد سجل القرآن الكريم حديث أصحاب الفيل في سورة مستقلة، وقد أجمع مؤرخو العرب، والمنصفون من كتّاب أوربا على وقوع حادث الفيل بين حكام اليمن ومكة، على نحو تؤيده الرواية الصحيحة، ويمليه منطق الأحداث، وفيهم من سَلْسَل الأدوار التاريخية لهذا الحادث مُرتبةً على نَسَق مقنع يُرضي الباحث المحايد، ولا يجد ذرة من الشك لديه، ومؤرخو العرب في هذا النطاق أولى من سواهم، لأن هذا الحادث الكبير بمغزاه وفجاءاته قد وقع في أرض عربية، وذاع ذكره على ألسنةٍ صناعتُها البيانُ والإفصاح، فسجّلته الرواية المسنَدَة، وصوّره الشعر العربي في أكثر من قصيدة.

وإذا كان الشعر الجاهلي قد سجل حادثة الفيل، فمن السهل جدًّا أن يُرْمَى بالانتحال والكذب لدى هؤلاء الذين يتشككون حيث يحلو لهم التشكك وفي أي وقت، إذ يجدونه سهل المؤونة يسير التسطير، وقد قالوا فيما يأفِكُون به:

إن الأشعار التي قيلت في حادثة الفيل نظمت تأييدًا للإسلام، وهنا موضع العجب حقًّا؛ لأن الإسلام لم يعتمد في انتشاره على حادث الفيل، وقد كان الوثنيون يرونه مدعاة فخر لأصنامهم، إذ كانوا يزعمون أن لها من القدرة ما أحبطت به كيدَ أبرهة وجيشه الغاشم.

فهو - إذن - أحد مفاخر الجاهلية التي جاء الإسلام ليُعَفِّي[1] على خوارق أصنامها الموهومة! فكيف ينظم المسلمون بعد الإسلام شعرًا يؤيدون به حادث الفيل ليكون تقوية لدينهم الجديد، وقد كان الحادث قبل البعثة النبوية وفي العام الذي ولد فيه النبي ﷺ؟!، حيث ذكر المؤرخون أن أصحاب الفيل جاءوا إلى مكة في المحرم، ثم ولد رسول الله ﷺ بعد ذلك بخمسين يومًا.

صحيح أن هناك أشعارًا نظمت بعد الإسلام، وتضمنت إشارات أو حديثًا عن واقعة أصحاب الفيل مثل قول عبد الله بن قيس الرُّقيَّات يذكر أبرهة - وهو الأشرم - ويذكر الفيل:

كادَهُ الأَشْرَمُ الذي جاءَ بالفيـ
ـلِ فَوَلّى وَجَيشُهُ مَهزومُ
وَاستَهَلَّت عَلَيهِمُ الطَيرُ بِالجَنْـ
ـدَلِ[2] حَتّى كَأَنَّهُ مَرجومُ

---

١. يُعفِّي: يُزيل، يَمحو.
٢. الجَنْدَل: صخر عظيم.

ذاكَ مَن يَغزُهُ من الناس يَرجِعْ
وَهوَ فَلٌّ[1] مِنَ الجُيوشِ ذَميمُ

لكن هذه الأشعار ونحوها لم تنظم من أجل تلك الغاية التي يزعمها المستشرقون، بل كانت من مظاهر تأثر الشعراء المسلمين بالأحداث التاريخية الماضية التي قصها القرآن الكريم، أو من ملامح استعانة الشعراء العرب بالقصص القرآني في توضيح ما يتحدثون عنه في أشعارهم[2].

وبهذا يتبين لنا أن حادثة الفيل ليست من اختلاق القرآن وأن الواقع التاريخي والمنطق يجزمان بتاريخيتها على خلاف ما ادَّعى هؤلاء.

ثانيًا. إذا كان الأحباش خرجوا لقتال الفرس، فلماذا لم يسلكوا الطريق البحري القصير إليهم؟! وإذا لم يكن إهلاكهم بالحجارة معجزة، فلماذا لم يُصِبْ الهلاكُ أحدًا سواهم؟!

إن المنطق القويم يثبت بطلان ما ادَّعاه هؤلاء المشككون من أن الحملة الحبشية كانت موجهة إلى بلاد فارس لا إلى البيت الحرام (الكعبة) بمكة، وما عرضت لها إلا ثأرًا لشرف الصليب؛ ذاك أن الواقع الجغرافي والموازنة السريعة بين الطريقين المؤدِّيين لفارس - برًّا وبحرًا - يشهدان على خلاف ما ادَّعوا، ويثبتان غير ما زعموا، فليس أمام أولئك الأحباش إلى بلاد فارس غير طريقين؛ متباينين بُعدًا وقربًا ويُسرًا ومشقة:

أولهما: الطريق البري بأن يسيروا موازين لساحل البحر الأحمر الشرقي نحو الشمال إلى مكة ثم المدينة، ومنها إلى الشمال الشرقي حيث العراق، ومنها إلى إيران.

ثانيهما: الطريق البحري وهو لا شك أسهل بكثير من الطريق البري، فليس عليهم سوى أن يبحروا في مياه المحيط الهندي بمحاذاة جنوب الجزيرة العربية مرورًا باليمن فَعُمان ومنها إلى بلاد فارس بعد عبور مضيق هرمز.

فإذا علمنا أن الهجوم العفوي المفاجئ على مكة من قِبَلِ الأحباش أثناء سيرهم لبلاد فارس - حسبما يزعمون - يقتضي أن يكون أولئك الأحباش زهدوا في الطريق البحري على ما فيه من يسر وسرعة - وهم أحوج ما يكون إليه أولئك المحاربون بعدتهم وعتادهم - وسلكوا الطريق البري وفيه ما فيه من البعد والمشقة - جزمنا باستحالة أن يكون مسلكهم هذا ابتغاءَ فارس - حسبما ادعى هؤلاء - وإلا فالبحر يناديهم ليركبوه سريعًا إلى فارس، أما وقد أعرضوا عنه مقدِّمين البر عليه فإن بلدًا غير فارس كانت قبلتهم، لها قصدوا ولها بيَّتوا النية، تلك هي الكعبة، ويحسن بنا أن نعرض باختصار لما أورده ابن الأثير الجزري في هذا الشأن؛ لنرى كيف هي في كتب التاريخ، يقول:

"لما دام ملك أبرهة باليمن وتمكن به، بنى القُلَّيس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مِثلُها في زمانه بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم يُرَ مثلُها، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حاجّ العرب، فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من

1. فَلٌّ: مهزوم.
2. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد محمد المحص، مرجع سابق، ص٨٥: ٩١.

النَّسَأة[١] من بني فُقَيْم (من بني مالك بن كنانة)، فخرج حتى أتاها فقعد فيها وتغوّط، ثم لِحَقَ بأهله، فأُخبر بذلك أبرهة وقيل له:

إنه فِعْلُ رجل من أهل البيت الذي تحجّه العرب بمكة، غضب لما سمع أنك تريد صرف الحجاج عنه ففعل هذا، فغضب أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت الحرام فيهدمه، وأمر جيوش الحبشة فتجهَّزت، وخرج معه الفيل واسمه (محمود)، فلما سار سمعت العرب به فأعظموه ورأوا جهاده حقًّا عليهم، فخرج عليه رجل من أشراف اليمن يقال له (ذو نفر) وقاتله، فهُزِمَ ذو نفر وأُخِذَ أسيرًا فأراد قتله ثم تركه محبوسًا عنده.

ثم مضى على وجهه فخرج عليه نفيل بن حبيب الخثعمي فقاتله، فانهزم نفيل وأُخِذَ أسيرًا، فضمن لأبرهة أن يدله على الطريق، فتركه وسار حتى إذا مر على الطائف بعثت معه ثقيف (أبا رغال) يدله على الطريق حتى أنزله بالمغمّس، فلما نزله مات أبو رغال فرجمت العرب قبره فهو القبر الذي يرجم.

وبعث أبرهة، الأسود بن مقصود إلى مكة فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، ثم أرسل أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، فقال: سل عن سيِّد قريش وقل له: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تمنعوا عنه فلا حاجة لي بقتالكم"[٢].

على أن "قصة تدنيس (القليس)، قد تكون حقيقية وقعت وحدثت، وقد تكون أسطورة حيكت ووضعت، على كل حال، وفي كلتا الحالتين لا يعقل أن تكون هي السبب المباشر الذي دفع أبرهة إلى السير إلى مكة لهدم البيت ونقضه من أساسه ورفع أحجاره حجرًا حجرًا، على نحو ما يزعمه أهل الأخبار، بل يجب أن يكون السبب أهم من التدنيس وأعظم، وأن يكون فتح مكة بموجب خطة تسمو على فكرة تهديم البيت وتخريبه، خطة ترمي إلى ربط اليمن ببلاد الشام، لجعل القبائل العربية تحت حكم النصرانية، وبذلك يستفيد الروم والحبش وهم نصارى، وإن اختلفوا مذهبًا، ويحققون لهم بذلك نصرًا سياسيًّا واقتصاديًّا كبيرًا، فيتخلص الروم بذلك من الخضوع للأسعار العالية التي كان يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة المطلوبة التي احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم؛ إذ سترد إليهم من سيلان والهند رأسًا عن طريق بلاد العرب، فتنخفض الأسعار ويكون في إمكان السفن البيزنطية السير بأمان في البحار العربية حتى سيلان والهند وما وراءهما من بحار"[٣].

وقد فات المشككين أن في القرآن الكريم دليلًا من أقوى الدلائل على أن الحملة الحبشية كانت موجهة إلى الكعبة في مكة، فقد جاء في المصحف الشريف بعد سورة الفيل مباشرة سورة قريش التي يقول الحق تبارك وتعالى فيها مؤكدًا ذلك: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا

١. النَّسَأة: هم الذين كانوا يؤخرون شهر المحرم إلى صفر من أجل شن الغارات.

٢. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٠.

٣. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، مرجع سابق، ج٣، ص٥١٧، ٥١٨ بتصرف.

﴿ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ (قريش)، وهذه السورة تبدو امتدادًا لسورة الفيل التي قبلها من ناحية موضوعها وجَوِّها. وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور، ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب"[1].

ويوضح في الوقت ذاته أنهما أشبه ما تكونان بالسورة الواحدة، ولا سيما أن سورة قريش تبدأ بقوله تعالى (لإيلاف)، وهو جار ومجرور لا بد له من فعل يسبقه ويتعلق به، فإذا ما نظرنا إلى آخر سورة الفيل نجد الحق سبحانه يقول عن أصحاب الفيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ (الفيل)، وهذا يفيد أن الله تعالى فعل ما فعل بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، فإن الحق تبارك وتعالى لو ترك بيته الذي في مكة المكرمة لما كان يريده الأحباش من هدم هذا البيت لسقطت مهابة قريش في الجزيرة العربية، فإن وجودهم بجوار هذا البيت وخدمتهم لحجاجه من العرب هو الذي ربّى لهم هذه المهابة، وجعل القبائل لا تجترئ على تجارة قريش ورحلتها الشتوية إلى اليمن، والصيفية إلى الشام.

ومن هنا أرشد الحق سبحانه قريشًا إلى شكر نعمته عليهم حين حبس عن مكة الفيل، وأهلك أهله فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ (قريش).

هذا وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن الحق لا يعدم أنصاره أبدًا "فقد نهض من ذوي الاستشراق أنفسهم من أجهد نفسه مخلصًا في البحث والتمحيص، حتى عثر على نص ذكره المؤرخ اليوناني الكبير بركوب عن تعرض الأحباش للبلاد الحجازية بتأثير الروم، وكان في العثور على هذا النص ما يجب أن يقضي على لجاجة المرجفين، بحيث يخفون رؤوسهم من حلبة هذا النقاش، لأنهم بنوا أفكارهم على خُلُوِّ المصادر اليونانية من ذكر الحادث، وها هو ذا "بركوب" مؤرخ اليونان الأشهر قد سجل الحادث المشتهر!

وتسجيل المؤرخ اليوناني الكبير لحادثة الفيل يدحض ما ادَّعوه بأن رحلة أبرهة إلى الحجاز لم تكن تهدف إلى هدم الكعبة؛ بل كان الهدف منها أن تقطع صحراء الجزيرة العربية الممتدة، حتى تصل إلى فارس عن طريق العراق لتعاون الدولة الرومانية في حرب الدولة الفارسية"[2].

ولا يبعد عن هذا التعسف ما ادَّعوه من موت جيش الأحباش بالجُدَري أو بالحصبة، ورفع مشيئة الله عنهم، ونفى قدسية الكعبة التي اقتضت أن يصونها الله تبارك وتعالى بجعلهم عبرة لغيرهم؛ ذاك أن إرادة الله واقعة لا محالة في شأنهم، أيًّا كانت الوسيلة حتى لو كان الجدري الذي ادَّعوه.

على أن شيئًا من الواقعية التاريخية التي اتسم بها السرد القرآني تدعونا للوقوف على القصة وبيان طبيعة

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٣٩٨٣.

٢. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد محمد المحص، مرجع سابق، ص٩١: ٩٣ بتصرف.

ما أهلكهم الله به في منظور التاريخ ، ثم موازنة ذلك بما أتى به النص القرآني، لبيان مدى التزامه بالتاريخ ودقة سرد الوقائع، دونما تهويل ولا تخيل ولا تَقَوُّل:

يقول العلامة أبو الحسن بن الأثير الجزري: "فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وعبَّأ جيشه وهيَّأ فيله وكان اسمه (محمودًا)، وأبرهة مجمع لهدم البيت والعود إلى اليمن؛ فلما وجّهوا الفيل أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي فأمسك بأذنه فألقى الفيل نفسه إلى الأرض، واشتد نفيل فصعد الجبل، فضربوا الفيل فأبى فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجَّهوه إلى الشام ففعل كذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فسقط إلى الأرض، وأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار تحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه فقذفتهم بها، وهي مثل الحمص والعدس لا تصيب أحدًا منهم إلا هلك؛ وليس كُلّهم أصابت، وأرسل الله سيلًا ألقاهم في البحر، وخرج من سَلِم مع أبرهة هاربًا يبتدرون الطريق الذي جاءوا منه، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أَيْنَ المَفَرُّ والإلهُ الطَّالِب
والأَشْرَمُ المَغْلُوبُ غَيْرُ الغالِبِ

وقال أيضًا:

حَمِدْتُ الله إذْ عايَنْتُ طَيْرًا
وخِفْتُ حِجارَةً تُلْقَى علينا
وكُلُّ القَومِ يَسْأَلُ عن نُفَيْلٍ
كَأَنَّ عَلَيَّ للأَحْبَاشِ دَيْنَا

فخرجوا يتساقطون بكل منهل، وأصيب أبرهة في جسده فسقطت أعضاؤه عضوا عضوا، حتى قدموا به صنعاء وهو مِثْلُ الفرخ فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فلما هلك ملك ابنه يكسوم بن أبرهة وبه كان يكنى، وذلت حمير واليمن له، ونكحت الحبشة نساءهم، وقتلوا رجالهم، واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب.

ولما أهلك الله تبارك وتعالى الحبشة، وعاد مَلِكُهم ومعه من سَلِمَ منهم، ونزل عبد المطلب من الغد إليهم لينظر ما يصنعون، ومعه أبو مسعود الثقفي لم يسمعا حسًا، فدخلا معسكرهم فرأيا القوم هلكى، فاحتفر عبد المطلب حفرتين ملأهما ذهبًا وجوهرًا له ولأبي مسعود، ونادى في الناس فتراجعوا فأصابوا من فضلهما شيئًا كثيرًا، فبقي عبد المطلب في غنى من ذلك المال حتى مات، وبعث الله تبارك وتعالى السيل فألقى الحبشة في البحر.

وقال كثير من أهل السير إن الحصبة والجدري أول ما رُئِيا في العرب بعد الفيل، وكذلك قالوا إن العُشَر[1] والحَرْمَل[2] والشِّيْح[3] لم تعرف بأرض العرب إلا بعد الفيل، وهذا مما لاينبغي أن يعرَّج عليه فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل منذ خلق الله تبارك

١. العُشَر: نوع من الشجر له صَمْغ، وفيه حُراق، مثل القطن يُقتدح به.

٢. الحَرْمَل: مفرده حرملة، وهو نبات عُشْبي طِبِّي بَرِّي من الفصيلة السذابية، أنواعه المعروفة من نباتات المناطق الحارة: الرملية القاحلة.

٣. الشيح: نبات عُشْبي برِّي سَهْلي، من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر، كثير الأنواع، ذو رائحة قوية، ترعاه الماشية، وله استعمالات طبية.

وتعالى العالم"[1].

يقول صاحب الظلال الشيخ سيد قطب: "وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا: خلأت القصواء - أي: حرنت وتمنّعت - فقال رسول الله ﷺ "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها..."[2].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: "إن الله حبس عن مكة الفيل وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تحلُّ لأحد كان قبلي، وإنها أُحلَّت لي ساعة من نهار، وإنها لا تحلّ لأحد بعدي، فلا يُنفَّر صيدها ولا يُختَلى شَوْكها ولا تحلّ ساقِطتها إلا لمُنْشِد"[3]، فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل.

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة. كما يحكي عنهم القرآن الكريم. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم تسقط أنامله أُنمُلَة أُنْمُلَة، حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه، وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع تلك الجماعات من الطير وأشكالها وأحجامها، وأحجام تلك الحجارة ونوعها وكيفية فعلها، كما أن بعضها يروي أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة.

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها - أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير هو كل ما يطير.

قال الإمام محمد عبده في تفسيره للسورة: وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة.. قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث: إن أول ما رُئِيَتْ الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولّوا هاربين، وأصيب قائد الجيش، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة، وأُنْمُلة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء.

هذا ما اتفقت عليه الروايات، ويصح الاعتقاد به، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله تعالى مع الريح.

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض

---

1. الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٢، ٢٦٣.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٥٢٨١).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لُقطة أهل مكة (٢٣٠٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولُقطتها إلا لمنشد على الدوام (٣٣٧١).

الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه.

وإن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يعدّ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير ـ الذي يسمونه الآن بالميكروب ـ لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصى عددَها إلا بارئها... ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين، على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عَنْقَاءَ مُغْرِب[1]، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها... فلله جند من كل شيء.

وفي كُـــلِّ شَيءٍ لـــه آيَـــةٌ

تَـــدُلُّ عـــلى أنـــه الواحِـــدُ

وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة. وهي نعمة غمر الله بها أهل حَرَمِه ـ على وثنيتهم ـ حفظًا لبيته، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه ﷺ، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحابِ الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه.

هذا ما يصحّ الاعتماد عليه في تفسير السورة. وما عدا ذلك فهو مما لا يصحّ قبوله إلا بتأويل، إن صحت روايته. ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعزّ بالفيل ـ وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا ـ ويهلك، بحيوان صغير لا يظهر للنظر، ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر"[2]!

ويستدرك القاضي عبد الجبار متسائلًا: وربما قيل فيه كيف يصحّ في الطير الصغير أن يرسل الحجر فيؤثر في الناس التأثير الذي ذكره الله تعالى في هذه السورة؟

وجوابنا أن ذلك يصحّ من أحد وجهين، إما بأن يزيد الله تعالى في قوة الطيور، فلزيادة قوتهم يؤثر ذلك الحجر التأثير العظيم، فقد رُوي أن ذلك الحجر كان ينفذ في الراكب وفي فرسه حتى يخرقها جميعًا، والثاني أن يكون الله تعالى عند رمي الطير يفعل فيه من الانحدار الشديد ما يؤثّر هذا التأثير.

فإن قيل كيف يصح ذلك ولم يكن في الزمان نبي وهذا من المعجزات العظام؟

وجوابنا أنه لا بد من نبي في الزمان يكون هذا الأمر معجزة له، وقد كان قبل نبينا أنبياء بُعِثوا إلى قوم مخصوصين فلا يمتنع أن يكون هذا الأمر ظهر على بعضهم، كما روي أنه ﷺ قال في خالد بن سنان: "ذلك نبي ضيعه قومه"، وكما قال في قس بن ساعدة: "أنه يبعث يوم القيامة أمة واحدة"[3].

ويعلّق سيد قطب صاحب الظلال على تفسير الإمام

---

١. عنقاء مغرب: العنقاء: طائر مُتوهَّم لا وجود له، والمُغرِب: هو كل ما وراك وسترك، وعنقاء مغرب: هو طائر عظيم يُبعد في طيرانه، ويُضرب به المثل في طلب المُحال الذي لا يُنال.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٧٥، ٣٩٧٦.

٣. تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٨٣.

محمد عبده، قائلًا:

"ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم، أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخرق الرءوس والأجسام وتنفذ منها، وتمزّق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو "العصف" لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدلّ على قدرة الله، ولا أولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت فأهلكت قومًا أراد الله تبارك وتعالى إهلاكهم. أو أن تكون سنة الله قد جَرَتْ بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم، فحققت قَدَرَهُ ذاك.

إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه، وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفًا يسيرًا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيئون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل، فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله. ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه!

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحّت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم، وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعًا ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف.

فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر... إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهي معهودة كل يوم - وإن ولادة كل طفل خارقة - وهي تقع كل لحظة، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! وإن تسليط طير - كائنًا ما كان - يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدري والحصبة ويلقيها في هذه الأرض، في هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء في الجيش، في اللحظة التي يهم فيها باقتحام البيت... إن جريانَ قدرِ الله على هذا النحو خارقةٌ بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير. وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرًا أبابيل غير معهودة - وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفًا مثيرًا، نجد له نظائر في مواضع أخرى تشي بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها! - تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلًا غير معهود.

نحن أَمْيَلُ إلى هذا الاعتبار. لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة؛ ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب؛ فقد كان الله ﷻ يريد بهذا البيت أمرًا، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنًا؛ وليكون نقطة تَجَمُّعٍ للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة، في أرض حرة طليقة، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها. ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال، حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة، ويضربها مثلًا

لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها... فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوّماته وبكل أجزائه ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذ.

وبخاصة أن المألوف في الجدري أو الحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإن الجدري أو الحصبة لا يُسقِطُ الجسم عضوًا عضوًا وأُنْمُلة أنملة، ولا يشق الصدر عن القلب.

وهذه الصورة هي التي يوحي بها النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾(الفيل) إيحاء مباشرًا قريبًا.

ورواية عكرمة وما حدّث به يعقوب بن عتبة، وغيره ليست نصًّا في أن الجيش أصيب بالجدري؛ فهي لا تزيد على أن تقول: إن الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة، ولم ترد في هذه الأقوال أية إشارة لأبرهة وجيشه ـ خاصة ـ بالإصابة بهذا المرض.. ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل. وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر؟! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله!

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام (رحمه الله) على رأسها في تلك الحقبة.. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية.. فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة؛ كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حُشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها، وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها"[١].

وبعد ما أسلفنا بيان الوجه الصواب لفهم آية الفيل في مقابل الخطأ المتوهم المزعوم، نخلص بإثبات أنه مهما استمر أعداء الإسلام في تكذيب الحقائق الواردة في القصص القرآني فلن ينالوا منه شيئًا أبدًا؛ لأن القصص القرآني كلام الله الحق الصادق، ومصدر أساسي للتاريخ القديم تصادقه الحفريات التي أجراها علماء الآثار، وما يكتشفه العلم الحديث في كل يوم من آفاق جديدة تضيء الطريق إلى الله ﷻ، وتؤكد حقائق القرآن الكريم، وتكشف زيف ما يدعيه هؤلاء الأعداء الذين يخالفون التحقيق العلمي في صميمه، وهم يزعمون أنهم يستندون إلى العلم لتمحيص تلك الأخبار، وذلك القصص الديني، أخطئوا بإنكارهم لذلك في حق العلم وحق الدين معًا.

لقد أنكر بعضهم ـ كما أشار الجغرافي د. عبد العليم خضر ـ قصة قوم لوط الواردة في القرآن الكريم، وزعموا أنها خرافة لا طائل لها، وزعم آخرون منهم أنها قصة رمزية ترمي إلى العظة فليست من التاريخ في شيء!

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٧٧، ٣٩٧٨.

أنكروا هذه القصة الحقة الواردة في القرآن الكريم، فلم يمض وقت حتى أثبتت الحفريات التي أُجْرِيَتْ أن تلك القصة حقيقية بكل تفاصيلها، وتوصلت إلى اكتشاف مواقع القرى الخمس، التي كان يقيم بها قوم لوط ودمّرها الله عليهم، وكان المكتشف لذلك كله هو د. أولبرايت الذي قام بمباحث واسعة النطاق في وادي الأردن وعلى سواحل البحر الميت، وهما الموضعان اللذان كان يُظنّ أن قرى قوم لوط كانت فيها.

وانتهى البحث إلى أن القصة ليست خرافة، ولا أسطورة رمزية تهدف إلى العبرة والذكرى؛ بل هي تاريخية بكل تفاصيلها وأبعادها، وهكذا كشفت الحفريات عن صدق ما ورد في القرآن الكريم، ومطابقة ما صوَّره قصصه العظيم لوقائع التاريخ.

وكان هذا الاكتشاف ـ بحقٍّ ـ حادثًا مهمًّا في مجال البحث العلمي الأثري، وقلب الحسابات رأسًا على عقب حين نشر نتاج كشوفه على الملأ.

مما سبق يتضح لنا أن القصص القرآني يخلو تمامًا من الأخطاء التاريخية، وأنه حجة تاريخية لا تقبل الطعن في إثبات ما قصّ من وقائع تاريخية، على الرغم من أن القرآن الكريم لم يكن يهدف إلى العرض التاريخي بالمعنى المعروف عند المؤرخين المحدثين، وإنما كان يهدف أولًا وقبل كل شيء إلى أن يكون عظة وعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

لقد كان حريًّا بهؤلاء المغرضين أن يتحاشوا ادعاءاتهم الكاذبة، ويظهروا ـ لو كانوا منصفين للبحث العلمي حقًّا ـ كيف أبان القرآن الكريم وجه الحق فيما دخل على بعض القصص الديني والتاريخي من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين القديم والجديد أو في كتب التاريخ القديمة، ويوضحوا فيما كتبوه من حوليات ودوائر معارف وغيرها ما تضمّنه القرآن الكريم من إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، وغير ذلك مما جاء فيه على أكمل نظام وأتقن ترتيب[1].

الخلاصة:

- إن القصص القرآني سرد مُوجَّه للتاريخ الإنساني، ومجال رحب لمعالجة النفوس، يُرَكِّز على تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال تاريخ صادق، وقصص حق، وسرْد محكم.
- إن من أبرز خصائص القصص القرآني: هيمنة الصدق على موضوعات القصة وأحداثها وبثّها له في أحاسيس النفس البشرية توجيهًا وتقويمًا وإيماءً، بعيدًا عن الأساطير والخرافات والأكاذيب.
- إن ما ادُّعي من اختلاق القرآن لحادثة الفيل محض زعم لا يستند على دليل قوي؛ بل العقل والمنطق والواقع التاريخي ذاته يجزم بتاريخيتها، ولنا على ذلك شواهد ثلاثة وهي:

١. إقرار أهل مكة لمؤدّى القصة حين نزلت تلك السورة المكية (الفيل)، مع العلم أن فيهم من يُفْترض أنهم رأوا حادث الفيل بأعينهم مع حرصهم الشديد على تصيُّد سقطة أو عثرة أو كذبة في هذا القرآن.

٢. ما تركه حادث الفيل من عظيم الأثر في المجتمع المكي، كان منه أنْ قُرِنَ بحرب الفجار، وبنيان الكعبة،

---

١. انظر: أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد محمد المحص، مرجع سابق، ص٩٣: ٩٨.

فأُرِّخ به، كأن يُقال: فلان وُلد في عام الفيل أو قبل العام بسنتين أو بعد العام بخمس. وهل يستقيم عقلًا ومنطقًا أن يؤرخ النَّاس لحياتهم بحدث لم يقع أصلًا؟!

٣. ما رُوي من الشعر الجاهلي في تسجيل هذا الحادث بملامحه الدقيقة وملابساته، وما كان منه في العصر الإسلامي على سبيل استلهام الأحداث التاريخية الماضية جريًا على عادة من سبقوهم ممن عاينوا الحادث.

- إنَّ في عدول الأحباش عن الطريق البحري وتجشمهم عناء الطريق البري ما يؤكِّد أن مقصدهم ليس بلاد فارس، وأن هجومهم على الكعبة ما جاء فجأة دون الحسبان - كما يزعمون - بل إنهم ما خرجوا إلا إلى مكة؛ إذ المنطق يستبعد أن يَحْرِمَ قائدٌ كأَبْرَهة جُنْدَه من قرب الطريق البحري وسهولته، ويقذف بهم في مهاوي صحراء البر ليصلوا إلى فارس مجهدي القوي مقطعي الأوصال.

- إن مطلع السورة التالية لسورة الفيل واستهلالها بقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ (قريش) يؤكد أن إهلاك الله للأحباش إنما كان لحفظ مهابة هؤلاء المكيين القاطنين في جوار البيت الحرام (الكعبة)، ويدلل على أن الحملة الحبشية التي أهلكها الله كانت موجّهة إلى الكعبة في مكة.

- إذا كان هؤلاء قد بنوا أفكارهم تلك على خُلُوِّ المصادر اليونانية من ذكر الحادث، فإن ثمة نصًّا ذكره المؤرخ اليوناني الكبير (بركوب) عن تعرض الأحباش للبلاد الحجازية بتأثير الروم، وبثبوت هذا النص عندهم كفى الله المؤمنين جدلًا كثيرًا، ولا داعي لإنكار ما ثبت من امتناع الفيل ومن كيفية إهلاكهم؛ لأن صون الله لبيته الحرام ثابت لا ريب.

- ليس هؤلاء في حِلٍّ من إنكار ماثبت في التاريخ من صادق القصص؛ لأننا لسنا في حاجة أيضًا إلى إثباتها، فقد كفانا هذا واقع العلم فيما صدقه بعضهم من الحفريات وغيرها.

- لقد كان أولى بهؤلاء أن يتجردوا من أية مقررات عقلية سابقة وأن يواجهوا النصوص ذاتها ليتلقوا منها مقرراتهم؛ ذلك أن ما نسميه "العقل" ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والغيبية هو إفراز واقعنا البشري المحدود، وتجاربنا البشرية المحدودة.

- وبعد ما ثبت من خلو القصص تمامًا من أخطاء تاريخية اتُّهِمَتْ بها سورة الفيل، نقرُّ أنَّ القرآن ما قصد بهذا القصص العَرْضَ التاريخي بقَدْر ما هدف إلى أن تكون عظة وعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الشبهة الثالثة

ادعاء أن إسلام الصحابة الأوائل كان هروبًا من الظلم وطلبًا لرغد العيش(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن أصحاب رسول الله ﷺ

(*) تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، دار الوفاء، المنصورة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

إنما تبعوه؛ ليخلصهم من المظالم التي تطاردهم، وليهنئوا برغد العيش في ظل الحكم الجديد. ويستدلون على ذلك بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية السائدة في ذلك الوقت. ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في إيمان الرعيل الأول من الصحابة، وإخلاصهم لله تعالى.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إيمان الصحابة الأوائل والمؤمنين من بعدهم في كل زمان ومكان، هو استجابة لنداء الحق عن قناعة عندما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وليس لمغنم أو فرارًا من الظلم؛ ذلك لأنهم لَّما تعرضوا للظلم والاضطهاد، وأُخرجوا من ديارهم وأموالهم، لم يردهم ذلك عن دينهم.

٢) لم يكن أتباع النبي ﷺ كلهم من الضعفاء والمساكين، بل كان منهم الأثرياء وذوو المكانة الاجتماعية العالية، ولم يَعِد النبي ﷺ أحدًا منهم بتحسين وضعه الاجتماعي، أو الاقتصادي؛ بل كانوا يعلمون من القرآن والواقع المُشَاهد أن الابتلاء قرين الإيمان.

٣) الحكمة في كون الركيزة الأولى لدعوة الأنبياء أغلبهم من الفقراء والضعفاء، هي أن الزعماء والكبراء كانت زعامتهم تصدهم عن الاتباع.

التفصيل:

أولا. إيمان الصحابة هو استجابة لنداء الحق عن قناعة، وليس لمغنم أو فرارًا من ظلم، بدليل أنهم لما اضْطُهِدُوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأموالهم لم يردّهم ذلك عن دينهم:

لقد كان إيمان الصحابة الذي وقر في قلوبهم هو العامل الأساسي في اتباعهم للنبي ﷺ، ولو كان الأمر كما زعم المفترون، من أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية، هي التي دفعت هؤلاء للانضمام إلى جماعة الرسول ﷺ، فلماذا آمن الأغنياء والمترفون أمثال: أبي بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وصهيب الرومي، ومصعب بن عمير؟! ولماذا آمن الأقوياء أمثال: عمر، وحمزة، وغيرهما؟!

ولو كان إيمان هؤلاء الأجلاء من أجل الدنيا، ورغد العيش، أو لمجرد رفع الظلم عنهم، لما تمسكوا بدينهم حين تعرضوا للبلاء والتعذيب والاضطهاد، وإخراجهم من ديارهم، وتجريدهم من أموالهم ـ وهو نقيض مُنَاهُم، وخلاف مرادهم ـ فلو كانوا طلاب دنيا أو غرض من أغراضها لما صبروا على الأذى، ولما ثبتوا على الطريق المليء بالمحن والمفروش بالإِحَن[1].

ولو كانوا طلاب دنيا، أو هدف اجتماعي لما تسابقوا إلى الجهاد، وبذل الأرواح والنفوس رخيصة في سبيل إعلاء كلمة الله، خاصة بعدما فتحت عليهم الدنيا، وغنموا الأموال، ودانت لهم العرب والعجم، وكثرت الأموال، وفاضت بها الخزائن.. ما الذي كان يدفعهم إلى هلكة الأنفس، والتضحية بالأرواح بعدما حققوا مآربهم من العيش الرغيد الآمن؟!

إن هؤلاء المغرضين من أتباع المذهب المادي وغيرهم من المستشرقين الحاقدين الذين يريدون إسقاط ما تَعِجُّ[2] به نفوسهم المادية الشهوانية من حب الدنيا، وجعل المنفعة واللذة الحيوانية هي مذهبهم

١. الإِحَن: العداوة والأحقاد.

٢. تعجُّ: تمتلئ.

الأخلاقي في السلوك والحياة، وإن كان في ذلك تدمير الآخرين وحرقهم - يريدون إسقاطه على صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا أطهر الخلق أفئدة وأبرَّهم قلوبًا وأطْيَبهم نفوسًا، وأزكاهم عقولًا.

إن هؤلاء المشككين لا يجهلون أنه لا يخلو مصدر من المصادر التاريخية من بيان موقف الرواد الأوائل لهذا الدين، إنهم لم يدخلوا هذا الدين ابتغاء مغنم في الدنيا، أو لرفع ظلم السادة لهم؛ والقرآن الكريم يعلن أن أتباع هذا الدين لا بد أن يفتدوه بأموالهم وأنفسهم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ (البقرة) [١].

وفي هذا يقول د. البوطي: "أما رسول الله ﷺ ومعه أصحابه المؤمنون، فما الذي كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق؟. وأي غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات على الشدة؟

بماذا يجيب على هذا السؤال، أولئك الذين يتأوّلون رسالة محمد ﷺ، وإيمان أصحابه به على أنها ثورة يسار ضد يمين، أي ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين؟ تَصوَّرْ سلسلة الإيذاء والتعذيب، لرسول الله ﷺ والمسلمين، ثم أجب على ضوئها: كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهبها الجوع، وقادها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الاقتصادية فيها؟

لقد عرض المشركون على محمد ﷺ الملك، والشراء، والزعامة، على أن يتخلى عن الدعوة إلى الإسلام، فلماذا لم يرض ﷺ بذلك؟! ولماذا لم يَثُر عليه أصحابه، ولم يضغطوا عليه - إن كان غايتهم الشبع بعد الجوع - كي يقبل بعرض قريش؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون في أيديهم، والمال يكون في جيوبهم؟

ولقد قُوطع محمد ﷺ ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بني قومه، فلم تنزل سلعةٌ تَتَسلَّلُ إلى أيديهم، ولم يُتْرَك طعامٌ يدخل إلى بيوتهم حتى راحوا يأكلون ورق الشجر، وهم على ذلك صابرون، محدقون برسول الله ﷺ، أفهكذا يصنع من تَعْتَلِج[٢] وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش؟!

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض، والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة، وقد تجردوا عن كل ما يتعلق به الطامعون في المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلًا، ولا يقيمون وزنًا لدنيا فاتتهم، ولملك أدبر عنهم، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام؟!

قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون، ملاحظة الأمرين الآتيين:

الأول: أن الجماعة الأولى من أصحاب محمد ﷺ في

١. تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص١٤٢ بتصرف يسير.

٢. تعتلج: تضطرب.

مكة كانت على الأغلب من الفقراء والموالي المضطهدين، وهو يدل على أنهم ينفسّون باتباعهم محمدًا ﷺ عن شيء من كربهم، وأنهم كانوا يتأملون مستقبلًا اقتصاديًّا أفضل لأنفسهم في ظل الدين الجديد.

الثاني: أن هؤلاء الأصحاب، ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا، وأقبل إليهم الثراء والمال، وهو دليل على أن خطة الرسول ﷺ كانت ترمي إلى تحقيق هذه الغاية.

وأنت إذا تأملت في استدلالهم على ما يتصورونه، بهاتين الملاحظتين، أدركت كم هو نصيب الخيال والوهم من عقولهم ومنهج تفكيرهم.

وأما أن الجماعة من أصحابه ﷺ كانت على الأغلب من الفقراء والموالي، فنعم، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أي علاقة ونسب، إن شريعة تقتضي إرساء ميزان العدالة بين الناس، والضرب على يد كل ظالم وطاغية ومستكبر، من المُسلَّم به أن يعرض عنها، بل أن يحاربها أولئك الذين استمرءوا حياة البَغْي والظلم؛ لأنها تُحَمِّلُهُم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم، كما أن من المُسلَّم به أن يرحب بها كُلُّ مُسْتَضْعَفٍ مظلوم، بل كل إنسان ليس له في تجارة البغي والاستغلال نصيب؛ لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم، أو لأنهم - على أقل تقدير - ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكاليفها.

إن معظم من كان حول رسول الله ﷺ كان مستيقنًا أنه على حق، وأنه نبي مرسل من قبل الله، ولكن أرباب الزعامة وعشاق العظمة والسيطرة، وجدوا أن من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقًا عن الاستسلام والتفاعل معه، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعيقهم عن الاستسلام لشيء آمنوا به واستيقنوه. فما العلاقة بين هذه الحقيقة التي يفهمها كل باحث، وما يزعمه أولئك الزاعمون؟

وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التي سلكها رسول الله ﷺ وكانت تستهدف امتلاك المسلمين لمنابع الثروة واستيلاءهم على عُرُوش الملوك واستلاب السيادة منهم، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلًا إلى ذلك - فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب.

إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم وفارس، في حقبة يسيرة من الزمن بعد أن صدقوا الله في إسلامهم، أفيكون ذلك دليلًا على أنهم ما أسلموا إلا طمعًا بعرش الروم وفارس؟!

لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول إلى شهوة من شهوات الدنيا أيًّا كانت، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح.

لو كان عمر وهو يجَهِّز جيش القادسية ويودِّعُ قائده سعد بن أبي وقاص، يستهدف كنوز كسرى، ويسيل لعابه رغبة في أن يتقلب في مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة والهوان، ولكنهم صدقوا الله من أجل نصرة دينه، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون.

ولو كان الحلم الذي يراود المسلمين في معركة القادسية، وصولًا إلى ثروة وتقلبًا في نعيم وتحقيقًا

للذائد العيش، إذًا لما دخل ربعي بن عامر ﷺ سرادق رستم مزدريًا مظاهر التَّرَف التي غُمِسَ فيها السرادق غمسًا، يتوكأ بزج رمحه على البُسُط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها، ولما قال لرستم: إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم!.. أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال؟

لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها؛ لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها، وإنما كان تفكيرهم منصرفًا إلى تحقيق مرضاة الله.

ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا إلى شيء منها.

المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقًا للقانون الإلهي الذي يقول: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (القصص).

وإن تَفَهُّم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل، أي عقل كان، بشرط واحد هو أن يكون صاحبه حرًّا عن العبودية لأي رغبة أو غرض"[١].

ثانيًا. لم يكن أتباع النبي ﷺ كلهم ضعفاء، بل كان فيهم ذوو المكانة الاجتماعية، ولم يعدهم ﷺ بتحسين أوضاعهم، بل إنهم كانوا يعلمون أن للإيمان تبعات:

فإن كان أغلب من آمنوا برسالة النبي محمد ﷺ من الضعفاء والمساكين، فقد كان منهم ذوو المكانة الاجتماعية، وأصحاب القوة والثراء أمثال: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم، ولكنهم جميعًا، فقراء وأغنياء، ضعفاء وأقوياء، كانوا يعلمون يقينًا أن أتباع هذا الدين لا بد أن يفتدوه بأموالهم وأنفسهم، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (البقرة).

ومما يزيد الأمر وضوحًا أن المصادر التاريخية تعلن أن النبي ﷺ لم يقدم وعودًا لأحد بتحسين وضعه الاجتماعي، أو رفع الظلم عنه. وفي هذا يقول خَبَّاب بن الأَرَت: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتوسِّد بُرْدَة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيُجْعَل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه فيُجْعَل نصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ الله تعالى هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[٢].

إن النبي ﷺ الذي طلب منهم الصبر على البلاء؛ لأنه سنة الدعوات، قد أعلن لهم بكل الثقة في الله، أن الله سينصر دينه، وسيحكم الإسلام أرض الجزيرة، بل ومن صنعاء إلى حضرموت.

ولكن النبي ﷺ لم يقل للمستضعفين إن هذا النصر

---

١. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٩٦: ٩٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٥٤٤)، وفي موضع آخر.

سيتم على أيديهم، ولم يقدم وعودًا لأحد منهم يجني ثمار صبره في هذه الدنيا؛ وذلك لأن المسلم لا يبتغي بإسلامه إلا نصرة دينه، وطاعة ربه الجزاء الذي وعده الله به وهو الجنة في الحياة الآخرة، وليس الفوز بشيء في الدنيا.

قد يأتي هذا النصر وقد يتأخر، ليجني ثماره أجيال أخرى كما حدث لأصحاب الأخدود، فقد أدخلوا نار الدنيا وحرقوا عن آخرهم، والسبب الذي رواه القرآن هو قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ (البروج)، والعقاب الذي توعد به الظالمين هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ (البروج)[1].

وتأكيدًا لسُنَّة الابتلاء؛ فإن الصحابة الأوائل ابتُلُوا بألوان البلاء، وفُتِنُوا أشد الفتنة؛ فقد عذِّبوا عذابًا تنوء به الجبال، وأُوذوا في سبيل عقيدتهم ودينهم أشد الإيذاء، لا سيما العبيد والضعفاء منهم، وليس هذا بعجيب من قوم خالطت قلوبهم بشاشةُ الإيمان، من أول يوم اعتنقوا فيه الإسلام، وتوالت عليهم آيات الوحي والمواعظ النبوية، وأخذهم النبي ﷺ بأساليبه الحكيمة في التربية والتهذيب، وكان لهم القدوة الحسنة في الثبات والصبر والتحمل، والاستهانة بكل لَأْوَاء[2] الحياة وآلامها ومرِّها في سبيل العقيدة والغاية الشريفة.

ولم يكن هؤلاء السادة يبغون من إيمانهم ملكًا، أو جاهًا، أو مالًا، أو سمعة، وإنما كان همهم أن يقوم هذا الدين وينتشر، وتسود العالم شريعة الحق، والعدل والمساواة، واحترام حقوق الإنسان.

ولئن كان وجد من الأمم السابقة من ضربوا مُثلًا عالية في التضحية والصبر والتحمل في سبيل الإيمان والدين، إلا أنهم لم يكونوا في الكثرة مثل ما كان ذلك في الإسلام، ولم يكن لهم من قوة التمسك بالدين وحماية النبي مثلما كان لأصحاب نبينا محمد ﷺ.

وليس أدل على هذا من أن الحواريين، الذين كانوا أخلص الخلصاء لعيسى عليه السلام خانه بعضهم وهو يهوذا الإسخريوطي - كما ذكرته كتبهم - ودل عليه اليهود الذين كانوا يطلبونه لقتله، لولا أن رفعه الله إليه، وعصمه منهم، ولن تجد مثالًا واحدًا لهذا في الصحابة - رضوان الله عليهم - على كثرتهم الكاثرة على أصحاب عيسى عليه السلام، بل كانوا يفدونه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وقد كان أبو جهل الفاسق إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنَّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك؟ لنسفهن حِلْمك، ولنُفَيِّلَنَّ[3] رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.

وإن في هذه الرواية التي رواها ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ما يعطينا صورة مؤلمة غاية الألم، لما كان ينالهم من العذاب، قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ

---

1. تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص١٤٢، ١٤٣.
2. لأواء: المشقة وشدة.
3. ولنُفَيِّلَنَّ: ولنقبحَنَّ.

ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعَل[1] ليمر بهم، فيقولون له: أهذا إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده.

ومن هؤلاء السادة الأبطال: بلال بن رباح الحبشي، وكان اسم أمه حمامة، وكان مولاه أمية بن خلف الجمحي، قاسي الكبد، غليظ القلب، لا ينبض قلبه بقطرة من الرحمة الإنسانية، كان يخرجه إلى بطحاء مكة إذا حميت الشمس في الظهيرة، والرمضاء في هذا الوقت تكاد تنضج اللحم الطري، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا ـ والله ـ لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى.

ولكن بلالًا لا يعبأ بالآلام ولا بالبلاء، ويأبى إلا أن يُعلن عن صادق إيمانه، فلا ينفك يردد ويقول: "أحد، أحد"، وكان يقول: "لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها"، وقد هانت نفسه عليه في الله، فتحمل ما تحمل بقلب مؤمن ونفس راضية.

ومن المُعَذَّبين عمَّار بن ياسر، وأبوه وأمُّه سُميَّة، وكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة، ويعذبونهم برمضاء مكة، ويُلبسونهم دروع الحديد المُحْمَاة بالنار، فما وهنوا ولا استكانوا، وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون، فما يملك لهم إلا أن يحثهم على الثبات والصبر، فيقول: "صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"[2]. ولما اشتكى له عمار قائلًا: يا رسول الله بلغ منا العذاب كل مبلغ، فقال له: "اصبر أبا اليقظان، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحدًا بالنار" ومر أبو جهل اللعين بسمية، وهي تعذب في الله، فطعنها بحربة في ملمس العفة منها فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام، ثم لم يلبث أبوه أن توفي تحت وطأة العذاب!!

ويطول العذاب بعمار حتى كان لا يدري ما يقول، فيظهر كلمة الكفر على لسانه وقلبُه مطمئن بالإيمان، ويجري عمار ـ وهو يبكي ـ إلى رسول الله ﷺ فقال؟ ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف وجدت قلبك؟ قال: "مطمئنًا بالإيمان"!! فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه بيده ويقول له: "إن عادوا لك فعد لهم بما قلت"[3]!!

ولهج بعض الناس بأن عمارًا كفر، ولكن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى صدع بالحق، فقال:

---

١. الجُعَل: دُوَيْبَة من هوام الأرض، تشبه الخُنْفِساء.

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، مسند النساء، باب السيدة سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم (٧٦٩)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر مناقب عمار بن ياسر ﷺ (٥٦٤٦)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ١٠٣).

٣. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة النحل (٣٣٦٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب المرتد، باب المكره على الردة، قال الله جل ثناؤه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ (النحل) (١٦٦٧٣)، وصححه الذهبي في التلخيص على مستدرك الحاكم (٣٣٦٢).

"كلا، إن عمارًا مليء إيمانًا من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه"!! ثم ينزل الوحي من السماء على صدق إيمان عمار، قال الله تبارك و تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (النحل)[1].

استنادًا إلى ما سبق فإن هذه النماذج البشرية العالية التي لم يعرف التاريخ مثلهم في استعذابهم البلاء والعذاب في سبيل الإيمان والعقيدة، إن هؤلاء الرجال والنساء خطُّوا صحائف مشرقة في تاريخ الإيمان، والبطولة والتضحية، فلله در هذه النفوس المؤمنة، ما أزكاها، وما أشرفها، وما أخلدها على الدهر، فكيف يقال إذًا إن هؤلاء الأولين الأطهار كان إيمانهم فرارًا من الظلم وتخلصًا من الاضطهاد، وسعيًا وراء لقمة العيش أو طلبًا لرغد العيش كما يدعي المفترون®؟!

ثالثًا. الحكمة في كون الطلائع الأولى لدعوة الأنبياء أغلبهم من الفقراء والضعفاء:

"لقد بدأ الإسلام بتحرير الوجدان البشري من عبادة أحد غير الله، ومن الخضوع لأحد غير الله، فما لأحد غير الله من سلطان، وما من أحد يميته أو يحييه إلا الله، وما من أحد يملك له ضرًا ولا نفعًا، وما من أحد يرزقه من شيء في الأرض ولا في السماء، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع، والله وحده هو الذي يستطيع، والكل سواه عبيد، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئًا: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص).

والقرآن يؤكد هذه العقيدة ويوضحها ويرسخها، ليصل إلى تحرير الوجدان البشري من كل شبهة شِرْكٍ في ألوهية أو ربوبية، قد تضغط هذا الوجدان وتخضعه لمخلوق من عباد الله، إن يكن نبيًّا أو رسولًا، فإنه عبد من عباده لا إله! فإذا انتفى أن يكون عبد بذاته أميز عند الله من عبد بذاته، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعًا، فلا كهانة ولا وساطة، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه، يتصل بشخصه الضعيف الفاني بقوة الأزل والأبد، يستمد منها القوة والعزة، والشجاعة، ويشعر برحمة الله وعنايته وعطفه فيشتد إيمانه وتقوى معنويته"[2].

هذه هي طبيعة دعوة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ، فطبيعي أن تصطدم أول ما تصطدم مع المتألهين في الأرض الذين سيزول ملكهم ويُحطم سلطانهم ويصيرون أسوياء مع من كانوا يستعبدونهم، وهم لا يرضون بذلك.

يجيب د. محمد سعيد رمضان البوطي على ذلك بقوله: "ومما يزيد الأمر وضوحًا أن الذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة، كان معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء، فما الحكمة في ذلك؟ وما السر في أن تؤسس الدولة الإسلامية على أركان من

---

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٣٧: ٣٤٩ بتصرف.

® في "صور التعذيب المعنوي والحسّي للمسلمين الأوائل" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

٢. العدالة الاجتماعية، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٣ : ٣٥ بتصرف.

مثل هؤلاء الناس؟

والجواب: أن هذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى، ألم تر إلى قوم نوح كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله، ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ (هود: ٢٧).

وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى، أذلاء مستضعفين، حتى قال الله تبارك وتعالى عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: ١٣٧).

وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحًا، كيف تولى عنه الزعماء والمستكبرون، وآمن به الناس المستضعفون، حتى قال الله في ذلك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأعراف).

والسرُّ في ذلك أن حقيقة هذا الدين الذي بعث الله تبارك وتعالى به عامة أنبيائه ورسله، إنما هي الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده.

وهي حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين، وحاكمية المتحكمين، وسطوة المتزعمين، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين والمستذلين والمستعبدين، فيكون رد الفعل أمام الدعوة إلى الإسلام وحده هو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين، والإذعان والاستجابة من هؤلاء المستضعفين، وانظر فإن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح في الحديث الذي دار بين رستم قائد الجيش الفارسي في وقعة القادسية، وربعي بن عامر الجندي البسيط في جيش سعد بن أبي وقاص، فقد قال له رستم: ما الذي دعاكم إلى حربنا والولوع بديارنا؟

فقال: جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ثم نظر إلى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله، فقال متعجبًا: "لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولكني لا أرى قومًا أسفه منكم، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضًا، ولقد ظننت بأنكم تتواسون كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض".

فالتفت الدهماء المستضعفون إلى بعضهم يتهامسون: صدق والله العربي، أما القادة والرؤساء فقد وجدوا في كلام ربعي هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته، وقال بعضهم لبعض: "لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه".

ولا يعني هذا أن المستضعفين الذين أسرعوا إلى الدخول في الإسلام قبل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان، بل عن قصد ورغبة في التخلص من أذى المستكبرين؛ ذلك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به محمد ﷺ، كان قدرًا مشتركًا بين زعماء قريش ومستضعفيها.

فما منهم من أحد إلا وهو يعلم صدق النبي ﷺ، فيما

يخبر عن ربه، غير أن الزعماء والكبراء فيهم كانت تصدهم زعامتهم عن الانقياد والاتباع للنبي ﷺ، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب، وأما الفقراء والمستضعفون فما كان يصدُّهم عن التجاوب مع إيمانهم شيء.

أضف إلى ذلك ما يشعر به أحدهم عند الإيمان بألوهية الله وحده من الاعتزاز به وعدم الاكتراث بسلطان غير سلطانه أو قوة غير قوته، فهذا الشعور الذي هو ثمرة للإيمان بالله ﷻ يزيده قوة، ويجعل صاحبه في نشوة وسعادة غامرة"[1] ®.

الخلاصة:

- إن إيمان المؤمنين الأوائل، وكل مؤمن بالله تعالى، هو محض استجابة لنداء الحق عن قناعة ويقين بأنه الدين الحق وأن محمدًا ﷺ مرسل من ربه، وإلا فما الذي كان يمسكهم على الضيق الخانق عندما لم تتحقق لهم الحياة الآمنة، والعيش الرغيد، بل على النقيض ذاقوا ألوان العذاب وشتى صنوف الاضطهاد فما ردَّهم ذلك عن دينهم.
- إذا كان معظم أتباع النبي ﷺ من الضعفاء والفقراء، فقد كان منهم الأثرياء وذوو المكانة الاجتماعية، أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم، فإذا كان الإيمان للتخلص من الظلم والفقر، فما الذي حدا بهؤلاء إلى الإيمان؟
- النبي ﷺ لم يَعِد أحدًا بتحسين وضعه الاجتماعي، أو الاقتصادي، بل إنهم كانوا يعلمون من القرآن والواقع المُشَاهد أمامهم أن الابتلاء قرين الإيمان ومع ذلك تمسكوا بدينهم وثبتوا عليه، وصبروا السنين الطوال فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلًا.
- إن الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى أن يكون معظم أتباعهم من الفقراء والضعفاء، والأرقاء؛ لأن حقيقة دعوة الأنبياء جميعًا هي الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده، وهذا يصطدم أول ما يصطدم بحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين في الأرض، أما الفقراء والمستضعفون فما كان ليصدهم عن الإيمان بالله شيء.

الشبهة الرابعة

الزعم أن عثمان بن عفان ﷺ أسلمَ رغبةً في الزواج من رقية بنت النبي ﷺ (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الطاعنين أن عثمان بن عفان ﷺ دخل

(*) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

---

١. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٧٧: ٧٩.

® في **"ردّ القرآن على عيب الدعوة بسبق العبيد والضعفاء إليها"** طالع: الشبهة الثامنة والعشرين. وفي **"رد القرآن على استنكاف الكبراء عن مشابهة الأراذل في متابعة الدعوة"** طالع: الشبهة الثانية والأربعين؛ من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

الإسلام؛ بسبب حُبِّه لرقية بنت النبي ﷺ، ورغبته في الزواج منها، كما يزعمون أن عثمان لما بلغه خِطبة رقية لغيره حزن وأخبر أبا بكر ﷺ، فتصادف مرور النبي ﷺ، فأسرَّ أبو بكر ﷺ بكلمات للنبي ﷺ؛ وتزوج عثمان ﷺ برقية بعد أن أسلم. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في التاريخ الإسلامي وسيرة عثمان ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس غريبًا الطعن في عثمان ﷺ، فقد درج المغالطون على الطعن في جميع الصحابة.

٢) قصة إسلام عثمان بن عفان ﷺ كما روتها كتب السير تناقض هذا الادعاء كلية وتبطله من أساسه؛ لأن إسلامه كان أثناء خطبة رقية لعتبة بن أبي لهب.

٣) موقف عمه الحكم بن أبي العاص من إسلامه وتعذيبه له لا يساوي رغبته في الزواج من رُقيَّة؛ بل يؤكد رغبتَه من الدخول في الإسلام عن اقتناع وإيمان.

٤) ما تميز به عثمان ﷺ من سمات شخصية وخلقية ينفي هذا الزعم.

التفصيل:

أولا. درج المغالطون على الطعن في جميع الصحابة؛ فليس غريبًا أن يطعنوا في عثمان:

إذا لم تستحِ فاصنع ما تشاء، أو قُلْ ما تشاء، إذ يستطيع كل واحد أن يَقْلِبَ الحقائق أباطيل والأباطيل حقائق في مخيلته أو على هواه طالما أنه لم يلزم نفسه بتقديم الدليل الدامغ على ما يقول، وليس كل هذا مهمًّا، المهم هو: كيف يكون وَقْعُ كلامه وتحريفه على الناس ؟! لا شك أن للناس عقولًا يميزون بها الغثَّ من الثمين ويفرزون الثابت من المتهافت.

ولقد درج كثير من المستشرقين المغالطين ومن تبنى فكرهم على النظر لصحابة رسول الله ﷺ - وهم بشر كالبشر؛ لكنهم رُبُّوا تربية خاصة على يد صاحبهم وعلى منهج سماوي صحيح، فصاروا ثقاتٍ عدولًا وفي القمة من البشر - كنظرتهم لشخوص التاريخ العاديين في العصور المختلفة، ولهذا لم يُنزلُوهم منازلهم ولم يقدِّروهم قدرهم الذي نالوه بعفَّتهم وتقواهم وزهدهم وجهادهم، مما ندر تكراره في بني البشر.

ولهذا انتحلوا لكثيرين منهم أسبابًا لإسلامهم وتضحياتهم غير اقتناعهم بهذه العقيدة الناصعة؛ لأنهم لم يتصوَّروها وحدها - حسب مقاييسهم - دافعًا للإقدام والتضحية، ومن هذا زعمهم - بغير دليل - أن سيدنا عثمان بن عفان ﷺ قد أسلم حبًا لرقيَّة بنت النبي ﷺ.

ثانيًا. قصة إسلام عثمان ﷺ تناقض هذا الادعاء:

فقصَّة إسلام عثمان ﷺ معروفة مشهورة رواها ابن إسحاق وغيره من المؤرخين وهي: أن الصِّدِّيق ﷺ عرض عليه الإسلام فمال قلبه له، فأخذه إلى رسول الله ﷺ الذي قال له: يا عثمان أجب الله إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى خلقه، قال عثمان ﷺ: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدتُ، وبإسلامه تحول من حياة الغنى والجاه والرفاهية إلى الشدَّة والجد، والتعب والتضحية، وهي قصة مثبتة تؤكد أنه أسلم بسبب الاقتناع بالإسلام[1].

---

١. نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، حلمي صابر، طبعة خاصة، ٢٠٠١م، ص٢١٣.

أما عن زواجه ﷺ من السيدة رقية - رضي الله عنها - ابنة النبي ﷺ، فهذا لا يدلُّ لا من قريب ولا من بعيد على أن إسلامه كان رغبة في زواجه من رقية، فقد أسلم عثمان ﷺ ورقية زوجة لعتبة بن أبي طالب، وقد كان أبو لهب وزوجه أم جميل من أشد قريش قسوة على النبي ﷺ، وأعنفهم إيذاء له، وتنكيلًا به، فأنزل الله فيه وفي امرأته سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ (المسد). فازداد أبو لهب ضغينة على الرسول ﷺ، واشتد حقده وحقد زوجته أم جميل عليه، وعلى المسلمين معه فأمر ابنهما عتبة بأن يُطَلِّقَ زوجته رقية فطلقها نكاية بأبيها، وما كاد عثمان ﷺ يسمع خبر طلاق رقية حتى استطار فرحًا - وبادر فخطبها - فزوجها الرسول الكريم منه[1]. إذن تزوج عثمان من رقية بعد ما أسلم ووقر الإيمان في قلبه، وبعد ما طلقها عتبة بن أبى لهب، فهل اطلع عثمان على الغيب وعلم أن عتبة سوف يطلقها، أم أن الفرصة واتته بعدما أسلم ووقر الإيمان في قلبه؟!

ثالثًا. موقف عمه الحكم بن العاص من إسلامه وتعذيبه له، لا يساوي رغبته في الزواج من رقية:

إن عثمان ﷺ تحمل التعذيب من قبل عمِّه الحكم بن أبي العاص الذي أخذه فأوثقه، وقال: ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث، والله لا أدعك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه، فردَّ عثمان ﷺ بصلابة: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه، وكان من أثر ذلك أن هاجر إلى الحبشة الهجرتين ثم إلى المدينة، وشهد المشاهد ﷺ ويمكن التقرير هنا أن إسلام عثمان لو كان غرضه الزواج من رقية دون وازع إيماني من قلب صادق، لتراجع اتقاءً لشر عمه وتنكيله به[2]، أيجوز إذن أن يختزل كل هذا؛ بل يغفل لِـيُرَدَّ سبب إسلامه إلى عِلَّة واهية مثلما ذُكر®؟!

رابعًا. ما تميز به عثمان ﷺ من سمات خلقية وشخصية ينفي هذا الزعم:

إن عثمان ﷺ صنف من أصناف الرجال الأطهار يندر وجود في كل العصور والأزمان... رجل تستحي منه ملائكة الرحمة، فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: "ألَا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"[3]. يعني أكثر حياءً. وعن عائشة - رضي الله

---

١. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج١، ص١٦١، ١٦٢ بتصرف يسير.

٢. نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، حلمي صابر، مرجع سابق، ص٢١٤.

® في "صور التعذيب المعنوي والحسّي للمسلمين الأوائل" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ (٦٣٦٢).

عنها - أن رسول الله ﷺ قال: "إن عثمان رجل حَيِي"[1][2].

ثم إن حياة ذي النورين - عثمان بن عفان - رضي الله عنه صفحة مُشْرِقة في تاريخ الأمة، حسبه شهادة رسول الله ﷺ: "وأصدقها حياءً عثمان رضي الله عنه"، وعذرًا إليه من هذه الافتراءات - إن تاريخ ذي النورين رضي الله عنه، يبرهن على عظمته ويثبت أنه كان عظيمًا بإيمانه وخلقه وبآثاره، وكانت عظمته، مستمدة من فهمه وتطبيقه للإسلام، وصلته العظيمة بالله واتباعه لهدي الرسول الكريم، إن سيدنا عثمان رضي الله عنه من الأئمة الذين نتأسى بهم - أقوالًا وأفعالًا - وقد أسلم لله رب العالمين طوعًا بلا هدف مُبيَّت كما يزعم الزاعمون، وإنما عن فهم صحيح لهذا الدين، وتضحياته في سبيل الدعوة الإسلامية تدل على مدى يقينه وإيمانه بالله عز وجل، بما ينفي زعم الزاعمين.

الخلاصة:

- قلب الحقائق إلى أباطيل أو العكس أو تجاوزها أمر سهل ما لم يُلزم الفاعل نفسه بتقديم الدليل والبرهان على دعواه، وقد درج كثير من الباحثين الغربيين على النظر إلى صحابة النبي ﷺ نظرتهم إلى شخصيات التاريخ العادية، وهم بشر كالبشر، لكنهم رُبُّوا تربية خاصة. وقد غالطوا فاختزلوا إسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه وقصته وتضحياته - من أجل الإسلام - المعروفة المتواترة، في سبب واهٍ غريب، وهو حبه لرقية، وهذا أليق بطلاب الدنيا.
- قصة إسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه معروفة في كتب السير ولا علاقة لها بالسيدة رقية بنت رسول الله ﷺ وقد تعرض عثمان لتنكيل عمه الحكم بن أبي العاص بسبب إسلامه.
- لم تذكر كتب السير شيئًا عن رقية بنت رسول الله ﷺ عند إسلام عثمان رضي الله عنه؛ فقد كانت زوجة لعتبة بن أبي لهب، ثم طلقها فتزوجها عثمان بعد ما أسلم ووقر الإيمان في قلبه.
- إن ما يتميز به عثمان رضي الله عنه من ميزات خلقية وشخصية بين أصحاب رسول الله ﷺ أنفسهم ينفي أن يكون إسلامه طمعًا في زيجة، وإن كانت من بنت رسول الله ﷺ.

الشبهة الخامسة

ادعاء أن تعذيب المشركين للمسلمين الأوائل كان معنويًّا فحسب(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإيذاء الذي وقع بالمسلمين من جانب قريش، إنما كان مقصورًا على السخرية والتعريض، والهجوم بالكلام والشتائم، وأن التعذيب الجسماني كان شيئًا لا يذكر. ويهدفون من وراء

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه (٦٣٦٣).

٢. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، مرجع سابق، ص١٦٠: ١٦٨ باختصار.

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ذلك إلى محاولة التقليل من قيمة تضحيات مسلمي مكة في سبيل هذا الدين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) كانت طبيعة الرسالة الإسلامية التغييرية والقاضية على الفساد، مصدر خطر على طواغيت مكة ومصالحهم التي يقوم معظمها على الظلم؛ لذا لم يسكتوا عنها وحاربوا من اعتنقها.

٢) شهد المسلمون في المرحلة العلنية من الدعوة صورًا عديدة من الابتلاءات، والاضطهادات، والإشاعات الكاذبة، والتهديدات الباطلة، والإغراء بالجاه والسلطان، والتعذيب الجسماني.

٣) الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة دليل على شدة التعذيب والاضطهاد، وإلا فهل يترك المسلمون أوطانهم، وأموالهم، وأهليهم لمجرد الاستهزاء والسخرية بهم؟!

التفصيل:

أولا. طبيعة الرسالة الإسلامية التغييرية كانت مصدر خطر على طواغيت مكة:

لما جهر الرسول ﷺ بدعوته، وتبين المشركون حقيقتها وأنها تغيير للأنظمة الجاهليَّة الحاكمة، وتحطيم للأنظمة السياسية المعادية للإسلام، ونزع الحاكمية من البشر وردها إلى مالك الملك وخالق الخلق - والتي يعبر عنها بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، والتي تعني أنه لا معبود، ولا مُطَاع، ولا مشرع، ولا حاكم إلا الله، وأي تشريع تكون الحاكمية فيه للبشر تشريع مرفوض، والسلطة فيه باطلة يجب القضاء عليها - وقف هؤلاء الطواغيت يعلنون العداوة للرسول ﷺ والذين آمنوا معه، ولهذا الدين، حينما أدركوا طبيعة الدعوة والرسالة، وأنها تغييرية وقضاء على الفساد الخلقي، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وكل فساد[1].

من أجل ذلك أوذي رسول الله ﷺ، وأوذي من قبله جميع الأنبياء والرسل، ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله ﷺ، حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله تبارك وتعالى وإذا كانت هذه سنة الله تعالى في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلًا حتى مع أنبيائه وأصفيائه[2].

ثانيًا. شهد المسلمون في المرحلة العلنية صورًا عدة من الابتلاءات والاضطهادات:

لقد كانت المرحلة العلنية مرحلة ابتلاء عام وشامل، فما من مسلم أو مسلمة إلا وأُوذِي إيذاءً شديدًا، وما من صورة من صور الابتلاء إلا وقد وقعت على المسلمين والمسلمات، ويوضح لنا د. محمد عبد القادر أبو فارس أهم صور هذه الابتلاءات في النقاط الآتية:

١. **الحملات الإعلامية الظالمة الكاذبة:**

لقد شن أولياء الشيطان حملات إعلامية كاذبة على الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، هادفين من وراء ذلك

---

١. السيرة النبوية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٤٢، ١٤٣ بتصرف.

٢. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٨٦ بتصرف.

تشويه صورة الرسول والمسلمين، وتنفير المشركين منها، حتى لا يتعاطفوا معهم، ولا يستمعوا للحق الذي يدعون الناس إليه.

ومن ثم لا يدخلون في دعوة التوحيد، وتبقى الأوضاع الآسنة العَفِنة هي السائدة، ويبقى الطواغيت يَصُولون ويجولون ويفسدون ويستبدون، ولا متمرد على ظلمهم واستبدادهم، فقد افتروا على الرسول، فقالوا: كاذب، وساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، فما أثَّر ذلك في عزيمته، بل ظل مثابرًا يبلِّغ دعوته.

فسلكوا طريقًا آخر، وهو طريق السخرية والاستهزاء والاستخفاف بالرسول، والذين آمنوا معه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾ (المطففين). إنها صورة في غاية القبح والشناعة أن يسخر الوضيع من الرفيع، والسفيه من العاقل الرشيد الحكيم، والغبي من الذكي، والأحمق من الألمعي.

٢. التهديد بإلحاق الأذى بالمؤمنين وتعطيل مصالحهم:

فلقد انطلقت أصوات منكرة من المشركين تتهدد وتتوعد الرسول ﷺ، وكل من آمن معه بالأذى والرجم إن بقوا على إسلامهم، قاصدين من ذلك إرهاب المؤمنين، وإرهاب الناس والآخرين حتى لا يدخلوا في دين الإسلام. وجاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا عند الكعبة يُصلِّي لأَطَأَنَّ عُنُقه، فبَلَغ النبي ﷺ فقال: "لو فعله لأخذته الملائكة"[١].

٣. الإغراء بالجاه والسلطان:

فحين يعجز الطغاة عن ثني أصحاب المبادئ عن مبادئهم بإشاعة الإشاعات الكاذبة، والتهديدات الباطلة، يلجئون إلى صورة أخرى هي صورة الإغراء والإغواء، على أن يتركوا دعوتهم. إنها وسيلة تغري بعض ضعاف الإيمان، أصحاب المنافع والمصالح، لا أصحاب المبادئ الإسلامية والقيم الإيمانية.

ولقد أكدت بعض الروايات على أن المشركين عرضوا على الرسول ﷺ المُلك والمال على أن يترك الدعوة إلى الله، وتحرير الناس من الشرك والاستعباد، وقالوا له: "إنْ كان إنَّما بك الباءَة، فاختَرْ أي نساء قريش فَلْنُزوِّجك عَشْرًا، وإنْ كان إنَّما بك الحاجة، جمعنا لك حتى تكون أَغْنَى قريش رجلًا واحدًا"[٢].

وجاء أيضًا أن النبي ﷺ قال: "فماذا تظن قريش؟ والله إنني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يُظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة"[٣].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة العلق (٤٦٧٥).

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب المغازي، باب في أذى قريش للنبي ﷺ (٣٦٥٦٠)، وأبو يعلى في مسنده، مسند جابر (١٨١٨)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٦٠).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخزمة الزهري ومروان بن الحكم رضي الله تعالى عنه (١٨٩٣٠)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣١٨).

٤. التعذيب:

لقد فشل الطواغيت في تخويف الرسول ﷺ والذين آمنوا معه أو إغرائهم، فصبُّوا جام حقدهم على المؤمنين يعذبونهم تعذيبًا شديدًا، قاصدين من ذلك إرهاب المؤمنين حتى يتراجعوا عما هم عليه من الإيمان، وإرهاب الناس حتى لا يستجيبوا لدعاة الإيمان.

وقد مارس الطواغيت وأذنابهم صورًا كثيرة من التعذيب ضد المؤمنين، فأحرقوا الأجساد بالنار، وضربوا المؤمنين ضربًا مبرحًا، وخنقوا المؤمنين، وألقوا القاذورات على رءوس الشرفاء وأجسادهم.

فها هو ذا خَبَّاب بن الأرت يحدث عما لقيه من التعذيب فيقول: لقد رأيتني يومًا، وقد أوقدوا لي نارًا، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رَجُلٌ رِجْله على صدري، فما أتيت الأرض إلا بظهري، ثم كشف خباب عن ظهره لعمر، فإذا هو قد برص، ولما علمت مولاته بإسلامه أخذت الحديدة ـ وقد أَحْمَتْها ـ ووضعتها على رأسه.

ومن صور التعذيب ما جرى لبلال بن رَباح ﷺ، يُلقى على الرمال المحرقة في حر الصحراء، وعلى ظهره الصخرة العظيمة، ثم يضعون في عُنقه حبلًا يسلمونه إلى الصبيان يطوفون به ويُلبِسُونه في الحر الشديد دِرْعًا حديديًا، وهو صابر محتسب لا يبالي بما لقي هو وإخوانه في سبيل الله.

وجاء عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيُّكم يجيء بسَلَى جَزُور[1] بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئًا، لو كانت لي مَنَعَة. ثم قال: فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: "اللهم عليك بقريش" ثلاث مرات، فشقَّ عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سمَّى: "اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعُتْبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُميَّة بن خَلَف وعُقْبة بن أبي مُعَيْط"[2].

ومن صور التعذيب محاولة خَنْق النبي ﷺ وهو يصلي، فبينما كان الرسول ﷺ يصلي إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط، فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ مِنْكبه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: "أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله"[3]؟

هذا وقد تعرض المسلمون في هذه المرحلة إلى القتل، ومات بعضهم تحت التعذيب، كياسر وزوجته سمية، وكان الرسول ﷺ يمرُّ عليهم وهُما يُعذَّبان فيقول: صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة[4].

---

١. السَّلَى: الأمعاء أو المشيمة. الجَزُور: ما يصلح لأن يُذْبَح من الإبل، الجمع جزائر وجُزُر.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٣٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٠).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (٣٦٤٣)، وفي مواضع أخرى.

٤. السيرة النبوية، محمد عبد القادر أبو فارس، مرجع سابق، ص١٤٣: ١٤٧ بتصرف يسير.

وبعد كل هذه المحاولات لاعتراض الدعوة الإسلامية، جمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى ذلك أبو طالب جمع بني المطلب، وهاشم، وأمرهم أن يُدخلوا رسول الله ﷺ شِعبهم، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله، فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم.

فلما عرفت قريش ذلك أجمعوا ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم، فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا لهم طعامًا يقدم مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه.. فاشتد البلاء عليهم حتى كان الأطفال يتضاغون من شدة الجوع[1]!

هذه التضحيات هي باب يضيء على درب الدعوة الإسلامية على مر العصور، وهي مأثرة من التضحيات التي قدمها المسلمون الأول الذين رفعوا لواء الإسلام، ولا يعرف حقَّ هذه التضحيات غير خالق العالم جل وعلا.

ثالثًا. الهجرة دليل على شدة التعذيب والاضطهاد اللذان تعرض لهما المسلمون:

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه. فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام[2].

وبعدها، لما جعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، فضيقوا عليهم وتعبَّثوا بهم، ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى؛ شكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: قد أُخبرت بدار هجرتكم، وهي يَثْرِب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها. فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك. والهجرة نفسها ضرب غير يسير من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين.. إنها هجرة الوطن، والمال، والأهل، والأرض في سبيل الدين والاستمساك به، وإقامة دعائمه. فهل يقدم المسلمون على كل هذه التضحيات لمجرد الاستهزاء بهم والسخرية[®]؟!

الخلاصة:

- جن جنون طواغيت مكة حينما أدركوا أن الدعوة الإسلامية تهدف إلى الإطاحة بالأنظمة الجاهلية الحاكمة، ونزع الحاكمية من البشر إلى رب البشر تبارك وتعالى، فوقفوا في طريق هذه الدعوة وحاولوا اعتراضها بشتى الطرق، فعكفوا على السخرية والاستهزاء بالرسول ﷺ، والذين آمنوا معه، ثم لجئوا إلى الإشاعات الكاذبة لصرف الناس عنهم، ثم إلى التهديدات الباطلة، ولما لم يفلحوا انتهجوا نهج الإغراء بالجاه والسلطان.

---

١. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ج١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٧٦ بتصرف.

٢. فقه السيرة، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص٩٨، ٩٩ بتصرف يسير.

® في "سبب الهجرة إلى الحبشة" طالع: الشبهة السادسة. وفي "الهجرة إلى المدينة" طالع: الشبهة الثامنة؛ من هذا الجزء.

- وفي النهاية وبعد فشل كل المحاولات لجئوا إلى التعذيب الجسماني الذي طال الجميع، الكبير والصغير، والرجال والنساء، والنبي ﷺ وعامة المؤمنين.
- لو افترضنا تعذيب المشركين للمسلمين كان معنويًّا، فحسب، كما يدعي بعض المستشرقين، فلماذا يضحي المسلمون بأوطانهم، وأموالهم، وأهليهم، ويهاجرون من مكة فرارًا بدينهم؛ هل لهذا لمجرد السخرية والاستهزاء فحسب؟!
- إن كتب السِّيَر والتاريخ مملوءة بما يَنْدَى له الجبين من صور وألوان التعذيب وأصناف الاضطهادات التي كانت تمارسها قريش وغيرها ضد المسلمين الأوائل. فلماذا يصرُّ هؤلاء على إنكارها مع أنها على كثرتها لا يمكن أن تُنْكَر؟!

الشبهة السادسة

دعوى أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت لأسباب اقتصادية وسياسية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هجرة المسلمين الأوائل إلى بلاد الحبشة كانت لدوافع اقتصادية وسياسية، وذلك أن النبي ﷺ حينما سمح لأصحابه بالهجرة للحبشة كان يريد لهم أن ينخرطوا في سلك التجارة، وأن يحاولوا فتح طريق تجاري بديلٍ عن طريق مكة، يتجه من الجنوب إلى الإمبراطورية البيزنطية، حتى يكسر الاحتكار الذي يمارسه المكِّيون عن طريق التجارة في هذه البقاع، مما يؤدي إلى إضعافهم اقتصاديًّا، كما كان رغبة منه في الحصول على مساعدة عسكرية من بلاد الحبشة تمكنه من السيطرة على مكة، ومهاجمة تجارتها وقتما يرغب.

هذا فضلًا عن أن محمدًا حاول بهذه الهجرة أن يحل الخلافات الحادة في الرأي داخل صفوف المجتمع الإسلامي، بين مجموعة يتزعمها أبو بكر الصديق، ومجموعة معارضة يتزعمها عثمان بن مظعون، وخالد بن سعيد.

ويرمون من وراء ذلك إلى تشويه حقيقة الهجرة إلى بلاد الحبشة، ووصفها بأنها كانت لأغراض دنيوية خلت من الأهداف الدينية والعقدية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإيذاء والاضطهاد الديني من أهم العوامل الداعية إلى الهجرة في كل زمان ومكان، والقيادة الحكيمة هي التي توجه أتباعها إلى المكان الآمن الذي يحفظ لهم عقيدتهم ونفوسهم، ورسولنا ﷺ حينما اختار الحبشة مهجرًا للمسلمين ركَّز على ذلك ونص عليه.

٢) إذا كان المسلمون في هذا الوقت يواجهون حرب إبادة عقدية، وتصفية جسدية، فهل يُعقل أن يكون بين كبار هذه الجماعة ـ على ضعفها وقلة حيلتها ـ شحناء وبغضاء تجعل قائدها الأعلى محمدًا ﷺ يهجِّر بعضهم إلى أرض الحبشة ويُبْقي آخرين؛ ليحلّ خلافًا بينهم؟!

٣) الغرض الرئيس من هجرة المسلمين إلى الحبشة،

(*) محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، حسين عيسى، مراجعة د. أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

كان حماية الدعوة الناشئة، والبحث عن مكان آمن يحتضن الدعوة الإسلامية، ويكون قاعدة احتياطية لانطلاق الدعوة إذا سقطت القاعدة الأساسية (مكة).

التفصيل:

أولا. الإيذاء والاضطهاد الديني من العوامل الداعية إلى الهجرة في كل زمان ومكان، والقيادة الحكيمة هي التي تختار لأتباعها المكان الملائم لحفظ الدين وحماية كوادره:

إن العقيدة الصحيحة هي التي تنبثق منها العبادة الصحيحة، والسلوك القويم، وهي التي تضمن في الوقت نفسه الثبات على الحق، وتحمُّل التضحيات في سبيله عندما يُطلب من المسلم أن يؤديها، وكل ما نراه من التراجع والتذبذب والنفاق، والتخلي عن طريق الحق مرده ضعف هذه العقيدة، وتزعزعها وعدم تمكنها من القلب السليم[١]، لذا فالبقاء بين براثن الشرك حتى يتمكن الشرك من إبادة المسلمين عملية خرقاء، بيد أن مهمة القيادة الأساسية هي حماية جنودها من الخطر، غير أن هذه الحماية لا تكون على حساب العقيدة والشريعة، في هذا الإطار تتحرك القيادة، ومن أجل هذا نرى سيد القادة محمدًا ﷺ يبحث في الأرض كلها عن مكان آمن، لا تستطيع يد الشرك أن تطاله، وكان هذا المكان هو أرض الحبشة[٢] ®.

ولم يكن محمد ﷺ والمسلمون بدعًا في ذلك ـ الهجرة عند الاضطهاد الديني ـ فالإنجليز حينما عمّ الإيذاء والاضطهاد الديني إنجلترا، بعد اعتناقها المذهب الإنجليكاني، هاجروا وأسَّسوا أربع مستعمرات من ثلاث عشرة مستعمرة أطلقوا عليها "إنجلترا الجديدة"، وكانت منتشرة على طول الساحل الشرقي لما نسميه اليوم الولايات المتحدة الأمريكية[٣].

ومما يزيد الأمر وضوحًا أن الإيذاء والاضطهاد الديني العنيف الذي نزل بالمسلمين، كان نتيجةَ حقد الكفار على النبي ﷺ وأصحابه، يحدثنا عن ذلك الشيخ أبو زهرة فيقول: "جاءت الدعوة المحمدية، وحاول أهل العصبية الجاهلية الذين ينفِسُون على البيت الهاشمي مكانته، والذين من دأبهم أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله، والذين ألفوا رجس الجاهلية من عبادات، وتحريم الطيبات من الرزق، وقد حاول كل أولئك مجتمعين ومنفردين الوقوف في وجهها، وهي تنمو وتزيد، تسعى قُدُمًا، ولا تتأخر، وإذا كان السير بطيئًا، فهو متواصل من غير توانٍ ولا قصور، وكلما انبلج نوره واتسعت دائرته، ظنوا أنها دعوة قابلة للانطفاء، فحاولوا إطفاءها بالحيلة والعَرْضِ الذي يشبه الرشوة، فما أجدى ذلك فتيلًا، وحاولوا الإعجاز بالجدل فارتدوا على أدبارهم خاسئين وقامت الحجة عليهم، وحاولوا أن يُشوِّشوا على القرآن الكريم وهو يُتلى، وتعاهدوا أن يَلْغُوا في القرآن الكريم، والنبي ﷺ يتلو.

---

١. المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٥ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٤٨ بتصرف يسير.

® في **"أثر العقيدة في حياة المسلمين"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

٣. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٨٢ بتصرف.

حاولوا كل هذا، ولم يُجْدِ شيء منه، والإسلام سائر في طريقه، وإن كانت العقبات، فهي لا تعوق السير، وإن أبطأته، ولم يجدوا سبيلًا إلا إلى أمرين هما:

١. الإيذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة، ولمن آثر السلام والعافية، وهذَّب قلبه الإيمانُ، فاعتقد أن الإيمان يوجب عليه الصبر على البلاء، وألا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليها، وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد ﷺ، ومعه صديقه أبو بكر ﷺ، ومع هؤلاء العبيد والفقراء الذين لا يملكون سطوة، ولا عشيرة لهم.

٢. الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانًا أدبيًّا على محمد ﷺ، وهو أبو طالب؛ لأنه عمه الذي كفله صغيرًا، وهو رأس بني هاشم، وهو الذي يحميه كبيرًا.

فلما لم يجدوا واحدًا من الأمرين زادوا في الإيذاء وجعلوه جماعيًّا، ولم يجعلوه أُحاديًّا فقط، ووجدوا بني هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد ﷺ يحميه بأَنَفَة العشيرة، إلا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لهبًا في جهنم وهو أبو لهب، فقد كفر بالله، وكفر بالقرابة، وكفر بالحمية، حمية العشيرة، والنصرة، وأسلَمَ ابنَ أخيه، فَضَلَّ ضلالًا بعيدًا.

لقد تفنَّن المشركون في إيذاء من أسلم - فمن لم يكن له من يحميه من أهل وعشيرة يؤذنونه - بالتعذيب والضرب الشديد، ولقد بلغت النذالة بأبي جهل اللعين أن يضرب امرأة بالرمح في موضع عفتها، حتى ماتت، من غير أي تحرج من أدب إنساني، أو عروبة نبيلة، هذا شأن من لم تكن له عشيرة تذود عنه، أو تمنعه.

ومن كان له عشيرة أخذوا بالتشنيع عليه، وكان يتولى ذلك أبو جهل سفيههم، وشيخ أراذلهم، وقد حكى ابن إسحاق في سيرته ذلك، فقال: "كان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال قريش إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنُفَيِّلَنَّ رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرًا، قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به".

لقد أسلم رجال، فأراد بنو مخزوم - عشيرة أبي جهل - أن يلوموهم على الطريقة التي أشرنا إليها من تسفيه أحلامهم، ولكنهم خشوا شر قومهم فاستأذنوهم وأذنوا، قالوا: إنا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنا نأمن بذلك غيرهم.

قالوا ذلك لهشام بن الوليد حين أسلم أخوه، فقال لهم: هذا لكم فعليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفسه، احذروا على نفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن به أشرفكم رجلًا، فقالوا في أنفسهم: اللهم العنه، فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلًا، فتركوه، ونزعوا عنه. ومن كان له دَيْن لا يعطونه، ويماطلونه إذا أسلم، بل لا يؤدون الدَين.

ومن هؤلاء خباب بن الأرت، كانوا يعذبونه؛ لأنه لم يكن ذا عشيرة تحميه، ومع ذلك كانوا يحاربونه في صناعته فلا يعطونه أجر ما صنع.

وجاء عن خبَّاب بن الأَرَتِّ ﷺ أنه قال: كنت رجلًا قَيْنًا[1]، فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لي عنده فأتيته

١. القَيْن: الحَدَّاد أو الصائغ.

فجئت أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله، حتى تموت ثم تبعث فلا. قال: وإني لميت ثم مبعوث، قلت: نعم فإنه سيكون لي ثَمَّ مال وولد. فأقضيك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ (مريم)"[١] [٢].

وهكذا اشتد العذاب علي المسلمين رجالًا ونساءً، وصار أذى المشركين الوثنيين لا يطاق، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: "إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلَم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه"[٣].

بيد أننا نتساءل: لماذا اختار القائد محمد ﷺ الحبشة دون غيرها لتكون الموطن الذي يهاجر إليه المسلمون؟! ولِـمَ لم تكن الهجرة إلى إحدى القبائل العربية في داخل جزيرة العرب؟!

وللرد على هذين التساؤلين يقول الدكتور شوقي أبو خليل: "إن النبي ﷺ لم يفكر أن تكون الهجرة إلى إحدى القبائل العربية؛ لأنها كانت ترفض دعوته في مواسم الحج إما مجاملة لقريش، أو تمسكًا بدينها الوثني.

كما أنه لم يفكر في أن تكون الهجرة إلى موطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين؛ لأن كلًّا من الجاليتين اليهودية والمسيحية، كانت تنازع الأخرى وتنافسها على النفوذ الأدبي ببلاد العرب. فهما والحالة هذه لا تقبلان منافسًا ثالثًا لا سيما إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥).

أما اليمن، فقد كانت مستعمرة فارسية، ولم يكن الفرس يدينون بدين سماوي، فلم يطمئن الرسول ﷺ إلى الالتجاء إليهم، وقد برهنت الأيام على بعد نظره ﷺ، فإن كسرى كتب إلى باذان عامله على اليمن بعد ذلك: "ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جَلْدَيْن من عندك فليأتياني به".

وكذلك كانت للحيرة - البعيدة غاية البعد عن مكة - محاذيرها، حيث كان لقريش صلات وثيقة معها، ومصالح متبادلة، وزيارات في أوقات منتظمة، فإذا علمت قريش بوجودهم فيها طلبتهم، كما حاولت ذلك مع النجاشي الذي رفض تسليمهم لتسامحه.

ولا ننسى أن رد الفعل عند قريش كان إرسال رجلين لإرجاع المهاجرين من الحبشة، والرجلان هما: عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، ولما فشلا في ذلك، قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب، وبقي النبي ﷺ وقومه ومن آمن معه في شِعب من شِعَاب مكة ثلاث سنوات، لاقوا فيها ما لاقوا[٤].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب (٢١٥٥)، وفي موضع آخر.

٢. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٣٤٩ : ٣٥٤ بتصرف.

٣. صحيح: أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة (١٧٥١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

٤. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٢٨٩، ٢٩٠ بتصرف يسير.

مما سبق يتضح لنا أن العقيدة هي قوام حياة المسلم، بها يعيش ومن أجلها يضحي بالغالي والنفيس، يهجر أرض الآباء والأجداد، والمال، والتجارة للحفاظ عليها، وعلى القيادة الحكيمة أن تختار المكان المناسب الذي في كنفه تنمو العقيدة، ويأمن أصحابها على أنفسهم وعقائدهم، فضلًا عن كون هذه القيادة متمتعة بما يُسمى فقه الواقع وقراءة الأحداث المحيطة قراءة واعية.

وتجلى ذلك في محمد ﷺ - خير قادة البشر - حينما اختار لأصحابه الحبشة موطنًا للهجرة.

ولعل مُغرضًا آخر ينفث سم فكره قائلًا: اختار محمد ﷺ الحبشة لهجرة أتباعه إليها طمعًا في التجارة والدعم العسكري.

ونحن بدورنا نزيل خبث هذا الفكر، ونذكره بأن الحبشة لم تكن السوق التجاري لقريش، وإنما كانت تجارتها إمّا إلى الشام، وإما إلى اليمن، فلو كان هؤلاء تجارًا لذهبوا إلى إحدى هاتين الجهتين لا إلى الحبشة، وهَبْ أن المهاجرين إلى الحبشة ذهبوا من أجل التجارة، فما الذي يضر قريشًا؟ ولماذا أرسلت رجلين منها لاستدعاء المهاجرين إن لم يكن العداء عداءَ فكرٍ وعقيدة؟!

أما عن القول بأن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى التوصل إلى طريق تجاري بديل يتجه من الجنوب إلى الإمبراطورية البيزنطية فهو قول لا سند له من تاريخٍ أو منطقٍ، فلم تكن إمكانات المسلمين المحدودة في ذلك الوقت تسمح للرسول ﷺ بالتفكير في مشروع كبير كهذا، ثم إنه لو صح هذا الافتراض لما تطلب الأمر هجرة إلى الحبشة واستقرارًا فيها، بل كان من الممكن تحقيق هذه الغاية من خلال بعثة محدودة تبلِّغ الرسالة ثم تعود لا من خلال أسر كاملة مهاجرة!

أما ما يقال عن الدعم العسكري فمرفوض أيضًا، فلو أراد النبي ﷺ دعمًا عسكريًّا لأرسل وفدًا من اثنين أو ثلاثة، ثم عادوا بما طلب سلبًا أو إيجابًا، ولكن الهجرة شملت أُسَرًا بأطفالها ونسائها، ومكث الجميع هناك سنوات، فلو طُلب الدعم العسكري لتحدد الموقف - في الأيام أو الأشهر الأولى - بالرفض أو الإيجاب، ولسجل لنا التاريخ في محادثة جعفر بن أبي طالب والنجاشي لمحات من طلب معونة عسكرية، وهذا ما لم يكن[1].

ثانيًا. إذا كان المسلمون يواجهون حرب إبادة عقدية، فهل يعقل أن يكون بين كبار هما المسلمين شحناء وبغضاء، تصل بهم إلى حدِّ الانقسام إلى مجموعتين متنازعتين؟!

ما قيل من أن خلافًا حدث بين أبي بكر وعثمان بن مظعون؛ فهجَّر النبي ﷺ عثمان وأبقى الصديق، ادّعاء مرفوض لأسباب عديدة منها:

- أنه ليس من المعقول أن يوجد مثل هذا الصراع، والنبي ﷺ بين ظهرانيهم، لا سيما وأن الشارع قد بيَّن بصراحة أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، ربها واحدٌ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون).

---

١. الهجرة حدث غير مجرى التاريخ، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٥، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٥، ٣٦ بتصرف.

وكيف نقبل أن يكون هناك صراع ما بينهم، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩)؟ فنحن نجزم أنهم - لشدة تراحمهم وتآلفهم - ما كانوا ليزعجوا النبي ﷺ بخلاف.

وكيف نقبل وجود فكرة الزعامة بين المسلمين وقد عرض الباحثون صورًا شتى من زهد المؤمنين بمناصب الحكم والسلطة، كما ظهر في سير الكثير منهم أنهم تنازلوا عنها إلى من رأوا أنهم أكفأ منهم في مجال السياسة والحكم؟!

- وإذا كان مثل هذا الخلاف على الزعامة موجودًا فلِمَ لم يظهر أثر له بعد وفاته ﷺ؟!، وإذا جاز للمتشكك أن يذكر بأن المصالحة تمت سريعة نسبيًّا، فهل يقبل أن قومًا يضطرون إلى الهجرة إثر نزاع أو خلاف، ثم يعودون ببساطة متناهية فيقبلون بمكانة خصومهم؟

وهل للمتشكك أن يُظهر لنا لماذا عاد ابن مظعون "وجماعته"؟ وكيف قبلوا بزعامة محمد وبمنزلة الصديق بين المسلمين؟ وهم الذين لم يقبلوها من قبل كما يدعي، أما إذا كان المتوهم يبني أحكامه على الظن دون التحقيق، فإن رأيه مرفوض بحسب المنهج العلمي للتاريخ.

هذا.. وإن لدينا دليلًا يقطع على المتوهم حجته، وذلك أن أبا بكر نفسه خرج مهاجرًا، وكان من الممكن أن يغادر أرضه ودياره في سبيل الله لولا أن ردَّه ابن الدُّغُنَّة.

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها -: "فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَرْك الغِماد[١]، لقيه ابن الدُّغُنَّة وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أَسِيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج، إنك تُكْسِب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[٢]، وتَقْرِي[٣] الضيف، وتُعِين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عَشيَّة في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلًا يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويَقري الضيف، ويُعين علي نوائب الحق؟ فلم تكذِّب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربَّه في داره، فليُصلِّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، لا يَسْتَعْلِن به؛ فإنا نخشى أن يَفْتِن نساءنا وأبناءنا..."[٤].

وبعد.. فمن ذا الذي يرضى بهذه الفِرْية على أبي بكر، وابن مظعون؟ وأي خلاف بينهما، وقد شرع الأول باللحاق إلى حيث هاجر الثاني"[٥]. ومن ثَمّ فهذه لعمر الله دعوى عريضةٌ عارية لا تستند إلى دليل عقلي أو نقلي.

---

١. بَرْك الغِماد: موضع بين مكة وزبيد.
٢. الكَلّ: الضعيف.
٣. تَقْري: تُكرم.
٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٢٩٢)، وفي موضع آخر.
٥. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٢٨٦: ٢٨٩.

ثالثًا. الهدف الرئيس من هجرة المسلمين إلى الحبشة، كان حماية الدعوة الإسلامية الناشئة، والبحث عن مكان آمن للدعوة، وصياغة قواعد جديدة للانطلاق بالرسالة:

لقد قصد النبي ﷺ حماية الدعوة عن طريق الهجرة، ومما يؤكد ذلك ويوضحه ما ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين: "إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُنال أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا أو مخرجًا مما أنتم فيه"[1].

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وكان خروجهم في رجب من السنة الخامسة من المبعث، فأقاموا بالحبشة شعبان ورمضان، وخرجت قريش على آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوا منهم أحدًا، ثم رجعوا إلى مكة في شوال لما بلغهم أن قريشًا صافوا رسول الله ﷺ وكفوا عنه...

ولما استمر رسول الله ﷺ على سب آلهتهم عادوا إلى شر ما كانوا عليه، وازدادوا شدة على من أسلم، فلما قرب مهاجرة الحبشة من مكة وبلغهم أمرهم توقفوا عن الدخول، ثم دخل كل رجل في جوار رجل من قريش، ثم اشتد عليهم البلاء والتعذيب من قريش، وسَطَتْ عليهم عشائرهم، وصعب عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى الحبشة مرة ثانية فخرجوا، فكان خروجهم الثاني أشق عليهم وأصعب، فكان عدة من خرج في هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلًا إن كان فيهم عمار بن ياسر، فإنه يشك فيه، قال ابن إسحاق: ومن النساء تسع عشرة امرأة.

وهكذا نجد أن الثقل الكبير للمسلمين قد انتقل إلى الحبشة، فأن يغادر مكة ثلاثة وثمانون رجلًا وتسع عشرة امرأة يعني هذا أن قوة ضخمة وتجمعًا كبيرًا قد قام في قطر آخر وبعيد عن مكة وعن متناول يدها، يستطيع أن ينتشر ويتضخم، ويهدد وجود مكة ذاتها.

وهذا المنطلق لم يكن ليغيب عن ذهن رسول الله ﷺ، البحث عن قاعدة صلبة ومكان آمن آخر للدعوة غير مكة، حيث لا تستطيع قريش - مهما بلغ من عتوها[2] - أن تُنهي الوجود الإسلامي في الأرض، وهذا ما يحسن أن تنتبه الحركة الإسلامية إليه في تخطيطها، حيث لا تضع كل طاقاتها البشرية والمادية في أرض واحدة، تكون معرضة فيها للإبادة، بل تعدد أماكن تجمعها وتواجدها، بحيث تستطيع لو فقدت موقعًا معينًا أن تنتقل إلى موقع ثانٍ تنطلق منه وتواجه الجاهلية من خلاله.

ولا شك أن مغادرة الشباب المسلم مواقعه وأماكنه إلى أرض جديدة يعاني فيها آلام الغُربة والوحشة عن الأهل والوطن - هو أمر صعب وشاق وتضحية كبيرة، لا تتحقق إلا إذا كان هذا الشباب على مستوى من الإيمان العظيم يتجاوز به هذه العقبات، وأن تكون عقيدته وحبه لها أكبر من حبه لوطنه، وحنينه لقومه، وارتباطه بأرضه. أن تكون رابطة العقيدة أعمق غورًا

١. صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة (١٧٥١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

٢. العُتُو: التَّجبُّر والتَّكبُّر.

في نفسه، وأشد أثرًا في قلبه من أية رابطة أخرى مهما سمت وارتفعت: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة)، وخاصة أن الهجرة لهذه الأرض النائية ـ الحبشة ـ، والمعيشة بين قوم غير قومهم يتكلمون بلغة غير لغتهم، ولهم عادات وتقاليد ومعيشة ودين غير عاداتهم ودينهم وتقاليدهم، هي أشق على النفس، وأقسى على الروح، فإن لم يكن جنود الحركة الإسلامية على المستوى المذكور من الإيمان، فلن تنجح القيادة في تنفيذ خطتها ومخططاتها.

إنه لا بد أن يتربى الشباب المسلم على أن تكون عقيدته أغلى عليه من كل شيء في حياته، وأن يكون ارتباطه بدينه أقوى من أية رابطة أخرى من أهل، أو زوج، أو ولد، أو عشيرة، أو أرض، أو مال، أو وطن، أو مصلحة.

وهذا المستوى الإيماني العظيم بالله تعالى هو الذي جعل هذه الأعداد الكبيرة تهاجر إلى هذه الأرض النائية البعيدة.

إننا ونحن اليوم في العصر الحديث، وفي وسائل المواصلات الضخمة التي اختصرت الأشهرُ بالسَّاعات، وبالارتباط العالمي القائم في دول الأرض من حيث الاتصال، لو دعينا إلى الهجرة إلى الحبشة لأحسسنا بثقل ذلك وصعوبته، ووجدنا من يتلكأ عن الإجابة. وسماعنا بالحبشة بالذات يجعل الوحشة والرهبة هي المسيطرة على كياننا لو دعينا لذلك.

فكم يا ترى هو المستوى الإيماني الرفيع لدى تلك العصبة المؤمنة في الأرض، وهم يعرفون الأحباش وينظرون إليهم من علٍ على أنهم عرب أقحاح، وأولئك عجم سود كأن رأس كل منهم زبيبة، كانوا يترفعون عنهم نسبًا وشرفًا، وهم يرون في صفوفهم بلال بن رباح الحبشي العبد الأسود، إنها ـ لَعَمْرُ الحقِّ ـ هجرةٌ نادرة في التاريخ، وتعالٍ عن كل قيم الأرض وروابطها في سبيل الله، وحُقّ لهؤلاء أن يقول لهم رسول الله ﷺ: "للناس هجرة (أي لمهاجري يثرب) ولكم هجرتان". (أي لمهاجري الحبشة)[1][2].

وقد كان ثمة هدف آخر من وراء الهجرة إلى الحبشة غير هدف الحماية لجنود الدعوة وأفرادها، وهذا ما أشار إليه ـ سيد قطب ـ رحمه الله ـ إذ يقول: "ومن ثم كان بحث رسول الله ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها فيها أن تَخْلُصَ من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وكان هذا هو السبب الأول والأهم للهجرة.

---

١. إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، حديث ميمونة زوج النبي ﷺ (٧٢٣٣)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر (٧١٩٤)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقات صحيح ابن حبان (٧١٩٤).

٢. المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، مرجع سابق، ص٤٨، ٤٩.

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة عدة اتجاهات، سبقها الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل. والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية؛ فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاهًا وقوة ومنعة من المسلمين.

غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم - في بيئة قبلية - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين، منهم جعفر بن أبي طالب، وأبوه وفتيان بني هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبي ﷺ، ومنهم الزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو سلمة المخزومي، وعثمان بن عفان الأموي وغيرهم، وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبدًا.. وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش، وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم، فرارًا من الجاهلية، تاركين وراءهم كل وَشائج[1] القربى، في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزًا عنيفًا، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان، زعيم الجاهلية، وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها.

ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة - أو آمنة على الأقل - للدعوة الجديدة، وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة، ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إشهاره نهائيًا إلا ثورة البطارقة عليه، كما ورد في روايات صحيحة"[2].

هذه اللفتة العظيمة من صاحب الظلال - رحمه الله - لها من السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب، ثم غزوة بدر، وأحد، والخندق، وصُلْح الحُدَيبية.

فلقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق؛ حيث قدم عشرة آلاف مقاتل لاستئصال شأفة المسلمين هناك، وبعد رد الكافرين بغيظهم قال رسول الله ﷺ: "الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم"[3].

فلقد انتهى الخطر في اجتياح المدينة بعد الخندق - كما في النص النبوي الآنف الذكر - وجاء صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ليؤكد هذا المعنى، ويؤكد الاعتراف الرسمي من قريش بدولة المدينة، وحين اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة آمنة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين،

---

١. الوَشائج: جمع وشيجة، وهي الصِّلة.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٢٩.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٨٤).

عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التي كان من الممكن أن يلجأ إليها الرسول ﷺ لو سقطت يثرب في يد العدو.

إنه الفقه السياسي الأعظم، والتخطيط النبوي الأعمق من الرسول ﷺ وهو يمضي في بناء دولة الإسلام، ويدرس كافة الاحتمالات المتوقعة، ويبحث في كل مكان عن الأرض المناسبة لقيام دولة الإسلام، أو حماية العقيدة فيها، وفعلًا وصل المهاجرون من الحبشة إلى المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ في خَيْبَر، فمضوا إليه هناك والتحقوا به، ووصلوا بعد فتح خيبر، فقال رسول الله ﷺ: "ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ؛ بفَتْح خيبر أو بقُدُوم جعفر"[١][٢].

مما سبق يتبين لنا أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت بسبب شدة إيذاء قريش للصحابة، ولما رأى النبي ﷺ أن البلاء يشتد على المسلمين أمرهم بالهجرة إلى الحبشة؛ لأن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهو النجاشي الذي أحسن وفادتهم.

إذن فلم تكن هجرتهم لأسباب اقتصادية أو سياسية - كما يدعون -، ولكنها كانت هجرة خالصة لوجه الله ﷻ، والدليل على ذلك أنه لما أصبحت المدينة دارًا آمنة للمسلمين، بعث النبي ﷺ في طلبهم، والعودة إليه في المدينة. فأي تجارة كانوا يردونها؟ وأي سياسة كانوا يبغونها في تلك البلاد البعيدة عنهم؟!!

الخلاصة:

- الإيذاء والاضطهاد الديني في كل زمان ومكان من أهم أسباب الهجرة، ولم يكن المسلمون وقائدهم - رسول الله ﷺ - بدعًا في ذلك، وما شأن المستعمرات الإنجليزية - إنجلترا الجديدة - علينا ببعيد.
- لقد استقبل ملك الحبشة المسلمين استقبالًا حافلًا، وحظوا لديه بكل عناية ورعاية، ولو كان الغرض من هجرة المسلمين الرغبة في تحويل الحبشة إلى قاعدة لمهاجمة تجارة مكة كما يزعم المغالطون، فإن ملك الحبشة لم يكن ليقبل ببساطة أن تتحول بلاده إلى مركز لمهاجمة تجارة المكيين رغم حسن علاقاته معهم؛ لأن قبوله ذلك كان يعني تعريض بلاده لأزمات اقتصادية، وسياسية هي في غنى عنها، فضلًا عن أن وضع المسلمين في ذلك الوقت لم يكن ليسمح لهم بالدخول في مثل هذه المواجهة.
- لو كان الغرض من هجرة المسلمين إلى الحبشة رغبة من الرسول ﷺ في الحصول على مساعدة عسكرية من الحبشة للسيطرة على مكة، لما تطلب ذلك هجرة المسلمين للإقامة هناك، بل كان يكفي أن يرسل الرسول ﷺ بعثة من شخص، أو عدة أشخاص لتؤدي المهمة ثم تعود، ولم يكن الرسول - بكل ما أوتي من فطنة وبُعْد نظر - ليتوقع من ملك الحبشة أن يقبل القيام بمغامرة غير محسوبة ويُلَبِّي طلبًا كهذا.
- أما عن وجود خلافات حادة في الرأي بين مجموعة أبي بكر الصديق، ومجموعة عثمان بن مظعون - رضي الله عنهما - فليس في مصادرنا التاريخية المعتمدة

---

١. حسن: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفضائل، باب ما ذكر في جعفر بن أبي طالب ؓ (٣٢٢٠٦)، والطبراني في الكبير، باب الجيم، جعفر بن أبي طالب الطيار في الجنة ؓ يكنى أبا عبد الله وأمه (١٤٧٠)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٤٧).

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص٥١ بتصرف.

ما يشير إلى انقسام السابقين إلى الإسلام إلى مجموعتين، فضلًا عن وجود خلافات حادة بينهما، وكيف لنا أن نتصور أن السابقين الأولين سمحوا لأنفسهم أن يتمزقوا في وقت كان فيه مشركو قريش يقعدون لهم كل مَرْصَد يتوعَّدونهم، ويصدُّونهم عن سبيل الله تبارك وتعالى؟! لقد كانت معركة المسلمين مع المشركين معركة حياة أو موت، ومن المستحيل أن يتطوع بعض المسلمين في تلك الظروف ليعينوا المشركين على أنفسهم.

- إن ما زعمه هؤلاء مخالف لتزكية الله تعالى للسابقين الأولين: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ (التوبة).

- التفسير المقبول لهجرة المسلمين إلى الحبشة هو ما قدمته المصادر التاريخية الموثوق بها واالمعتمدة لدى المؤرخين الثقات؛ وهو أن الهدف من ورائها كان حماية الدين والنفس في ظروف جاوز فيها اضطهاد قريش للمسلمين حدود الاحتمال، وفي مثل هذه الظروف كان لا بد أن يبحث القائد الحكيم عن أرض جديدة، وأمل جديد، وأفق أكثر سماحة وإشراقًا؛ لتنطلق منه الدعوة الناشئة، ولتجد ثمَّ بيئة صالحة لها تنمو وتنتشر، فاختار أرض الحبشة التي لا يظلم حاكمها أحدًا، ولا يحجر على رأي أحد أو فكره، فكانت الهجرة، وكان النجاح.

الشبهة السابعة

إنكار حادثة الحصار الاقتصادي على بني هاشم وبني المطلب في شِعْب أبي طالب(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهِّمين حادثة الحصار الاقتصادي الذي ضربه المشركون على بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم، لمّا اجتمعوا على حياطة محمد ورفضوا أن يُسْلِموه إليهم، وهو الحصار الذي ظل ثلاث سنوات كاملة، حتى رُفِعَ عنهم.

ويُراد بذلك الحطُّ من التضحيات التي قدمها المسلمون السابقون.

وجها إبطال الشبهة:

١) أجمعت المصادر التاريخية على إثبات حادثة الشِّعْب بما يجعل إنكارها مَحْض مغالطة وتَقَوُّلًا لا يستند على قَوِي دليلٍ ولا ضعيفه.

٢) إن الواقف على الدوافع الحقيقية المؤدية بالمسلمين إلى الوقوع في ذاك الحصار الاقتصادي - من انتشار الإسلام بشكل كبير وزيادة ثقله - ليؤمن منطقيًّا بما لا يدع مجالًا للشك - قبل أي شيء - بحَتْمِيَّته كردِّ فعلٍ مُضادٍّ لحالة المسلمين تلك.

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. محمد في مكة، مونتجمري وات، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. الحصار واقعة تاريخية متَّفق عليها:

لقد أجمعت المصادر التاريخية[1] على صحة ثبوت المقاطعة الاقتصادية من قِبَل تجار مكة لقرابة النبي ﷺ لما حُصِرُوا بِشِعب أبي طالب، وأن هذا الحصار شَمِل بني هاشم وبني المطلب مسلمين وكافرين سوى أبي لهب.

وإن قراءة سريعة لكتب التاريخ الصحيحة ـ التي أرَّخت لفترة الدعوة الإسلامية في مكة ـ لتُظْهِر صحة حادثة المقاطعة الاقتصادية التي فرضها مشركو مكة وتجارها على المسلمين في الشِّعب لحماية النبي ﷺ من القتل، فقد علموا سَعْي المشركين لقتل النبي ﷺ بعدما بدأت دعوته في الانتشار بين الناس.

يقول صاحب كتاب "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد": "فلما عرفت قريشٌ أن رسول ﷺ قد منعَه قومُه؛ أجمع مشركوهم على مُنَابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشِّعْب، وأجمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب؛ على ألا يُنْكحوهم ولا يَنْكِحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يَبْتاعوا منهم، ولا يَقْبلوا منهم صُلْحًا ولا تأْخذهم بهم رأفة حتى يُسْلموا رسولَ الله ﷺ للقتل، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفةً، ثم تعاهدوا وتعاقدوا على ذلك، واختُلِفَ فيمن كتب الصحيفة؛ فقال ابن إسحاق: منصور بن عكرمة، وقال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث. فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ بعض أصابعه، وقال غيره: بغيض بن عامر. فَشُلَّت يده. وقال غيره: هشام بن عمرو بن الحارث العامري وأسلم بعد ذلك.

ويُجْمع بين هذه الأقوال باحتمال أن يكون كُتب منها نُسَخ، ثم علَّقوا الصحيفة في جَوْف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وقطعوا عنهم الأسواقَ، ولم يتركوا طعامًا ولا إدامًا ولا بَيْعًا إلا بادروا إليه واشتروه دُونهم.

غير أن قريشًا حين فعلت ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطَّلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شِعْبه مُؤْمنهم وكافرهم، فالمؤمن دِينًا والكافر حَمِيَّةً، وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهَرهم وانضم إليهم، وكان يساعدهم في هذا الحصار، وقال ابن عباس: حُصِرْنا في الشِّعْب ثلاث سنين وقطعوا عنا المِيرة حتى إن الرجل ليَخرج بالنفقة فما يُباع له حتى يرجع، حتى هلَكَ من هلك"[2].

وكان أبو طالب من أكثر الناس دفاعًا عن النبي ﷺ وعن دعوته، ولم يُجِبْ قريشًا عندما طلبت منه تسليم النبي ﷺ لهم؛ كي يقتلوه مقابل أن يأخذ أبو طالب فتى آخر مكانه، فتحصَّن نتيجة لذلك في الشِّعب، وناصره بنو هاشم وبنو المطلب، ولكنه لما رأى شِدَّة الحصار الذي فرضه تجار مكة عليهم عاتبهم على ذلك في مجموعة من الأبيات الشعرية، وكان مما قاله:

أَفِيْقُوا أَفِيْقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثَّرَى
وَيُصْبِحَ مَنْ لم يَجْنِ ذَنْبًا كَذِي ذَنْبِ

١. للمزيد عن حصار بني هاشم ينظر: تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج٢، ص٣٢، ٣١. الطبقات الكبير، ابن سعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج١، ص١٧٧: ١٧٩. الكامل، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٢، ص٨٧: ٩٠.

٢. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٢، ٥٠٣ بتصرف.

وَلَا تَتْبَعُوا أَمْرَ الوُشَاةِ وَتَقْطَعُوا
أَوَاصِرَنَا بَعْدَ المَوَدَّةِ والقُرْبِ
وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْبًا عَوَانًا وَرُبَّمَا
أَمُرَّ عَلَى مَنْ ذَاقَه جَلَبُ الحَرْبِ
فَلَسْنَا وَرَبِّ البَيْتِ نُسْلِمُ أَحْمَدًا
لِعَزَّاءِ مَنْ عَضِّ الزَّمَانِ وَلَا كَرْبِ[1]

واشتدّ الحصار على بني هاشم وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، حتى إنهم أُصيبوا بضيق العيش، إلى حد أن أحدهم يخرج ليتبول فيسمع بقعقعة شيء تحته فإذا هي قطعة جلد بعير يابسة، فيأخذها ويغسلها، ثم يحرقها، ثم يسحقها ثم يسْتفها ويشرب عليها الماء، ويتقوَّى بهذه الجلدة ثلاثة أيام، وكانت قريش تسمع صوت أطفال الشِّعْب وهم يبكون من شدة الجوع.

واستمر حال المحاصَرين في الشعب على هذا السوء طوال فترة الحصار، إلى أن استنكر بعض المشركين هذا الحال على بني عمومتهم وأقاربهم، وحاولوا نقض نصوص الصحيفة التي كتبتها قريش، وعلقتها في الكعبة، وكان من بين هؤلاء المستنكرين هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي وغيرهم، فاجتمعوا وانطلقوا إلى الكعبة لكي يقطعوا الصحيفة، فقابلهم أبو جهل ورفض تنفيذ ما اتفقوا عليه، وقال: هذا أمر قُضِي بليل، تُشُووِرَ فيه في غير هذا المكان، وكان أبو طالب جالسًا في ناحية من المسجد لا يتكلم، وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرَضَة - دابة صغيرة تأكل الخشب والحبوب وتعرف في مصر بالسوس - قد أكلتها إلا اسم الله تبارك وتعالى الذي كان فيها، وفي رواية أن الأرضة أكلت اسم الله تعالى وتركت ما دونه من كلمات الشرك والظلم والقطيعة[2].

ويستمر صاحب كتاب "سُبُل الهدى والرشاد" في سَرْد أحداث الحِصار فيذكر أن الله أطلع رسولَه على ذلك - خبر الأَرَضَة - فذَكره رسولُ الله ﷺ لعمِّه أبي طالب، فقال عمه أبو طالب: أَرَبُّك أخبرك بهذا؟ قال: "نعم". قال: فوالله ما يدخل عليك أحد - وفي رواية قال: لا والثواقِب[3] ما كَذَبْتني -، فانطلق بعِصابة[4] من بني هاشم وبني المطلب حتى أَتَوا المسجد - وهم خائفون - لقريش، فلما رأتهم قريش في جماعة أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليُسْلموا رسولَ الله ﷺ برُمَّته إلى قريش، فتكلم أبو طالب فقال: جرت أمورٌ بيننا وبينكم لم نذكرها لكم. فَأْتوا بصحيفتكم التي فيها مواثيقكم، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صُلْح. وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها.

فَأَتوا بصحيفتهم مُجْمعين لا يشكُّون أن رسول الله ﷺ يُدفَع إليهم، فوضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب: قد آن لكم أن تَرْجعوا عما أَحْدَثتم علينا وعلى أنفسكم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم في أمرٍ هو نصف بَيْننا

---

١. المرجع السابق، ج٢، ص٥٠٣.

٢. انظر: السيرة النبوية، علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٧، ٣٠٨ بتصرف.

٣. الثَّواقب: جمع الثَّاقب، وهو المُضيء أو ما ارتفع فوق النجوم.

٤. العِصابة: الجماعة من الناس من العَشَرَة إلى الأَرْبَعين.

وبينكم: إن ابن أخي أخبرني ولم يَكْذبني أن هذه الصحيفة التي في أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابَّة فأبقت اسم الله، وأكلت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان كما قال فلا والله لا نُسْلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلًا دفعنا إليكم صاحبنا فقَتَلْتُم أو استحْيَيْتم. فقالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادِقَ المصْدوق ﷺ قد أخبر بخبرها قبل أن تُفتح.

فلما رأت قريش صِدْق ما جاء به أبو طالب عن رسول الله ﷺ قالوا: هذا سِحْرُ ابن أخيك. وزادهم ذلك بغيًا وعُدوانًا. فقال أولئك النفر من بني هاشم وبني المطلب: إن أَوْلَانا بالكذب والسحر غَيْرُنا، فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أَقْرَب إلى الجِبْت والسِّحر.

وقال أبو طالب: يا معشر قريش، عَلامَ نُحاصَرُ ونُحْبَس وقد بان الأمر وتبيَّن أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة، ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة، فقال: اللهم انصرنا على من ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا، ثم انصرفوا إلى الشِّعْب[1].

وبناء على ما تقدم من نصوص وأدلة تثبت لدينا واقعة الحصار الاقتصادي تلك في شِعْب أبي طالب، ذلك الحصار الذي جمع بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم.

ويقف هذا الثبوت القطعي المعلوم من التاريخ بالضرورة أمام ضعف حجة المنكرين والرفض المطلق لا لشيء إلا هوى النفس والنوايا المُبَيَّتة، ولا دخل لتلك - لو أنصفوا - في إثبات حدث تاريخي أو نفي آخر.

ثانيًا. قوة الدوافع المؤدية إلى فرض الحصار الاقتصادي تثبت وقوعه بما يقتضيه المنطق، فضلا عما تثبته مصادر التاريخ:

معلوم أن هناك عدة أسباب دفعت إلى هذا الحصار؛ فقد طلبت قريش قتل رسول الله ﷺ مرات عديدة، وعندما خاف عليه عمه أبو طالب من القتل تحصَّن به في شِعْب أبي طالب، وانضم إليه بنو هاشم وبنو المطلب، وكان أبو طالب في طُول مدتهم في الشِّعب يأمر رسول الله ﷺ فيأتي فراشه كل ليلة حتى يراه من أراد به شرًّا أو غائلة[2]، فإذا نام أَمر أَحد بنيه أَو إخوته أَو بني عمِّه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأَمَر رسول الله ﷺ أن يأتي بعضَ فُرشهم فيرقد عليه[3].

وعندما رأت قريش هذا الحال لجأت إلى طريقة جديدة، وهي الحصار الاقتصادي ومنع التبادل التجاري مع بني هاشم وبني المطلب، ولقد فعلت قريش وتُجَّارها ذلك لعلمهم أنَّ التِّجارة هي المحرك الأول للحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحياة، فإذا توقفت التجارة تعطَّل على إثْرها العديد من المصالح الأُخرى التي لا تقوم إلا بها.

وفي هذا الشأن يقول د. على الصلابي: وفي النهي

١. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٥، ٥٠٦ بتصرف.

٢. الغائلة: الفساد أو الشر.

٣. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ص٥٠٣.

عن البيع والشراء منهم ـ أي من تُجّار مكة ـ يظهر جانب اقتصادي بالغ الأهمية، فالبيع والشراء عصب الحياة الاقتصادية، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر، فإذا انعدم ذلك التعامل انهار البناء الاقتصادي، وباتت الحياة الاقتصادية مُهدَّدة بالخطر، فيصبح الإنسان مُفْتَقدًا لضروريات الحياة، مما يُعرِّضه إلى الرُّضُوخ[1] لأوامر مَن يملك تلك الضروريات، وأثر ذلك واضح بيِّن على الجماعة والأفراد، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين، وهذا ما وقع فعلًا، فقد جاء: أنهم جهدوا، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر والجلود.

وزيادة في الحصار الاقتصادي وضعوا بندًا يسدّ الطريق أمام المسلمين في التعامل مع التجار الوافدين من خارج مكة، فكانوا يُغْلون عليهم في السِّعر حتى لا يُدْرك الصحابةُ شيئًا يشترونه، فيرجعون إلى أطفالهم الذين يتضاغون ـ يصيحون ـ جوعًا، وليس في أيديهم شيء يشغلونهم به، فكان يُسمع بكاء الأطفال من بعيد، كل هذا التضييق بسبب البند الذي يقول: "ولا يدعوا شيئًا من أسباب الرزق يصل إليهم"، كما أن هذا البند يفوِّت الحجة على من أراد أن يهدي شيئًا لأهل الشِّعب، بحجة أنه لا يبيع وإنما يُهْدى، وحتى لا تبقى ذَرِيعة[2] لإيصال الطعام إليهم تحت أي مسمى، من أجل ذلك كله وضعت قريش هذا البند[3].

ولكي يعطي تجار مكة لهذه الصحيفة ـ التي تنصّ على مقاطعة من في شِعب أبي طالب ـ نوعًا من القُدْسية علّقوها في الكعبة؛ ليلتزم كل تجار مكة بتنفيذ ما جاء فيها.

ولكن هذا الحصار كان سببًا في خدمة الدعوة الإسلامية بمقدار ما كان مواجهة قوية لها؛ فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، وأثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب[4].

ولم يكن حصار تجار مكة للمسلمين في شِعب أبي طالب من قبيل الصدفة، بل كان هذا نتيجة لعدة أسباب منها:

١. أن المسلمين ما هاجروا إلى مكان خارج مكة إلا قُوبِلُوا بالتِّرْحاب والأمان، وكان هذا يغيظ الكفار، وما كان من النجاشي ملك الحبشة أصدق دليل على ذلك.

٢. إسلام بعض الشخصيات المهمة في المجتمع المكي، والذين ترتَّبَ على إسلامهم أن تحصّن بهم المسلمون الضعفاء، وكان من بين هؤلاء عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنهما ـ، وإسلامهما ـ كما يقول د. منير الغضبان ـ كان هو بمثابة انقلاب عسكري في وقتنا الحاضر، من شأنه أن يُهيِّئ للإسلام مناخًا جديدًا للدعوة والعبادة[5].

٣. انتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان يُحسِن اختيار سفرائه إلى المناطق

١. الرُّضُوخ: الخضوع والإذعان.
٢. الذَّرِيعة: الوسيلة.
٣. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٩، ١١٠.
٤. المرجع السابق، ج١، ص٣١٣ بتصرف.
٥. المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، مرجع سابق، ص٦٤.

المجاورة لمكة، وترتب على هذا دخول خلق كثير في الإسلام، فكان هذا دافعًا لقريش لكي تفرض الحصار الاقتصادي على من بقي في شِعب أبي طالب، لمنع هذا الزحف الكاسح للإسلام.

فكانت الدعوة الإسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة وفي نَجْران، وفي أَزْد شَنُوءَة وفي دَوْسٍ وفي غِفَار، وكانت تَتِمُّ في خط واضح سيكون سندًا للإسلام والمسلمين ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة تتجاوز حدود مكة الصَّلْدة المستعصية[١].

ومما يؤكد هذا ما أجمله الإمام محمد بن يوسف الصالحي من الدوافع فيقول: رُوي أنّ قريشًا لما رأت أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا فيه أَمْنًا وقرارًا، وأَن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، وكان رجلًا ذا شَكِيمة[٢] لا يُرَام ما وراء ظهره، امتنع به أَصحابُ رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازُّوا[٣] قريشًا، فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ، وأصحابه، وجعل الإسلامُ يَفْشُو في جميع القبائل، فأَجمعوا رأْيَهم، واتفق رأْيُهم على قتل رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أفسدَ علينا أَبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه: خذوا منَا دِيَةً مضاعفة وليقتله رجلٌ من غير قريش ويريحنا وتريحون أنفسكم، فأبى قومُه بنو هاشم من ذلك وظاهَرهم[٤] بنو المطَّلب بن عبد مناف[٥]. وإلى جانب هذه الدّوافع توجد دوافع أخرى شجّعت تجار مكة على فرض هذا الحصار التجاري على المسلمين في شِعْب أبي طالب، مما كان له أثر عظيم على مسيرة الدعوة الإسلامية فيما بعد.

الخلاصة:

- لقد أجمعت المصادر التاريخية على أن حادثة حصار تجار مكة للمسلمين في شِعب أبي طالب حادثة حقيقة، وأن هذا الحصار شمل بني هاشم وبني المطلب من أسلم منهم ومن لم يسلم؛ فأما من أسلم فنُصرة لدين الله ولرسوله ﷺ، ومن لم يسلم فحميَّة ونُصرة لعادات القبيلة التي توارثها العرب على مرّ الزمان.
- التجارة هي عصب الحياة في كل العصور والأزمان، ولذلك لجأ إليها تجار مكة؛ لإضعاف شوكة المسلمين والقضاء عليهم، وكان نتيجة لشدة هذا الحصار أن أكل المسلمون ورق الشجر وجلود الحيوانات اليابسة.
- لقد اجتمعت مجموعة من الأسباب والعوامل كان من الطبيعي أن تؤدي بدورها في ظل المناخ المكي إلى فرض هذا الحصار الظالم على المسلمين، في شعب أبي طالب، ومن هذه الأسباب ما يأتي:
  - المعاملة الحسنة التي عُومل بها المسلمون في البلاد التي هاجروا إليها، وما فعله النجاشي ملك الحبشة دليل واضح على ذلك.
  - دخول بعض الشخصيات ذات الثقل السياسي والاجتماعي في الإسلام أمثال: عمر بن الخطاب

١. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣١٢.
٢. الشَّكِيمة: العزيمة والشدة والعِزَّة.
٣. عازُّوا: غالبوا.
٤. ظَاهر: عاون.
٥. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٢.

وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما.

- حسن اختيار النبي ﷺ لسفرائه إلى المناطق المجاورة لمكة مثل نجران ودَوْس وغفار، والذي أسهم في انتشار الإسلام في العديد من تلك المناطق.

- إذا تأملنا تلك الدوافع - وقوية ما هي - أدركنا أن من شأنها أن تخلُق ردَّ فعل مضاد من قِبَل تلك الجبهة المعادية بعيدًا عن ثوابت التاريخ وشواهد الواقع.

- يُسْلِمنا هذا إلى ردِّ الفعل المضادِّ أيًّا كانت طبيعته، لكن لأثر بالغ يتركه الحصار الاقتصادي باعتباره عصب الحياة، ولرغبة دفينة في نفوس الجاهليين لا تَنِيفي استئصال تلك الفئة المسلمة، كان حصار الشِّعب حقيقة يؤكدها المنطق والواقع والتاريخ.

الشبهة الثامنة

ادعاء أن الهجرة إلى المدينة كانت هروبًا(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن هجرة المسلمين إلى المدينة لم تكن خوفًا من ظلم المشركين لهم، بل كانت هروبًا من تحمل عبء الدعوة، ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في الأسباب الحقيقية للهجرة.

وجها إبطال الشبهة:

1) الهجرة سُنَّةُ الأنبياء جميعًا، وهي جهاد إيجابي وحفظ للدين، وقد كانت هجرة المسلمين ابتلاء ومحنة، ولم تكن قط هروبًا من مسئوليةِ تَحَمُّل الدعوة.

2) كانت الهجرة عملًا واجبًا؛ تكثيرًا لسواد المسلمين، ومفارقة لأرض العدو المحارب، ونصرة للمسلمين في مجتمعهم الجديد، وأخذًا بالأسباب لإقامة دولة الإسلام في البيئة المناسبة.

التفصيل:

أولا. الهجرة سنة الأنبياء جميعًا، فهي جهاد إيجابي في صورة محنة وابتلاء، ولم تكن قط هروبًا من الواقع أو تنصُّلا من المسئولية الدعوية:

لقد اعترفت الكتب المقدسة التي يدين بها أصحاب الشبهة بنبوة محمد ﷺ وهجرته، وأنه خرج من بين السيوف، لكن الترجمة الحديثة لهذه الكتب هي التي سمَّتها هروبًا.

ألم يتفكر هؤلاء في فداحة التضحية بترك الدار والمال، والأهل، والبلد؟

أكُلُّ مَن هاجر من الأنبياء يعدونه هاربًا؟ وإذا كان كذلك، فما قولهم في هجرة إبراهيم، وصالح، وهود، ولوط، وموسى، وعيسى، عليهم السلام؟

كيف يَمدح عيسى المطرودين بأن لهم ملكوتًا في السماء ثم يُذَم أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم خرجوا من ذُلِّ الاستضعاف إلى القوة والعزة، الأمر الذي ساعدهم على نشر دينهم؟!!

إن الهجرة جهاد إيجابي يستجمع فيه صاحبه قدرته ليواجه مواجهة شاملة.

هذا ولم يفكر رسول الله ﷺ في الهجرة إلا بعد أن اشتد به وبأصحابه أذى قريش واضطهادها لهم،

(*) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، 2002م.

® في "الهجرة إلى المدينة" طالع: الشبهة التاسعة، من هذا الجزء.

فهاجروا إلى المدينة فرارًا بدينهم وعقيدتهم من هذا الاضطهاد، وقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة، لذات السبب رغم بُعْد الشُّقَّة[١] واختلاف اللسان والبيئة والدين، ولكن المدينة هذه المرة تقدم للرسول ﷺ وللمسلمين ما لم تقدمه الحبشة من لسان مشترك، وبيئة واحدة، بل تقدِّمُ لهم أنصارًا في دين الله.

وقد كان الفرار بالدين والعقيدة من أرض الاضطهاد والتعذيب إلى أرض توجد فيها عوامل الحرية والتسامح، لإقامة شعائر الدين، هي سُنة الله مع أنبيائه جميعًا، فقد خرج موسى عليه السلام فرارًا من فرعون وبطشه، ولجأ نوح عليه السلام ومن آمن معه إلى الفلك، واعتزل هود وصالح قومهما لما كفروا وعتوا، وسافر لوط ومن آمن معه مِنْ فِسْق قريته، وتعرضهم له بالأذى، وهرب عيسى فرارًا بدينه من بطش بني إسرائيل.

وكذلك كانت هجرة المسلمين، فلم تكن هربًا من الدعوة، بل كانت محنة جديدة في الإسلام، "وإنما كانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ في مكة فتنة الإيذاء والتعذيب، وما يرونه من المشركين من ألوان السخرية، فلما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة، أصبحت فتنتهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم.

ولقد كانوا أوفياء لدينهم، مخلصين لربهم أمام الفتنة الأولى والآخرة؛ فقابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد، حتى إذا أشار لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة توجهوا إليها، وقد تركوا من ورائهم الوطن وما لهم فيه من مال ومتاع ونَشَب، ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة والأثقال، فتركوا كل ذلك في مكة ليسلم لهم الدين، واستعاضوا عنه بمِنَح الإخوة الذين ينتظرونهم في المدينة ليئووهم وينصروهم.

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذي أخلص الدين لله، لا يبالي بالوطن ولا بالمال والنسب في سبيل أن يَسلَمَ دينُه.

هذا عن أصحاب الرسول ﷺ في مكة، أما أهل المدينة الذين آووهم في بيوتهم ونصروهم، فقد قدَّموا المَثَل الصادق للإخُوَّة الإسلامية والمحبة في الله عز وجل.

والله عز وجل قد جعل أُخوَّةَ الدين أقوى من أخوة النسب؛ ولذلك كان الميراث في صدر الإسلام على أساس وَشِيْجة[٢] الدين، وأخوَّتِه، والهجرة في سبيله، ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد أن تكامل الإسلام في المدينة، وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأنفال)[٣].

ولأن الهجرة لم تكن أمرًا سهلًا، بل كانت بلاءً جديدًا، فقد ذم الله تعالى من تخلف عنها حين أمر الله

١. الشُّقَّة: السَّفر البعيد.

٢. الوَشِيْجة: الصِّلة.

٣. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١٣٧، ١٣٨ بتصرف.

بها، ويوضح لنا الشيخ سيد قطب - رحمه الله - كيف كانت الهجرة شاقة على النفوس، وكيف كانت محنة في حد ذاتها، إذ يقول: وهكذا نزلت هذه النصوص تُسمِّي هؤلاء القاعدين؛ محافظة على أموالهم ومصالحهم، أو إشفاقًا من مَشَاقِّ الهجرة ومتاعب الطريق، تسميهم: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (النحل: ٢٨)، بما أنهم حرموها الحياة في دار الإسلام، تلك الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة، وألزموها الحياة في دار الكفر، تلك الحياة الذليلة الخانسة الضعيفة المضطهدة، وتوعدهم ﴿جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ (النساء)، مما يدل على أنها تعني الذين فُتِنُوا عن دينهم هناك وتسألهم الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾؟ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (النساء:٩٧)، فإن ما كانوا فيه ضياع في ضياع؛ كأن لم يكن لهم شغل إلا هذا الضياع!

ويجيب هؤلاء المحتضرون - في لحظة الاحتضار - على هذا الاستنكار جوابًا كله مذلة، ويحسبونه معذرة على ما فيه مذلة: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (النساء) كنا مستضعفين يستضعفنا الأقوياء، كنا أذلاء في الأرض لا نملك من أمرنا شيئًا.

وعلى كل ما في هذا الرَّد من مَهانة تدعو إلى الزراية[1]، وتنفر كل نفس من أن يكون هذا موقفها في لحظة الاحتضار، بعد أن يكون هذا موقفها طوال الحياة، فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمي أنفسهم، بل يواجهونهم بالحقيقة الواقعة، ويُؤنِّبونهم على عدم المحاولة والفرصة قائمة: ﴿قَالُوٓاْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧).

إنه لم يكن العجز الحقيقي هو الذي يحملهم - إذن - على قبول الذل والهوان والاستضعاف، والفتنة عن الإيمان، إنما كان هناك شيء آخر، وهو حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم - يمسكهم في دار الكفر وهناك دار الإسلام، ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة، والهجرة إليها مستطاعة مع احتمال الآلام والتضحيات. وهنا ينتهي المشهد المؤثر، بذكر النهاية المخيفة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ (النساء).

ثم يستثني مَن لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ الضعاف والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته. بسبب عذرهم البيّن وعجزهم عن الفرار: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ (النساء)، ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان، متجاوزًا تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين، وفي بيئة معينة، يمضي حكمًا عامًا، يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه، وتمسكه أمواله ومصالحه، أو قراباته وصداقاته، أو إشفاقه من آلام الهجرة، متى كان هناك - في الأرض في أي مكان - دار للإسلام؛ يأمن فيها على دينه، ويجهر فيها بعقيدته، ويؤدي فيها عباداته، ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله، ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة.

أما السياق القرآني فيمضي في معالجة النفوس

---

١. الزِّراية: الاحتقار.

البشرية، التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها، وتشفق من التعرض لها، وقد عالجها في الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معًا. فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة ـ سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات في طريقه ـ في حالة الهجرة في سبيل الله، وبضمان الله للمهاجر منذ أن يخرج من بيته مهاجرًا في سبيله، ووعده بالسعة والمتنفَّس في الأرض والمنطلق، فلا تضيق به الشِّعاب والفِجاج[١]: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾ (النساء).

إن المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة وهي تواجه مخاطر الهجرة في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة، والتي قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين.

وهو يعالج هذه النفس في وضوح وفصاحة؛ فلا يكتم عنها شيئًا من المخاوف والأخطار ـ بما في ذلك خطر الموت ـ، ولكنه يسكُبُ فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمان الله ﷻ.

فهو أولًا يحدِّد الهجرة بأنها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام، فليست هجرة للثراء، أو هجرة للنجاة من المتاعب، أو هجرة للذائذ والشهوات، أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة، ومن يهاجر هذه الهجرة ـ في سبيل الله ـ يجد في الأرض فسحة ومنطلقًا فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء).

ولكن المنيَّة قد تُوافِي الإنسان في أثناء الرحلة والهجرة في سبيل الله، والموت ـ كما تقدم في سياق السورة ـ لا علاقة له بالأسباب الظاهرة؛ إنما هو حتم محتوم عندما يحين الأجل المرسوم، وسواء أقام أم هاجر، فإن الأجل لا يستقدم ولا يستأخر.

ويخلص لنا من استعراض محنة الهجرة هذه أن النفس البشرية هي النفس البشرية، وأنها قد تُحْجِم[٢] أمام الصِّعاب، أو تخاف أمام المخاطر، وتكسل أمام العقبات في خير الأزمنة وخير المجتمعات، وأن منهج العلاج في هذه الحالة، ليس هو اليأس من هذه النفوس، ولكن استجاشتها وتشجيعها وتحذيرها وطمأنتها في آن واحد، وفق هذا المنهج القرآني الرباني الحكيم[٣].

ثانيًا. لقد كانت الهجرة واجبة، مفارقة لبلاد الحرب وتكثيرًا لسواد المسلمين في مجتمعهم الجديد، وأخذًا بالأسباب؛ لإقامة دولة الإسلام في البيئة المناسبة:

روى القرطبي عن ابن العربي: "أن هذه الهجرة كانت فرضًا في أيام النبي ﷺ وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح إنما هي القصد إلى النبي ﷺ، فمَن بقي في دار الحرب عَصَى"[٤]. ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة

١. الفِجَاج: جمع فَج، وهو الطريق الواسع البعيد.

٢. تُحْجِم: تتراجع وتفر.

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤٣: ٧٤٦ بتصرف.

٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٥، ص٣٥٠.

الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة، ومما يستدل به على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) ﴾ (النساء).

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين، أولئك الذين يظلون قاعدين في دار الكفر لا يهاجرون؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق، وهم قادرون ـ لو أرادوا واعتزموا التضحية ـ أن يهاجروا، حتى يحين أجلهم، وتأتي الملائكة لتتوفاهم، يتحدث عنهم فيصورهم صورة مُزْرِيَةً مُنْكَرَةً؛ تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته، وبمصيره عند ربه.

لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية ـ في مكة وغيرها ـ بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام الدولة المسلمة، فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا، حبستهم أموالهم ومصالحهم ـ حيث لم يكن المشركون يَدَعون مهاجرًا يحمل معه شيئًا من ماله ـ أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاقّ الهجرة ـ حيث لم يكن المشركون يَدَعون مسلمًا يهاجر حتى يمنعوه ويرصدوا له في الطريق ـ وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقي، من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب، ولا يجدون سبيلًا للهجرة.

وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين؛ بعد عجزهم عن إدراك الرسول ﷺ وصاحبه، ومنعهما من الهجرة، وبعد قيام الدولة المسلمة، وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش في بدر، وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم، فأخذ المشركون يسومون هذه البقية المتخلفة ألوانًا من العذاب والنكال، ويفتنونهم عن دينهم في غيظ شديد.

وقد فُتن بعضهم عن دينهم فعلًا، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تَقِيَّة[1]، ومشاركة المشركين عبادتهم، وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها ـ متى استطاعوا ـ فأما بعد قيام الدولة، ووجود دار الإسلام ـ فإن الخضوع للفتنة، أو الالتجاء للتقية، وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام، والحياة في دار الإسلام ـ أمر غير مقبول[2].

ومعلومٌ وجوب الهجرة لنصرة المسلمين بعضهم بعضًا مهما اختلفت ديارهم، فقد اتفق العلماء على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين في أي جهة من الأرض ثم لم يفعلوا ذلك، فقد باءوا بإثم كبير.

يقول أبو بكر بن العربي: إذا كان في المسلمين أُسَراء أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة بالبدن، بأن لا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع

١. التَّقِيَّة: إخفاء الحق ومُصانعة الناس؛ حفاظًا على النفس من المكروه.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤٣.

أموالنا في استخراجهم، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك"[١].

وكما تجب موالاة المسلمين بعضهم لبعض، فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم، ولا يجوز أن يشيع شيء من الولاية أو التناصر أو التآخي بين المسلمين وغيرهم، وهذا ما يصرح به كلام الله تبارك وتعالى؛ إذ يقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنفال).

يقول ابن العربي: "قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم".

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية هو أساس نصرة المسلمين في كل عصر وزمن، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفكُّكهم وتألُّب[٢] أعدائهم عليهم من كل جهة وصوب[٣].

ولقد كانت الهجرة أخذًا بالأسباب لإقامة دولة الإسلام في البيئة المناسبة؛ "إذ إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين: سنة الأخذ بالأسباب؛ ولذلك يجب على الأفراد والجماعات العاملة للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع، والتوكل على الله ﷻ لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما أمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها.

"ولقد قدر الله ﷻ لدينه أن ينتصر، وللمسلمين أن يُمكنوا، وللمشركين أن ينهزموا، ومع ذلك فهل قال الله تعالى للمسلمين: ما دُمتُ قدَّرتُ لكم النصر والتمكين فاقعدوا وانتظروا إنفاذ قدري، وهو لا بد نافذ؟ كلا، وإنما قال تعالى لهم: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (محمد: ٤)، وقال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (محمد).

فلا بد من اتخاذ الأسباب للنصر والتمكين، وإن كان ذلك قدرًا مقدورًا من عند الله"، "وليس الله ﷻ عاجزًا عن نصرة الحق بغير الأدوات البشرية ـ وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ـ ولكن هكذا اقتضت مشيئته، وهكذا تجري سنته".

ورسول الله ﷺ وهو أفضل المتوكلين، كان أوعى الناس بهذه السنة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئًا يسير جزافًا، والمتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تمامًا.."[٤].

يقول ابن إسحاق: "فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام

---

١. أحكام القرآن، ابن العربي، ج٢، ص٨٧٦، نقلا عن: فقه السيرة، د. البوطي، ص١٣٨.

٢. تألُّب: تجمُّع.

٣. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١٣٨، ١٣٩.

٤. فقه النصر والتمكين، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٢٥٠، ٢٥١ بتصرف.

والنصرة له ولمن تبعه وآوى إليه من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: "إن الله ﷻ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها"، فخرجوا أرسالًا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة"[1].

لقد قيلت مثل هذه الكلمة من رسول الله ﷺ للمسلمين يوم دعاهم للهجرة إلى الحبشة: "إن بأرض الحبشة مَلِكًا لا يُظلم أحد عنده"[2]، واليوم يقول: "إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها".

والفرق بين المركزين والمنطلقين واضح:

- **فمن حيث الموقع:** نجد الحبشة بعيدة، ولا تصلح لأن تكون مركزًا لإقامة الدولة بعيدًا عن الأرض والبيئة العربية، ومهما قويت فستبقى محصورة ضمن إطار المهاجرين أنفسهم، والحركة ستكون مشلولة للمواجهة، بينما نجد المدينة وإن كانت بعيدة نوعًا ما عن مكة، لكنها تحتل موقعًا حساسًا بالنسبة لمكة، فهي قادرة على خنق مكة اقتصاديًّا؛ لأن طريق قوافل قريش عليها، والتجارة عصب الحياة لقريش، كما أن البيئة واحدة، والعرب يمكن أن تتم الدعوة في صفوفهم، وأن يتقبلوها بيُسْر وطواعية.
- **ومن حيث العنصر البشري:** فالاعتماد في الحبشة على الحاكم العادل، الذي قد يتغير في أية لحظة، فيصبح المسلمون على خطر داهم، وقد رأينا أن ذلك قد وقع فعلًا حين قامت الثورة ضد النجاشي، فهيأ للمسلمين سفينتين ليغادروا الحبشة إن تم النصر لعدوه، وهو يعلم أن المسلمين هم المستهدفون من هذه الثورة، بينما الاعتماد في المدينة على الإخوان فيها، على التجمع الإسلامي الذي أصبح يمثل الكثرة الكبيرة فيها.

والحركة الإسلامية عمومًا حين تبحث عن الأرض ليست دائمًا تملك الحرية التي تريدها للاختيار، فقد تضطرها الظروف إلى مكان غير مناسب تمامًا، ولا بد لها من قبوله ريثما تجد المكان الأفضل، لقد بقيت الحبشة مأمنًا للمسلمين فترة طويلة حتى بعد وجود يثرب، ولكنها لم تكن مركزًا لإقامة الدولة، وحين أتيحت الظروف في المدينة، كانت بتوفيق رباني أَنْ قبل وفد الحجيج اليثربي الإسلام، فلو فشلت المفاوضات مثلًا على الإسلام أو الحماية، أو نجحت محادثات النبي ﷺ مع حجيج شيبان أو كندة، لكان الموقع متغيرًا حسب المعطيات القائمة، وأدى هذا إلى رحيل عائلات بأكملها، فقبيلة بني غنم من بني أسد رحل أربعة عشر رجلًا منهم وسبع نسوة بمجرد الإذن بالرحيل، كما تحرك عمر ؓ وأهله وعشيرته وحلفاؤه، وتتابع المسلمون يهاجرون فلا يحس المشركون بهم إلا وهم خارج مكة[3].

لقد كانت بيعة رسول الله ﷺ مع بضع وسبعين من الأنصار ـ وهم مقدمة الأنصار في المدينة ـ وانضمام قافلة

---

١. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، دار الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج٢، ص٧٤.

٢. صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة (١٧٥١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

٣. المنهج الحركي، د. منير محمد الغضبان، مرجع سابق، ص١٣٤، ١٣٥ بتصرف يسير.

جديدة إلى موكب الإيمان من قبيلة أسلم - والتي كان بريدة بن الحصيب على رأسها - يعتبر تغيرًا خطيرًا في مراحل الدعوة، فلم تعد المدينة وحدها صاحبة اللواء الإسلامي المرفوع؛ إذ انضم إليها حليف قوي من أسلم، بهذا التجمع الكبير والجمهرة الضخمة. وهذا يعني أن الطريق بين مكة والمدينة صار محفوفًا بالمخاطر من هؤلاء، هؤلاء إن لم يتمكنوا من صد هجوم قريش فلا أقل من أن يرصدوه، ويرصدوا كل التحركات المعادية ضد رسول الله ﷺ، ولقد كان سرور رسول الله ﷺ عظيمًا بدخول هذه القاعدة في الإسلام؛ إذ قال: "أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها"[1]. ويشير هذا المعنى إلى أن قوة المسلمين وظهور تجمعهم قد جعل القبائل المجاورة على استعداد لقبول الإسلام والانضمام إليه.

كما يشير المعنى كذلك إلى أن الدعوة إلى الله تعالى تبقى هي الهدف الرئيس للمسلمين، فرغم أن الظروف على الطريق إلى المدينة لم تكن ظروفًا مؤهلة للخوض في تفاصيل الإسلام، لكن الهدف الرئيس دائمًا تُتجاوز الظروف من أجله، وعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا دائمًا على أُهْبَة[2] الاستعداد للدعوة إلى الله على بصيرة[3].

ومما يزيد الأمر وضوحًا: أن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى يثرب!! فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونًا عامًّا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة - بعد الهجرة إليها - نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله، فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها[4].

ويؤكد د. مونتجمري وات على أن الهجرة لم تكن هروبًا من الاضطهاد وإنما لفتح آفاق جديدة للدعوة الإسلامية، وإقامة دولة إسلامية في وطن مهيأ لذلك بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية، وتكوين ركيزة مؤمنة هناك في المدينة تعتمد عليها الدعوة، وتقوم على أكتافها الدولة الناشئة وفق التعاليم الإسلامية، يقول: أما وقد بايع أهل المدينة محمدًا على دعمه وتأييده، فإنه لم يضيِّع وقتًا، فشرع في تنفيذ خططه، لقد ظلت البيعة سرية، وكان لا بد من إنجاز أكبر قدر ممكن قبل القيام بأعمال واضحة صريحة تعطي لأعداء محمد ﷺ دلالات على ما يريد عمله، وعلى هذا، فقد أمر أتباعه بمغادرة مكة إلى المدينة. ورواية ابن إسحاق توضح أن دوافع النبي ﷺ وأصحابه لذلك كانت هي إمكانية ازدهار الحركة في المدينة، أما قول عروة بن الزبير أنهم هاجروا للمدينة هربًا من الاضطهاد، فالتركيز على ذلك يعطي انطباعًا خاطئًا، فلم تكن هناك سلسلة جديدة متواصلة من الاضطهاد قبل الهجرة، اللهم إلا إذا استثنينا من ذلك

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع (٣٣٢٣)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب دعاء النبي لغفار وأسلم (٦٥٨٦)، وفي مواضع أخرى.

٢. الأُهْبَة: الاستعداد للشيء.

٣. المنهج الحركي، د. منير محمد الغضبان، مرجع سابق، ص١٤٦ بتصرف يسير.

٤. فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١٦٥.

حالة أبي سلمة، والإهانات التي لاقاها محمد ﷺ وأبو بكر الصديق، لكن ربما تحركت نوازع الاضطهاد بعد ذلك عندما تحقق زعماء قريش مما سيفعله محمد ﷺ.

وفي ظل هذه الظروف، يمكننا أن نفترض أن توجيهات محمد ﷺ لأصحابه كانت حثًّا وتشجيعًا ونصحًا وليست أوامر، فقد بقي في مكة نعيم النحام وكان مسلمًا بارزًا، وبقي آخرون، ولم يكن ذلك يعني ارتدادهم عن الإسلام، وقد أشار القرآن الكريم على ذلك؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٧٢) ﴾ (الأنفال).

وهكذا يتبين لنا أن هجرة المسلمين من أرض الاضطهاد إلى أرض القوة والحرية؛ لإقامة شعائر الدين، هو انتصار للدين والعقيدة وليس هروبًا.

الخلاصة:

- إن الهجرة ليست هروبًا، بل إنها تضحية كبيرة بترك الدار والمال والأهل والبلد، ولا تستطيعها إلا النفوس الكبار؛ لذلك فإنها كانت سنة الله مع أنبيائه، فأغلبهم هاجر من أرض الاستضعاف إلى أرض القوة والحرية، ولا شك أن المهاجر وجد في مكان الهجرة ما لم يجده في موطنه الأول من القوة والحرية والنصرة والتسامح، لإقامة شعائر دينه، فالهجرة تمثل أسمى درجات الإيجابية والقوة في مواجهة الطغيان والاستبداد، وقد ذم القرآن هؤلاء الذين استكانوا للذل والاضطهاد، وعاب عليهم عدم التحرك للقيام بعمل حاسم يخرجهم مما هم فيه من الاستضعاف.
- كانت هجرة المسلمين إلى المدينة تصرفًا استراتيجيًّا واجبًا؛ حيث فارق المسلمون بلاد الكفر ودياره، وهاجروا إلى مجتمعهم الجديد، ليأخذوا بالأسباب لإقامة دولة الإسلام في البيئة المناسبة.
- الهجرة ليست هروبًا كما يدعون، ولو كانت كذلك، فهل نطلق على هجرة الأنبياء والرسل قبل محمد ﷺ هروبًا؟! أمثال: نوح وإبراهيم ولوط وهود وموسى ويونس وعيسى - عليهم السلام -، كل ما يمكن أن يطلق على هذه الهجرة أنها كانت صورة من صور الولاء والبراء، وبحثًا مشروعًا عن أرض جديدة وأفق جديد، تنطلق منه دعوة الإسلام الخالدة، وتجد فيه المتنفس الصالح، والجو المناسب لقيام الدين والشريعة.

الشبهة التاسعة

ادعاء أن الهجرة إلى المدينة كانت بدوافع اقتصادية(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن المسلمين الأولين الذين هاجروا إلى المدينة إنما كانوا فقراء خرجوا سعيًا إلى المال، وأنهم بدءوا غارات نهب على القرى القريبة، ليحققوا حالًا من الرخاء تخرجهم مما كانوا عليه من فقر

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، مرجع سابق.

® في "**الهجرة إلى المدينة**" طالع: الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

عسير. مشككين بذلك في الأهداف النبيلة للهجرة النبوية المباركة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم تُظْهِر الدعوة الإسلامية منذ بداءتها الأولى حرصًا على أن تُحْرِز مالًا أو تنال سلطانًا من وراء الرسالة التي تريد نشرها في العالمين، بل إنها ردّت إغراءات كثيرة بالمال والسلطة.

٢) لا يغلب على السابقين إلى الهجرة أنهم كانوا من فقراء المسلمين؛ بل كانوا من ذوي العشيرة والمال.

٣) المزاعم عن غارات النهب التي اتُّهم بها المسلمون الأوائل مُخْتَلَقة رأسًا، بل عادة المسلمين يومذاك أنهم لا يبتدرون عدوهم بقتال حتى يبدأهم.

التفصيل:

أولا. الدعوة تردُّ إغراءات المال والسلطة لكونها ربانية:

تشير الملابسات الأولى للدعوة الإسلامية في طَوْرها المكي أن فُرَصًا كثيرة سنحت لهذه الدعوة، ولو أنها أرادت أن تجمع المال والسلطان لما ضَيّعتْ فرصة واحدة من هذه الفرص، ولا سيما إذا كانت قريش هي أول من ابتدأ فعرض مثل هذا؛ عدولًا عن الشدة إلى المساومات وتقديم الرغائب والمغريات.

ومثل ذلك ما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا، وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ؓ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسَفَّهْت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع".

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سَوَّدْناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: "أقد فرغت يا أبا الوليد"؟ قال: نعم، قال ﷺ: "فاسمع مني"، قال: أفعل، فقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (فصلت).

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره

معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك"[1].

بل ضِدُّ ذلك كان؛ فإن صون قواعد الدعوة وترك الرُّخَص في أمر بيانها كان وراء ما امتُحِنَتْ به الدعوة في حادث الشِّعْب؛ "ففي آخر العام السادس وأول السابع من البعثة عزمت قريش على مقاطعة بني المطلب وبني هاشم عشائر النبي ﷺ. وقرروا: ألاّ يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة. فدعا رسول الله ﷺ على كاتبها فشُلَّت يده.

إنه ـ بلغَة العصر ـ حصار اقتصادي واجتماعي ضد النبي ﷺ ومناصريه، وانحاز بنو المطلب وبنو هاشم إلى شِعْب أبي طالب، وقضوا فيه ثلاثة أعوام لقوا فيها عنتًا وقسوة، وحُرِموا أسباب الحياة من الطعام والشراب، فأكلوا أوراق الشجر والجلود، وهَزَلَت أجسامهم واصفرَّت وجوههم من الجهد والحِرْمان"[2] ®.

وإن احتمال مثل هذا مما يقدم دلالة واضحة على طبيعة الدعوة وحقيقة أولوياتها، بل يُظْهِر تطور تاريخها أنها لم تحفل بالمال والحياة الرَّغِيدة[3] حتى بعد أن تملك أسبابها، وأصبح سلطانها واقعًا لا طموحًا، وها هو ذا محمد ﷺ، بعد إقامة دولة المدينة وفتْح مكة وبعْثه بالرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، يظل يحيا حياته البسيطة، ولا ينهج نهج الرؤساء أصحاب الدول، فيحيط نفسه بالشرطة، ويجلس على عرش يحفُّ به الوزراء والقادة، ويقيم في القصور الباذخة الشامخة بدل الحُجُرات الشديدة التواضع التي كان يُسْكِن فيها زوجاته، ويأكل الأطعمة المترفة الفاخرة لا من بسيط الطعام وخشنه في معظم الأحيان ومن وسطه في الأحيان الأخرى.

ولقد بلغ من تواضعه أن كان بعض الأعراب البداة الجفاة يشدونه من طوق جلبابه حتى ليؤثّر ذلك في رقبته، ويكلمونه بكلام خشن فلا يفكر مجرد تفكير في التنكيل بهم أو حتى معاقبتهم، مع أنه لو شاء كان قادرًا على قتلهم.

ومعروفة العبارة التي قالها للرجل الذي ارتعد وهو يكلمه، إذ طمأنه بقوله النبيل الذي لا يمكن صدوره من فم ملك: "هوِّن عليك، فإني لست بمَلَك. إنما أنا ابن امرأة تأكل القَدِيد"[4][5][6].

فهل بعد هذا يأتي من يتقول زورًا وبهتانًا أن الهجرة كانت لأهداف اقتصادية؟!! وإذا سلمنا جدلًا بهذا. فما

---

١. السيرة النبوية، ابن هشام، مرجع سابق، ج١، ص١٨٢.

٢. سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجًا وسيرة، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص١٢٨.

® في **"حصار شِعْب أبي طالب"** طالع: الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

٣. الحياة الرَّغيدة: واسعة الرزق.

٤. القَدِيد: اللَّحم المقطَّع والمملَّح المجفَّف في الشمس.

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والطبراني في الأوسط، حرف الألف، باب من اسمه أحمد (١٢٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

٦. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٦٤.

هي هذه الأهداف الاقتصادية، وحياة النبي ﷺ في المدينة كانت أشد تواضعًا وفقرًا مما كانت عليه هو وصحابته في مكة؟!

ثانيًا. هجرة ذوي العشيرة دون المستضعفين:

لقد أجمعت المصادر المعتمدة أن أغلبية المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة كانوا من الأغنياء مثل أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير ﷺ وغيرهم، حمل بعضهم ما استطاع من مال، وترك بعضهم كل أمواله وثروته في مكة، وفضَّل ما عند الله تبارك وتعالى من خير وفضل.

كما أن عددًا آخر ممن أسلموا لا يقل عن عدد من هاجروا كانوا من الفقراء المستضعفين الذين لم يتمكنوا من الهجرة، إما خوفًا من إعلان إسلامهم، وإما عجزًا عن تدبير التكاليف المالية للهجرة إلى المدينة.

إذن فأغلبية الذين تمكنوا من الهجرة كانوا من الأغنياء، والذين لم يتمكنوا منها كانوا من الفقراء المستضعفين، ويبدو أن تقرير هذه الحقيقة وحدها كافٍ في دفع هذا الزعم من أصله.

فإذا ما أضفنا إلى هذا حقيقة أخرى، هي أن يثرب - على رخائها المادي - لم تكن أيامئذ دار أمنٍ تَعِدُ من يريدون الثراء بشيء كثير، بل "إن الشحناء المتأصلة بين أهلها استنزفت دماءهم، وقطعت شملهم، وشغلت بعضهم بالبعض، حتى أوصلتهم الحروب الدائمة إلى دَرَكٍ أَسِفَ له العقلاء، وتمنوا الإنقاذ منه. كان الأوس والخزرج - وهم في الأصل قرابة واحدة - يعانون في يثرب آصار هذا الخصام العنيف، ويورثونه أبناءهم؛ حتى يَشُبُّوا - وهم في مهادهم - أعداء"[1].

إذا أضفت هذه الحقيقة إلى تلك، فإن كلتيهما تكفيان في بيان أن هذا الزعم لا يقوم على تصور واضح لأحوال المهاجرين ولا لأوضاع هجرتهم.

إذن فأين ما كانوا يبغونه من ثراء وغنى من جَرَّاء هجرتهم إلى المدينة، وأحوال المدينة كما رأينا أنهكتها الحروب والانقسامات؟!!

ثالثًا. غارات النهب فرية لا أصل لها:

لا يُعْرَف في تاريخ هذه الفترة الأولى من الدعوة إلى الإسلام أن المسلمين افتتحوا مع المشركين أو اليهود قتالًا حتى كان هؤلاء يبدءونهم، فإذا بدأهم هؤلاء فحال المسلمين الصبر قبل الهجرة، حتى كانت وقعة بدر التي كان مبدؤها تعرُّضَ المسلمين لقافلة تجارية لقريش.

فهل هذا الحادث الأول مما يرتب عليه أن المسلمين قاموا بغارات نهب؟ "لقد كان يوجد في شبه الجزيرة العربية أكثر من خمسمائة قبيلة تقوم بالتجارة من مكة والشام برحلتين في الصيف والشتاء؛ أي كانت تقوم بحوالي ألف قافلة تجارية كلها تمر من أمام المسلمين.

فهل خرج الرسول ﷺ والمسلمون على أية قافلة تجارية لأية قبيلة أخرى، حتى يقول المستشرقون على الرسول ﷺ إنه قاطع طريق، إن المسلمين لم يخرجوا إلا على قافلة واحدة لكفار قريش؛ لأخذ جزء من حقوقهم لدى كفار قريش؛ لأن المسلمين عندما

---

١. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ص١٥٤، ١٥٥.

هاجروا من مكة للمدينة تركوا ديارهم وأراضيهم وأغنامهم وأثاث منازلهم وكل ما يملكون، اغتصبها كفار قريش واستولوا عليها، وبذلك أصبح لهم حق لدى كفار قريش وهو قيمة ما تركوه بمكة من أرض ونخيل وأثاث منازل وبهائم وحيوانات، وعلى ذلك فعندما يخرج المسلمون على قافلة كفار قريش بقيادة أبي سفيان، فإن ذلك حق المسلمين الشرعي في جميع الأديان، بأن يأخذوا جزءًا من حقوقهم لدى كفار قريش"[1].

ثم إنَّا لا نجد بعد ذلك في المصادر التاريخية المعتمدة لدى الباحثين في التاريخ والسير غارات قام بها المسلمون في المدينة ضد القوافل والقُرَى المجاورة، وإلا فما اسم هذه الغارات ؟ وما تاريخها؟ مَنْ كان يزعم أن هناك غارات من هذا النوع، فليرشدنا إلى مصادرها، إنه لم يُعْرَف عن المسلمين طوال تاريخهم أنهم لجئوا إلى مثل هذا النوع من الغارات الاعتدائيَّة، ولم تكن حروبهم مع أعدائهم إلا حروبًا دفاعية، ردًّا على اعتداءات أعدائهم ومؤامراتهم.

وبهذا يتبين لنا صدق نية الصحابة والنبي ﷺ في هجرتهم إلى المدينة، وأنها كانت هجرة لا يُبتغى بها إلا وجه الله، ونشر الإسلام في كل مكان.

الخلاصة:

- لا يجد المنصف أمارة واحدة في تاريخ الدعوة تَلْفِتُه إلى حرص النبي ﷺ وصحابته لى مُلك أو مال، بل لا يجد إلا عزوفًا عنهما، وإلا احتمال العنت والمشقة في سبيل أن تظهر مبادئ الرسالة في جلاء ووضوح.
- لم تكن الهجرة إلى المدينة ممكنة ـ في أكثر الأمر ـ لغير القادرين من ذوي المال والعشيرة، وأما المستضعفون والمُسْتَخْفُون بإسلامهم فغلبوا علي ما يريدون، وهذه حقيقة تأتي على هذه الدعوى من أصولها.
- الحديث عن غارات نهب قام بها المسلمون لا يشهد له شيء من مرويات التاريخ، وما وقع يوم بدر هو ما كان يجب أن يقع، وكان الأمر الذي يستحق البحث، والعجب ألا يقدم من أخذت دوره وسلب ماله غصبًا، على أخذ تجارة غاصبيه وقد عرضت له، وقصاراها أن تكون بعض ماله المغصوب.
- لقد كان يوجد في شبه الجزيرة العربية أكثر من خمسمائة قبيلة تقوم بالتجارة من مكة والشام برحلتين في الصيف والشتاء؛ أي كانت تقوم بحوالي ألف قافلة تجارية كلها تمر من أمام المسلمين فلماذا لم ينهب المسلمون هذخ القوافقل إن كانوا يريدون المال كما يزعم الطاعنون.

---

1. محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٥٨، ٥٩.

الشبهة العاشرة

إنكار عالمية الإسلام(*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين عالمية الإسلام زاعمين أن رسالته محدودة الزمان والمكان، ويدّعون:

- أن الإسلام دين محلي قومي، أُنزل للعرب واختُصَّ بهم في شبه الجزيرة العربية، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٤)، ويتساءلون: كيف يرسل الله ﷻ رسولًا إلى قوم لا يعرفون لغته، فلا يفهمون ما يقول؟!
- أن الإسلام دين مؤقت اقتصرت صلاحيته الزمنية على وقت نزول الرسالة المحمدية. ويستدلون على ذلك بأن الإسلام نشأ في بيئة بدوية صحراوية، فلا يصلح للمدنية الحديثة.
- أن الإسلام دين تتعدد صوره بتعدد الأقطار، وتبقى العروبة أصلًا في حين يجيء الإسلام فرعًا عليها.
- أن فكرة عالمية الإسلام لم تخطر ببال محمد ﷺ، وأنه كان متأكّدًا من أنه مرسل إلى العرب وحدهم، ومن ثم يشككون في صحة الروايات التي تؤكد إرسال النبي ﷺ الرسائل للملوك المعاصرين له، كالمقوقس في مصر، وملك الحبشة النجاشي، وهرقل عظيم الروم، وكسرى ملك الفرس.
- أن المسلمين ظلوا بعد وفاة نبيهم بمائة عام يعدون الإسلام دينًا محليًّا للعرب فحسب.
- أن من يزعمون عالمية الدعوة الإسلامية، يضعون بذلك الله سبحانه موضعًا لا يليق حتى بإنسان عاقل، ويستدلون على ذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف:٢)، متسائلين: كيف يعقل أن يبعث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ بالإسلام إلى الناس كافة، ثم يوحي إليه بلسان عربي لا يفهمه إلا العرب؟! ويأمره بأن يُنْذر أهل مكة ومن حولهم من العرب؟! ومن هؤلاء من يزعم أن الإسلام كان خاصًّا بالعرب، ثم جعله محمد ﷺ دينًا عالميًّا، وعمَّم دعوته، عندما انتصر في المدينة.

وبالجملة فإن هؤلاء ينكرون عالمية الإسلام، هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

وجوه إبطال الشبهة:

١) عالمية أي دين أو محليته لا يحددها هوى المدّعين، وإنما نصوصه وسيرة رسوله وتاريخه، وهي كالآتي:

(*) المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، عبد العظيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ٢٠٠٥م. الإسلام والغزو الفكري، محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ. المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان عبد القوي، مكتبة العبيكان، السعودية. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٦م. التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

® في **"ادعاء عالمية النصرانية"** طالع: الشبهة السادسة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

- القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة الرسول ﷺ، ومكاتبته للملوك، وتاريخ الفتوحات الإسلامية، كل ذلك يؤكّد عموم الدعوة الإسلامية، وعالمية الرسالة المحمدية الخاتمة.
- نصوص الكتب السابقة تؤكد عالمية رسالة الإسلام وختْمَها للرسالات السابقة، كما تؤكد خصوص غيرها بزمانها ومكانها.

٢) تتعدد المظاهر والشواهد التي تؤكد عالمية الإسلام وعموم رسالته، وتشهد بذلك.

٣) معنى الآيات التي استدلّ بها المدعون وتفسيرها لا يدلّ على محلية الإسلام، وليس معنى نزول الرسالة على أمة بدوية أنها لا تصلح للمدنية، بل هي التي صنعت منهم أمة ذات حضارة عريقة ومدنية راقية قصرت دونها كل الحضارات والمدنيات.

٤) الدين الإسلامي دين عالمي للناس كافة، ولا فرق فيه بينهم اعتمادًا على الجنس أو النوع، بل التفضيل فيه على أساس التقوى؛ لذلك فالإسلام رسالة إنسانية نفسية عالمية تعالج نفوس الناس في كل زمان ومكان.

٥) الإسلام هو الذي بعث أمة العرب بعثًا من وهاد التاريخ وظلماته، ومنحهم هويتهم الخاصة وطابعهم المميز؛ فالإسلام هو الأصل والعروبة فرع عنه بعكس ما يدعي هؤلاء المغالطون.

٦) الإسلام - بما أنه الرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان - قامت رسالته على أصول وفروع، أو ثوابت ومتغيرات؛ فالأصول ثابتة في كل عصر ومصر، والفروع يمكن الاجتهاد فيها بما يلائم كل زمان ومكان، ولكن في إطار الثوابت ودون الخروج عليها، وليس لكل دولة إسلام خاصٌّ - كما يدعي المفترون - إنما هي عوامل سعة الشريعة الإسلامية ومرونتها.

٧) عالمية الإسلام أمر ثابت ومقرّر، لكن العولمة بمفهومها المعاصر الذي يعني قولبة الأمم المختلفة - أي: صبّها في قالب واحد على نمط معين ومسخ هويتها - أمر مذموم، ولا ريب في ذلك لدى كل من لديه شرف وكرامة وأصالة.

التفصيل:

أولا. عالمية أي دين أو محليته لا يحددها هوى المدعين وآراؤهم، وإنما نصوصه وسيرة رسوله وتاريخه:

إن الأباطيل التي نحن بصدد دَفْعها - سواء كان أصحابها يزعمون أن الإسلام دين محلي قومي خاص بالعرب وحدهم، أم أن الإسلام كان دينًا خاصًّا، ثم جعله محمد ﷺ دينًا عالميًّا عندما انتصر في المدينة، وسواء أكان هذا التحويل بعد وفاة محمد ﷺ مباشرة، أم بعدها بمائة عام - كل هذه الأباطيل أباطيلٌ واهية لا تستند إلى برهان عقلي أو نقلي، وهذا ما يجعلها تنهار أمام الحقائق التي تؤكدها نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسيرة النبي ﷺ، والفتوحات الإسلامية، وتاريخ الإسلام، وذلك على التفصيل الآتي:

١. آيات القرآن الكريم:

إن كثيرًا من آيات القرآن الكريم يتجه نحو عمومية الدعوة[1]، يقول ﷻ:

١. أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، منشورات جمعية الدعوة العالمية الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٩م، ص١٥٨. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٥٩.

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ (ص).

• ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان).

• ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨).

• ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة).

• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ).

• ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (يس).

• ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة).

وفي مُستهَلّ استعراضه للأدلة النقلية على عالمية الدعوة الإسلامية من القرآن والسنة، ونصوص الأديان السابقة، كالتوراة والإنجيل، يورد الدكتور علي عبد الحليم محمود عددًا من الآيات القرآنية، يُقدِّم لها بقوله: "سوف نستعرض في هذا الفصل - بعون الله تعالى - آيات بينات من القرآن الكريم، تؤكِّد عالمية الدعوة وتنادي بها، وذلك بعد ما قدمنا من أدلة كثيرة على ذلك، وقد حاولت أن أنظر في تلك الآيات الكريمات حسب ترتيب نزولها حتى يمكن أن أتتبع اتساع نطاق الدعوة، منذ أُمر الرسول ﷺ بها لنفسه ولعشيرته الأقربين إلى أن أُمر بتبليغ العالم كله.

وقد لاحظت في هذه الجولة الممتعة في رحاب القرآن أن الله ﷻ - وإن كان لم يطلب من محمد ﷺ أن يبلِّغ دعوته العالم كله بادئ ذي بدء - أنزل على النبي ﷺ آيات تشير إلى أن رسالته عالمية ودعوته للناس جميعًا، أنزل تلك الآيات في بداية نزول الوحي، وبالتحديد في ثاني سورة نزلت عليه ﷺ، وذلك حين يتحدث عن القرآن فيقول: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (القلم)، وذلك لكي يضطلع محمد ﷺ بالعبء ويعد نفسه له.

ثم يشفع هذه الآية الكريمة بآية أخرى أدلُّ على طبيعة عمل الرسول ﷺ في رابع سورة نزلت من القرآن - سورة المدثِّر - التي بدأت بالمطالبة بالإنذار والتشمير لما يستتبعه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ (المدثر)، وفي هذه الصورة نفسها يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ (المدثر)، وذلك ليحدد له طبيعة عمله، ويهيئ له أن يعد نفسه لهذا العمل الذي وضعه الله تعالى بقوله في ثالث سورة

نزلت وهي المزمل: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المزّمّل).

ثم في سورة التكوير - وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم؛ إذ تعد سابع سورة أنزلت - يؤكد الله عالمية الدعوة وعمومها في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (التكوير)"[1].

هذه الآيات الكريمة الدالة على عالمية الدين الإسلامي تقابلها آيات تنصّ على أن رسالة الأنبياء السابقين جميعهم في أقوامهم فحسب، يقول تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (الأعراف: ٥٩)، ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف: ٨٥). ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (هود: ٥٠). فهذه الآيات واضحة الدلالة على أن نوحًا ولوطًا وشعيبًا وهودًا، مبعوث كل منهم "إلى قومه"، أما الإسلام فيدل بوضوح على أنه "للعالمين"، فكيف فَهِمَ المستشرقون من علوم اللغة العربية أن كلمة "عالمين" للعرب فقط؟!

لقد عمَّت رسالة محمد ﷺ الخافِقَيْن[2]، وشملت الأبيض والأصفر، ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه، ولا أنها مستوردة إليه من صنف آخر، بل أحس كل واحد أن الدعوة له، وأنها تنظم كيانه وحياته[3].

فهل يُعْقَل بعد هذا البيان الإلهي الصريح في الأمر لرسول الله ﷺ بتبليغ الدعوة إلى العالم أجمع، بل إلى الثقلين (الإنس والجن) - أن يقال: إن رسالة الإسلام كانت خاصة، ثم حولها محمد بن عبد الله ﷺ إلى رسالة عامة؟

٢. الحديث النبوي والسيرة المحمدية:

أحاديث النبي ﷺ وأعماله الدعوية وغزواته تؤكد عالمية الإسلام وعمومية رسالته، بل لا يوجد ما يوهم خصوصية هذه الرسالة ومحليتها، ولو كانت رسالة خاصة فَلِمَ يتعب نفسه وأصحابه في العمل الشاق وطريق الجهاد الصعب، المملوء بالزعازع والأنواء، والمحن والإحن؟! فهو ليس طريقًا سهلًا ولكنه طريق صعب، ليس مفروشًا بالورود والرياحين، إنما هو طريق مفروش بالأشواك والدماء. فما كان أغناه عن ورود هذا الطريق لو كان له من الأمر غيره! هذا الطريق الذي تعرض فيه للقتل أكثر من مرة، وفقد فيه خيرة أصحابه وعلى رأسهم عمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

أما أحاديثه ﷺ ومواقفه من سيرته فكلها تدل على عالمية رسالته، ومنها:

- جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلتُ به

---

١. عالمية الإسلام، د. علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٩٩٢م، ص١٦٤، ١٦٥ بتصرف.

٢. الخافقين: جمع الخافق، وهو الأفق، والخافقان يُقصد بها أفق المشرق وأفق المغرب.

٣. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٦٠ بتصرف يسير.

إلا كان من أصحاب النار"[١].

- جاء أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتَّقوى"[٢]. قال مجاهد: يعني الجن والإنس، وقال غيره: يعني العرب والعجم، والكل صحيح.

- عن كُرْزِ بن عَلْقَمة قال: قال رسول الله ﷺ: "أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله ﷻ بهم خيرًا أدخل عليهم الإسلام"[٣].

- وعن الرسول ﷺ أنه قال: "كان النبي يُبْعَث إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة"[٤][٥].

- تنبؤ النبي لأمِّ حَرام الرُّمَيْصَاء بنت مِلْحان زوجة عبادة بن الصَّامِت أنها ستَرْكَب البحر، عندما نام في بيتها ثم استيقظ يضحك، فقالت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: "ناس من أمتي عُرِضوا عَلي غُزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ[٦] هذا البحر ملوكًا على الأَسِرَّة (أو مثل الملوك على الأَسِرَّة)". قالت: يا رسول الله، ادع أن يجعلني منهم. ثم نام فاستيقظ وهو يضحك، فقال مثل ذلك، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم. قال ﷺ: "أنت من الأولين"[٧]، فكانت أم حرام في غزوة قُبْرُص (٢٨هـ/ ٦٤٨م) وماتت بها، وتحقَّقت الرؤيا الثانية فكانت عبارة عن غزوة القسطنطينية.

فركوب البحر الذي تنبَّأ به رسول الله لنشر لواء الإسلام أين سيكون؟ هل سيركب الصحابة البحر من المدينة إلى نجد؟ هل سيكونون في سفن كأنهم الملوك على الأَسِرَّة، قاصدين الرَّبْع الخالي بعد مغادرة مكة؟ لندع الجواب للعقل السليم.

- وصية النبي ﷺ لصحابته بأن يستوصوا بأهل مصر خيرًا، وذلك عندما قال: "إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فاخرج منها" والأرض هنا يقصد بها أرض مصر[٨]. فهل مصر والأقباط سكّانها في الجزيرة العربية؟!

- أثناء حفر الخندق قبيل معركة "الأحزاب" أخبر النبي ﷺ صحابته بفتح الحيرة، وقصور كسرى، وفتح القصور الحمر في الشام، فهل قصور كسرى وقصور

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٣).

٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، وخصوصًا بالجاهلية والتعظيم (٥١٣٧)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد (٢٣٥٣٦).

٣. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفتن، باب من كره الخروج في الفتنة وتعوذ عنها (٣٧١٢٦)، وأحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث كرز بن علقمة الخزاعي ﷺ (١٥٩٥٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، باب منه (٣٢٨)، وفي موضع آخر.

٥. عالمية الإسلام، علي عبد الحليم، مرجع سابق، ص٢٤٦: ٢٤٨.

٦. الثَّبَج: الوسط.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجل والنساء (٢٦٣٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر (٥٠٤٣).

٨. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي بأهل مصر (٦٦٥٧).

الشام الرومية في الجزيرة العربية؟ ومثل هذه التنبؤات عن انتشار الإسلام خارج جزيرة العرب كثيرة، وكلها تدحض افتراءات المستشرقين المكابرين.

- ومن أحاديثه ﷺ: " بعثت إلى الناس كافة"[1].

فهل يطلبون تصريحًا أبلغ من هذا[2]؟

فهل يتسنى لعاقل بعد هذا البيان النبوي الواضح في النص على عالمية الإسلام وعموم الرسالة المحمدية منذ البداية - أن يصغي مجرد إصغاء لزعم من يقول: إن فكرة عالمية الإسلام لم تخطر ببال محمد، أو إنها كانت من عمل أصحابه بعد وفاته، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (النحل).

رسالات النبي ﷺ إلى الحكام والملوك[3]:

ويؤكِّد الدكتور شوقي أبو خليل أن رسالات النبي ﷺ إلى الحكام والملوك المعاصرين له حقيقة؛ فهي استجابة للأمر الإلهي بتبليغ الدعوة إلى جميع العالم، وكيف ينكر المدعون مثل هذه الرسائل والكتب، وبعضها موجود إلى يومنا هذا في "إستانبول"؟ وكيف لا يوجد أثر لهذه الكتب في تاريخ هؤلاء الملوك والأمراء وقد قامت حروب من أجلها؟

وتاريخنا العربي الإسلامي لا يؤخذ من فم المستشرقين ولا من تحقيقاتهم؛ إذ إنَّ أكثرهم درس الإسلام من غير موضوعية ومن غير تجرد، بل ابتغى مع أقرانه التخريب والدسّ والتشكيك.

علماؤنا العرب مصدر تراثنا وهم (على كثرتهم) لم يتطرق إليهم الشك في إرسال هذه الكتب، ولم يخطر ببالهم مطلقًا شك أو تردد، فمن نصدق؟ أنصدق علماءنا العرب أم مستشرقًا أجنبيًا؟

لنرَ معًا أهم مراجع التاريخ العربي الإسلامي:

- ابن هشام: في الجزء الرابع ص٢٧٩، ٢٨٠، ذكر الرسائل.
- اليعقوبي: في الجزء الثاني ص٨٣، ذكر الرسائل.
- الكامل في التاريخ: لابن الأثير الجزري في الجزء الثاني ص١٤٣، ذكر الرسائل.
- في البداية والنهاية: الجزء الرابع ص٣٦٢ وما بعدها.
- في الطبري الجزء الثاني ص٦٤٤، خروج رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك (طبعة دار المعارف).

وما سبق من كتب هي أسس التاريخ العربي، ولنر مثالًا على ذلك ما ذكره الطبري في الجزء الثاني ص٦٤٩:

"حدثنا ابن حميد قال: حدثني ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب المصري أنه وجد كتابًا فيه تسمية من بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الخائبين (الكفار)، وما قال لأصحابه حين بعثهم، فبعث به (أي الكتاب) إلى ابن شهاب الزهري مع ثقة من أهل البلدة فعرفه (أي الكتاب).

ثم ذكر الإمام الطبري نص رسالة رسول الله ﷺ إلى

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" (٤٢٧).

٢. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٥٧، ٥٨.

٣. تناول الباحث المسلم غير العربي محمد حميد الله رسائل النبي ﷺ كلها في كتابه "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، وصدر الكتاب عن دار النفائس، راجع ص٩٩: ١٤٨.

هرقل وهي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تسلمْ، وأسلِمْ يُؤْتِك الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم الأَرِيْسِيِّين"[1][2].

ثم ذكر الطبري رسائل النبي ﷺ إلى المقوقس والنجاشي وكسرى أبرويز ملك الفرس.

ودليل صحة هذه الكتب التي تدلّ دلالة واضحة على عالمية الدعوة المحمدية ما يأتي:

- **حديث هرقل مع أبي سفيان واستفساره عن خروج نبي آخر الزمان:**

فقد دار فيه حوار طويل بينهما، وفي نهايته توجَّه هرقل لأبي سفيان بقوله:

"سألتُكَ عن نَسَبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرُّسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقُلْتُ: رجل يَأْتَسِي بقَوْل قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من مَلِك، فذكرت أن لا، قلتُ: فلو كان من آبائه من مَلِك قلتُ: رجل يطلب مُلْك أبيه، وسألتك هل كنتم تتَّهِمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ، وسألتك أَيَرْتَدُّ أحد سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يَغْدِر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعَفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قَدَمَي هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمْتُ لقاءه، ولو كنت عنده لَغَسَلْتُ عن قَدَمه"[3].

- **قصة إسلام باذان عامل كسرى في اليمن:**

أرسل كسرى إلى عامله في اليمن واسمه "باذان" أن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فليأتياني به، فبعث باذان رسولين يحملان كتابًا إلى الرسول ﷺ، يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه.

فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله ﷺ فقالا: إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا، فصرفهما الرسول ﷺ على أن يعودا إليه في الغد، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، أن الله قد سلَّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول ﷺ

---

١. الأَرِيْسِيُّون: الفلاحون الخَدَم.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة آل عمران (٤٢٧٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

هذا الخبر، فقالا له: إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى.

فعاد الرسولان إلى باذان فقصَّا عليه ما تنبأ به النبي ﷺ فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيًّا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان هذا حقًّا فإنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: "أما بعد، فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما استحلّ من قتل أشرافهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قِبلَكَ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه".

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن.

- **ودليل آخر معركة مؤتة:**

اعترف المستشرقون أن معركة مُؤْتَة سنة ٨هـ كانت ثأرًا من الحارث بن أبي شمر الغساني الذي قتل رسولَ رسولِ الله ﷺ إليه، وهو: شجاع بن وهب الأسدي. فكيف تكون مؤتة وسببها قتل الحارث لحامل رسالة رسول الله ﷺ، ثم ينكرون وجود الرسائل التي بعثها الرسول ﷺ إلى الملوك؟!

- **وهناك وصية النبي ﷺ بأهل مصر:**

اعترف المستشرقون أيضًا بوصية النبي بأهل مصر، قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القِيراط[1]، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لَبِنَة فاخرج منها"[2]. والأرض هنا يقصد بها أرض مصر.

ووجود مارية القِبْطيَّة نفسها زوجة لرسول الله ﷺ دليل على الرسائل، فلولا رسالة النبي ﷺ إلى المُقَوْقِس والتي حملها حاطب بن أبي بَلْتَعة لما وصلت مارية إلى جزيرة العرب، والمقوقس ما أرسل هداياه إلى النبي ﷺ إلا بعد مناقشة طويلة مع حاطب حامل الرسالة، ولا طائل من إيرادها هنا[3].

٣. القادة وأقوالهم في مراحل التاريخ الإسلامي كلها تؤكد رسوخ مبدأ عالمية الإسلام وضرورة تبليغه إلى الناس كافة، ونذكر منها على سبيل المثال فقط:

- **أبو بكر الصديق يخطب قائلًا:** "يا أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضَّلكم بهذا الدين على كل دين، فتجهَّزوا عباد الله إلى غَزْو الروم بالشام؛ فإني مؤمِّرٌ عليكم أُمَراء، وعاقد لكم أَلْوِية[4]، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أُمراءكم، لتحسُنَ نيَّتكم؛ فإن الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم محسنون"[5].

---

١. القِيراط: معيار في الوزن وفي المقياس، اختلفت مقاديره باختلاف الأزمنة، وهو اليوم في القياس جزء من أربعة وعشرين، وهو من الفدان يساوي خمسة وسبعين ومائة متر.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي بأهل مصر (٦٦٥٧).

٣. الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٦٢: ٧٠.

٤. الأَلْوية: جمع لواء، وهو العلم أو الراية.

٥. فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد حسين العفاني، دار ماجد عسيري، السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٢٧.

• **رِبْعِي بن عامر يقول لرستم قائد الفرس:** الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر[1].

• **موقف عقبة بن نافع:** ذلك البطل المجاهد الذي وصل إلى المحيط الأطلسي غربًا بجيوش المسلمين المجاهدين الفاتحين، حين انحدر نحو المحيط إلى جنوب المدينة الحالية المعروفة حاليًا باسم "أغادير" التي تقع على مصب وادي السوس، وهناك وعند قرية صغيرة على البحر تسمى "أيغيران يطوف" نرى المشهد التاريخي الشهير، وهو مشهد عقبة يدخل بحصانه في مياه المحيط الأطلسي ويُشْهد الله على أنه وصل براية الإسلام إلى آخر المعمورة، وأنه لو وجد طريقًا لسار إلى البلاد التي وصل إليها ذو القرنين عند مغرب الشمس[2].

• **وصية عثمان ـ مؤسس الدولة العثمانية ـ لابنه:** "وصيتي لأبنائي وأصدقائي، أديموا علوّ الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، اخدموا الإسلام دائمًا؛ لأن الله ﷻ قد وظّف عبدًا ضعيفًا مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله، ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حُرِمَ من شفاعة الرسول الأعظم ﷺ يوم المحشر.

يا بني، ليس في الدنيا أحد لا تخضع رقبته للموت، وقد اقترب أجلي بأمر الله ﷻ، أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى ﷻ اعدل في جميع شئونك"[3].

٤. نصوص الكتب السماوية تؤكد عالمية الإسلام وعموم رسالته وختمها للرسالات السابقة، كما تؤكد خصوص غيرها بزمانها ومكانها:

• **أدلة من نصوص الديانات السابقة تؤكد عالمية الإسلام:**

هناك أدلة كثيرة من الإنجيل تؤكد عالمية الإسلام، وإن كان الكثير من هذا الكثير قد ضاع مع التغيير والتبديل الذي مُنِي به الإنجيل في الأزمان المتعاقبة من بعد المسيح عليه السلام، غير أن الذي بقي لنا من هذه الأدلة والبشارات بنبوة محمد ﷺ كافٍ؛ ليكون برهانًا قاطعًا على عالمية دعوته ﷺ وختمها للرسالات وبقائها للأبد، ومن هذه البشارات بمحمد ﷺ وبدعوته العالمية الخالدة ما يأتي:

يقول عيسى عليه السلام لأتباعه: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعَزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يَقْبَله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكث معكم ويكون فيكم. لا أتركركم يتامى. إني آتي إليكم". (يوحنا ١٤: ١٥ـ١٨)، ولم يَقُلْ

١. المرجع السابق، ج٤، ص٤٥٠.

٢. معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٤٥.

٣. الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ص٥٣.

المسيح عليه السلام هذا القول من تلقاء نفسه أبدًا، ومن المعلوم أن المراد بالمُعَزِّي هنا النبي محمد ﷺ، وهذا مِصداق لما جاء في القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام، إذ قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦)﴾ (الصف).

هذه البشارات بمحمد ﷺ وتظاهر الأديان السابقة على دعوة أتباعها إلى الإيمان به إن ظهر، إنما يدل ذلك دلالة قطع وتأكيد على أن نبوته ﷺ هي النبوة العامة التي يجب على أهل سائر الديانات أن يؤمنوا بها ويتَّبِعوا صاحبها، وإذا كان الأمر كذلك لمن هم أهل ديانات، كان المشركون ومن ليس لهم ديانة سماوية أوْلى باتباعه والعمل بما جاء به، وبذلك ترتسم لرسالته معالم الرسالة العامة لكل أبيض وأحمر من بني آدم[1].

- **الكتاب المقدس يؤكد محلِّية اليهودية والنصرانية:**

○ **بالنسبة للديانة اليهودية: فإن أتباعها لا يدَّعون عالميتها،** بل يفتخرون بأنها ديانة خاصة باليهود وأنهم شعب الله المختار، ولم يُؤْثَرْ عن رسلهم إلا ذلك.

○ **أما بالنسبة للمسيحية: فنصوص الإنجيل تؤكد محليتها:** فقد أرْسِل يسوع إلى بني إسرائيل فقط، جاء في إنجيل متى على لسانه: "ولم أُرْسَل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة". (متى ١٥: ٢٤). "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسَّامِريِّين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحَرِي إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة". (متى ١٠: ٥، ٦).

١. عالمية الدعوة الإسلامية، د. علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١٦٤، ١٦٥.

وحول هذا الموضوع يحدثنا الدكتور شوقي أبو خليل، فيقول: جاء في "ينابيع المسيحية": لم يكن الدين غير القومي معروفًا لدى عيسى، وكان كل عمله خاصًّا ببني إسرائيل، وظلّ عمله بينهم كل زمن حياته، إلا أننا قرأنا ما يناقض ذلك في إنجيل مَرْقُس، حيث روى أنه قد قال لتلاميذه الأحد عشر، عندما جلسوا إلى اللحم: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكْرِزُوا[2] بالإنجيل للخليقة كلها". (مرقس ١٦: ١٥)، وأنبئنا أن ذلك حصل بعد قيامه من الموت؛ لأنه قبل وفاته لم يفكر إلا في عشيرته فقط، وقد منحهم أيضًا القدرة على إتيان المعجزات: "وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة. يحملون حيَّاتٍ، وإن شربوا شيئًا مميتًا لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرءون". (مرقس ١٦: ١٧، ١٨).

ترى إرساليات التبشير المسيحية أن الآيات الإنجيلية الماضية تخوِّلهم حقًّا يبرر استمرارهم في تبشيرهم في سائر الجهات، إلا أنه يظهر أن هؤلاء المرسلين الحديثين لا يستطيعون إحداث المعجزات التي يجب أن يحدثها من يُرْسَل لنشر الدين المسيحي، ولعل السبب في عدم قدرتهم على إحداث هذه المعجزات راجع إلى قول عيسى في الإنجيل: "وهذه الآيات تتبع المؤمنين"، فمن المؤكد أن مراكزهم والحالة هذه ليست مما يُشتهى أو يرغب فيه، إذ كيف يمكن لقوم أن ينشروا الإيمان وهم ليسوا بمؤمنين؟!!

إن الإحدى عشرة آية الختامية لإنجيل مرقس التي أخبرت عن قيام المسيح عليه السلام بعد الموت، والمرسلين

٢. اكرزوا: ادخلوا.

ومعجزاتهم، والحكم المتوقَّع على غير المسيحيين، ذلك الحكم غير اللائق وغير الخليق بنفس وديعة كنفس عيسى عليه السلام - قد برهن على أنها حشو وإضافة مزيفة، وليس لها وجود في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، ولا في الأصول اليونانية القديمة.

إن ناقلي الكتاب المقدس الأُوَل إلى اللغة الإنجليزية في عهد جيمس الأول، وجدوه كذلك، وأشاروا إلى ذلك في الهامش بملاحظة عن تلك الإحدى عشرة آية التي لم تكن موجودة في الأصل اللاتيني، وتعلم ذلك جمعية الكتاب المقدس البريطانية علم اليقين، ومع ذلك فهم لا يهتمون بحذفها من كتابهم المقدس، ولا يجدون هناك حاجة لأن يضعوا ملاحظة على الهامش، كما فعل المترجمون الإنجليز الأُوَل. إن تركهم للناس، يتخبطون في الظلام من هذه الوجهة، موضوع يجب أن يعتبروه ويمنحوه عنايتهم، ولو لخدمة الحقيقة وأداء الأمانة فقط.

والجزء اللغز في هذا الإسقاط: ما أضيف إلى تعاليم يُوْشَع فيما بعد، وما حُشِيَتْ الأناجيل به على مرِّ العصور، فما جاء في إنجيل مرقس: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها". (مرقس ١٦: ١٥) ليس له وجود في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، ولا في الأصول اليونانية القديمة، والأصل في المسيحية: "أُرْسِلَ يسوع إلى خِراف بني إسرائيل الضالة فقط"، ومن هنا جاء الإسقاط فاتُّهم الإسلام أنه للعرب فقط.

قال تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات)، فالناس جميعًا في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، وهذه العمومية والمساواة بين الناس جميعًا، كانتا من أهم عوامل انتشار دين الإسلام بين شعوب الأرض[1].

ثانيًا. تعدُّد المظاهر والشواهد التي تؤكد عالمية الإسلام وعموم رسالته:

تعددت المظاهر والشواهد التي تؤكد عالمية الإسلام، ومنها:

١. السابقون الأولون للإسلام من غير العرب ومن أصحاب الديانات الأخرى ومن تبعهم:

من السابقين إلى الإسلام من غير العرب: بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، فألقابهم تنتمي إلى أبرز الأمم المعروفة آنذاك، وفي هذا بشارة بأنه سيكون لهذه الأمم في تاريخ الإسلام شأن، وأن دعوته غير قاصرة على بني العرب.

ومن هؤلاء النجاشي ملك الحبشة، وعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وكانا يهوديين فأسلما.

وإسلام هؤلاء وغيرهم ممن لم ينتسبوا إلى الجنس العربي في وقت مبكر من فجر الإسلام وبداية دعوته - فيه دلالة كبيرة على عالمية رسالة الإسلام، وعلى أن فكرة العالمية وُجِدَتْ من أول يوم نزل فيه القرآن، وإلا لو كان الإسلام خاصًّا في بدايته - كما يزعم المفترون - لما اعتنقه مثل هؤلاء. كما نفهم من إسلامهم، وهم

١. أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص١٦٠: ١٦٢.

أصحاب كتب سماوية، سواء اليهودية أو النصرانية، أن شرائعهم كانت خاصة بقوم ومؤقتة بزمن محدود، فلما انتهى زمنها، وجاءت الرسالة الخاتمة وجب عليهم اتباعها وترْك ما هم عليه، ولو كانوا يعلمون من كتبهم أن رسالة الإسلام خاصة بالعرب لما لزمهم اتباع النبي العربي ﷺ، ولما كان عليهم حرج في عدم الإيمان به، لكنهم يعلمون عمومها ووجوب الإيمان بها، وأن الإيمان لا يقبل عند الله بعد إرسال محمد ﷺ إلا باتباعه وتصديقه والإيمان به، إذ الكفر بنبي واحد هو الكفر بكل الأنبياء، كما أن الرسالة الخاتمة لا بد أن تكون عامة لانقطاع الرسالات بعد ذلك، ولا بد وأن تكون ناسخة لما قبلها، حتى يتسنى لها العموم، فالنسخ يكون في الشرائع؛ لأن أصل الدين واحد، وهو التوحيد دين الإسلام[1].

٢. انتشار اللسان العربي مع امتداد الفتوحات الإسلامية:

يبين الدكتور على عبد الحليم أن من مظاهر عالمية الإسلام وشواهدها انتشار اللسان العربي مع امتداد الفتوحات الإسلامية، فيقول:

لقد عاشت اللغة العربية في عصور الجاهلية، لغة محلية إقليمية في محيطها الجغرافي المحدود، الذي لا يكاد يتعدَّى شبه جزيرة العرب، فلما جاء الإسلام وأُمِر المسلمون بإبلاغه بناء على مبدأ عالمية الدعوة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، وانطلقت حركةِ الفتح الإسلامي، أتت العربيةَ فرصتُها التاريخية لتتحول إلى لغة عالمية، فكما بعث هذا الدين أُمَّةَ العرب بعثًا من رقْدتها، فَعَلا كَعْبُها به، وسادت على الأمم، وصارت "مادة الإسلام"، ومنها الخلفاء والأمراء، والقادة ونخبة المجتمع الإسلامي في فترة صدر الإسلام حتى أواخر العصر الأموي ـ فقد منح أيضًا لغتها فرصة ذهبية لتنطلق مصاحبة لحركة الفتح مواكبة لها.

وحيث كانت القبائل العربية تمثّل عصب جيوش الفتح في الفترة الأولى، وقد استقر كثير منها في البلاد المفتوحة، مما أدى إلى استعراب لسان مجتمعاتها شيئًا فشيئًا، وبالإضافة إلى الحافز الديني الذي يقتضي أن يتعلم المسلم الجديد من أهالي هذه البلاد شيئًا من العربية لأداء الصلوات وحفظ القرآن، والاطلاع على تعاليم الدين ـ كانت خطوة تعريب الدواوين في العصر الأموي ـ زمن عبد الملك بن مَرْوان وخلفائه ـ حيث أصبح لزامًا أن تتمّ المكاتبات والحسابات في الدواوين الحكومية باللغة العربية بدلًا من الرومية والفارسية، وكان على طلاب الوظائف في الدواوين والدوائر الحكومية أن يجيدوا هذه اللغة، خاصة أن العرب قد فتحوا باب الخدمة في المصالح الحكومية لكل الرعية على اختلاف ألوانها وأديانها ونِحَلِها، وكانت العربية جواز المرور للالتحاق بهذه الخدمة؛ ولهذا فبمرور الزمن وُجِدت طوائف غير مسلمة لا تعرف إلا اللغة العربية مما أدى إلى ضرورة ترجمة الإنجيل للعربية.

وقد تمتَّع اللسان العربي بالمرونة، فلم يتحجَّر أو يجمد، فقد هضمت العربية ألفاظًا من الفارسية والرومية والسريانية والقبطية والهندية، وهي اللغات

١. عالمية الدعوة الإسلامية، د. علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٦١٠ وما بعدها.

التي احتكّت بها في دائرة الفتح، وهجرت في الوقت نفسه ألفاظًا وتعابير كانت مألوفة في الجاهلية، ولم تعد مناسبة للتطورات الاجتماعية الجديدة، وسعى العرب بحماسة ليجعلوا لغتهم لغة علم، كما هي لغة دين وأدب وسياسة، مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه اللغة ظهرت فجأة في غاية الكمال والسلاسة والغنى، بحيث يمكن القول: إنه ليس لها عهد بالطفولة.

وقد كانت موجة الفتح الضخمة، التي انطلقت خلال العصر الأموي نحو مختلف جهات الأرض الأربعة، ووسعت دار الإسلام إلى أبعد حدٍّ وصلته، وهي دولة واحدة موحدة كانت هذه الموجة هي الأبعد أثرًا في اتساق نطاق العروبة والإسلام، فقد كان بنو أمية عربًا فاتحين نشروا الإسلام والعروبة في كل ما فتحوا، ولولا ظروف طارئة حالت دون استعراب إيران وردتها إلى الفارسية، لكان شرق الدولة الإسلامية كله اليوم عربيًّا كما حدث في غربها.

وقد تفاوتت الأقاليم المفتوحة في مدى تقبّلها للعربية وانتشارها فيها، ففي مغرب العالم الإسلامي بدءًا بمصر، ووصولًا إلى الأندلس عانت هذه البلاد من حالة من الانحطاط والتدهور تحت الاحتلال الروماني في مصر وشمالي أفريقية، وحكم القوط في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس لاحقًا)، وانسحب هذا على مدى قوة اللغات السائدة فيها، فاللغة وعاء الحضارة تَقْوى بقوتها، وتضعف بتدهورها، ولهذا كان سهلًا على العربية أن تصارع هذه اللغات بتلك البلاد فتصرعها، وتحل محلها، وتصبح لغة الإبداع والتأليف فضلًا عن الحديث، ولهذا وصل إلينا تراثها باللغة العربية، ولمعت في ذاكرتنا الثقافية أسماء أعلام من مثل: المقريزي والسيوطي وابن خلدون، فإذا اجتزنا المضيق صادفنا أعلام التراث الأندلسي: كابن حزم، وابن رشد، وابن الخطيب، وابن بسام، والقالي، وابن زيدون، وابن زهر، وابن عباد، وغيرهم.

ولهذا ظلت التجربة الأندلسية حية في الذاكرة العربية الثقافية والتاريخية، رغم نهايتها المريرة، وصار سهلًا على هذه الذاكرة استرجاع ظلال قصة الفردوس المفقود متى شاءت في أية لحظة للاتعاظ والاعتبار، وسهل أيضًا على طلاب العلم - على مستوى التخصص العلمي الجامعي في أقسام التاريخ - إنجاز الدراسات في هذا الفرع من الدراسات التاريخية - التاريخ الأندلسي - لأن مصادره العلمية مكتوبة بالعربية في الغالب ومبثوثة في المكتبات العامة والخاصة.

هذا رغم أن شجرة الإسلام قد اجتُثَّت من تربة الأندلس واستُؤْصِلت، وأن المسلمين قد طُرِدوا منها، والتجربة قد انقطعت ولم تستمر، وكان ما كان مما أوجزه شاعر الأندلس - في بلاغة - بقوله:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
فَلا يُغَرَّ بِطِيْبِ العَيْشِ إِنسَانُ
هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْه أَزْمَانُ

فكان من المتوقع أن تندثر مع التجربة أخبارها، لكنها بقيت؛ لأن العربية حفظت تراثها فوصلنا.

فإذا تحولنا إلى مشرق العالم الإسلامي وجدنا أن العربية قد صارعت لغة عريقة ذات تراث هي اللغة

الفارسية في إيران، وامتداداتها في أواسط آسيا، حيث عالم الثقافة الفارسية.

ومع اندفاع حركة الفتح الإسلامي في تلك الجهات غالبت العربيةُ الفارسيةَ شيئًا ما في البداية وشاركتها في لغة الحديث والتأليف، فنجد أعلام العلماء المنتمين إلى هذه البلاد كالطبري وابن المقفع والرازي والزمخشري وابن مِسْكويه والبيروني وغيرهم يؤلفون بالعربية لغة قرآنهم، بالإضافة إلى تآليفهم بلغتهم الأم[1].

شهادات العلماء المنصفين والدارسين المحايدين من الباحثين تؤكد عظمة الإسلام وجدارته وعالمية رسالته:

٣. إن ثمة شهادات منصفة شهد بها الباحثون الغربيون، تؤكِّد عالمية الإسلام، وسنكتفي هنا بذكر بعضها:

- **جورج روبير:**

إن الإسلام ليس دينًا فحسب، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ، وإنه أيضًا وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي، ونظام سياسي، وأسلوب للعيش، ولقد أعطى الإسلام للدنيا حقها، وللآخرة حقها، فلا تزهق الروح على حساب البدن، ولا يزهق البدن على حساب الروح، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم.

- **ريتشارد هارتمان:**

قلما تجد بين الأديان دينًا ينفذ إلى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية، مثل الإسلام، ذلك أنه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي، ووقى خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة، وقد أُلبِسَ الدينُ ثوبَ التشريع والفقه.

- **ليوبولدفابس:**

إن أهم مآتي الإسلام تلك المآتي التي تميزه عن سائر النظم المطلقة، التوفيق التام بين الناحية الخلقية، والناحية المادية من الإنسانية، هذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في إبان قوته أينما حل، لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطًا للنجاة في الآخرة، هذه الخاصية الظاهرة في الإسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن محمدًا كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية، في كلا اتجاهيها في المظهر الروحي، والمظهر المادي.

- **غوستاف لوبون:**

إن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية اقتداءً بالنبي ﷺ[2].

ثالثًا. معنى الآيات التي استدلَّ بها المدَّعون لا يدل على محلية الإسلام، وليس معنى نزول الرسالة على أمة بدوية أنها لا تصلح للمدنية:

لقد ثبت من القرآن الكريم أن الإسلام رسالة عالمية صالحة لكل زمان ومكان، وأنه تكفل بتبيان كل شيء وإسعاد الناس أينما كانوا: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

---

١. المرجع السابق، ص٦١٠ وما بعدها.

٢. انظر: سقوط العلمانية، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٩٥: ١٩٨. الإسلام بعيون مسيحية، لطفي حداد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٠٨: ٢١٠.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل)، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

أي خبر في أي جزء من الأرض يمكن أن تتناقله الدنيا في لحظة واحدة، وأن يعرفه العالم كله في لمح البصر؟ وأية غرابة في أن يأتي كتاب هذا الدين بلغة واحدة؟! وإذا لم ينزل القرآن بلغة واحدة، لغة من نزل بينهم ليحملوه إلى الناس وليبلغوه للعالمين، فماذا يمكن أن يكون؟!

إن الابتداء بالأهل والعشيرة منطلق طبيعي، بل بداية الانطلاق إلى العالم لدعوة الأهل والأقربين: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء)، ومن يقرأ القرآن الكريم وهو الكتاب العربي المبين لا يمكن أن يجد فيه ما يخصصه لفريق دون فريق، أو قوم دون قوم، وكونه بلسان عربي ليس إلا وصفًا له باللغة التي أُنْزِل بها[1].

وحتى يتبين الأمر وتتضح الحقائق نعرض لتفسير الآيات التي استشهد بها مثيرو هذه الشبهة، مستدلين بها على إنكارهم عالمية الدين الإسلامي، من خلال كتب التفسير، وكما قيل "أهل مكة أدرى بشِعابها"، فكذلك أهل التفسير أعلم به وبالمراد منه، أو هم أقرب الناس للعلم بمراد الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ (إبراهيم).

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٥٥، ٥٦ بتصرف.

يقول صاحب الظلال: وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول ﷺ من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بدّ من أن يُرْسَل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة.

وقد أُرْسِل النبي ﷺ بلسان قومه - وإن كان رسولًا إلى الناس كافة - لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر، وعمره ﷺ محدود، وقد أمر أن يدعو قومه أولًا حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام، ومن ثَمّ تكون مهدًا يخرج منه حملة رسالة محمد ﷺ إلى سائر بقاع الأرض.

والذي حدث بالفعل - وهو من تقدير الله العليم الخبير - أن اختير الرسول ﷺ إلى جوار ربه عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة، وبعث جيش أسامة إلى أطراف الجزيرة، وقد توفي الرسول ﷺ ولم يتحركْ بعد.. وحقيقة أن الرسول قد بعث برسائله إلى خارج الجزيرة يدعو إلى الإسلام، تصديقًا لرسالته إلى الناس كافة، ولكن الذي قدره الله له، والذي يتفق مع طبيعة العمر البشري المحدود، أن يبلّغ الرسول ﷺ قومه بلسانهم، وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حَمَلَة هذه الرسالة فلا تعارض بين رسالته للناس كافة، ورسالته بلسان قومه، في تقدير الله، وفي واقع الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ (إبراهيم).

إذ تنتهي مهمة الرسول - كل رسول - عند البيان، أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال، فلا قدرة

عليه، وليس خاضعًا لرغبته، إنما هو من شأن الله، وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة، فمن سار على درب الضلال ضل، ومن سار على درب الهدى وصل.. هذا وذلك يتبع مشيئة الله، التي شرعت سنته في الحياة. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ (إبراهيم).

القادر على تصريف الناس والحياة، يصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافًا بلا توجيه ولا تدبير[1].

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (الشعراء)، فإنه ورد بين آيتين، هما: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥﴾ (الشعراء).

فالآية الأولى تحذِّره من الشرك، ثم تأمره بدعوة العشيرة، ثم خفض الجناح للمؤمنين، وبهذا الترتيب يبدأ بنفسه، ثم قومه ثم الناس جميعًا، فهل في هذا ما يفهم منه أنه خاص بقومه؟ ولماذا لم يقفوا عند الآية الأولى من الثلاثة، ويقولوا إنه مرسل إلى نفسه فقط ما داموا سيقطعون ما يحلو لهم عن سياقه؟! وفي هذه الآية المذكورة يطلب الله عز وجل من الرسول ﷺ أن ينذر أقاربه أولًا، ثم يعطف على المؤمنين.

ومن أجل أن يطمئن أهل مكة وغيرها من أهل القرى، يأمر الله رسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين فيلزم نفسه أولًا، ثم الأقربين فالأبعد فالأبعد، وأمره أن يخفض جناحه لهؤلاء المؤمنين أي يلين جانبه لمن اتبعه من عباده المؤمنين بالعطف والحنان، وأمره أن يتبرَّأ ممن عصاه من خلق الله كائنًا من كان حتى لو كان من أقاربه (ذو رحم أو ذو قربى)، فلا يجامل أحدًا، فالكل سواسية، والإنسان إذا بدأ بنفسه فسوف يطيعه الآخر طواعية[2].

ويجلي الشيخ سيد قطب لنا حقيقة الآية الثانية ودلالتها على عالمية الرسالة المحمدية، ولماذا نزل القرآن في أمة بدوية ليكون دعوة عالمية: قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ (الشورى).

يقول الشيخ سيد قطب في مَعْرِض تفسيره لهذه الآية: يُعْطَفُ هذا الطرف من حقيقة الوحي على ذاك الطرف الذي بدأت به السورة، والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة، وعربية القرآن، مناسبة ظاهرة. فهذه أحرفهم العربية، وهذا قرآنهم العربي.. نزّل الله به وحيه في هذه الصورة العربية، ليؤدي به الغاية المرسومة: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ (الشورى: ٧).

وأم القرى مكة المكرمة، المكرمة ببيت الله العتيق فيها، وقد اختار الله أن تكون هي ـ وما حولها من القرى ـ موضع هذه الرسالة الأخيرة؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه ويريده: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

وحين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقرائها، ومن وراء الظروف ومقتضياتها، وبعدما سارت هذه

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٠٨٧.

٢. عالمية السلام في الإسلام منهجًا وعقيدة في الكتاب والسنة، د. عادل السيد مرزوق، مؤتمر قضايا الإصلاح العربي بمكتبة الإسكندرية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٩٥، ٩٦.

الدعوة في الخط الذي سارت فيه، وأنتجت فيه نتاجها.. حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفًا من حكمة الله في اختيار هذه البقعة من الأرض، في ذلك الوقت من الزمان، لتكون مقرّ الرسالة الأخيرة، التي جاءت للبشرية جميعًا، والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى.

لماذا بدأ الإسلام من الجزيرة العربية؟

لقد جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمور، وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى الله على هدى و نور.

فناسب هذا أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات ـ التي وُجدت وقتها ـ وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر فيها خارجة على طبيعته، بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله، وكانت الجزيرة العربية، وأم القرى وما حولها بالذات، هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى.

فقد كان النظام القبلي هو السائد، وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام، فلما قام محمد ﷺ بدعوته وجد من سيوف بني هاشم حماية له، ووجد من التوازن القبلي فرصة؛ لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بني هاشم، وهذا يبين حمايتهم لمحمد ﷺ وهم على غير دينه، بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا في أول الدعوة، وتدع تأديبه ـ أو تعذيبه ـ لأهله أنفسهم.

والموالي الذين عُذِّبوا لإسلامهم عذّبهم سادتهم، ومن ثم كان أبو بكر ﷺ يشتري هؤلاء الموالي ويعتقهم، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء، وتمتنع فتنتهم عن دينهم.. ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد، ثم كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة، وهي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها.

وقد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تَزْخَر بحضانة عميقة لبذور نهضة، وكانت تَجِيْش[1] بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها في ضمير الغيب، وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف إمبراطوريتي كِسْرَى وقَيْصَر.

وأشهر هذه الرحلات رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال، المذكورتان في القرآن في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ (قريش).

وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة، فلما جاءها الإسلام استغلّ هذا الرصيد كله، ووجّه هذه الطاقة المختزنة، التي كانت تتهيأ كنوزها للتفتح؛ ففتحها الله بمفتاح الإسلام، وجعلها رصيدًا له وذخرًا.

ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة

١. تَجِيْش: تَفِيض.

الرسول ﷺ من أمثال: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وحمزة والعباس وأبي عبيدة، وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وسعد بن معاذ، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم من تلك العُصْبة التي تلقَّت الإسلام؛ فتفتَّحَت له، وحَمَلَته، وكبُرت به وصلحت، ولكنها كانت تحمل البِذْرة الصالحة للنمو والتمام.

وليس هنا مكان التفصيل في وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة، وصيانة نشأتها، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة، التي جاءت للبشرية جميعها وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة ﷺ؛ فذلك أمر يطول، ومكانه رسالة خاصة مستقلة.

وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة، التي يُظهر التدبُّر والتفكُّر بعضَ أطرافها كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة.

وهكذا جاء هذا القرآن عربيًّا لينذر أمّ القرى ومن حولها، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام، وخلصت كلها للإسلام، حملت الراية وشرَّقت بها وغرَّبت، وقدَّمت الرسالة الجديدة والنظام الإنساني الذي قام على أساسها، للبشرية جميعها ـ كما هي طبيعة هذه الرسالة ـ وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها، وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض لميلادها ونشأتها.

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول ﷺ حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام، ويَتَمَحَّض[1] هذا المَهْد للعقيدة التي اختير لها على علم، كما اختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعًا. فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض.

ولو كانت لغة ميِّتة أو ناقصةَ التكوينِ الطبيعي ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولًا، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانيًا.. وقد كانت اللغة، كأصحابها، كبيئتها، أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم.

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة، حيثما وجه الباحث نظره إلى تدبر حكمة الله واختياره ومصداق قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤)[2].

رابعًا. الإسلام دين عالمي، ولا فرق فيه بين الناس على أساس الجنس، بل التفضيل فيه على أساس التقوى:

ألّف د. على عبد الحليم محمود في هذه القضية سِفرًا ضخمًا تحت عنوان "عالمية الدعوة الإسلامية"، عالج فيه جوانبها المختلفة، فبدأ بالحديث عن الحاجة الماسّة وقت مجيء الإسلام إلى دعوة عالمية غير عشائرية، أو قبلية، أو محلية، أو إقليمية، ثم أورد الأدلة على عالمية الدعوة الإسلامية، نقلية وعقلية، ثم ختم بمعالم المجال التطبيقي لعالمية الدعوة، وآثار هذه العالمية، وسنورد هنا فقرات من كلامه لتجلية حقيقة هذا الأمر.

إنسانية واحدة:

"ينادي الإسلام بأن الناس جميعًا من كل جنس ومن

---

١. يَتَمَحَّض: يَخْلُص.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣١٤٢: ٣١٤٤.

كل لون ومن كل قطر أمة واحدة: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ (البقرة).

ولا يؤثِّر في رفعة الناس أو انحطاطهم تباين قبائلهم، أو اختلاف ألوانهم وألسنتهم، ولذلك فهو يبعث المبشِّرين والمنذرين إلى جميع الأمم: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾ (الرعد)، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ (النحل: ٣٦)، ولقد ذكر القرآن الكريم أنبياء ورسلًا لم يُذكَروا في الكتاب المقدس، مثل هود وصالح، وغيرهم.

والمسلم يمتاز عن غيره بأنه يعتقد في صدق جميع الرسل: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾ (البقرة)، ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥). وتلك هي الإنسانية الواحدة، فهل هناك أعرق من هذا في القضاء على الفوارق المصطنعة بين الناس؟! هل هناك أبلغ في الرد على من يحتقرون قومًا؛ لأن الطبيعة لوّنت وجوههم وأبشارهم من تلك الإنسانية الواحدة التي جاء بها الإسلام ولم يجئ بها دين غيره؟!

إن الإنسانية الواحدة هي صِمَام الأمان[1] للمشاعر الإنسانية التي يشقيها ويقلقها أن تحسَّ بانفصام الرابطة بينها لأسباب عارضة، كان من المحتمل انعدامها، ألا ما أظلم الإنسان لأخيه الإنسان! وما أحوج الإنسانية إلى دعوة عامة عالمية تضع الأمور في نصابها وتوحِّد الإنسانية وأهدافها، وتلك الدعوة لا يمكن أن تكون غير الإسلام.

لقد مضت سُنَّةُ الله في الأرض بإرسال رسول إلى كل أمة؛ ليبين لهم بلسانهم، ثم بعث الله رسولًا خاتمًا للعالمين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، يقول ﷻ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ (الفرقان)، يقول ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧) ﴾ (الأنبياء)، يقول ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠) ﴾ (الأنعام)®.

عالمية الدعوة حاجة نفسية:

وعلى ذلك فالإسلام يهدف إلى رفع الجنس البشري حتى يتسنَّم الذُّروة[2]، ولذلك يُعتبر الدين القيِّم الكامل المتكامل: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)، فهو يلقي ضوءًا كاملًا على أركان الدين ووجود الله وصفاته وطبيعة الوحي، وطبيعة الخير والشر، والبعث بعد الموت، ولذلك يعتبر دين العالم النهائي الذي وضع حلًّا لكل عُقدة، وعلاجًا لكل مشكلة اعترت

---

١. صِمام الأمان: أي المسئولة عن تحقق الأمن والأمان.

® في "مساواة الإسلام بين البشر" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

٢. يَتَسَنَّم الذُّروة: يرتفع إلى القِمَّة.

الإنسانية، أو تعتريها إلى يوم القيامة، وعلى ذلك فواجب على كل من وصل إليه هذا الدين أن يعتبره دينه، وأن يؤمن به ويتبع منهاجه.

وفي الواقع أنَّ ختم النبوة بمحمد ﷺ كان ضرورة لا يمكن بدونها أن تتم الوحدة الإنسانية بحال من الأحوال، وعلي ذلك فإن النبوة في حد ذاتها تعتبر أمرًا عامًّا، وكلما اقترب الوقت بين الأنبياء كانت الحاجة ماسّة إلى وحدة عامة، أي وحدة عالمية، ولم تكن تلك الوحدة مُحْكَمةً إلا ببعث نبي عالمي، نبي للناس كافة، وبهذا وحده رسخت فكرة توحيد الجنس البشري على يد محمد بن عبد الله ﷺ.

وهكذا نجد أن الإله الواحد والمنهج الواحد والإنسانية الواحدة التي نادى بها الإسلام، واختلف بها عن غيره من الأديان - بل امتاز بها عنها - أقوى عامل نفسي للبشرية يطمئنها ويبلغها درجة الأمن النفسي الذي تحنُّ إليه منذ أَنْ خُلقت، وتحاول أن تصل إليه سالكة إليه ما وجدت من السبل، وما هداها إليه تفكير أبنائها، غير أنها كانت في نهاية كل سبيل من تلك السبل، لا تجد نفسها عند ما تريد من الأمن والطمأنينة، وإنما تجد نفسها أمام مزيد هائل من القلق، والحيرة، والاضطراب؛ فتفرُّ مذعورة مرتدَّة من حيث أتت، ثم تستأنف البحث العلمي عن سبيل آخر، وما إن تسلكه وتستمر فيه وتدنو من نهايته تَلْقَ نفس المصير.

لا نقول ذلك جُزافًا، أو إلقاء للكلام علي عواهنه، وإنما يسندنا في ذلك التاريخ، وتؤيدنا الوقائع المادية الملموسة، فقد بلغ حدَّ التواتر أن الإنسانية وصلت يومًا إلي درجة الأمن النفسي، والاطمئنان عندما سلكت طريق الإسلام، واتبعت منهج القرآن، وآمنت بوحدة الله ووحدة الإنسان ووحدة المنهج"[1].

وبعد أن يستعرض أحوال العالم قبيل البعثة المحمدية، وما تردَّت إليه البشرية من شقاء يقول: "تلك حال العالم قبل البعثة المحمدية، قوي يأكل الضعيف، وكبير يطغى على الصغير، وأديان تُحرَّف وتُبدَّل لإرضاء الأهواء، وفشل ذريع من هذه الأديان وأهلها في أن ينقذوا أنفسهم، فضلًا عن إنقاذ العالم كله من تلك الهُوَّة التي تردَّت فيها الإنسانية، هُوَّةِ الظلم والفساد والحروب والصراع، والعجز الشنيع عن التعايش السلمي المبني على الدستور، المنظم لحياة الناس وطاعتهم، وإذعانهم لهذا الدستور، لذلك ولغيره كان الله يدَّخر للإنسانية أكبر نعمة أنعم بها عليها، كان يدخر لها دين الإسلام على يد محمد النبي الأمين ﷺ، الذي بشَّرت به سائر الأديان، فبعثه يحمل المشعل ليضيء الطريق لملايين البشر من كل أحمر وأسود، من إنس وجن، وعرب وعجم، ليضيء للبشرية - إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها - طريق الفوز والفلاح، والتعايش السلمي، في ظل دستور يحترم ويدين له الجميع، في ظل القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهَّرة"[2].

ويعقد د. على عبد الحليم محمود مبحثًا للمقارنة بين عمومية نبوة محمد ﷺ وخصوصية الرسل السابقين عليه فيقول: "يُقَسِّم علماء المقارنة بين الأديان والعقائد

---

1. عالمية الدعوة الإسلامية، د. علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٧٠: ٧٣.
2. المرجع السابق، ص٩٢.

والمِلَل ـ الأديان في العالم كله إلى قسمين كبيرين:

١. أديان دعوة، أو أديان مفتوحة على الناس.

٢. أديان مقفلة، أو محصورة في بيئة خاصة.

ثم يقول هؤلاء العلماء: إن أكبر أديان الدعوة ثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والأول من هذه الأديان تنحصر الدعوة إليه في التلمذة، ومصاحبة المُرِيدين للأئمة والرؤساء في الهياكل والصَّوامع، ودُوْر العبادة، وتنحصر الدعوة في الثاني في خِراف بني إسرائيل الضَّالة، وأما الإسلام فلا حدود لدعوته ببقعة أرض، ولا بنوع من الناس، ولا بزمن من الأزمان.

ويؤكِّد هؤلاء العلماء الفارق بين أديان الدعوة، والأديان المقفلة ـ التي لا تُعْنَى بإدخال الغرباء في ملتها ـ ويَرَون أن هذا الفارق هو: أن الأديان المقفلة تعبر عن بيئة محدودة، أو قوم محدودين، وأن أديان الدعوة تسري في أقطار لا تحدّها المواضع الجغرافية أو الروابط العنصرية"[1].

التطبيق العملي لمبدأ العالمية:

وحين واتت النبي ﷺ ـ بعد أن هدأ الصراع بين المسلمين والمشركين على أثر صلح الحديبية ـ فرصة إبلاغ دعوته للعالمين؛ تحقيقًا لمبدأ العالمية وطابعها الخاص بهذه الدعوة، راسل ﷺ الملوك والأمراء والزعماء، إبلاغًا لدعوته، وفي ذلك يقول د. على عبد الحليم محمود: "وكان النبي ﷺ قد جعل يفكر أثناء مقامه في الحديبية، وبعد عودته منها ماذا عساه يصنع ليحصل على المزيد من انتشار دعوته في العالم كله، وإلى مختلف الناس في مختلف أوطانهم عملًا بما أمره به ربه من إنذار العالمين: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (الفرقان).

وانتهى التفكير بصاحب الدعوة ﷺ إلى أن يرسل رسله إلى العالم كله، وقد كان العالم آنئذ ـ وفي حدود إمكانيات الانتقال ـ لا يعدو دولتي الفرس والروم، ولذلك أرسل رسول الله ﷺ رُسُلَه وحمَّلهم بكتب يدعو فيها إلى الدين الإسلامي الجديد، دين كل الناس في كل الأمكنة والأزمنة، فأرسل إلى هِرَقل وكسرى، وكانا على دولتي الرومان والفرس، وإلى المقوقس في مصر، وأرسل إلى نجاشي الحبشة، وأرسل إلى الحارث الغسّاني، وأرسل إلى عامل كسرى على اليمن.

والواقع أن الدين الإسلامي كان في ذلك الوقت قد بلغ من النضج ما يجعله دينًا للناس كافة، فقد أخذ الوحي يتوالى على الرسول ﷺ، ويتحدث عن كل الأمور وعن كل الأسس التي يجب أن تقوم عليها الدولة الإسلامية، وعن كل الطرق التي يجب أن ينطلق منها المدّ الإسلامي، والزحف المقدس نحو عالمية التبليغ"[2].

كل ما سبق من أسس العالمية ودعائمها وملامحها يتجلى على أرض الواقع، فيما أشار إليه المؤلف د. على عبد الحليم محمود في خلاصة عمله بقوله: "ولقد سبق الإسلام بنظمه في العلاقات الدولية كل أمم الحضارات القديمة والحديثة، فقد وضع الرفق في هذه العلاقات موضعه الحق، ولم يسمح بالالتجاء إلى القوة إلا حيث لا يكون هناك طريق غير القوة، وحيث يكون الهدف من استعمال القوة هو إنصاف من لا يمكن

١. المرجع السابق، ص٤٠٦.

٢. المرجع السابق، ص٤٥٣، ٤٥٤.

إنصافهم إلا بالقوة.

وعلى مثل هذه النظم في العلاقات الدولية، تسود المودة بين الدول والحكومات، وفي تلك النظم تجد الإنسانية كل ما يهيئ الأسباب للوحدة العالمية بين الناس كافة، وليس هناك من نظام أو دين يمكن أن يكفلَ للبشرية كل تلك النظم التي كفلها لها الإسلام.

وهل يتصور أحد الوحدة العالمية في مجموعة بشرية - أيًّا كان دينها أو نظمها السياسية والاجتماعية - غير المجموعة الإسلامية؟ إنهم المسلمون بإيمانهم بكل الرسل، يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)، وهل تُتَصَوَّرُ الوحدةُ العالمية في مجموعة من البشر يتخذون الدين تجارة، ويجمعون من ورائه الأموال، ويبيعون جنة الله بالدراهم والدنانير؟!

ولن يجد الباحث المنصف أي مانع أو عائق يمنع أو يعوق قيام الوحدة العالمية على أسس إسلامية، فالإسلام هو الذي يعتبر الناس جميعًا أمة واحدة، كما ينادي بذلك القرآن في قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون).

إن الوحدة العالمية لا تُتَصوَّر إلا إذا كانت الأسس التي تقوم عليها نابعة من شريعة الإسلام، وموافقة لما جاء به القرآن الكريم، وإن على الإنسانية أن تحاول إذا كانت تريد أن تعيش حقًّا في وئام وسلام"[1].

وبناء على ما سبق، فقد اتضحت لدينا فكرة عالمية الإسلام زمانًا ومكانًا، وانتفت محليته وإقليميته المزعومة، أو اقتصاره - المدّعَى - على الزمن الذي بُعث فيه محمد ﷺ وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان. فالمعروف أن الإسلام قد وضع أصولًا عامة وحدَّد أُطُرًا كُلِّيَّة تصلح لكل عصر وبيئة، على أن يملأ أهلُ كل عصر ومصر فراغَ تجاويف هذه الهياكل العامة باجتهادات تناسب ظروفهم دون أن يمرقوا من إطار أصولهم المرجعية، وقواعدهم الشرعية أو أن ينفلتوا من إطارها وزمانها.

خامسًا. الإسلام هو الذي بعث أمة العرب بعثًا من وهاد التاريخ وظلماته، ومنحهم هويتهم الخاصة وطابعهم المميز، فالإسلام هو الأصل والعروبة فرع عنه:

إن دعوى أن العروبة أصل والإسلام فرع مغالطةٌ مكشوفة وفرية مردودة؛ وذلك أن العرب لم يكونوا - في الجاهلية - أمة، بل مجموعة قبائل بدوية متنازعة متنافرة، لا رابط بينها، ولا وشيجة تجمعها، ولا انتماء يدفعها، بعثها الإسلام من مرقدها بعثًا، فَعَلا كعبها بين الأمم، وصارت مادة الإسلام، أي: حاملة لواء نشر الدعوة في العالمين، وهو عبء كان يمكن أن تنهض به أية أمة أخرى، ولكن عناية المولى بالعرب اختارتهم ليشرفوا بهذا التكليف، ويقوم لهم شأن بين الأمم التي كانوا بالنسبة لها - في موازين تلك العهود - كمًّا مهملًا لا تأبه بهم، ولا تقيم لهم وزنًا.

يصور الشيخ أبو الحسن الندوي هذه المنزلة السامية التي نالتها أمة العرب بالإسلام في تاريخ المسلمين، بقوله: "ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوربي، وبغير العين التي ينظر بها

---

١. المرجع السابق، ص٦٠٩، ٦١٠.

الوطني العربي، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية، ويعتقد أن سيدنا محمدًا ﷺ العربي هو روح العالم العربي وأساسه وعنوان مجده، وأن العالم العربي ـ بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات ـ جسم بلا روح، وخط بلا وضوح، إذا انفصل ـ لا سمح الله بذلك ـ عن رسول الله ﷺ وقطع صلته عن تعاليمه ودينه، وأن رسول الله ﷺ هو الذي أبرز العالم العربي للوجود، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة وقبائل مُتَنَاحِرَة[1]، وشعوبًا مستعبدة ومواهب ضائعة، وبلادًا تتسكع في الجهل والضلالات.

فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية أو الفارسية، ولا يخطر ذلك منهم على بال، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم في حال من الأحوال، وكانت سوريا التي تكوِّن جزءًا مهمًّا من العالم العربي مُستعمَرة رُوميَّة، تعاني المِلْكِية المُطْلَقة والحُكْم الجائر المُستبد، لا تعرف معنى الحريَّة والعدل، وكان العراق مَطِيَّة لشهوات الدولة الساسانية ـ الفارسية ـ مُثْقَل بالضرائب المُجْحِفة، والإتاوات الفادحة، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حَلُوبًا رَكُوبًا، يَجُزُّون صوفها ويظلمونها في عَلَفِها، ثم إنها تعاني الاضطهاد الديني مع الاستبداد السياسي، فما لبث هذا العالم المُفكَّك المُنْحَلُّ المظلوم المضطهد أن هبَّت عليه نَفْحة من نَفَحَات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ. الذي أدرك هذا العالم وهو ضائع هالك وأخذ بيده، وهو ساقط متهالك، فأحياه بإذن الله، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وعلَّمه الكتاب والحكمة، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام ورسول الأمن والسلام، ورائد العلم والحكمة، ومشعل الثقافة والحضارة، كان غوثًا للأمم غيثًا للعالم، هنالك كانت الشام وكان العراق، وكانت مصر، وكان العالم العربي الذي نتحدث عنه.

فلولا محمد ﷺ ولولا رسالته، ولولا ملَّته، لما كانت سوريا، ولا كان العراق، ولا كانت مصر، ولا كان العالم العربي، بل ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة، وعقلًا، وديانة، وخلقًا، فمن استغنى عن دين الإسلام، من شعوب العالم العربي وحكوماته، وولّى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى، أو استلهم قوانين حياته، أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره، أو أسّس حياته على العنصرية، أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام، ولم يرض برسول الله ﷺ قائدًا ورائدًا وإمامًا وقدوة ـ فليردَّ على محمد بن عبد الله ﷺ نعمته، ويرجع إلى جاهليته الأولى، حيث الحكم الروماني والإيراني، وحيث الاستعباد والاستبداد، وحيث الظلم والاضطهاد، وحيث الجهل والضلالة، وحيث الغفلة والبطالة، وحيث العزلة عن العالم، والخمول والجمود، فإن هذا التاريخ المجيد، وهذه الحضارة الزاهية، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الدول العربية، ليست إلا حسنة من حسنات محمد ﷺ.

فالإسلام هو قومية العالم العربي، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربي وإمامه وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله، فانتصر عليه، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه، ويؤدي رسالته.

١. المُتَنَاحِرَة: المتقاتلة.

إن العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية، أو الشيوعية، أو عدوًّا آخر بالمال الذي تضخه بريطانيا، أو تتصدق به أمريكا، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية، وبالروح التي حارب بها الدولة الرومية، والإمبراطورية الفارسية في ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعًا.

إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة، ويكره الموت، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة، وعقل يخامره الشك، وتتنازع فيه الأفكار والأهواء، أو بيد مضطربة وقلب متشكك، ضعيف الإيمان وقوة متخاذلة في الميدان.

فالمهم لأمراء العرب وزعمائهم، وقادة الجامعة العربية، أن يغرسوا الإيمان في الشعوب العربية وجماهير الأمة، وأولياء الأمور والجيوش العربية والفلاحين، والتجّار، وفي كل طبقة من طبقات الجمهور، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد في سبيل الله والتوق إلى الجنة، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء، وزخارف الدنيا، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس، ومألوفات الحياة، وكيف يتحملون الشدائد في سبيل الله، وكيف يستقبلون الموت بثَغْرٍ باسمٍ، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفَرَاش على النور"[1].

وفي تحليل دقيق يُعدد ابن خلدون مؤهلات العرب التي هيأتهم لحمل عبء أمانة الرسالة، والاضطلاع بمهمة نشرها في العالمين، فيما نقله عنه وعقب عليه د. علي عبد الحليم محمود، فقال: "ثم يصف ابن خلدون أهل البدو ـ ومنهم العرب ـ بعدة صفات منها:

أنهم أقرب إلى الخير من أهل الحضر، ويعلل لذلك بأن نفوسهم على الفطرة الأولى المتهيئة لقبول ما يرد عليها، وينطبع فيها من خير أو شر، ثم يقول: فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير، وحصلت لها ملكته بعُد عن الشر، وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضًا عوائده.

وعلى العكس من ذلك تمامًا أهل الحَضَر، فهم ـ لكثرة ما يعانون من فنون الملاذّ، وعوائد الترف، والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، وقد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه ـ أشد إقبالًا على ملذات الدنيا وشهواتها ومفاسد الأخلاق من أهل البدو؛ لأن هؤلاء أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها، ولذلك يسهل علاجهم عن علاج أهل الحضر.

إنهم أقرب إلى الشجاعة، ويُعلِّل لذلك بأن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مِهاد الراحة والدَّعَة، وانغمسوا في النعيم والتَّرف، ووَكَلُوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم عليهم، فألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزَّلوا منزلة النساء والوِلْدَان، وأما أهل البدو فهم ـ لتفرُّدهم عن المجتمع، وتوحُّشهم في الضواحي، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ـ قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يَكِلُونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائمًا

---

1. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٢٠٧: ٢٠٩.

يحملون السلاح، ويتلفَّتون عن كل جانب، وقد صار لهم البأس خُلُقًا، والشجاعة سَجِيَّة، يرجعون إليها متى دعاهم داعٍ، أو استنفرهم صارخ.

إنهم - أي أهل البدو - أقدر على التَّغلُّب على من سواهم، وذلك لما هم عليه من شجاعة، فهم أقدر على التغلب، وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم الأخرى، وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة، فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشًا، كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد، وتساويا في القوة والعصبية.

وهذه الصفات من قرب إلى الخير وقلة إقبال على مفاسد الدنيا، وملذاتها وشهواتها، وأنهم أيسر علاجًا ممن سواهم وأقرب إلى الشجاعة، وأقدر على التغلب على من سواهم - أقول: هذه الصفات ضرورية وحيوية عند نشر دعوة إلى فضيلة، أو الدعاية لدين جديد كالإسلام.

فمن غير نزعات لا يستطيع الدعاة أن يعملوا على نقل الناس من الضلال إلى الهدى، ومع الانغماس في الشهوات والملذات، لا يمكن أبدًا لحاملي المبادئ الخلاقة أن يمضوا في طريق عملهم؛ لأنهم بذلك يفقدون أية قدرة على إعطاء النموذج الحي لما يدعون إليه، ومن البديهي أن طريق عرض هذه المبادئ السامية على الناس لا بد أن تثور على جوانبه العقبات الكثيرة من كل نوع من أنواع العقبات، وذلك بالقطع يحتاج إلى مزيد من الشجاعة والقدرة على التغلب.

هل يعني ذلك أن الإسلام بغير العرب لم يكن لينتشر أو يصل إلى ما وصل إليه؟ لا ندَّعي هذا، ولا يستطيع أحد أن يدَّعيه هذا، وذلك أن الله قادر على أن ينشر دينه بالعرب وبغيرهم من الأجناس أو الألوان.

غير أن هذه الصفات التي اتصف بها العرب دون كثير من الناس ساعدت بغير شك على أن ينجحوا في نشر الدين، وأن يذهبوا به إلى حيث شاء الله، ولكن بعد أن هذّب الإسلام من أخلاقهم، وأصلح من عيوبهم، وحال بينهم وبين كثير من الشرور التي كانوا يتعاطونها في جاهليتهم".

ثم يحسم قضية العلاقة بين العروبة والإسلام بقوله: "لا حياة للعرب بغير الإسلام، ولا تقدم لهم إلا إن عادوا إلى اتخاذه منهجًا لحياتهم ابتداء من الخاطر السانح إلى الفكرة المتعمقة الهادفة، وبحيث يصبح الإسلام هو النظام الوحيد لهم في كل شأن من شئون حياتهم ما صغر منها وما كبر"[(١)].

سادسًا. الثوابت والمتغيرات في الإسلام:

قامت رسالة الإسلام على أصول وفروع، أو ثوابت ومتغيرات، فالأصول ثابتة في كل عصر ومصر لا تتغير، والفروع يمكن الاجتهاد حولها بما يلائم كل زمان ومكان، ولكن في إطار الثوابت ودون الخروج عليها، وليس لكل دولة إسلام خاص - كما يدعي المفترون - إنما هي عوامل سعة الشريعة ومرونتها.

يؤمن المسلمون جميعًا - على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم - بإله واحد لا إله إلا هو رب العالمين، ولا يختلفون في مبدأ الوحدانية، فيقولون بواحد أو ثلاثة أو أكثر أو أقل! ويؤمنون بنبي واحد هو محمد ﷺ بشرًا

١. انظر: عالمية الدعوة الإسلامية، د. علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٤٩٠: ٥١١.

ورسولًا، وليس إلهًا!! ويقيمون كل يوم صلوات خمسًا يستقبلون فيها قبلة واحدة، ويصومون مجتمعين - على سبيل الفريضة - شهرًا واحدًا من السنة، ويؤمنون بضرورة تزكية أموالهم، ويحجون في وقت واحد من العام إلى بيت واحد، هو بيت الله الحرام بمكة المكرمة.

هذه هي أصول الإسلام وأركانه، التي يجتمع عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ثم يختلفون بعد ذلك في بعض الفروع على اختلاف دورهم وأقطارهم، اختلاف توجه الفتوى والاجتهاد باختلاف ظروف العصر والإقليم - دون خروج على الأصل، وإنما ترجيحًا لرأي على آخر في إطار القواعد العامة - فالمعروف مثلًا أن الإمام الشافعي - رحمه الله - قد عدل في بعض اجتهاداته عند تحوله إلى بيئة جديدة عندما قدم إلى مصر.

وفقهاء بلاد الخليج في أيامنا لا يستريحون إلى إقبال شبابهم على الزواج من الكتابيات؛ لأن هذا يرفع نسبة العنوسة بين الفتيات المواطنات، ولا شك أن الوضع مختلف بالنسبة للشباب المسلم المغترب في الغرب، والمعروف أن ما يُفتي به المسلمون في بلادهم يدقق فيه كثيرًا عندما تفتي به الأقليات المسلمة في غير بلاد المسلمين؛ مراعاة لظروفها، وتخفيفًا عليها، والاختلاف في هذا كله - إن وقع - اختلاف تنوع وتكامل لا اختلاف تضادّ، وتناقض كما يقولون.

يقول د. يوسف القرضاوي: "ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصور أية غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغير الفتوى، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال.

ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نصّ عليه المجتهد (إمام المذهب) في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه، لعلمهم بأنه لو كان في زمنهم لقال بما قالوا به، أخذًا من قواعد مذهبه.

فلا عجب أن تأتي شريعة الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وفطرة الوجود جامعة بين عنصر الثبات وعنصر المرونة.

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم أن يعيش ويستمر ويرتقي، ثابتًا على أصوله وقيمه وغاياته، متطورًا في معارفه وأساليبه وأدواته.

فبالثبات يستعصي هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء، أو الذوبان في المجتمعات الأخرى، أو التفكك إلى عدة مجتمعات تتناقض في الحقيقة، وإن ظلت داخل مجتمع واحد في الصورة، وبالثبات يستقرُّ التشريع وتتبادل الثقة، وتُبْنَى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة، وأسس راسخة، لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية، والاجتماعية ما بين يوم وآخر. وبالمرونة، يستطيع هذا المجتمع أن يكيِّف نفسه وعلاقاته حسب تغير الزمن، وتغير أوضاع الحياة، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية.

ولكن ما مظاهر الثبات والمرونة في شريعة الإسلام، وما دلائل ذلك؟

يتجلى هذا الثبات في "المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع" من كتاب الله، وسنة رسوله.

فالقرآن هو الأصل والدستور، والسنة هي الشرح النظري، والبيان العملي للقرآن، وكلاهما مصدر إلهي

معصوم، لا يسع مسلمًا أن يُعْرِضَ عنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (النور: ٥٤)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (النور: ٥١).

وتتجلى المرونة في "المصادر الاجتهادية" التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين مُوسِّع ومُضيِّق ومقلل ومكثّر، مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة، وشرع من قبلنا، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط "[١] ®.

سابعًا. بين العولمة وعالمية الإسلام:

ربما كان معنى العولمة في ظاهره يقترب من معنى "العالمية" الذي جاء به الإسلام، وأكده القرآن في سوره المكية، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ (الأنبياء)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ (الفرقان)، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ (ص).

ولكن هناك في الواقع فرق كبير بين مضمون "العالمية" الذي جاء به الإسلام، ومضمون "العولمة" الذي يدعو إليه اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعًا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فقد استخلفهم الله في الأرض، وسخّر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، كذلك تقوم على أساس المساواة بين الناس في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسئولية، وأنهم جميعًا شركاء في العبودية لله تعالى، وفي البنوة لآدم، كما قال الرسول الكريم ﷺ أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى"[٢].

وهو بهذا يؤكد ما قرره القرآن في خطابه للناس، كلِّ الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

ولكن القرآن في هذه الآية التي تقرر المساواة العامة بين البشر لا يلغي خصوصيات الشعوب، فهو يعترف بأن الله تعالى جعلهم ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ليتعارفوا.

أما "العولمة" فالذي يظهر لنا من دعوتها حتى اليوم أنها فرض هيمنة سياسية، واقتصادية، وثقافية، واجتماعية من الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، وخصوصًا عالم الشرق، والعالم الثالث، وبالأخصّ

١. الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٢٨ وما بعدها.

® في **"مجالات الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي) وفي **"انتفاء جمود الشريعة الإسلامية وتحجُّرها"** طالع: الشبهة الثامنة؛ من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، وخصوصًا بالجاهلية والتعظيم (٥١٣٧)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد (٢٣٥٣٦).

العالم الإسلامي.

وقد فرضتها الولايات المتحدة بتفوُّقها العلمي والتكنولوجي، وبقدرتها العسكرية الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصادية الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية التي ترى فيها نفسها أنها سيدة العالم.

إنها لا تعني معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم وعلى مر العصور، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين والجبابرة للأذلاء.

العولمة في أجلى صورها اليوم تعني: "تغريب العالم" أو بعبارة أخرى: "أمركة العالم" إنها اسم مهذّب للاستعمار الجديد، الذي خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدًا جديدًا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف (العولمة)، إنها تعني: فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وأية دولة تتمرد أو تنشز، لا بد أن تؤدّب بالحصار، أو التهديد العسكري، أو الضرب المباشر، كما حدث مع العراق، والسودان، وإيران، وليبيا، وكذلك تعني فرض السياسات الاقتصادية التي تريدها أمريكا عن طريق المنظمات العالمية التي تتحكم فيها إلى حد كبير، مثل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وغيرها.

كما تعني: فرض ثقافتها الخاصة، التي تقوم على فلسفة المادية، والنفعية، وتبرير الحرية إلى حد الإباحية، وتستخدم أجهزة الأمم المتحدة لتمرير ذلك في المؤتمرات العالمية، وتسوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياط التخويف والتهديد، أو ببوارق الوعود والإغراء.

وتجلى ذلك في (مؤتمر السكان) الذي عُقِدَ بالقاهرة في صيف ١٩٩٤م، والذي أريد فيه أن تمرر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق، وتجيز الأسرة الوحيدة الجنس أو ما يسمى بالزواج المثلي(زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء)، وإطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي، إلى غير ذلك من الأمور التي تخالف الأديان السماوية كلها، كما تخالف ما تعارفت عليه مجتمعاتنا، وغدًا جزءًا من كينونتها الروحية والحضارية.

ومن هنا وجدنا الأزهر الشريف في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والجماعات الإسلامية المختلفة، تقف جنبًا إلى جنب مع الفاتيكان ورجال الكنيسة، لمقاومة هذا التوجه المدمّر؛ إذ شعر الجميع أنهم أمام خطر يهدد قيم الإيمان بالله تعالى ورسالاته، والأخلاق التي بعث الله بها رسله - عليهم السلام -.

كما تجلت هذه العولمة في "مؤتمر المرأة" في بكين سنة ١٩٩٥م، وكان امتدادًا لمؤتمر القاهرة وتأكيدًا لمنطلقاته وتكميلًا لتوجهاته، وهذه قضية في غاية الأهمية (الاعتراف بالخصوصيات)، حتى لا يطغى بعض الناس على بعض، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم.

بل نجد الإسلام يعترف باختلاف الأمم، وحق كل أمة في البقاء حتى في عالم الحيوان، كما جاء في حديث النبي ﷺ: "لولا أن الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرتُ

بقتلها"[١]. وهو يشير إلى ما قرره القرآن الكريم في قوله الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام: ٣٨).

وإذا خلق الله أمة مثل أمة الكلاب، فلا بد أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلق سبحانه شيئًا إلا لحكمة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١)، فلا يجوز إذن حذف هذه الأمة المخلوقة من خارطة الوجود، فإن هذا تطاول واستدراك على خلق الله ﷻ.

إذا كان هذا في شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانية؟ إلا أن ترتضي أمة باختيارها الانصهار في أمة أخرى: في دينها ورسالتها ولغتها، كما فعلت مصر وبلاد شمال أفريقيا، وغيرها، حين اختارت الإسلام دينًا، والعربية لغة، بل أصبحت عضوًا مهمًّا في جسم هذه الأمة، بل لها دور القيادة في كثير من الأحيان[٢].

العولمة استعمار جديد:

إن العولمة كما تُطرح اليوم، إنما تصب في النهاية لصالح الأقوياء ضد الضعفاء، ولكسب الأغنياء ضد الفقراء، ولمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير. وهذا طبيعي؛ لأن التكافؤ مفقود في حلبة المصارعة أو الملاكمة، بين الأوزان الثقيلة والأوزان الخفيفة، بل بين المصارع المدرب الممارس، وبين خصمه الضعيف، الذي سيسقط لا محالة في بداية اللقاء من أول ضربة.

وماذا يمكن أن نتصور من نتائج سباق يفتح ميدانه لمن يريد المشاركة فيه؟ كيف يكون مصير من يركب الجمل أو الحمار إذا سابق من يركب السيارة؟

إن فتح الأبواب على مصاريعها - بدعوى العولمة - في مجالات التجارة والاقتصاد، والتصدير والاستيراد، أو في مجالات الثقافة والإعلام، سيكون لحساب القوى الكبرى، والدولة التي تملك ناصية العلم والإعلام الجبار والتكنولوجيا العالية والمتطورة، ولا سيما الدولة الأكبر قدرة، والأشد قوة، والأعظم نفوذًا، وثروة، وهي أمريكا.

أما بلاد "العالم الثالث" - كما يسمونها - وخصوصًا "البلاد الإسلامية" منها، وهي ما أطلق عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي - رحمه الله - "محور طنجة - جاكرتا" فليس لها من هذا السياق العالمي، إلا بقايا ما يفضل من الأقوياء، إن بقي لديهم ما يجودون به من فتات علي الآخرين.

إنه الاستعمار القديم بوجه جديد، واسم جديد، إن الاستعمار الغاشم يغير لونه كالحرباء، ويغير جلده كالثعبان، ويغير وجهه كالممثل، ويغير اسمه كالمحتال المحترف، ولكنه هو هو، وإن غيّر شكله، وبدّل اسمه؛ ستكبارًا في الأرض بغير الحق، وعلوًّا كعلو فرعون في الأرض، والذي جعل أهلها شيعًا، يستضعف طائفة منهم. ولكن الاستعمار الجديد الذي يريد العلو والفساد في الأرض كافة، لا يستضعف طائفة،

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن مغفل المزني ﷺ (٢٠٥٦٦)، وابن ماجه في السنن، كتاب الصيد، باب النهي عن اقتناء الكلب إلا كلب صيد أو حرث أو ماشية (٣٢٠٥)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٩٤٥٣).

٢. المسلمون والعولمة، د. يوسف القرضاوي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٢: ١٧.

بل يستضعف شعوب الأرض، لمصلحة أقلية ضئيلة منهم.

ويوضح د. مصطفى السادة كيفية جعل الإسلام عالميًّا قائلًا: حتى نجعل من الإسلام اليوم عالميًّا نحتاج إلى تضافر الجهود وتوفر الآليات الفاعلة في هذه العملية، ولا نقصد بالعالمية هنا نفس المدلول الفكري للفظة العولمة التي باتت توحي بالكثير من الحساسية والخوف من هيمنة الآخر الذي يمتلك أفانين[1] السيطرة وحِيَلها، إنما نقصد بها: الانتشار والتموج لفكرة أو مفهوم أو قيمة معينة.

وبتعبير آخر مدى قدرة هذا المبدأ على إلزام الإنسان، وعالمية اليوم تختلف في متطلباتها وأدواتها عن العالمية السابقة، وما كانت تحتاج إليه من الأدوات، ومن أهم لوازم العالمية المعاصرة: القدرة على مواكبة متطلبات العصر ـ مع حفظ الأصالة، فليس من المعقول أن نواجه تحديات هذا القرن بالعقلية الطوباوية[2] لرجل الكنيسة في القرون الوسطى، بل من الضروري جدًّا الاقتناع بالحاجة إلى التفاعل مع المعاصرة الإيجابية وقدرة الاستفادة منها كأداة في الساحة الفكرية العالمية.

ولسنا بحاجة إلى الإصغاء لمفردات العقلية الانعزالية التي تَنادى بها البعض من المهتمين بالشأن الديني حيث الهمس ـ وبصوت عال أحيانًا ـ في أذن الشارع الإسلامي بغية إقصائه عن الساحة العالمية متذرِّعًا بقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ (مريم: ٤٨)، حيث العيش داخل أوهام الكهف الأفلاطوني، دون أن يلتفت أصحاب هذه الدعوة إلى أن الإسلام دين منفتح على الآخر، ويعمل على الاستفادة من فكره وثقافته مهما كان البعد المكاني أو الزماني.

ولم يقف الإسلام يومًا أمام حركة العقل والبحث العلمي، بغية التناقض مع الفكر الإيجابي الهادف والداعم لفكرة التوحيد.

بيد أن هذا الانفتاح لا يعني السقوط في وحل الاستلاب الثقافي أو الاغتراب الفكري ـ بسبب القصور المعرفي لدى بعض المتأسلمين ـ وبالتالي مَسْخ الهُوِيَّة الإسلامية، ولذا ينبغي أن يُوجَّهَ الانفتاح في اتجاهين:

في اتجاه الذات: حيث استحضار التراث وقراءة مفاهيمه بصورة صحيحة، وتفعيل بعض قيمه المعطّلة، وجعلها في متناول الجميع ممن يعشقون الحقيقة، وهي همهم الأوحد، فقد شاء الحق تبارك وتعالى لهذا الدين أن يظهر على الدنيا كلها ولو كره المشركون.

وفي اتجاه الآخر: حيث الحرص على إيصال المفاهيم الحقَّة، والاستفادة من أدوات هذا الآخر في سبيل ذلك دون خوف على الجانب القِيَمِي[3].

وأخيرًا، فإن من المعروف أن مكة المكرمة تشكّل

---

١. الأفانين: جمع فن، وهو العمل الإبداعي.

٢. الطوباوية: السعي إلى المُثُل العُليا وتجاهل الواقع.

٣. مقال: عالمية الإسلام بين وعي الذات وإنضاج الخصوصية، مجلة النبأ، العدد ٥٨، ربيع الأول، ١٤٢٢هـ، حزيران ٢٠٠١م، منشور بموقع: www. annabaa. org

مركزًا للعالم الإسلامي إلى يوم الدين، والعربية لغة القرآن المحفوظ بحفظ الله، وقد تغيرت الطبيعة الجغرافية للعالم الإسلامي، فلم تعد هناك الرابطة الجغرافية للعالم الإسلامي، ولم تعد هناك الرابطة السياسية "الخلافة" التي تجعل لهم عاصمة سياسية، فتغيرت من دار حرب إلى دار دعوة، وبفضل ثورة الاتصالات أصبحت مسارات التدفق مختلفة وأحيانًا تنطوي على مفارقات، ولنأخذ مثالًا واحدًا هو تأسيس أول اتحاد عالمي لعلماء المسلمين في عاصمة أوربية.

إن عالمية الدعوة جزء من عقيدة كل مسلم أيًّا كان جنسه أو لونه، ولا تميز في المكانة، بل تسابق في حمل الأمانة، ربما أفضى إلى انتقال مركز الثقل الثقافي في العالم الإسلامي إلى خارج العالم العربي، وهي ظاهرة لها سوابق مماثلة في التاريخ الإسلامي، وتلك أهم ملامح عظمة هذا الدين[١] ®.

الخلاصة:

- إن الإسلام دينٌ سماوي عالمي الطابع، وهو منهج شامل لمختلف نواحي الحياة ونظام لشتى جوانبها؛ ومن ثم فهو ليس لأهل إقليم دون غيرهم، ولا أهل زمان دون سواهم.
- مبدأ عالمية الدين والإنسانية الواحدة مَطْلَب نفسي للبشرية كلها منذ القدم يُشْعِرها بالطمأنينة والأخوَّة والألفة في ظل دين واحد تدين به، ولا تمايز بين أجناسها ولا طوائفها ولا ألوان بشرة سلالاتها المختلفة.
- تضافرت الأدلة وتجمعت البراهين، وقامت الحجج على مبدأ عالمية الإسلام في القرآن والسنة والكتب السماوية السابقة - خاصة قبل أن يصيبها التحريف وتطولها يد التدليس - وفي سلوك النبي ﷺ في وقائع سيرته حينما أفاد من توقف الصراع وهدوء الأحوال بينه وبين المشركين بعد عقد صلح الحديبية، فراسل ملوك الأرض وزعماءها يدعوهم للإسلام تحقيقًا لمبدأ العالمية.
- من مظاهر عالمية الإسلام: عالمية اللسان العربي وصيرورة اللغة العربية لغة عالمية بعد أن صاحبت المد الإسلامي الجهادي المكون لدار الإسلام بوصفها لغة القرآن الكريم وشعائر الدين، كذلك يعد من مظاهر عالمية الدين الإسلامي ما ذكرته وأكدت عليه كل مصادر التاريخ الموثقة الصحيحة.
- الإسلام هو الذي بعث العرب بعثًا من ركام الجاهلية، وأخرجهم إلى النور بعد أن كانوا مجرد قبائل وعشائر متناحرة متنازعة لا رابطة تضمها ولا ولاء يجمعها، فَعَلا كعبها بالإسلام وارتفع شأنها وصارت لفترة طويلة حاملة لواء الدعوة ومنها الخلفاء والقادة والأمراء؛ أي أنه هو الذي منحها طابع الأممية، فهي لم - ولن - تنهض إلا به لكن العكس صحيح؛ إذ الإسلام ينهض بالعرب وبغيرهم.
- للإسلام أصول عامة أساسية ثابتة يلتزمها المسلمون أينما كانوا، وأنَّى وُجِدوا، ويجتهدون في

١. مقال: هل يتبلور مفهوم جديد لعالمية الإسلام، منشور بموقع مفكرة الإسلام www. islammemo. cc.

® في **"العولمة وأضرارها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

إطارها بما يناسب ظروف مكانهم وزمانهم، فيُنْتِجُ ذلك نوعًا من الخصوصية في الملامح لا التعددية في الأديان كما هو ثابت لدى الآخرين؛ إذ إنَّ تعدد بعض المذاهب في ديانة كالمسيحية يؤدِّي إلى خلق ديانات مختلفة قائمة برأسها كالكاثوليكية والأرثوذكسية.

- عالمية الإسلام صفة ثابتة بالقرائن النصية والبراهين التاريخية، وهي أمر مقرّر، أما العولمة - بمفهومها المعاصر الذي يعني محاولة صبّ الأمم كافّة على تنوع هوياتها، في قالب ثقافي فكري حياتي واحد ذي طابع معين - غربي بالضرورة - ومسح هوياتها الخاصة - فهي أمر منكَر ودعوى مشبوهة.

الشبهة الحادية عشرة

دعوى انتشار الإسلام بحَدِّ السَّيف وإساءة معاملة الآخر(*)

(*) المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٣م. تاريخ الشعوب العربية، ألبرت حوراني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م. محمد رسول الله ﷺ، أتيين دينيه (سليمان الجزائري)، ترجمة: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦م. التبشير العالمي ضد الإسلام، عبد العظيم المطعني، مرجع سابق. بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: محمد عبد الغني شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، إبراهيم عوض، مرجع سابق. قضايا إسلامية: مناقشات وردود، محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة، مصر، ١٩٨٤م. المستشرقون والقرآن، إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٢م. آثار الحرب في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م. التعصب الصليبي، عمر عبد العزيز قريشي، دار الاستقامة، القاهرة، ١٩٩٦م. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مرجع سابق. صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشاري، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م. الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ. الإسلام دين عام خالد: تحليل دقيق لمبادئ الإسلام، محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، القاهرة، ١٤٢٦هـ. القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، مرجع سابق. الإرهاب صناعة غير إسلامية، نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م. الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧م. بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٢م. رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. الإسلام وأوربا: تعايش أم مجابهة، إنجي كارلسون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٣م. الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، شوقي أبو خليل، مرجع سابق. الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام العربية من وجهة أمريكية، برنارد لويس، دار الجيل، ١٩٩٤م. الإسلام والحرب في الشريعة الإسلامية، محمود محمد طنطاوي، ١٩٩٦م. الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، مرجع سابق. سر المؤامرة الكبرى، محمد عبد الحليم عبد الفتاح. ظلام من الغرب، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م. هيمنة القرآن المجيد على ما جاء في العهد القديم والجديد، مها محمد فريد عقل، ٢٠٠٢م.

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأنه أساء معاملة أهل البلاد المفتوحة من اليهود والنصارى، ويستدلون على ذلك بما يلي:

- سَبْق الجيوشِ المحاربة قوافلَ الدعاة، في البلاد المحارَبة.
- إجبار بعض النصارى على الدخول في الإسلام.
- عدم قبوله للتعددية الدينية، والعمل على إقصاء الآخر.

ويهدفون من وراء ذلك إلى اتهام الإسلام بالدموية والعنف، وأنه دين غير مُقْنِع بذاته ومبادئه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام وضع قواعد عادلة حكيمة في التعامل مع أهل البلاد المفتوحة، يدلك على ذلك سيرة الرسول ﷺ، وتاريخ الخلفاء الراشدين من بعده الذين طبقوا هذه القواعد الحكيمة بكل ما تحمله من معانٍ، هذا فضلًا عن معاملة غير المسلمين المسالمين داخل المجتمع الإسلامي.

٢) الأديان السابقة - اليهودية والنصرانية - لا تنكر القتال في كتبها، وقد حاول أهلها مرارًا نشر مبادئها بالوسائل القمعية، وهذا واضح من كتبهم.

٣) الحرب في الإسلام ضرورة أو وسيلة - وليست غاية - لإزاحة الطواغيت، وإتاحة حرية الاختيار أمام الشعوب المستضعفة، وحماية الدعاة من الأذى، ومن أن يحال بينهم وبين عامة الناس.

٤) الوقائع التاريخية تشهد بأن المسلمين لم يُكرِهوا أحدًا على الدخول في الإسلام، بل ويؤيد هذا شهادات غربية على حسن معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة.

٥) لما ضَعُفَت شوكة المسلمين وتمكن الآخرون منهم، ظهرت العنصرية البغيضة، التي استحلتْ قتل الكبار والصغار والنساء، وتخريب دور العبادة، والديار العامرة، والتاريخ خير شاهد على ذلك في الأندلس وغيرها من بقاع الأرض.

التفصيل:

أولا. الإسلام أرسى قواعد عادلة وحكيمة في التعامل مع الآخر، يدلك على ذلك سيرة النبي ﷺ في الغزوات، وتاريخ الخلفاء في الفتوحات، وهذا يؤكد صلاحية تشريعات هذا الدين عالميًّا في مقابل محدودية الأديان السابقة:

محدوديَّة الأديان السَّابقة زمانًا ومكانًا:

بُعث الرُّسل السابقون إلى أقوامهم، وأُرسل الأنبياء إلى قبائلهم وعشائرهم خاصَّة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (هود)، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (هود).

وإلى بني إسرائيل كانت نُبوَّة موسى عليه السلام والأنبياء من بعده، وقد أُثر عن المسيح عليه السلام قوله: "بُعِثت إلى خِراف بني إسرائيل الضَّالة"، والرَّب ينعتونه عندهم

بإله إسرائيل، ويخصُّون بالذكر من أبناء إبراهيم عليه السلام ذُرِّيَّة يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق دون سائر العبريين، وفي سِفْر الأيام من العهد القديم: "مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل إلى الأبد"[1]، وعلى هذا كانت النُّبوات السابقة كلها محليَّة مؤقَّتة؛ أي محدودة الزمان والمكان®.

عالميَّة الإسلام وخَتْمه رسالات السماء:

الإسلام هو الصورة الأخيرة للوحي الأعلى، وهو كذلك الصورة العامة التي تستغرق الأجناس كلها والأجيال جميعها على وجه الأرض حتى قيام الساعة، وعِلَّة ذلك أنه قد زوَّد الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحي الإلهي، وأرسى دعائم العقيدة والعبادات والمعاملات، وتضمَّن نصوصًا حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة، وهي أسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصور. أمّا ما خلا ذلك من شئون فموكول للعقل البشري، يمحو فيه ويثبت مسترشدًا بتلك الأصول السماوية الشرعية السابقة، وإجمالًا فقد حدَّد الإسلام المبادئ وحرَّر الوسائل[2].

وعلى هذا فلئن اتَّفق الإسلام مع الأديان السماوية السابقة في وحدة الأديان ومصدرها الإلهي، فقد اختلف معها وامتاز عنها في كونه الدين النِّهائي الخاتم لجميع الأديان، وكونه دينًا عامًّا أنزله الله على محمد ﷺ؛ ليقوم بتبليغه إلى الناس كافة عربًا وعجمًا، بِيضًا وسُودًا، إنسًا وجِنًّا، وتبعًا لهذا فقد تميز بالصلاحية لكل زمان ومكان، وهذا مقتضى الخَتْم والعالمية قال تبارك وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (الفرقان)، ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة).

ولا شك أن خاصية العالمية تُوجِب على حَمَلَة هذا الدين إبلاغ دعوته للعالمين؛ أداءً للأمانة وإقامة للحُجَّة عليهم، فكيف كانت طبيعة هذا البلاغ®؟

طبيعة انتشار الإسلام:

الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السِّلْم ما لم يطرأ ما يقيِّد هذا الأصل، وقد أُمِرَ رسول الله ﷺ والمسلمون أن يدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل)، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الكهف)، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (النحل)، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ

---

1. عالمية الإسلام، رجائي عطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٢، ١٣.

® في "ادعاء عالمية النصرانية" طالع: الشبهة السادسة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

2. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٩.

® في "عالمية الإسلام" طالع: الشبهة العاشرة، من هذا الجزء.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة)، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون).

وقد سار النبي ﷺ وصحبه على هذا النَّهْج في دعوتهم، واستمسكوا بهذا الهَدْي، وأحداث التاريخ تبرهن عمليًّا - بوضوح - على هذا، فحينما بدأ رسول الله ﷺ دعوته بمكة وحيدًا، لا قوة تسنده ولا مال يعينه، دخل في دعوته مجموعة من وجوه الناس: كأبي بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير، ثم لحقهم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ﷺ، فهل يمكن القول بأن هؤلاء في تلك الظروف قد أُكْرِهوا على اعتناق الإسلام تحت حدِّ السيف؟!

بل إن مشركي قريش قد اضطهدوا المسلمين طِيلة الفترة المكية اضطهادًا قاسيًا، فهؤلاء إذن - على حدِّ قول العقاد في كتابه "عبقرية محمد" - هم من تعرضوا بإسلامهم لحدِّ السيف، وليس العكس، أي أنهم لم يُخْضِعوا أحدًا للسيف ليُسْلِم.

وهنا تحدث المفارقة الدالة، ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه بمكة مستضعفين، كان بعض رجالات يثرب يسعون نحو الدعوة المطاردة ونبيِّها - المُحَاصر من المشركين، المُعَانَد بكل وسيلة من قِبَلهم - فيعتنقونها ويتَّبعونه، ويجذبون نحو عقيدتهم الجديدة أهلهم وذويهم. فمن أكره هؤلاء السَّادة الأحرار على اعتناق هذه العقيدة؟!

الإذن بالقتال ومراحله:

يذكر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يُؤْذَن لهم بقتال ودفاع عن النفس، مع كل صنوف الأذى والعذاب التي نزلت بهم، وكانوا كلما همَّت نفوسهم لردِّ الظلم وتطلَّعوا للقصاص من الظالمين، دعاهم النبي ﷺ، بل أمرهم بالاستمساك بالصبر وانتظار أمر الله مُذكِّرًا أنه لم يُؤمَر بقتال، فلما أسرف أهل الكفر في عِنادهم ولجُّوا[1] في طغيانهم، وألجئوا المسلمين إلى الهجرة مفارقين الولد والأهل والمال والوطن، ثم تابعوا تدبير المؤامرات، ووضع الخطط للقضاء على الدعوة في مَهْجَرِها، وعلى الدولة الوليدة الناشئة في مَهْدِها - عندئذ شُرع القتال للدفاع عن النفس، والذَّود عن الحِيَاض والذَّب عن الحُرُمات. قال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج).

وعند إمعان النظر في هذه الآية يستشعر المتأمل أن الإسلام لم يُرغِّب في القتال كغاية في حدِّ ذاته؛ فقد بُني الفعل "أُذِن" للمجهول؛ لكيلا يقترن الإذن بالقتال بلفظ الجلالة مباشرة عند بنائه للمعلوم، وحُذِف أيضًا نائب الفاعل المأذون به، وهو لفظة القتال حتى لا يُذْكر صراحة، وذكر بدلًا منه سبب الإذن: "بأنهم ظلموا" وفُسِّرت المظلومية في الآية التالية: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج). ثم نزلت آية أخرى أكثر صراحة في الإذن بالقتال، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة).

---

١. لجُّوا: صاحوا واختلطت أصواتهم.

وألحَّ القرآن من جديد على تحريم الحرب العُدْوانية، فحرَّم على المسلمين محاربة مَنْ لم يحاربهم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ (النساء).

وحتى لا تبقى زيادة لمستزيد ـ على حد قول المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان ـ نجد القرآن يستوصي خيرًا بالمسالمين للمسلمين من غيرهم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة)، هذا هو السياق الطبيعي الحقيقي للآيات المذكورة، الذي يُبتَر عند المغالطين، وتُستَل منه هذه الآيات وأشباهها لتستنطق بغير ما تنطق به فعلًا[1].

ومع كل هذه الضَّجَّة حول رفع رسول الله ﷺ السيف وخوضه الغزوات، فإن المتأمِّل للآثار الناجمة عن هذا القتال والهدف منه وأعداد ضحاياه يتبين يقينًا مدى ضآلة هذه الآثار قياسًا إلى الحروب الطَّاحنة في تاريخ الأديان الأخرى وهذا ما يوضِّحه الجدول الآتي:

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى العدو	ملاحظات
بَدْر	١٤	٧٠	
أُحُد	٧٠	٢٢	
الخَنْدق	٦	٣	
بنو المُصْطَلِق	ــ	٣	لم يدخل اليهود في
خَيْبَر	١٩	ــ	هذه الإحصائية؛
بِئْر مَعونة	٦٩	ــ	لأن لهم حكمًا آخر
مُؤتة	١٤	١٤	بسبب خيانتهم.
حُنَين	٤	٧١	
الطَّائف	١٣	ــ	
معارك أخرى	١١٨	٢٥٦	
المجموع	٣١٧	٤٣٩	٧٥٦ من الجانبين[2].

حقًّا لم تعرف البشرية في تاريخها حامل سيف أعفَّ من رسول الله محمد ﷺ، ما غضب لنفسه قط، وما غضب إلا لله تبارك وتعالى، وما استعمل السيف إلا في حينه:

قَالوا غَزَوتَ، وَرُسْلُ الله مَا بُعِثُوا ... بِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاءوا بِسَفْكِ دَمِ

جَهْلٌ وتَضْلِيلُ أَحْلامٍ وسَفْسَطَةٌ ... فَتَحْتَ بالسَّيْفِ بَعْدَ الفَتْحِ بالقَلَمِ

هذه المفارقة الواضحة بين حقيقة استعمال السيف في الإسلام، وبين ادِّعاءات المُغْرِضين، هي ما دعت أحد الباحثين إلى أن يقول: إن الشيء الذي يغيظ أعداء الحقيقة هو أن الإسلام زوَّدته العناية الإلهية بتعاليم تجعله صُلْب المَكْسِر، لا يستطيع الباطل أن يجتاحه بسهولة، ولا أن ينال منه بيسر، بل نستطيع أن نقول:

1. الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا، ألمانيا، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٣٣.

2. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤٤٠.

لقد كان هذا الباطل يَزْأر في عَرَصات[1] الدنيا دون تهيُّب، ويُزْعِج الآمنين في كل قُطْر دون وَجَل[2]، فلما ظهر الإسلام واشتبك الباطل معه - على عادته - عاد من هجومه مقصوم الظهر مخضوب الكفِّ، فراح يَجْأَر بالشكوى أن الإسلام دين سيف، وأن الحكم في رحابه جعله صُلْب العود. نعم هو كذلك، وما عَيْبُ السيف إذا ردَّ المعتدين؟ وما عَيْبُ الصلابة في الحق إذا استعصت على الفتانين؟! إن السؤال الذي يجب أن تتحدَّد الإجابة عنه هو: هل كان الحُكْم في الإسلام أساسًا لفتنة غير المسلمين عن دينهم؟ هل كانت الدولة في خدمة الدعوة من حيث استغلال أجهزتها للفتنة والإعنات[3]؟!

كُتب النبي ورسائله إلى الأمراء والملوك:

ومع ذلك فقد استغلَّ الرسول ﷺ هدنة صُلْح الحُدَيْبِية ليعود بأمر الدعوة إلى أصله - وهو السَّلْم -، فراسل زعماء الأرض، وأرسل الكُتب والرسائل، ولم يبعث الجيوش والكتائب ابتداءً، والمعروف أن الإسلام قد بعث أُمَّة العرب بعثًا، فقبله لم تكن هناك أُمَّة عربية ذات لُحْمَة متماسكة، بل قبائل عربية متنازعة، هان أمرها على نفسها فهانت على القوى الكبيرة في العالم آنذاك كفارس والروم؛ فلم يُقيموا لها حسابًا، فلما جاءها الإسلام ودانت غالبيتها به، وتأسست دولة قوية وَحَّدَت ديارها داخل شبه الجزيرة، وفوجئ كسرى وقيصر بجرأة النبي ﷺ، وإقدامه على مراسلتهما - مع غيرهما من الزعماء والملوك - يدعوهما للدخول في دينه ومعهما قومهما، استشعرا لأوَّل مرة الخطر من جهة بلاد العرب.

وعلى الرغم من أن مضامين هذه الرسائل قد صِيْغت بمنتهى الحِكمة واللِّين، فالرسول فيها سَمْحٌ يدعو ولا يتهدَّد، ويتلطَّف ولا يتوعَّد، ويخاطب من وُجِّهَت إليهم بألقابهم مقرًّا بسلطانهم في ظل الإسلام، كما يتَّضح من بعض نصوصها ككتابه إلى كسرى بلاد فارس وفيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، أدعوك بدعوة الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًّا، وليحق القول على الكافرين. أَسْلِم تَسْلَم، فإن أَبَيْتَ فعليك إثم كل المجوس".

ورسالته للمُقَوْقس بمصر: "من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أمَّا بعد فإني أدعوك للإسلام، فَأَسْلِم تَسْلَم، وإن يُسْلِم قومك يؤتِك الله أجرك مرتين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)"[4].

وعلى الرغم كذلك من سماحة الخطاب ووقار الكتاب - نقول: على الرغم مما سبق كله فإن ردود

١. العَرَصات: جمع عَرْصة، وهي الموضع الواسع الذي لا بناء فيه، أو وسط الدار، والمقصود من عبارة "يزأر في عرصات الدنيا دون تَهَيُّب": أي يعيث فسادًا فيها.

٢. الوَجَل: الخوف.

٣. سماحة الإسلام، د. عمر قريشي، مكتبة الأديب، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٨١، ١٨٢.

٤. صبح الأعشى، القلقشندي، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ج٦، ص٣٦٤.

الفعل على هذه المراسلات قد جاءت متباينة؛ فمنهم من ردَّ ردًّا حسنًا وآمن كملوك اليمن وعُمان، ومنهم من تلطَّف في الردِّ وتوقف في الإيمان كالمقوقس بمصر، والنجاشي في الحبشة ـ في بعض الروايات ـ ولهذا لم يتعرض المسلمون لهما ابتداءً ـ تعرضوا لمصر بعد ذلك؛ لأن الروم تجيَّشَت بها بعد فتح الشام وهدَّدت مكانة المسلمين فيها ـ ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموا بلاد الحبشة؛ فهي أقرب إليهم، وأقل قوة من فارس والروم، ومنهم من أغلظ في الرَّد ومزَّق كتاب رسول الله، فدعا عليه بتمزيق ملكه، فحدث ذلك على يد الفاتحين المسلمين بعد سنوات، وهو كسرى فارس، ومنهم من زاد فقتل رسولَ رسولِ الله، وهو أمير غساني موالٍ للروم.

إذن فقد جاهر الصِّنفان الأخيران بالعداوة، وصارا طواغيت أعاقت انتشار الدعوة سِلْمًا، فكان لا بد أن يتقيَّد الأصل مرة أخرى ـ وهو السِّلْم ـ ليرتفع السيف، لا لإجبار الناس على قبول الدعوة، ولكن لإزاحة العوائق من مجرى نهر الدعوة؛ لينساب انسيابًا طبيعيًّا، وتختار الشعوب المستضعفة لنفسها دون خوف تحت شعار "لا إكراه في الدين".

الجهاد زمن الراشدين:

من هنا استُؤْنِفَ الجهاد وانطلقت موجة الفتح الإسلامي زمن الخلفاء الراشدين الأربعة نحو جبهتي فارس والروم، اللتين اتَّخَذَتَا خطوات عملية في سبيل القضاء على الدعوة الإسلامية والدولة الوليدة، ففي السنة السادسة للهجرة أسلم عامل الروم في عُمان، فحاول الروم حمله على الارتداد، فلما أبى سجنوه ثم صلبوه.

وكانت تجمُّعات الروم تجول على حدود دولة المسلمين بشكل مستمر، والمسلمون يتوقعون هجومها في أية لحظة، يؤكد ذلك أن صحابيًّا طرق باب عمر بن الخطاب ﷺ وهو نائم ذات ليلة فهبّ من نومه مذعورًا وهو يهتف: أجاءت غسان؟! ـ حلفاء الروم ـ وكذلك تحرَّش بهم الفرس.

على أن هذه الحروب لم تكن ضدَّ الشعوب وإنما ضدَّ الطواغيت من القياصرة والأكاسرة وجيوشهم، وحين أزيحت هذه الحواجز فكَّرت هذه الشعوب في الإسلام وأقبلت عليه تتفيَّأ[1] ظلال الحرية في كَنَفِه[2]؛ فحركة الفكر الإسلامي إذن كانت بمثابة حركة تحرير لصالح الشعوب المستعمَرة المستضعَفة، كما قال رسول جيش المسلمين لرُسْتُم قائد جيوش الفرس في معركة القادسية: "لقد مَنَّ الله علينا برسول جاءنا بدين أخرجنا به من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعة الدنيا والآخرة"[3].

كانت هذه إذن هي الدوافع النبيلة والمقاصد النبيلة السامية لحركة الفتح الإسلامي في الأعمِّ الأغلب من فتوحات المسلمين عبرَ التاريخ، والاستثناء البسيط من تلك القاعدة يؤكدها ولا يلغيها، قارنها بدوافع

١. تتفيَّأ: تَسْتَظِلّ.
٢. الكَنَف: الناحية أو الظِلّ.
٣. موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، النهضة المصرية، القاهرة، ط١٣، ج١، ص٤٥٦ وما بعدها. روح الإسلام، عطية الإبراشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١١٠ وما بعدها.

أية موجة استعمار - استدمار واستخراب على الحقيقة - واحتلال وغزو عبر التاريخ لتقف على البَوْن الشاسع والجهة المنفكَّة بين الحالتين: الفتح من ناحية، والاحتلال والاستعمار والغزو من ناحية أخرى.

سلوك المسلمين العملي وطبيعة جهادهم:

على أية حال، اندفعت حركة الفتح بهذه الدوافع، فكيف كان سلوك الفاتحين وممارساتهم خلالها؟

المعروف أن أخلاق الحرب في الإسلام والتي طبَّقها الفاتحون على أرض الواقع كانت ألا يقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا امرأة، وألا يتعرَّضوا لـمُهادِن أو رجل دين مسالِمٍ، وألا يحرقوا زرعًا أو يقطعوا نخلًا، وأن يدعوا الخصوم قبل مصارعتهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجِزْية أو القتال، فإن مالوا للمسالمة قَبِل المسلمون منهم ذلك، ويؤكدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال)، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ (النساء).

وبناء على هذا لم يثبت في حقهم تاريخيًّا أنهم ارتكبوا جرائم إبادة جماعية أو تطهير عِرْقِي، على عكس ما نَضَحَ به سلوك الآخرين تجاه المسلمين حين تمكَّنوا منهم — بدءًا بمذابح بيت المقدس ومعرَّة النعمان زمن الصليبيين، وانتهاء بالبوسنة وكوسوفا وفلسطين في الآونة المعاصرة، مرورًا بالأندلس وغيرها — بل لم يثبت في حقهم محاولة إحراق مكتبة أو إهدار تراث ما.

والمرة الوحيدة التي حاول فيها الشَّانِئون إلصاق تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية بالفاتحين المسلمين وقائدهم عمرو بن العاص ، أثبت المنصفون من المستشرقين بالأدلة والبراهين أنها أُحْرِقَت على يد الرومان قبل الفتح الإسلامي بقرنين من الزمان[®]، في حين أشرف الكاردينال "كسيمنس" على إحراق كل ما دُوِّن بالعربية من التراث الأندلسي في ساحات غرناطة، وأمر صنجيل الصليبي بإحراق كُتب دار العلم بطرابلس، وكانت أكثر من مائة ألف مجلد، وغير هذا كثير من الوقائع مما هو أظهر من أن يشار إليه.

فليست هذه الفعال حقًّا من طبائع المسلمين، إذ إن مبادئ دينهم تمنعهم من ذلك، بل تحضُّهم على عكسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة)، وصدق القائل مخاطبًا غير المسلمين من المحتلين، ومعقِّبًا على سلوكهم المناقض لهذه الأخلاقيات، عندما تعلو يدهم، حين قال:

مَلَكْنَا فَكَانَ العَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً
فَلَمَّا مَلَكْتُم سَالَ بِالدَّمِ أَبْطُحُ
فَحَسْبُكُمُ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا
وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

وحين فتح المسلمون حمص بالشام - مثلًا - جَبَوا الجزية من أهلها، ثم خرج منها المسلمون ليلحقوا بإخوانهم في بقية الفتوحات، وتركوا بها حامية صغيرة، فجاءتها الروم في جموع كثيفة، ولهذا اضطرت الحامية للخروج منها، لكنهم قبل أن يخرجوا حرصوا على ردِّ

® في "إحراق مكتبة الإسكندرية القديمة" طالع: الشبهة التاسعة، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

مال الجزية للحِمْصيِّين، مما أثار استغرابهم، ففسر لهم المسلمون الأمر بأن الجزية مقابل المنعة والدفاع، أمَا وقد عجزوا مؤقَّتًا عن الدفاع عنهم، فليردُّوا إليهم أموالهم ريثما يعودون مع إخوانهم في موجة فتح جديدة، فاستحسن أهل حمص ذلك منهم وأعانوهم في محاولة دفع الروم عن بلدهم.

وقد أجملت هذه الأخلاقيات وصية القائد الأعلى للفتوحات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لسعد بن أبي وقاص بطل القادسية، التي تُمثِّل دستورًا عامًّا في أخلاق الحرب والجهاد، ومعاملة أهل البلاد المفتوحة، ومن نصها: "أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العُدَّة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، وعُدَّتنا ليست كعُدَّتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنْصَر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله. ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يُسَلَّطَ علينا، فرُبَّ قوم سُلِّطَ عليهم من هو شر منهم، كما سلِّط على بني إسرائيل ـ لما عملوا بمعاصي الله ـ كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعدًا مفعولًا، وسَلُوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفَّق بالمسلمين في سيرهم ولا تُجَشِّمْهُمْ مَسِيرًا يُتعبهم، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم، وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلة؛ حتى تكون لهم راحة يُحيُون فيها الأنفس، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمَّة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يُرْزَأ[1] أحد من أهلها شيئًا، فإن لهم حُرْمة وذِمَّة ابتُلِيتم بالوفاء بها، كما ابتُلُوا بالصبر عليها، ولا تنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وَطِئْتَ أرض العدو فأرسل العيون بينك وبينهم، ولا يخفى عليك أمره"[2] ®.

مع هذه السياسة السَّمحَة اللينة غير المكرِهة على شيء ـ مما جذب القلوب إليها ـ تأخر تحوُّل المسلمين إلى أغلبية في كثير من البلاد التي فتحوها كالشام ومصر لقرون، بل بقيت بها أقليات كبيرة العدد حتى الآن على غير الإسلام.

ويشهد الواقع التاريخي والتراث الفكري السياسي الإسلامي أن تسامح المسلمين بلغ حدًّا أن صرَّح فقهاءُ كبار ـ كالماوردي في الأحكام السلطانية ـ بجواز تقليد الذِّمِّي وزارة التنفيذ، فينفذ أوامر الإمام ويمضي ما يصدر عنه من أحكام، وقد تولَّي الوزارة زمن العباسيين والفاطميين عديدون من أهل الذمة، جار بعضهم في

١. يُرزَأ: يُصاب.

٢. نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، د. حلمي صابر، مرجع سابق، ص١٥٩.

® في **"موافقة الحرب في الإسلام للمعاني الأخلاقية"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة التاسعة والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

حق الرعية المسلمة التي شكت من تسلُّط اليهود والنصارى بغير حق في شأنها[١].

غير المسلمين في المجتمع الإسلامي:

كثر اللغط في هذا الموضوع، وانقلبت الأباطيل إلى حقائق، والحقائق إلى أباطيل، وتجليةً للأمر نبدأ بكلام تأسيسي للدكتور يوسف القرضاوي حول دستور العلاقة مع غير المسلمين، إذ يقول: "وأساس هذه العلاقة مع غير المسلمين قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الممتحنة)، فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعًا، ولو كانوا كفارًا بدينه، ما لم يقفوا في وجهه ويحاربوا دُعاته، ويضطهدوا أهله.

ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة في المعاملة والتشريع، والمراد بأهل الكتاب مَنْ قام دينهم في الأصل على كتاب سماوي، وإن حُرِّف وبُدِّل بعد، كاليهود والنصارى، الذين قام دينهم على التوراة والإنجيل، فالقرآن الكريم ينهى عن مجادلتهم في دينهم إلا بالحسنى؛ حتى لا يُوْغِر[٢] المِراء[٣] الصدور، ويُوْقِد الجدل واللَّدَد[٤] نار العصبية والبغضاء في القلوب، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (العنكبوت).

ويبيح الإسلام مؤاكلة أهل الكتاب، والأكل من ذبائحهم، كما أباح مصاهرتهم، والتزوج من نسائهم المحصنات، مع ما قرره القرآن من قيام الحياة الزوجية على المودة والرحمة في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم).

وهذا ـ في الواقع ـ تسامح كبير من الإسلام؛ حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته، وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٥)®.

وهذا الحكم في أهل الكتاب، وإن كانوا في غير دار الإسلام، أما المواطنون المقيمون في دار الإسلام فلهم منزلة ومعاملة خاصة، وهؤلاء هم أهل الذِّمَّة، فما حقيقتهم؟

جرى العرف الإسلامي على تسمية المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي باسم "أهل الذمة أو الذميين". والذمة كلمة معناها: العهد، والضمان،

١. نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، د. حلمي صابر، مرجع سابق، ص١٥٩.

٢. يُوغِرُ: يغِيظ.

٣. المِراء: الجدال والشك.

٤. اللَّدَد: الخصومة الشديدة.

® في "زواج المسلم بالكتابية" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

والأمان. وإنما سموا بذلك؛ لأن لهم عهد الله والرسول وجماعة المسلمين؛ أن يعيشوا في حماية الإسلام، وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين، فهم في أمان المسلمين وضمانهم، بناء على عقد الذمة بينهم وبين أهل الإسلام. فهذه الذمة تعطي أهلها من غير المسلمين ما يشبه في عصرنا الجنسية السياسية التي تعطيها الدولة لرعاياها، فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم.

فالذمي على هذا الأساس من أهل دار الإسلام، كما يعبر الفقهاء، أو من حاملي الجنسية الإسلامية، كما يعبر المعاصرون. وعقد الذمة عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بحماية الجماعة الإسلامية، ورعايتها، بشرط بذلهم الجِزية، والتزامهم أحكام القانون الإسلامي في غير الشئون الدينية، وبهذا يصيرون من أهل دار الإسلام. فهذا العقد ينشئ حقوقًا متبادلة لكل من الطرفين: المسلمين وأهل ذمتهم بإزاء ما عليه من واجبات. فما الحقوق التي كفلها الشرع لأهل الذمة؟ وما واجباتهم"[1]؟

ثم يُعدد هذه الحقوق مثل: حق الحماية من الاعتداء الخارجي، والظلم الداخلي، وحرِّية التدين، وحرِّية العمل والكسب. وتلك الواجبات مثل: أداء الجِزية، والخَراج، والتزام أحكام القانون الإسلامي فيما لا يمس عقائدهم وحرِّيتهم الدينية ®.

١. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٦: ٨.

® في **"حقوق الذميين في الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"شغل كثير من الذميين للوظائف العليا في الدولة الإسلامية"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

وانطلاقًا من هذا الأصل والأساس الشرعي لعلاقة المسلمين بغير المسلمين، واتساقًا معه جرت ـ غالبًا ـ ممارسات المسلمين الواقعية تجاه الآخر عبر تاريخهم. فالتسامح ـ وهو أساس مَكين من أسس بناء الحضارة من المنظور الإسلامي ـ يكاد يكون خصيصة إسلامية. فبوجه عام يشهد تاريخ المسلمين ـ فكرًا وممارسة ـ لأهله أنهم حين يمتلكون القوة وتتيسر لهم الفتوح، فإنهم يكونون أكثر تسامحًا، وأعظم نبلًا، وأرقى إنسانية تجاه الآخر، في مقابل عَجْرَفة[2] هذا الآخر واستبداده وغطرسته وقسوته وعدوانيته حيالهم حين يمتلك أسباب القوة وتنقلب الحال لصالحه.

ماذا لدى الآخر؟

وحول نظرة الإسلام المنصفة للأديان السماوية السابقة عليه، ونظرة المسلمين المتسامحة تجاهها بالتالي، مقابل نظرة أتباع هذه الديانات الظالمة للإسلام، نتيجة الجهل والتعصب والتعمية والدعاية المغرضة، يقول أحد المنصفين من أبناء الغرب: "فكتاب اليهودية المقدس هو التوراة، وتختلف التوراة عن العهد الجديد المسيحي؛ لأن هذا الأخير قد أضاف عدة أسفار لم تكن موجودة بالعبرية؛ غير أن هذا الاختلاف لا يمس شيئًا من العقيدة، لكن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعدها. وهكذا فإن المسيحية قد اعتمدت التوراة العبرية، ولكنها زادت عليها بعض الإضافات، غير أن المسيحية لم تقبل كل ما انتشر من كتابات تستهدف تعريف الناس برسالة عيسى؛ ولذلك قامت الكنيسة

٢. العَجْرَفة: جفوة في الكلام، وخُرْقٌ في العمل.

بإجراءات حذف هامة جدًّا لعدد كبير من الأسفار التي كُتبت لتعريف الناس بحياة السيد المسيح وتعاليمه.

وهكذا فإن الكنيسة لم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات، كان من أهمها الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسيًّا، غير أن المسيحية بدورها لا تعترف بأي وحي جاء بعد المسيح وحوارييه؛ ولذلك فهي تستبعد القرآن.

أما القرآن الكريم، وقد أتى بعد المسيح بقرون ستة، فإنه يتناول معطيات عديدة جاءت في التوراة العبرية والإنجيل؛ ولذلك فهو يذكر التوراة والإنجيل كثيرًا، والقرآن يوصي كل مسلم بالإيمان بالكتب السابقة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (النساء).

وهكذا فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل مثل: نوح، وإبراهيم، وموسى، والأنبياء خاصة المسيح الذي يحتل مكانة بارزة، والقرآن مثل الأناجيل يقدم ميلاد المسيح، كفعل خارق يفوق الطبيعة، ويخص بالذكر أيضًا مريم، ويطلق على السورة رقم ١٩ اسمها "سورة مريم".

والواقع أننا ملزمون بملاحظة أن المعطيات الخاصة بالإسلام التي ذكرناها مجهولة عمومًا في بلادنا الغربية، ولا يدهشنا ذلك إذا تذكرنا الطريقة التي اتبعت في تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان، وكيف فُرِضَ الجهل في كل ما يمس الإسلام.

وهكذا فإن الاستعمال السائد حتى اليوم في التسميات (الدين المحمدي، المحمديون) ليدل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطئ القائل بأن تلك المعتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل، وأنه ليس لله (بالمعنى الذي يدركه المسيحيون) مكانٌ في تلك المعتقدات، ولنضف أن كثيرًا من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية، والاجتماعية، والسياسية في الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنظيم الإسلامي بصورة خاصة، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه، ويرون من البديهيات أن محمدًا ﷺ قد اعتمد على ما سبقه، وذلك بقصد استبعاد الوحي منذ البدء.

وزيادة على ذلك فهناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين، ولقد خُبِّرْتُ هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة في القرآن والتوراة معًا في موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضًا باتًّا للنظر بعين الاعتبار، ولو لمجرد التأمل، فيما يحتويه القرآن فيما يتعلق بموضوع الدراسة المُزْمَعة[1]، كأن الرجوع في ذلك إلى القرآن يعني الاعتماد على الشيطان".

ثانيًا. القتال في الأديان السابقة:

نود أن نبيِّن كذب مزاعمهم في أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه، وتمقت الحرب وتدعو إلى السلام، من الكلام المنسوب إلى السيد المسيح نفسه - من كتبهم - قال: لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا، وإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكَنَّة[2] ضد حماتها،

١. المزمع: أي الشيء الذي انعقد العزم على القيام به.
٢. الكَنَّة: امرأة الابن أو الأخ، والجمع كنائن.

وأعداء الإنسان أهل بيته، مَنْ أحبَّ أبًا أو أمًّا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، مَن وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها. (إنجيل متى، ١٠/ ٣٤ ـ٣٨). فما رأي المبشِّرين والمستشرقين في هذا؟ أنصدِّقهم ونكذِّب الإنجيل؟ أم نكذبهم ونصدق الإنجيل؟! وأما التوراة فشواهد تشريع القتال فيها أكثر من أن تُحصى على ما فيها من الصَّرامة وبلوغ الغاية في الشدة، مما يدل دلالة قاطعة على الفرق ما بين آداب الحرب في الإسلام وغيره من الأديان.

دلائل الواقع على افترائهم:

وليس أدل على افترائهم من أن تاريخ الأمم المسيحية في القديم والحديث شاهد عدل على ردِّ دعواهم، فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعها بالدماء باسم السيد المسيح، خضبها الرُّومان وخضَّبتها أمم أوربا كلها، والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون - لا المسلمون - لهيبها، ولقد ظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية، تقاتل وتحارب وتُريق الدماء، وفي كل مرة كان الباباوات خلفاء المسيح ـ كما يزعمون ـ يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس والبلاد المقدسة في المسيحية، وتخريب بلاد الإسلام.

أفكان هؤلاء الباباوات جميعًا هراطقة، وكانت مسيحيتهم زائفة؟! أم كانوا أدعياء جُهَّالًا لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه؟!

أجيبونا أيها المبشرون والمستشرقون المتعصبون، فإن قالوا: تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام ـ عندهم ـ فلا يحتج على المسيحية بها، فماذا يقولون في القرن العشرين، وفي السنوات التي مضت من القرن الحادي والعشرين، وهم يسمون هذه الفترة عصر الحضارة الإنسانية الرَّاقية؟!

لقد شهد هذان القرنان من الحروب التي قامت بها الدول المسيحية، ما شهدت تلك العصور الوسطى المظلمة ـ عندهم ـ بل أشد وأقسى! ألم يقف اللورد اللنبي ـ ممثل الحلفاء: إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا ـ في بيت المقدس في سنة ١٩١٨م حين استولى عليه في أخريات الحرب الكبرى الأولى قائلًا: اليوم انتهت الحروب الصليبية؟! ألم يقف الفرنسي غورد ممثل الحلفاء أيضًا ـ وقد دخل دمشق ـ أمام قبر البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي قائلًا: لقد عدنا يا صلاح الدين؟! وهل هُدمت الديار، وسُفكت الدماء، واغتُصبت الأعراض في البوسنة والهرسك إلا باسم الصليب، بل أين هؤلاء مما يحدث في الشيشان وفي أفريقيا وإندونيسيا وغيرها؟ وهل يستطيع هؤلاء إنكار أن ما حدث في كوسوفا كان حربًا صليبية؟

إن الإسلام إنما غزا القلوب، وأسر النفوس بسماحة تعاليمه في العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات، وآدابه في السِّلم والحرب، وسياسته المتمثلة في عدل الحاكم وإنصاف المحكومين، والرحمة الفائقة والإنسانية المهذبة في الغزوات والفتوح، إنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلا عجب أن أسرعت إلى اعتناقه النفوس، واستجابت إليه الفطرة السليمة، وتحمَّلت في

سبيله ما تحملت، فاستعذبت العذاب، واستَحْلَت المرَّ، واستسهلت الصعب، وركبت الوعر، وضحَّت بكل عزيز وغالٍ في سبيله[1].

طبيعة انتشار الديانات السابقة:

رغم محدوديَّة طبيعتها إلا أن بعض الأديان السماوية، وكثيرًا من الديانات الوضعية قد حاولت نشر مبادئها، ولكن كيف كانت طبيعة هذه المحاولات؟

شهد التاريخ أن العنف والقهر قد صاحبا غالبية هذه المحاولات، فقد فرض "أمنحتب" فرعونُ مِصْر على شعبه عبادة إله الشمس "آتون"، وأغلق معابد الآلهة الأخرى وحطَّم تماثيلها ومحا صورها واضطهد المخالفين، وقريب من هذا حدث مع البوذيَّة والكونفوشيوسية في جنوب شرقي آسيا، وقبل حكم "قِباذ" كسرى فارس لم يكن للمزدكيَّة اعتبار، فتبنَّاها وحاول فرضها على شعبه، كما نشر "دارا" الفارسي الزرادشتيَّة حربًا.

أمَّا بالنسبة للدِّيانات السَّماوية فقد جاء في العهد القديم: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصُّلْح، فإن أجابتك إلى الصلح وفُتِحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تُسالمك، بل عملت معك حربًا، فحاصرها. وإذا دفعها الرَّب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمَة ما، بل تحرمها تحريمًا". (التثنية ٢٠: ١٠ـ١٧).

وتطبيقًا لهذا فقد حكى العهد القديم أيضًا أن موسى عليه السلام قد أرسل اثني عشر ألف رجل لمحاربة أهل مَدْيَن، فحاربوهم وانتصروا عليهم، وقتلوا كل ذَكَرٍ منهم، وسَبَوْا نساءهم وأولادهم. وكان داود عليه السلام يقتل أعداءه ولا يُبْقي ذكرًا ولا أنثى ولا طفلًا، وكان أحيانًا يُمثِّل بمن يقتلهم "فكلم موسى الشَّعب قائلًا: جرِّدوا منكم رجالًا للجُنْد، فيكونوا على مِدْيَان ليجعلوا نِقْمَة الرب على مِدْيان. ألفًا واحدًا من كل سِبْط من جميع أسباط إسرائيل ترسلون للحرب. فاختِيْرَ من ألوف إسرائيل ألف من كل سبط. اثنا عشر ألفًا مجرَّدون للحرب. فأرسلهم موسى ألفًا من كل سبط إلى الحرب، هم وفِينْحَاس بن أَلِعَازار الكاهن إلى الحرب، وأمتعة القُدْس وأَبْوَاق الهُتَاف في يده. فتجنَّدوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذَكَر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم: أَوِي ورَاقِم وصُور وحُور ورَابع أوي. خمسة ملوك مديان. وبَلْعام بن بَعُور قتلوه بالسيف. وسَبَى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم وكل أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم، وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النَّهب من الناس والبهائم". (العدد ٣١: ٣ ـ ١١).

وفي العهد الجديد لم يُهْمِل الإنجيل الكلام عن الحروب، فقد جاء فيه نصٌّ صريح واضح على لسان السيد المسيح عليه السلام يقول: "لا تظنوا أني جِئْتُ لأُلْقِي

١. www. ebnmaryam. com

سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا". (متى ١٠: ٣٤).

وعلى أرض الواقع فإن المسيحية لم تكن لتنتشر ـ في البداية ـ لولا سُلْطَة قُسْطَنْطِين ـ الإمبراطور البيزنطي ـ الذي أراد أن يكون سيِّدَها، وأمّا شارلمان فقد كان متحمِّسًا للمسيحية، يُؤْمِنُ أن من واجبه تحويل جيرانه إليها بالقوة، فقد ظل يحارب السَّكسونيين ثلاثًا وثلاثين سنة بعنف ووحشيَّة حتى أخضعهم وحوَّلهم قسرًا للمسيحية، وحين اعتنقها بعض المصريين نكَّلت بهم الدولة الرُّومانيَّة الوثنية، ونُفِي كثيرون منهم أو أُحْرِقُوا أو ذُبِحُوا قُرْبانًا للآلهة الوثنيَّة. وفي سنة ٣٠٤ م نكَّل الإمبراطور دِقْلِدْيَانوس بالقِبْط؛ فنُفِي بعضهم من مصر، ورُمِي بعضهم للوحوش الضارية في حلقة الألعاب على مشهد من الناس، وما زال القِبْطُ يذكرون هذا العصر ويسمُّونه "عصر الشهداء" ويتخذونه مبدأ لتقويمهم الخاصِّ.

وكان المتوقع أن يستريح القبط من هذا التَّعنُّت وهذه الوحشية حين صارت المسيحية دينَ الدولة الرومانيَّة الرَّسمي، لكنهم اصطلوا في العهد المسيحي للدولة بمثل ما عانوه في عهدها الوثني، فقد كانت الكنيسة البيزنطية على مذهب يُسمَّى "المَلْكاني"، وهو يقول بطبيعتين للمسيح ﷺ: إلهيَّة وبشرية، بينما قالت كنيسة الإسكندرية المصريَّة بطبيعة واحدة.

وقد أصرَّت السلطة على نشر مذهبها، وأصرَّ القبط على مذهبهم، فنكَّلت الدولة بهم، وصارت البلاد مَسْرحًا للاختلافات الدينية، واقْتَتَل الناس لأجل ذلك، وتاقت نفوس القبط للخلاص من ضغط الرومان عليهم.

فلم يكن عجبًا أن رحَّب كثيرون منهم بالفاتحين المسلمين، فلا غرابة في قول المؤرِّخ المسيحي ميخائيل السوري: إن الله المنتقم الجبار أتى بأبناء إسماعيلَ من الصحراء لينقذوا الأمم من عسف الروم[1].

وفي روسيا انتشرت المسيحية على يد جماعة اسمها "إخوان السيف"، وقد دخلت المسيحية إليها على يد فلاديمير دُوق كييف (٩٨٥- ١٠١٥م)، وكان يُضرب به المثل في الوحشيَّة والشهوانية، وقد وصل إلى زعامة الدُّوقيَّة فوق جُثَّة أحد إخوته، وقد اقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة، على أن هذا كله لم يمنع من تسجيله قِدِّيسًا في الكنيسة في عداد القِدِّيسين بالكنيسة الأرثوذكسية؛ لكَوْنه الرجل الذي جعل من الرُّوس شعبًا مسيحيًّا، وهذا كفيل بغُفْران ذنوبه، إذ أمر بتعميد الرُّوس جميعًا في مياه نهر الدنيبر[2].

ولم تكن الكشوف الجغرافية الأوربية في مطالع العصر الحديث خالصة لِوَجْه الحضارة والمدنيَّة، فقد ارتكب المنصِّرون الذين رافقوا هذه الرحلات من الأعمال البشعة مالا يليق بالإنسانية؛ فقد أبادوا ـ مثلًا ـ الهنود الحُمْر السكَّان الأصليين لأمريكا، وكذا فعلوا في بقية مستعمراتهم الجديدة، فحين اكتشف الإسبان جزيرة هاييتي بالبحر الكاريبي أَبْدوا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل، متفنِّنين في تعذيب

١. الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: د. حسين مؤنس، محمد زايد، ص١٠٧. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص١١٢.

٢. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص١١٣، ١١٤ بتصرف يسير.

سكانها؛ بقطع أناملهم، وفَقْء عيونهم، وصَبِّ الزيت المغلي والرصاص المُذَاب في جراحهم، أو بإحراقهم أحياء على مَرْأَى من الأسرى؛ ليعترفوا بمخابئ الذهب أو ليهتدوا إلى الدين. وقد حاول أحد الرُّهْبان إقناع أحد زعماء سكان الجزيرة بالتَّنصُّر مخبرًا إياه أنه إن تنصَّر سيذهب إلى الجنة، فسأله الزعيم الهندي ـ وكان مشدودًا إلى المحرقة ـ: وهل في الجنة إسبانيون؟ فأجاب الراهب: طبعًا، ما داموا يعبدون الإله الحق! فما كان من الهندي إلا أن قال: إذن أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأُمَّة المتوحِّشة[١]. ولعل من قبيل تحصيل الحاصل الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون ـ الذين جاءوا إلى الشرق رافعين شعارًا دينيًّا ـ من مذابح وفواجع، وأفجع منه ما حدث بالأندلس.

مصداقًا لما سبق نُورِد شهادة باحث مسيحي، يقول فيها: "الإسلام كديانة سماوية لم يحاول إفناء أصحاب الديانات الأخرى أثناء الحروب معهم، فحينما ظهر المذهب البروتستانتي في أوربا على يد مارتن لوثر قامت الكنيسة الكاثوليكية اعتمادًا على تفسير الفقرة (٣٤) من الإصحاح العاشر من إنجيل مَتَّى تفسيرًا على هواهم، وهي تقول على لسان السيد المسيح: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا"، وعلى هذا الأساس ظهرت "نظرية الخلاص" في المِلَّة الكاثوليكية، ومضمونها أن خلاص روح الإنسان لا يكون إلا بالإذعان التام لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية فقط، وعلى أساس هذه النظرية ينظر الكاثوليك لأتباع المذاهب المسيحية الأخرى على أنهم هراطقة ومُلْحدون، ويسمحون بتعذيبهم والتَّنْكيل بهم، وهذا ما حدث في عام ١٥٧٢م، حيث دعا الكاثوليكُ البروتستانت ضيوفًا عليهم في باريس ٢٤ أغسطس للبحث في تسوية وتقريب وجهات النظر بين الكاثوليك والبروتستانت، وحضر قادة المِلَّة البروتستانتيَّة إلى باريس، فما كان من الكاثوليك إلا أن سطوا على ضيوفهم البروتستانت في ظلمة الليل وقتلوهم جميعًا، وجرت دماؤهم في الشوارع، وانهالت التَّهاني على تشارلز التاسع ملك فرنسا بغير حساب من بابا الفاتيكان، ومن ملوك الدول الكاثوليكية على هذه المجزرة البشرية.

ومثل هذا ما حدث للأقباط الأرثوذكس في مصر على يد الكاثوليك الرومان بعد "مؤتمر خلقدونيا" لبحث طبيعة السيد المسيح ـ وقد اختلفوا في ذلك ـ لذلك أقيمت المجازر البشرية، وكان يتمُّ وضعهم ـ أي المخالفين الرومان ـ في زيت مغلي، ويتم كشط جلودهم وإغراقهم أحياء في الماء؛ لكي يتركوا المِلَّة الأرثوذكسية، ووصل عدد القتلى أكثر من مليون قتيل أو شهيد مسيحي أرثوذكسي رفضوا ترك ملَّتهم، والانضمام إلى المِلَّة الكاثوليكية"[٢]. فالحرب إذن سُنَّة كَونيَّة لم يخلُ منها تاريخ أمَّة بشرية، ولكن شتان بين مفهومها لدى المسلمين، ولدى غيرهم.

ثالثًا. الحرب في الإسلام ضرورة لإزالة العقبات التي تحول بين الدعاة وبين عامة الشعب:

إن المتتبع لنصوص القرآن وأحكام السنة النبوية في

١. المرجع السابق، ص١١٥، ١١٦ بتصرف.

٢. الإرهاب صناعة غير إسلامية، د. نبيل لوقا بباوي، مرجع سابق، ص٨٦، ٨٧.

الحروب يرى أن الباعث على القتال ليس فرض الإسلام دينًا على المخالفين، ولا فرض نظام اجتماعي، بل كان الباعث على القتال في الإسلام هو دفع الاعتداء.

وها هنا قضيتان إحداهما نافية والأخرى مثبتة:

أما النافية فهي: أن القتال ليس للإكراه في الدين، ودليلها قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ولقد منع النبي ﷺ رجلًا حاول أن يُكره بعض ولده على الدخول في الإسلام[1]، وجاءت امرأة عجوز إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حاجة لها، وكانت غير مسلمة، فدعاها إلى الإسلام فأبت فتركها عمر، وخشي أن يكون في قوله - وهو أمير المؤمنين - إكراه فاتجه إلى ربه ضارعًا قائلًا: "اللهم أرشدت ولم أُكرِه"، وتلا قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾، ولقد نهى القرآن الكريم عن الفتنة في الدين، واعتبر فتنة المتدين في دينه أشد من قتله، وأن الاعتداء على العقيدة أشد من الاعتداء على النفس؛ ولذا جاء فيه صريحًا قول الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ١٩١).

وأما القضية الثانية: وهي أن القتال لدفع الاعتداء، فقد نص عليها القرآن أيضًا، إذ يقول: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (البقرة)، وإن القرآن الكريم بمحكم نصوصه جعل الذين لا يقاتلون المؤمنين في موضع البرِّ إن وجدت أسبابه، وجعل الذين يقاتلون هم الذين يعتدون؛ فقد جاء فيه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة).

ومع أن القتال شُرِعَ لدفع الاعتداء لم يأمر القرآن بالحرب عند أول بادرة من الاعتداء، أو عند الاعتداء بالفعل إذا أمكن دفع الاعتداء بغير القتال؛ فقد جاء فيه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (النحل)[2].

وتحت عنوان لماذا شُرِع القتال؟ يقول د. المطعني: لم تكن شريعة الإسلام أَوْحَدِيَّة في مشروعية القتال، فالقرآن يقص علينا أنَّ كثيرًا من الأنبياء مارسوا هذا الفن بإذن الله، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران). والتاريخ النبوي لبني إسرائيل حافل بالمعارك بين الأنبياء - عليهم السلام - ومعارضيهم، فليس القتال إذًا مسبةً ولا نقيصة لا في الإسلام ولا في غيره من الرسالات السابقة.

ومشروعية القتال في الإسلام من الضرورات التشريعية التي يلجأ إليها المسلمون حين لا يكون من

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠.

٢. نظرية الحرب في الإسلام، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٢، ١٣.

حيلة إلا القتال، وهو لم يُشْرَع في الإسلام ليكون وسيلة للبطش والتجبر والقهر، وحبًّا في سفك الدماء، ونهب الأموال، والتَّشفِّي الأهوج، بل شرع لردع الظلم، وحماية الحق، ورعاية الفضيلة ولرد العدوان، شرع لإقرار التوازن في الأرض، وإشاعة السلام والأمن، والقضاء على الطغيان، وفي هذا الإطار كانت معارك المسلمين في عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة، ومن سار سيرتهم من ولاة الأمور.

ومن الأهداف العليا في مشروعية القتال في الإسلام حماية الدين والعقيدة، ودحر الفتنة، وحماية المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وكل أولئك مقاصد نبيلة، وقيم إنسانية مقدسة يجب أن تُحْمَى وتصان. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (النساء). فالقتال في الإسلام ضرورة، وإجراء استثنائي له موجباته ودواعيه، وهو كما قال أمير الشعراء شوقي مخاطبًا رسول الله ﷺ:

الحَرْبُ في حَقٍّ لَدَيْكَ شَرِيْعَةٌ
وَمِنَ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ

ليس القتال للإجبار على اعتناق الإسلام:

ومهما اتفقنا أو اختلفنا حول الأسباب التي أدت إلى مشروعية القتال في الإسلام: إباحة ووجوبًا، فليس من بين الأسباب أن القتال شرع لإجبار الناس على الدخول في الإسلام، ونتحدى بأعلى صوت من يدعي ذلك من أعداء الإسلام وعملائهم، ونقول لهم:

أمامكم الإسلام قرآنًا وسنة وإجماعًا وتاريخًا وسيرة، فهيا فأتونا بنص من كتاب الله تبارك وتعالى أو من أحاديث رسول الله ﷺ، أو من إجماع علمائه، أو واقعة من تاريخه وسيرته تدل على أن من أهداف القتال في الإسلام جبر الناس على الدخول فيه كراهية وقسرًا.

والإسلام معروف كالشمس، فليس فيه جوانب علنية وأخرى سرية، فما الذي يُعْجِزُهُم أن يقوموا بهذه التجربة؟ وصدق الشاعر الذي قال في أمثالهم:

يَقُولُونَ أَقْوَالًا وَلَا يَعْلَمُونَهَا
وَإِنْ قِيْلَ هَاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

وليس عقابًا على الكفر:

وكذلك ليس في مشروعية القتال في الإسلام أن يكون عقابًا على كُفْر مَن كَفَر، وإلحاد من ألحد باستثناء حدِّ الردة، ولتوضيح هذا نقول: إنَّ الكفر في تقدير الإسلام نوعان:

الأول: الكفر الذي وُلِد عليه صاحبه ونشأ عليه، أو الكفر الأصلي إذا صحَّ هذا التعبير، وصاحبه لم يسبق له الدخول في الإسلام.

الثاني: الكفر الطارئ على صاحبه بعد الدخول في الإسلام.

فالنوع الأول لا يُقَاتَل عليه صاحبه ولا يُقتل، بل يُكتفى بدعوته إلى الإسلام، فإن أسلم فحَسَنٌ، وإن امتنع تُرِك وشأنه والله هو الذي يتولَّى حسابه، فالكافر الأصلي دمه مَصُون، والاعتداء عليه حرام كالاعتداء على ماله وعرضه.

أما النوع الثاني ففيه حد الردَّة الوارد في السنة وعمل

الخلفاء الراشدين مع إجماعهم عليه®.

ولو كان القتال والقتل عقابًا على الكفر في النوع الأول لما تهاون فيه صاحب الرسالة، ولا الخلافة الراشدة من بعده، فكم من الاتفاقات ومعاهدات الصلح التي عقدوها مع الناس مع تركهم على عقائدهم دون أن يكرهوهم أو يقاتلوهم على كفرهم، ومن أوضح الأمثلة تصالحُ عمر بن الخطاب مع نصارى فلسطين، وامتناعه أن يصلي في الكنيسة حين أذن للصلاة مع دعوة قسيسها أن يصلي فيها، ولكن عمر ﷺ امتنع عن الصلاة فيها قائلًا: لو صليت لجاء المسلمون وقالوا عمر صلى هنا فأخذوا الكنيسة!

ثم تصالح عمرو بن العاص مع قبط مصر، وتركهم على عقيدتهم دون أي إكراه على تركها والدخول في الإسلام، بل إنه ساعد القبط على استقرار شئونهم الدينية باستدعاء البطريرك بنيامين الذي كان مختفيًا هربًا من بَطْش الرُّومان، وأعطاه الأمان ليرعى شئون الأقباط دينيًّا في مصر.

بل إن صاحب الدعوة نفسه ﷺ كان يعقد معاهدات صلح، ويترك أهل البلاد على عقائدهم مهما كانت مخالفة للإسلام أصولًا وفروعًا، ولا تنس المعاهدة التي عقدها مع اليهود في المدينة عقب الهجرة مع تركهم على يهوديتهم، أحرارًا في تأدية طقوسهم الدينية على مرأى ومسمع من المسلمين.

وبهذا تتبين لنا جوانب أخرى من سماحة الإسلام، أبرزها جانبان:

الأول: أن مع مشروعية القتال في الإسلام لم يكن من أهدافه حمل الناس بالقوة المسلحة على اعتناق الإسلام؛ لأن في القرآن العظيم نصًّا واضحًا وصريحًا ومحكمًا يمنع من هذا الهدف، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

الثاني: ومع مشروعية القتال في الإسلام فإنه يخلو ـ منهجًا وسيرة ـ من أن يكون عقابًا على الكفر الأصلي الذي وُلِد عليه صاحبه ونشأ، فالكفر أعظم الذنوب، ومع ذلك فالأمر فيه موكول إلى الله سبحانه يعاقب عليه في الآخرة بالخلود في النار.

أما في الدنيا فليس لأحد أن يعاقب صاحب الكفر الأصلي بالقتال عليه أو القتل، ودم الكافر كفرًا أصليًّا مصون كماله وعِرضه، إلا إذا حارب المسلمين، أو انضم لمن يحاربهم، فيكون هو الذي أهدر دم نفسه، ذلكم هو الإسلام، وتلك هي سماحته الرحيمة[1].

الحرب لإزالة الطواغيت:

فإذا كان طاغية أو ملك قد أرهق شعبه من أمره عسرًا، وضيق عليه في فكره، وحال بينه وبين الدعوات الصالحة أن تتجه إليه، فإن حق صاحب الدعوة إذا كان في يده قوة أن يزيل تلك الحُجُز التي تحول بينه وبين دعوته ليصل إلى أولئك المستضعفين، وتخلو وجوههم لإدراك الحقائق الجديدة، وإعلان اعتناقها إن رأوا ذلك وآمنوا به، ولكن محمدًا النبي الأمين ﷺ لم يلجأ إلى ذلك ابتداء حتى لا يظن أحد أنه قاتل ليفرض دينه على الناس، أو ليكرههم عليه؛ ولذلك سلك طريقين:

® في **"نوعَي الكفر في تقدير الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثامنة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية).

١. سماحة الإسلام، عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص١٤٨: ١٥١.

أولهما: أن يرسل الدعوة الدينية إلى الملوك والرؤساء في عصره يدعوهم إلى الإسلام، ويُحمِّلُهم إثْمَهم، وإثم من يتبعونهم إن لم يجيبوا دعوته، ولذلك جاء في كتابه إلى هرقل: "أَسْلِمْ تَسْلَم، وإلا فعليك إثم الأريسِيِّين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)".

ثانيهما: أنه بعد هذه الدعوة الرسمية أخذ يعلن الحقائق الإسلامية ليتعرفها رعايا تلك الشعوب فيتبعها من يريد اتباعها، وقد اتبعها فعلًا بعض أهل الشام ممن يخضعون لحكم الرومان، وعرف المصريون وغيرهم حقيقتها، حتى لم تعد مجهولة لمن يريد أن يتعرفها، وتسامعت بها البلاد المتاخمة لبلاد العرب.

العوامل التي أدت إلى قتال المسلمين الروم في العهد النبوي:

١. أن الروم قد ابتدءوا فاعتدوا على المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام من أهل الشام، فكان ذلك فتنة في الدين وإكراهًا للمسلمين على الكفر، وما كان محمد ﷺ ليسكت عن ذلك، وقد جاء لدعوة دينية، وإنه إن كان لا يَحْمِلُ الناس على اعتناق الإسلام كرهًا، فلا يمكن أن يسكت عمن يحاولون أن يُخْرِجُوا أتباعه من دينهم كرهًا، إنه لا يريد أن يَعتدي، ولا أن يُعْتَدى عليه؛ ولذلك عَدّ هذا العمل من جانب الرومان اعتداء على دينه وعليه؛ لأنه صاحب الدعوة فلا بد أن يزيل هذه الفتنة.

٢. أن كسرى عندما بلغه كتاب رسول الله ﷺ همَّ بقتل مَنْ حملوه، وأخذ الأُهْبَة[1] ليقتل رسول الله ﷺ، واختار من قومه من يأتيه برأسه الشريف الطاهر، ولكن أنَّى لكسرى وأمثاله من الطُّغاة الكفرة أن يُمكِّنهم الله تبارك وتعالى من ذلك، ورسول الله ﷺ - وقد علم بالأمر - ما كان ليسكت حتى يرتكب كسرى هذا الإثم، بل إنه القوي العادل الحَصِيف؛ ولذلك كان لا بد أن يستعد ويصرعه وجيشه قبل أن يصرعه هو.

لهاتين الحقيقتين اتجه رسول الله ﷺ لقتال الرومان والفرس لمنع الفتنة في الدين من أولئك الرومان ومحاربيهم، كما قاتل المشركين لمنع هذه الفتنة، إذ يقول الله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ (البقرة).

ويقول ابن تيمية في قتال النبي ﷺ لأهل الروم: "وأما النصارى فلم يقاتل النبي ﷺ أحدًا منهم، حتى أرسل رسله إلى قيصر وإلى كسرى، وإلى المقوقس والنجاشي، وملوك العرب بالشرق والشام، فدخل في الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من قد أسلم، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين أولًا، وقتلوا من أسلم منهم بغيًا وظلمًا، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد ﷺ سرية أمَّر عليها زيد بن حارثة، ثم جعفرًا، ثم ابن رواحة، وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤتة من أرض الشام، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى، واستشهد الأمراء الثلاثة ﷺ وأخذ الراية

---

١. الأُهْبَة: الاستعداد الكامل.

خالد بن الوليد"[1].

وبهذا يتبين أن قتال النبي ﷺ لم يكن إلا دفعًا للاعتداء، والاعتداء الذي حدث في عهد النبي ﷺ كان على صورتين:

- أن يهاجم الأعداء النبي ﷺ فيرد كيدهم.
- أن يفتن الأعداء المسلمين عن دينهم، ولا بد أن يمنع النبي ﷺ ذلك الاعتداء على حرية الفكر والعقيدة.

وفي الصورتين نجد النبي ﷺ لا يفرض دينه، ولا يُكره أحدًا عليه، ولكن يحمي حرية الاعتقاد التي هي مبدأ من مبادئه، إذ قد جاءت مقررة في القرآن، حيث يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ولما جاءت الخلافة إلى أبي بكر، ثم عمر أرسلا الجيوش إلى كسرى وهرقل بعد أن خمدت الردة، وصارت الكلمة لله ولرسوله في جزيرة العرب®.

رابعًا. الوقائع التاريخية منذ عهد النبي ﷺ تشهد بأن أحدًا لم يُكْرَه على الدخول في الإسلام، وقد شهد بهذا العديد من مفكري الغرب من غير المسلمين:

تسامح إسلامي فريد عبر التاريخ:

واقعيًّا، وُضِعت اللَّبنات الأولى في صَرح خَصْلَة التسامح في تاريخ المسلمين في ممارسات صاحب الدعوة نفسه، إلى جانب أقواله الداعية إليها، كموقفه من مشركي قريش، الذين آذوه وأخرجوه هو وآله وأصحابه حين فتح مكة؛ إذ جاءه أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيدت خضيراء قريش، لا قريش بعد اليوم. فقال الرسول ﷺ: "مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"[2]. وهذا نموذج وشاهد على تسامحه ورِفْقه ﷺ.

ويجدر بنا الآن أن نذكر مظاهر تسامح المسلمين مع الآخر، في عصورهم المختلفة، وذلك على النحو الآتي:

١. التسامح في عهد الراشدين:

إنَّ في بقية حِقَبِ تاريخ المسلمين نماذج ناصعة مُشرِّفة من التسامح والعدالة في معاملة الآخر؛ فحين فُتِحت مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أمَّن عمرو النصارى على معتقداتهم، وأعاد البطريرك بنيامين إلى زعامتهم، بعد أن كان مختفيًا لمدة طويلة فرارًا من بَطْش البيزنطيين حُكَّام مصر في ذلك الوقت، وقد قِيل: إن الإمبراطور البيزنطي جستنيان أمر بقتل مائتي ألف من القِبْط في الإسكندرية، وإن اضطهادات خلفائه حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء كما أوكل ابنُ العاص إلى بنيامين الإشرافَ على شئون طائفته من القبط[3].

ويوضح نصُّ الصُّلح بين المسلمين والمُقَوْقِس - حاكم مصر - بعد فتح حِصْن بابليون ملامحَ سياسة

---

١. رسالة القتال، ابن تيمية، مجموع الرسائل النجدية، دار المعرفة، بيروت.

® في "**الحكمة من مشروعية القتال في الإسلام**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. والوجه الأول، من الشبهة الرابعة. والوجه الأول، من الشبهة العاشرة؛ من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية). وفي "**دلالة انتشار الإسلام في عصور الضعف على اعتناقه طواعية**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٤).

٣. الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة. د. حسن إبراهيم وآخرين، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٢٣.

المسلمين تجاه أهالي البلاد المفتوحة، وما تتميز به من نُبْل وتسامح، يقول النصُّ[١]:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر، الأمان على أنفسهم ومِلَّتهم وأموالهم، وكنائسهم وصُلُبِهم، وبَرِّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنْتَقَص، ولا يُساكنهم النُّوب[٢]، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجِزْية -إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نَهْرهم- خمسين ألف ألف، وعليهم ما جَنَى لُصُوتُهم[٣]، فإن أبى أحد منهم أن يجيب؛ رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذِمَّتنا ممن أَبَى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنُّوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مَأْمَنه، أو يخرج من سلطاننا".

ويرجع النجاح الذي أحرزه الإسلام في مصر -في بعض أسبابه- إلى ما لاقاه المسلمون من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحُكْم البيزنطي، فاليَعَاقِبة[٤] الذين كانوا يمثلون السواد الأعظم[٥] من المحكومين المسيحيين قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي من الحكام البيزنطيين، الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتي الوقت الحاضر.

فقد كان بعضهم يعذَّب ثم يُلقى به في اليَّم، وتبع كثيرون منهم بِطْرِيقهم في التخلص لينجوا من الاضطهاد، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية بآسيا الصغرى، الذي عقد سنة ٤٥١م، واتخذ قرارًا بتأكيد القول بطبيعتين للمسيح -لاهوتيَّة: إلهية، ناسُوتيَّة: مادية جسدية بشرية- وتكفير أصحاب الطبيعة الواحدة؛ أي: اللاهوتية[٦].

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) بعد انتصاره على الفُرْس سنة ٦٣٨م، جمع مذاهب الدولة المتصارعة، وتوحيدها والتوفيق بينها، وتقررت صورة التوفيق في أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم أن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة، أو قضاء واحد، وقد حصل وفاق على ذلك.

وصمم هرقل على إظهار هذا المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة له متوسلًا إلى ذلك بكل

١. تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧م، ج٤، ص١٠٩. معالم تاريخ مصر الإسلامية، د. عبد الفتاح فتحي، د. جمال فوزي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٠: ٤٢.

٢. النُّوب: سكان البلاد الواقعة في جنوب مصر وشمال السودان.

٣. اللُّصُوت: اللُّصُوص.

٤. اليَعاقِبة: فِرْقة من النصارى، وهم أتباع يعقوب البراذعي الذي عاش في الشام في القرن السادس عشر الميلادي، يقولون باتحاد اللاهوت والنَّاسوت، ويُعرفون بـ "أصحاب الطبيعة الواحدة".

٥. السَّواد الأعظم: مُعظَم الناس.

٦. انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ص١٤٣: ١٧٧. تاريخ العصور الوسطى، نورمان كانتور، ترجمة: د. علي الغمراوي، د. قاسم عبده، مكتبة سعيد رأفت، ١: ٢٦٥.

الوسائل، ولكن نصارى مصر نابذوه العداء وتبرءوا من هذه البدعة - وذلك التحريف - واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة، واستمرت محاولات التوفيق دون جدوى.

أما الفتح الإسلامي فقد وفَّر لنصارى مصر حياة تقوم على الحرية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان، وتركهم المسلمون أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفلوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، ولم يضعوا أيديهم على شيء من ممتلكات الناس، ولم يرتكبوا أعمال سلب ونهب. وليس هناك شاهد على أن ارتداد بعض القبط مبكرًا عن دينهم، ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد، أو ضغط يناقض مبدأ التسامح الذي درج عليه حكامهم الجدد من المسلمين.

فقد تحول كثير من هؤلاء القبط النصارى إلى الإسلام قبل أن يكتمل الفتح الإسلامي لمصر، حين كانت الإسكندرية - حاضرة البلاد في ذلك الوقت - لا تزال تقاوم الفاتحين. وقد سار كثير من القبط بعد ذلك بسنين قليلة على نهج إخوانهم؛ ففي عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥هـ) بلغ خراج مصر اثني عشر مليون دينار، ثم نقص في عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ) إلى خمسة ملايين، وذلك بسبب دخول عدد كبير في الدين الإسلامي من نصارى مصر، ثم أخذ الخراج في النقصان في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) حتى إن والى مصر اقترح ألا يعفى من يعتنقون الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية، ولكن الخليفة الورع أبى موافقته على طلبه قائلًا: إن الله قد بعث محمدًا ﷺ داعيًا ولم يبعثه جابيًا[1].

ولكن بعض الولاة الذين جاءوا بعد ذلك خرجوا أحيانًا شيئًا ما على روح التسامح هذه، ولكن كان هذا بمنزلة الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ولا يلغيها، فقد جاءت فترات - خصوصًا في العصرين الفاطمي والأيوبي - ترقَّى فيها رجال من أهل الذمة إلى أعلى المناصب، فكان منهم الوزراء والكتّاب في دواوين الحكومة، وجمعوا الثروات الطائلة. وفي عهد السلطان المتسامح - بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء - صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩ - ٥٨٩هـ) وخلفائه، نَعِمَ النصارى وسعدوا إلى حد كبير؛ فقد خُفِّفَت عنهم الضرائب، وصار منهم الوزراء والكتاب، والصيارفة؛ رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي.

وهكذا كان الإنصاف والتسامح طابعًا عامًّا للحكم الإسلامي لمصر، فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية، التي سرعان ما كانت تزول، والتي لم يتورع مرتكبوها عن التعدي على الرعية من إخوانهم من المسلمين أنفسهم، فهم ظالمون بدافع من ذواتهم وطباعهم، لا بعقيدتهم وتعاليم شرعهم.

ومما يؤيد هذا الطابع العام من الإنصاف والتسامح تجاه الآخر، أنه على الرغم من تسارع كثيرين من أهل مصر إلى اعتناق الإسلام منذ لحظات الفتح - كما سلف الذكر - فإن المسلمين لم يصيروا أغلبية بها إلا خلال القرن الرابع الهجري.

فلو كان الإسلام لا يقبل الآخر والمسلمون

---

١. الطبقات الكبير، ابن سعد، مرجع سابق، ج٧، ص٣٧٣. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، مرجع سابق، ص١٢٣، ١٢٤.

لا يميلـون إلى التنـوع، ولا يـستريحون إلى التعامـل والتعايش مع مخالفيهم في العقيدة في البلاد التي لهم فيها شوكة، وبالتالي استعملوا العنف والشدة ـ بـل الـسيف كما زعم المغالطون لما احتاج الأمـر إلى ثلاثـة قـرون أو أكثر ليصيروا أغلبيـة في مـصر، بـل ربـما لم يحتـاجوا إلى ثلاث سنوات إذا كان السيف مسلطًا على الرقاب.

بل زِدْ على ذلـك فقـل إن بقـاء أقليـة غـير مـسلمة ـ معقولة العدد مستقرة الحـال لحـد كبـير ـ بهـذا البلـد بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا عـلى فـتح المـسلمين له لدليل قوي على تسامحهم تجـاه الآخـر، بـل التفاعـل معه، وذلك بدافع من تعاليم دينهم، قال تعـالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

وقد كان المسلمون الفاتحون يخيرون خصومهم بـين ثلاث خصال: الإسلام، أو الجزية، أو القتال ـ كـما هـو معروف ـ فإذا أسلموا طواعية فهم إخوة لنا في الـدين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات، وإذا أبوا الدخول في الإسـلام، وقبلـوا دفـع الجزيـة قبلـت منهم، وتُركـوا وشـأنهم، ومُنِحُـوا أمانًـا عـلى أمـوالهم وأنفسهم وعقائدهم، فإذا رفضوا الأمرين كـان معنـى ذلك أنهم مُصِرُّون على الحرب والعناد.

وحـين كـان المـسلمون ينتـصرون لم يكونـوا ـ في الغالب ـ يستخدمون ما يُسَمَّى بحق الغالب في فـرض شروطه على المغلوب، فلم يكونوا يُكْرِهون الناس عـلى اعتناق الإسلام، فهؤلاء المهزومون، بعد هزيمتهم: بين مسلم برغبته ورضاه، وبين ذمي يُعْطى عهدًا.

وقد توسع المسلمون في معنى الذمي فجعلوه يشمل أهل الكتـاب مـن اليهـود، والمسيحيين، وجميـع أهـل الشرك من المجوس، وعبـدة الأوثـان، وعبـدة النـيران والحجارة، والصابئة[1]، فكل هؤلاء يعاهدون وتؤخذ منهم الجزية، فقد أخذ الرسول ﷺ الجزيـة مـن مجـوس هجر[2] ـ شرق شبه جزيرة العرب ـ، وأخذها عمر بـن الخطاب مـن مجـوس فـارس[3]. ـ والجزيـة كـما صـار واضحًا ومستقرًّا في الأذهان مبلـغ بـسيط، دلالـة عـلى بذل الولاء للسلطة القائمة مقابل حمايتها لأهل ذمتهـا، وليست جزاء للمخالفين في الدين، وإلا فهـل يُعاقَـبُ المسلم على إسلامه بدفع الزكاة؟! وإذا قبل هؤلاء جميعًا دفـع الجزيـة كـان مـن حقهـم البقـاء عـلى عقائـدهم وأحوالهم السابقة.

وهـاك نـماذج لـبعض المعاهـدات التـي نظمـت العلاقـات والالتزامـات بـين المـسلمين وغـيرهم. فقد جاء في عهـد عمـر بـن الخطـاب ﷺ لأهـل إيليـاء ـ بيت المقـدس ـ مـا يـلي: "بـسم الله الـرحمن الـرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمـر أمـير المـؤمنين أهـل إيليـاء مـن الأمـان؛ أعطـاهم أمانًـا لأنفـسهم، وأمـوالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسـائر ملتهـا، أنـه لا تُـسْكَنُ كَنائِـسُهم، ولا تُهـدَّمُ ولا يُنْـتَقَصُ منهـا ولا مـن حَيِّزهـا، ولا مـن صُـلُبِهم ولا مـن شيء

١. كتاب الخراج، أبو يوسف، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنـا، دار الإصلاح، القاهرة، ص٢٦٥.

٢. فتوح البلدان، البلاذري، تحقيـق: د. صـلاح الـدين المنجـد، النهضة المصرية، القاهرة، ص٩٧. كتاب الأمـوال، ابـن سـلام، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، ١٩٨١م، ص٣٥.

٣. فتـوح البلـدان، الـبلاذري، مرجـع سـابق، ص٩٨. العـالم الإسلامي في العصر الأموي: دراسة سياسية، د. عبد الشافي عبد اللطيف، ط١، ١٩٨٤م، ص٣٧٣.

من أموالهم، ولا يُكْرَهُون على دينهم ولا يُضَارَّ أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطي أهل المدائن، وعلى أن يُخْرِجُوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخَلِّي بِيَعَهم وصُلُبَهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعِهم وصُلُبِهم حتى يبلغوا مَأْمَنَهم، ومن كان بها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذِمَّة المؤمنين إذا أَعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان"[1].

٢. تسامح صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين بعد فتح بيت المقدس:

ماذا صنع السلطان صلاح الدين الأيوبي بالصليبيين الذين كانوا ببيت المقدس حين حررها من أسرهم؟

لقد تم التسليم على أن يعطي كل رجل من الصليبيين عن نفسه عشرة دنانير مصرية، وكل امرأة خمسة دنانير، وكل صغير أو صغيرة دينارين، وقد عُومل الأسرى من الشيوخ والنساء والأطفال معاملة تنطوي على كثير من السَّخاء والكرم والشهامة والسماحة؛ فقد مَنَّ السلطان على ملكة مسيحية كانت مترهبة بالقدس بمن معها وما معها من المال والمجوهرات، كما سمح للبَطْرِيَرك الأعظم أن يحمل معه ما قيمته مائتا ألف دينار من تُحَفٍ ثمينة ومجوهرات كَنَسِيَّة، على حين بخل هذا البطريرك على بعض أتباعه ببعض هذا المال لفكهم من الأسر.

وأمر السلطان المنادين بالمناداة في شوارع المدينة بمعافاة العاجزين عن الدفع، وأنهم طلقاء يذهبون أنَّى شاءوا، فاتجه بعض هؤلاء نحو إمارة طرابلس الصليبية؛ فأغلقها أميرها في وجوههم، واتجه بعضٌ آخر نحو صُوْر؛ فرفض حاكمها المركيز كنراد إدخالهم حتى لا يتحمل عبء إطعامهم وحمايتهم، ورغبت جماعة ثالثة في الانحدار إلى أوربا؛ فاعتذرت سفن التجار الإيطاليين عن حملهم بدون أجر، لولا إرغام السلطات الإسلامية لها على حملهم، وقد اجتمعت نسوة الفرسان الصليبيين المأسورين والمجروحين يسألن السلطان الرحمة والإشفاق والإنفاق عليهن، فأطلق لهن أزواجهن الأسرى، ومن فقدت زوجها خصص لها نفقة، ولم يضرب الرق في النهاية سوى على خمسة عشر ألفًا من مجموع حوالي مائة ألف صليبي كانوا بالمدينة المقدسة[2].

لك أن تقارن هذا بصنيع الصليبيين الشنيع بالمسلمين بالقدس حين احتلوها، تقارن هذه السماحة العظيمة، والإنسانية الرحبة بتلك المجازر البشرية

---

١. تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج٣، ص٦٠٩.

٢. التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، د. نظير سعداوي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٩٢، ١٩٣.

سابقًا، وبما يحدث الآن من أهوالٍ بفلسطين المحتلة على أيدي الصهاينة؛ لتدرك مدى سماحة المسلمين ـ بدافع من مبادئ دينهم الحنيف بالأساس ـ على مسيرة تاريخهم تجاه الآخر، مقابل إساءة هذا الآخر وعدوانيته عندما تُمَكِّنُه الفُرْصة، ولتعلم ـ دون مبالغة أو تعصب ـ أنه مهما قيل عن بعض ما في تاريخ المسلمين من مثالب ـ لكونهم بشرًا كالبشر ـ فإنه يسمو نبلًا ويرقى إنسانية عن كل تواريخ الملل والأمم الأخرى عند المقارنة، والشواهد على ذلك موفورة في كل عصر.

ولم تقتصر السماحة على الشعوب المسلمة قديمة العهد بالإسلام، التي تشبعت نفوسها بتعاليمه السامية، وإنما تمثلت أيضًا في سلوكيات تلك الشعوب حديثة العهد به، التي كثيرًا ما تُوصف بالعنف والشراسة والقسوة، كالمغول والتُّرك؛ فعلى الرغم مما أظهره أوزبك خان (٧١٢ ـ ٧٤٢ هـ / ١٣١٣ ـ ١٣٤٢م) ـ سلطان دولة مغول القبجاق، التي حكمت في أعالي بحر قزوين وجنوب روسيا الآن ـ من التحمس في نشر الإسلام، وتفانيه في الإخلاص له، فقد كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء.

ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي، ذلك العهد الذي منحه أوزبك خان للمطران بطرس سنة ١٣١٣م، وقد جاء فيه: "بمشيئة العلي القدير وعظمته ورحمته من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم، إن كنيسة بطرس مقدسة لا يحلُّ لأحد أن يتعرض لها، أو لأحد من خدامها، أو قسيسيها بسوء، ولا أن يستولي على شيء من ممتلكاتها، أو متاعها، أو رجالها، ولا أن يتدخل في أمورها؛ لأنها مقدسة كلها، ومن خالف أمرنا هذا بالتعدي عليها فهو أثيم أمام الله، وجزاؤه منا القتل، ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة، ولندعه يقرر نظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم، وفؤاد عادل قويم. وإننا نعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاة أقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شئون الكنيسة، ولا شئون المطران، ولا في شئون المدن، والمراكز، والقرى، والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر، ولا في الأراضي، والمراعي، والصحاري، ولا في المدن والأماكن الداخلة في أملاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في أي شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها. ولندع بال المطران في راحة دائمة خاليًا من كل تعب أو نَصَب، ولندع قلبه سليمًا قويمًا، ولندعه يصلي لله من أجلنا، ومن أجل أولادنا وأمتنا، حتى إذا وضع يديه على شيء مقدس ثبتت عليه التهمة، وباء بغضب من الله، وكان جزاؤه القتل، حتى يُلْقِي مصيرُه الرُّعبَ والفزع في قلوب الآخرين. وإذا فُرِضَ الخراج أو غيره من الضرائب، كالرسوم الجمركية، والمُكُوس، وضرائب الطرق، والأراضي غير المزروعة، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا فلا يُجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس، أو لأي أحد من رجال الدين التابعين له.

وكل ما يُؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه يُرَد إليهم أضعافًا ثلاثة، ولتكن شرائعهم، وكنائسهم، وأديارهم، ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم، وكل

من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين فلن يُقْبَل منه أي عذر ولا أن يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل. وسوف يتمتع إخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفي دار واحدة، بنفس هذه المزايا والحقوق".

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن مجرد كلمات جوفاء، أو مجرد حبر على ورق، وأن التسامح الذي وُعد به هؤلاء المسيحيون قد أصبح حقيقة واقعة، بهذه الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون سنة ١٣١٨م إلى الخان يشكر فيها الأمير المسلم على ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين، ويثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها[١].

ولا شك أن هذا التشابه الكبير - بل شبه المطابقة - بين نصوص كتب العهود الممنوحة لغير المسلمين من قِبَل الفاتحين المسلمين ومضامينها، إنما يعبر عن سياسة ثابتة للمسلمين في هذا الشأن، فهي تنص صراحة على تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم، ومللهم وشرائعهم، وعلى حمايتهم من الاعتداء عليهم. وقد أشاعت هذه المعاهدات العادلة جوًّا من الطمأنينة والأمان عند السكان، وأزالت عن نفوسهم الخوف الذي يشعر به المغلوب في مثل هذه الظروف، ففي فتوح الإسلام الأمر مختلف، فالمسلمون - غالبًا - لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويُذِلُّوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها، ويحرِّروهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فهم أصحاب رسالة خالدة تحمل للناس العدل والإنصاف، وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية.

ولكن الناس في البلاد المفتوحة - لأنهم لم يشهدوا فتحًا كالفتح الإسلامي من قبل - كانوا في حاجة إلى وقت ليعرفوا أهداف المسلمين الحقيقية، فلما تكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة، وقد حرص المسلمون على الوفاء بكل ما التزموا به، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط، وإنما هو واجب ديني يفرضه الإسلام على المسلمين، فالوفاء بالعهد ليس مِنَّة من المسلمين، ولكنه مسئولية واجبة عليهم إعمالًا لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ (الإسراء)، ولقول رسوله ﷺ: "أَلَا مَن ظلم مُعاهدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طِيْب نفسٍ، فأنا حَجِيْجُه يوم القيامة"[٢].

٣. التسامح في زمن العثمانيين:

حين قيض الله ﷻ للدولة العثمانية أن تحمل لواء الجهاد الإسلامي في شرقي أوربا إِبَّان القرن السابع الهجري، لم يكد القرن العاشر ينتصف حتى دانت كل أمصار أوربا الشرقية لسطوة العثمانيين، وأصبح البحر المتوسط بحيرة شبه إسلامية، بعد أن كان مركزًا للحضارة الهيلينية، وارتفع المد الإسلامي في ظل هذه الدولة، وبلغ حدًّا لم يبلغه من قبل في أية حِقْبة من

---

١. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، مرجع سابق، ٢٧١: ٢٧٣. المسلمون في القوقاز والبلقان زمن العثمانيين، د. جمال فوزي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢٩، ٣٠.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم (١٨٥١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

حِقَبِ التاريخ الإسلامي، غير العصر الأموي تقريبًا.

وعندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، أعلن في الجهات كافة أنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين، بل إنه يضمن لهم حرية دينهم، وحفظ أملاكهم، فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس، ثم جَمَّعَ أئمة دينهم، فانتخبوا بَطْرِيركًا لهم اختاروه وأقام له حفلًا مهيبًا، ووفر له حرسًا من الإنكشارية[١] ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية، بأنواعها كافة بين أهل ملته، وعَيَّن معه في ذلك مجلسًا مشكلًا من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقساوسة، واستثنى أئمة الدين من الالتزامات المادية.

وقد كان لهذا الفتح المبين من الآثار العسكرية والسياسية، ما جعل المؤرخين يعدونه نقطة تحول في مجرى تاريخ العالم، ووضعه مؤرخو أوربا حدًّا فاصلًا بين العصور الوسطى والعصور الحديثة. لكن ما يعنينا هنا هو أثره في انتشار الإسلام في سماحة ويسر، فالفتح العسكري في حد ذاته لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا إذا أعقبته سياسة حكيمة تقوم على الترغيب لا الترهيب، وهذا ما سلكه الفاتح؛ فقد أعلن عن حرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية التملك، وضمان حقوق الملكية، وحين طلب من القساوسة انتخاب رئيس لهم انتخبوا أحد القساوسة الفارين من اضطهاد الأباطرة السابقين - إخوته في الدين أعدائه في المذهب - وكان مختبئًا في إحدى بقاع البلقان، فاستحضره لهم.

وكان لهذه السياسة أثرها في عودة من هجر المدينة منذ عهد الأباطرة، وعاد معظمهم ليعلن إسلامه، وشهدت السنوات التالية للفتح عمليات إشهار إسلام جماعية تحدث لأول مرة في العهد العثماني، وذلك حين جاء بعض أهالي البوسنة إلى السلطان الفاتح ليعلنوا إسلامهم ورغبتهم في العمل في خدمة الدولة، فَسُرَّ السلطان بذلك وألحقهم بخدمة الجيش، وظل هؤلاء البوسنيون على ولائهم للدولة حتى النهاية[٢].

وقد كان نظام المِلَل - غير المسلمة - هذا، وإدارتها شئونها الداخلية بنفسها حلًّا عمليًّا متبعًا في العصر العثماني لمشكلات الأقليات الدينية. وإلى جانب هذا القدر من الحرية والتسامح الديني، كان العثمانيون مَهَرَة في إدارة شئون الحياة المدنية: اقتصادية، وعمرانية، مما أنتج ازدهارًا كبيرًا في المناطق التي تخلصت من يد الحكم البيزنطي السابق، واكتسب العثمانيون احترام رعاياهم وتقديرهم.

شهادات منصفة:

نكتفي في هذا بذكر بعض شهادات واضحة لمستشرقين وقادة غربيين منصفين، أدى الإنصاف ببعضهم إلى اعتناق الإسلام والتحول للدفاع عنه.

- يقول الباحث الروسي أليكس جورافسكي: "ومن الآراء غير الصحيحة التي نصادفها بين حين

---

١. الإنكشاريَّة: فِرْقة كان لها مركز ممتاز بين فِرَق الجيش العثماني، وكانوا ينشئون على الولاء للسلطان ويُدرَّبون تدريبًا عسكريًّا قويًّا، ظفرت هذه الفرقة بسُلْطَة كبيرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر تجاوزت دورها العسكري.

٢. تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، ص٥٩: ٦١. الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا، محمد هريدي، دار الصحوة، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٥.

وآخر، الرأي الذي مؤدَّاه أن الإسلام دين التعصُّب وعدم التسامح، وهما سمتان ملازمتان أبدًا له، واعتراضنا على مثل هذه الدعوى أن التَّعصُّب يمكن أن يبرز في مرحلة تاريخية معينة وفي أي دين، بل ليس في الأديان فقط، وإنما في النظريات والعقائد والحركات السياسية والاجتماعية المختلفة، وفي الوضع الذي نناقشه هنا، فإن متابعة النواحي التاريخية والاجتماعية والعقائدية - القرآن والسنة - للإسلام لا تُتيح لأي باحث ومراقب موضوعي الحديث عن التَّعصب الإسلامي.

وقد نجد بعض المسبِّبات والدوافع النفسية والحالات الاجتماعية الطارئة بين الحين والآخر أو في بلد ما، ولكن ذلك لا يعطي الحق في التعميم إطلاقًا".

- ويقول هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بأفريقيا: "إن انتشار دعوة الإسلام بأفريقيا لم يقم على القسر، وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولًا ولا طولًا إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرًا ما انتشر الإسلام بالتَّسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية - وهي هدف الدعاة الأول - تبعتها بقية القبيلة. وقد يسَّر انتشارَ الإسلام أمرٌ آخرُ: أنه دين فِطْرة بطبيعته، سهْل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهْل التَّكَيُّف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر؛ إذ لا يُطْلَب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين، وقد حبَّب الإسلامَ إلى الأفريقيين مظاهرُهُ البعيدةُ عن التكلُّف، مثل: الثوب الفَضْفاض والكتابة العربية والوقار الديني وشعائر الصلاة، مما يضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة، فالذي يدخل في الإسلام - ولو في الظاهر - يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية. ينضاف إلى هذا السعي للتحرُّر من الاستعمار، فالجموع والجماهير المسلمة هي التي حملت راية الجهاد ضد المستعمر في أفريقيا وآسيا"[1].

- وأخيرًا يُجْمِلُ القضية - إلى حد كبير - المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان حين يقول عن انتصارات المسلمين الباكرة: "وطبيعي أن تلك الانتصارات جنحت بالإنسان الغربي المسيحي إلى الزَّعم أن الإسلام دين عدواني، فصار يتشبَّث بالادِّعاء أن الإسلام إنما انتشر بحدِّ السيف فحسب.

والحق أن شعوب البلاد المغلوبة أو المفتوحة - سواء النصاري أو الفرس - لم يستطيعوا الصمود أمام بأس المسلمين الأوائل المستميتين في زحفهم، وقد أشعل الإيمان حماستهم، لكن الحق أيضًا أن تلك الفئة قليلة العدد والعُدَّة ما كانت لتستطيع فتح تلك الأقطار والممالك لو لم تدخل شعوبها في الإسلام أفواجًا.

لقد كان ثَمَّة أسباب أو حوافز مختلفة لاعتناق تلك الشعوب الإسلام، لكن واحدًا منها بعينه على جانب عظيم من الأهمية - وإن لم يتَّفق مع مفاهيم الغرب المسيحي ولم يناسبها - ألا وهو اعتناق كثير من النصارى أنفسهم للإسلام، نعني الهَرَاطِقَة[2] الخارجين على إجماع الكنيسة الغربية من نصارى المغرب والمشرق

١. موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مرجع سابق، ج١، ص٤٦: ٦٣ بتصرف.

٢. الهَرَاطقة: المبتدعون في الدين عند المسيحيين.

العربيَّين، ومنهم النصارى المعروفون بـ "الأريسِيِّين والدُّوناتيين"، فقد اعتنقوا الإسلام لأنه يتَّفق مع اعتقادهم في رفض الطبيعة الإلهية للمسيح ورفض التَّثليث"[١].

هذه ـ إجمالًا ـ فلسفة الحرب في الإسلام ومفهوم الفتح الذي كان لا بد أن يعمل المسلمون ـ كتكليف شرعي ـ على نشر عقيدته، إمّا سلمًا على الأصل أو حربًا إن عاند المعاندون وتصلَّب الطواغيت. وبالأحرى فإن الفتح الإسلامي ديانة تنتشر وعقيدة تتغلغل، فالشعوب نفسها هي التي تحولت غالبيتها للإسلام طوعًا، وليس المسلمون دخلاء في البلاد المفتوحة ـ كما زعم المتعصبون ـ أمّا الاحتلال والغزو فأرض تُغْتصب وموارد تُنْهب وشعوب تُسْتعبد.

وإذا كان الإسلام انتشر بحد السيف، فكيف ينتشر والمسلمون لا سيف لهم في أيام المحن والنكبات؟!

• لقد أوضح رولاند أوليفر[٢] أن الإسلام لم يأخذ طريقه خلف الصحراء الكبرى بأفريقيا إلا بعد انحلال دولته الكبرى بالمغرب، وكانت وسيلته لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة، وقد انتشر الإسلام بكثافة في جنوب شرقي آسيا، خاصة في أندونسيا، ولم يسمع أحد عبر التاريخ عن جيش فاتح توجه نحو هذه البلاد ولا غازٍ رفع فيها سيفًا، بل نشر الإسلام فيها قوافل التجَّار والدُّعاة والطُّرق الصوفية، وقد هجم المغول على مشرق العالم الإسلامي كالإعصار المدمر، وبعد هلاك جنكيز خان انقسمت إمبراطوريته الكبيرة إلى أربعة فروع، تحول ثلاثة أرباعها في أواسط آسيا وغربها والقوقاز وجنوب روسيا إلى الإسلام، ومن السخف القول بأن هؤلاء قد أُكْرِهوا على الإسلام، فقد كانوا الرُّعاة، والمسلمون هم الرَّعية المستضعفة، ولكن الإسلام هو الذي جذبهم نحوه وصهرهم في بوتقته ومزجهم بحضارته، فتحولوا إلى بُناة حضارة ورعاة بشر بعدما كانوا هادمي مدنيَّات ورعاة أغنام وبقر[٣].

• يقول العالم الفرنسي جوستاف لوبون[٤]: "إن القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلامَ، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين".

ويقول في موضع آخر: "وبَيَّن لنا سلوكُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العربُ الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يُرد عمر أن يدخل معه مدينة القدس غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطريرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى لأهلها الأمان، وقطع لهم عهدًا باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بِيَعِهم، ولم يكن سلوك عمرو بن العاص

١. الإسلام كبديل، هوفمان، مرجع سابق، ص٢٢.

٢. Short history of Africa، رولاند أوليفر، نقلًا عن: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مرجع سابق، ١/ ٦٤٠، ٦٤١.

٣. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، مرجع سابق، ص٧١.

٤. حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، مرجع سابق، ص١٢٧، ١٢٨.

بمصر بأقل رفقًا من ذلك؛ فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة وعدلًا مطلقًا"[1].

بل إن تسامح المسلمين مع المسيحيين أغرى علماءهم بالدفاع عن معتقداتهم بحرية كاملة، مع اعتقاد المسلمين ببطلانها، بل امتد الأمر بزعماء النصارى الدينيين إلى الهجوم على الإسلام وتعاليمه، وهم تحت حماية المسلمين المتسامحين معهم.

- وهذا ما يعترف به دُون كوبيت ***Don Coppitt*** المحاضر في الإلهيات وعميد كلية عمانوئيل، جامعة كمبردج ببريطانيا إذ يقول[2]: "استعمل عالم اللاهوت المشرقي يوحنا الدمشقي (٦٧٥ ـ ٧٤٩م) مرة جدلًا غريبًا جدًّا في سياق دفاعه عن الأيقونات، ومن السخرية أن ذلك راجع لمعيشته في حماية المسلمين، فاستطاع يوحنا الدفاع عن الأيقونات من داخل بلاد الإسلام في وقت لم يكن أحد آمنًا في الدفاع عنها داخل الإمبراطورية المسيحية"!!

وكان هذا التسامح وتلك المعاملة الحسنة قاعدة إسلامية وضعها رسول الله ﷺ في عدد من أحاديثه؛ حيث أوصى أصحابه والمسلمين جميعًا بحسن معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى، ما داموا ملتزمين بالعهد الذي بينهم وبين المسلمين، فقال ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا، أو كلَّفه فوق طاقته، أو انتقصه، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة"[3].

وقد تابع الخلفاء الراشدون بعد ذلك السياسة نفسها مع النصارى وجددوا لهم عهود الأمان، وعاملوهم معاملة حسنة يسودها التسامح والوفاء والإخاء ما لم يُخِلُّوا بعهدهم مع المسلمين؛ فلم يحدث أن أَكْرَه المسلمون مسيحيًّا ـ أو ذميًّا على وجه العموم ـ على الدخول في الإسلام، فقد كانوا ملتزمين بالقاعدة الإسلامية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وكانت سياستهم مع أهالي البلاد المفتوحة أن يخيروهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، ولو كانت سياسة إكراه أهالي البلاد المفتوحة على الدخول في الإسلام هي ديدن المسلمين لما خيروهم بين هذه الثلاثة.

إن الوفاء بالمعاهدات من جانب المسلمين هو السياسة الثابتة، حتى عندما كان ينقض أهل إقليم من الأقاليم المعاهدات من جانبهم، كان المسلمون ـ غالبًا ـ يكتفون منهم بالعودة إلى الطاعة، وأداء الواجبات والالتزامات المقررة، ولا يحملهم الانتقاض على الانتقام، فحين نقض أهل أذربيجان عهدهم غزاهم الوليد بن عقبة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، وصالحهم على ثمانمائة ألف درهم، وهو المبلغ الذي كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان سنة ٢٢ هـ، ولم يكن هذا مثلًا وحيدًا، بل تكرر كثيرًا[4].

ومما سبق تبين لنا أن سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات كانت واسعة الأفق والمرونة؛ بحيث أدركوا أن استتباب الأمن وسير الأمور سيرًا حسنًا في البلاد المفتوحة، بما يحقق خير أهلها ومصالحهم، يكمن في

---

١. المرجع السابق، ص١٣٥.
٢. أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، ص٢١١.
٣. صحيح: أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٥).
٤. العالم الإسلامي في العصر الأموي، د. عبد الشافي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص٣٧٧، ٣٧٨.

الأسلوب الإداري الذي سيسيرون عليه، فلم يترددوا لهذا في الاحتفاظ بالنظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة، سواء كانت خاضعة للبيزنطيين؛ مثل الشام ومصر، أو خاضعة للفرس؛ كالعراق وإيران، وقد بقي الموظفون من أهل البلاد المفتوحة في مناصبهم الإدارية في الغالب.

وقد وصل هؤلاء في ظل الحكم الإسلامي إلى مناصب رفيعة كانوا محرومين منها في ظل حكومات ما قبل الإسلام، كما هو الحال في مصر على سبيل المثال، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم ـ إن لم يكن كل ـ المناصب الإدارية والعسكرية العليا في الدولة، ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل. وحين كان المسلمون يعجزون أحيانًا عن حماية المكاتبين كانوا يردون عليهم ما أخذوه منهم، فقد ردَّ أبو عبيدة بن الجراح ﷺ ما كان أخذه من أهل حمص، وكتب إليهم: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم. فقال أهل حمص: لَوِلايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم[١].

ويعلق المستشرق أرنولد على هذه الحادثة الفريدة في تاريخ البشرية بقوله: "وبذلك رُدَّت مبالغ طائلة من أموال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: رَدَّكم الله علينا ونصركم عليهم ـ أي على الروم ـ، فلو كانوا هم لم يردُّوا علينا شيئًا، وأخذوا كل شيء بقي لنا"[٢]. وقد بلغ عدل المسلمين ورحمتهم بأهل الذمة أنه لم يكن يُعفى فقراؤهم من الجزية فحسب، بل كانوا يفرضون لهم عطاء دائمًا من بيت مال المسلمين، فقد فرض عمر بن الخطاب لليهودي الذي وجده يطلب الصدقة رزقًا دائمًا من بيت المال[٣] ®.

خامسًا. لما ضعفت شوكة المسلمين في البلاد التي فتحوها، وتمكن الآخرون منهم فعلوا بهم من الأفاعيل ما يندى له الجبين، ولم يراعوا أي خُلُقٍ أو دِيْنٍ:

١. **الصليبيون وبيت المقدس:**

إن الصليبيين حين تمكنوا من اقتحام بيت المقدس في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢هـ، لم ينج ممن كان به سوى قائد الحامية الفاطمية، وعدد من رجاله، وأعقب ذلك مذبحة فظيعة هائلة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام، وفاض الدم وظلت الجثث مطروحة في الشوارع عدة أيام. وفي هذا الجو الكئيب الموحش اجتمع الصليبيون في كنيسة القيامة؛ لأداء صلاة الشكر، وعندما هدأت شهوة القتل لديهم كانت أولى المهمات التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاحت منها الروائح النتنة في كل أرجاء المدينة، أو التخلص منها بطريقة ما[٤].

١. المرجع السابق، ص٣٨٢، ٣٨٣.

٢. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، مرجع سابق، ص٧٩.

٣. العالم الإسلامي في العصر الأموي، د. عبد الشافي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص٣٧٩.

® في **"شهادات المستشرقين والغربيين بسماحة الإسلام"** طالع: الوجه السادس، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). والوجه الثاني، من الشبهة السادسة والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

٤. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٨، ص١٨٩. ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده، عالم المعرفة، ص١٢٩.

وقد أسفرت هذه الجريمة البشعة في القدس وحدها ـ حول الأقصى وبداخله ـ عن مقتل ما يزيد عن سبعين ألفًا، حتى خاضت الخيول في دماء القتلى إلى ركبها، وأرسل الصليبيون إلى البابا رسالة بُشرى بما صنعوه بالكفار (يقصدون المسلمين) [1].

٢. العثمانيون والآخرون بعد ضعف المسلمين:

في ظِلِّ تقهقر العثمانيين وانسحابهم شرقًا ـ لعوامل عديدة ـ انسحبوا من بين ما انسحبوا منه من بلاد البلقان ـ بشرقي أوربا ـ بما فيها البوسنة والهرسك، ونتيجة لهذا وقعت لأول مرة أعداد كبيرة من المسلمين تحت حكم غيرهم، فهاجر الكثير منهم إلى الأناضول والبلاد الأخرى التي بقيت تحت الحكم العثماني، وبالطبع كان الحكم المسيحي العائد قاسيًا على من بقي من المسلمين، منعوتًا بالتشريد والاضطهاد ومحاولة فرض التنصير بكل سبيل.

وعقب الحرب العالمية الأولى تأسست الدولة اليوغسلافية في البلقان، وكانت فرحة المسلمين كبيرة بهذا الحدث؛ حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار النمساوي السابق، ولكن الأرثوذكس الصرب غدروا بالمسلمين بعد قيام يوغسلافيا، وتحت شعار الإصلاح الزراعي صادروا جميع أراضي المسلمين ومنحوها للفلاحين الأرثوذكس، فأدى ذلك إلى إفقار المسلمين وتأخرهم بعد أن كانوا طليعة التقدم.

ولنأخذ مدينة بِلْجِراد ـ عاصمة الصِّرب الآن ـ مثالًا لما حدث للمسلمين في يوغسلافيا، فقد فتحها المسلمون سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، ودام حكمهم فيها مدة ٣٥٨ عامًا، كانت خلالها مدينة إسلامية زاهرة، يبلغ سكانها مائة ألف نسمة، ثلاثة أرباعهم مسلمون، وكانت تضم مائتين وسبعين مسجدًا، تُقام في ثلاثة وثلاثين منها صلاة الجمعة، وبها سبع عشرة تكيَّة، وثمانية مدارس ثانوية إسلامية، وتسع دور حديث، ومائتين وسبعين كُتَّابًا.

وبعد أن انحسر الحكم الإسلامي عن المدينة قضى المسيحيون على المدارس والكتاتيب والمساجد كلها الواحدة تِلْو الأخرى، فهذا مسجد جُعِلَ ميدانًا لسباق الخيل، وآخرُ بُنِي على أنقاضه المسرحُ المركزي، وثالثٌ صار مَقَرًّا للبرلمان، ورابعٌ حُوِّل فُندقًا.

وهكذا، وقد استمرت الحال على هذا المنوال حتى بلغ السَّيْل الزُّبَى، ووقعت كارثة نهاية القرن العشرين الأخيرة، التي حدثت على مَرْأًى ومَسْمَع من العالم المتحضر، ومنا نحن المسلمين، والتي خلَّفت ما يقارب من نصف مليون قتيل في البُوسنة وكوسوفا، فضلًا عن مئات الآلاف من المُشَرَّدين واللاجئين بعد هدم المدن وتدمير القرى، واستباحة أعراض النساء في حالات اغتصاب جماعية، وذبح الأطفال تحت شعار التطهير العِرْقي [2].

والغريب أن البعض ـ ومن بينه كثير من وسائل

---

١. إتحاف الأخِصَّا بفضائل المسجد الأقصى، السيوطي، تحقيق: د. أحمد رمضان، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٧.

٢. البوسنة والهرسك: من الفتح إلى الكارثة، د. محمد حرب، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، ١٩٩٣م، صفحات متفرقة. صرب يوغسلافيا وحرب إبادة المسلمين، مقال بمجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد ٣٣٢. البوسنة والهرسك أكبر سجن للحرية، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٣٧، رمضان ١٤١٤هـ.

إعلامنا ـ ما يزال يصر على أنها حرب عِرْقِية لا دينية، فبِمَ نُسمِّي ذَبْح المسلمين ـ المسلمين فقط ـ بالسكاكين، والتَّمثيل بجُثثهم حتى بعد قتلهم ورسم الصُّلْبان الأرثوذكسية عليها، إن لم تكن حربًا صليبية؟! وبِمَ نُسمِّي تصفية الشباب المسلم ـ والمسلم فقط ـ وبتر أعضائهم التناسلية، وإلقائهم أحياء في الماء المغلي، وذبحهم للشِّواء شَي الذبائح، إن لم تكن حربًا دينية صليبية؟! وبم نسمي اغتصاب المسلمات ـ المسلمات فقط ـ وتقطيع أثدائهن، وبَقْر بطون الحوامل منهن للتمثيل بالأجنة، إن لم تكن حربًا دينية صليبية[١]؟

٣. **مأساة الأندلس:**

ونصل بك أيها القارئ بعد هذا التطواف التاريخي إلى المصاب الفادح، والنموذج الصارخ لذلك التناقض في علاقة المسلمين بالآخر وعلاقة الآخر بهم، أو سلوك كُلٍّ تجاه الآخر. تلك هي مصيبة الدهر وفاجعة الفواجع، وهي إبادة المسلمين في الأندلس وطرد بقاياهم منها.

ففي أواخر القرن الأول الهجري ـ أوائل القرن الثامن الميلادي ـ دخل الإسلام إلى إسبانيا، وفي أواخر القرن التاسع الهجري ـ أوائل القرن السادس عشر الميلادي ـ أصدر الملكان الإسبانيان فرناندو وإيزابيلا مرسومًا يقضي بإلغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أرجاء البلاد، وبين التاريخين ـ كما يذكر المستشرق أرنولد ـ كتبت إسبانيا الإسلامية صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، امتد تأثيرها إلى الممالك الأوربية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة.

وقد كانت إسبانيا قبل دخول المسلمين إليها قد شهدت صراعًا رهيبًا بين مذاهب وطوائف المسيحية، أما تسامح المسلمين الفاتحين فقد كان نموذجًا رائعًا للرقي الحضاري، وله أكبر الأثر في استيلائهم على البلاد، وقد أدت هذه السياسة، وحرية الاختلاط بين أهل الديانتين إلى شيء من التجانس والتماثل وكثر التصاهر بينهم، وطوال عهود المسلمين بالأندلس لم تكن الحوادث النادرة المناقضة للتسامح إلا استثناء لهذا الطابع المتسامح الذي عُرِف به أمراء المسلمين في إسبانيا في معاملتهم لرعاياهم المسيحيين.

فماذا حدث حين قُضِي على الحكم الإسلامي في الأندلس في آخر معقل له في غرناطة سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م؟ عندما استسلم أبو عبد الله آخر ملوك غِرْناطة، ووافق على تسليم البلاد للمَلِكَين الكاثوليكيَّين فِرْناندو وإيزابيلا، ظل كثير من المسلمين موجودين بهذه البلاد، يُمثِّلون عنصرًا مهمًّا من عناصر السكان في الدولة المسيحية الجديدة، تنظم حقوقه وواجباته اتفاقية وقَّعَهَا الجانبان الإسلامي والمسيحي، وقد قَدَّم الجانب المسيحي المواثيق والأيمان المُغلَّظة، وتعهد بضمان احترام بنود تلك المعاهدة بكل ما يتصور من وسائل.

لم يمض على ذلك سنوات معدودة حتى نُقِضَتْ

---

١. البوسنة والهرسك: من الفتح إلى الكارثة، د. محمد حرب، مرجع سابق، ص١٩١.

ـ من قِبَل الطَّرَف المسيحي ـ موادُّ هذه الاتفاقية واحدة وراء الأخرى، وتعرَّض المسلمون لمعاملة قاسية وعنيفة، وأُهينوا وعُذِّبوا، وصُودرت أموالهم، واغتُصبت ممتلكاتهم، وأُهدرت حُقوقُهم، وأُقيمت لهم محاكم التفتيش، وفُرِضَ عليهم فرضًا أن يتنصَّروا، وعُرِفوا في المجتمع المسيحي باسم خاص بهم هو "المُورسكيون"، والمورسكي تصغير لكلمة "مورور" بمعنى المسلم، والغرض الإهانة والتحقير، وقد أصبحت علمًا على هؤلاء الذين حُمِلوا على الدخول في النصرانية، كما أطلق عليهم كذلك "المسيحيون الجُدُد".

وهكذا خُرِقَت المعاهدة، واستُلِبَت الحقوقُ والضمانات، وأُغلقت المساجدُ، وحُظر على المسلمين إقامة شعائرهم، وانتُهكت عقائدُهم وشريعتُهم، أَضِفْ إلى ذلك أن نفوس رجال الكنيسة كانت تفيض برغبة عارمة تبغي القضاء على كل ما هو إسلامي.

وكانت الإدارة الإسبانية أداة في يد الكنيسة، والأحبار لا يفتئون يطلبون من الملك بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد ﷺ من إسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء إما التنصر أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وأنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم، بل فيه إنقاذ لأرواحهم، وحفظ لسلام المملكة؛ لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون مع النصارى ـ لاحظ أيها القارئ بوضوح هنا من يقبل الآخر ومن يلفظه!! ـ أو يحافظوا على ولائهم للملوك ما بقوا على الإسلام الذي يحثهم على مَقْت[1] النصارى أعداء دينهم!

ولذا استُدْعِي الكاردينال خمينيس دي سيتسيروس ليقوم بمهمة تنصير المسلمين، واتخاذ أنجح الوسائل لتحقيق ذلك، فجمع الفقهاء والأعيان بغرناطة، وطلب منهم أن يتنصَّروا حتى يكونوا قُدْوة لغيرهم، وتهدَّدَ وتوعَّد، ورغَّب ورهَّب[2].

كان من أثر هذه الضغوط الرهيبة أن تنصر معظم أهل غرناطة وامتنع قوم عن التنصر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى ومواضع، فجمع لهم العدوُ الجموعَ، واستأصَلَهم عن آخرهم قتلًا وسبيًا إلا أهل مواضع يسيرة، فإن الله أعانهم على عدوهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأُخْرِجوا على الأمان إلى بَرِّ المغرب بما عليهم، وما خَفَّ من أموالهم دون الذخائر، وكان من أظهر التنصر يعبد الله خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى البحث والمراقبة، حتى إنهم أحرقوا كثيرين منهم بسبب ذلك[3].

وقد دفعت هذه الإجراءات العنيفة والانتهاكات الصارخة أحد المسلمين المطرودين إلى الاحتجاج بقوله: "هل حاول أسلافنا المنتصرون ـ ولو مرة واحدة ـ أن يستأصلوا المسيحية من إسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك؟! ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومكم الدينية؟! ألم يوصِ نبينا بأن نترك الحريات الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحد السيف، مهما بلغت آراؤهم من

---

١. المَقْت: البُغْض.

٢. المسلمون المنصرون، د. عبد الله جمال الدين، دار الصحوة، ط١، ١٩٩١م، صفحات كثيرة متفرقة.

٣. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقري، دار الفكر، بيروت، ج٤، ص٥٢٧.

حمق وخرق؟! إن يدنا مبسوطة دائمًا لتلقى كل من وهب الله له نعمة التدين بديننا، لكن كتابنا المقدس - وهو القرآن الكريم - لا يجيز لنا أن نتحكم في ضمائر الناس"[١].

وقد زاد المجرمون على ذلك وأَرْبُوا[٢]، فارتكبوا عارًا تاريخيًّا يُعدُّ وَصْمَة - على الدوام - في جبين الأمم المتخلفة المتبربرة، ففي ١٢ يناير سنة ١٥٠١م ارتكب الكاردينال خمينيس أمرًا إدًّا، إذ أمر بجمع كل الكتب العربية من كل مملكة غرناطة، وكُوِّمَتْ أَكْدَاسًا مُكدَّسة، وأضْرِمَ فيها النيران[٣].

هذه الوحشية التي تعرض لها المسلمون، وهذا النقض للمعاهدات، دفع شاعرًا مسلمًا ناله من الاضطهاد ما ناله أن يكتب قصيدة ويوجهها للخليفة العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢م) يصف فيها ما حل بالمسلمين في الأندلس، وما يواجهونه من إهانات وتعذيب وإكراه على التنصر، ويطلب نجدة الخليفة وغوثه، ومنها:

سَلامٌ علَيْكُم مِن عَبِيْدٍ تَخَلَّفُوا
بأَنْدَلُسٍ بالغَرْبِ في دَارِ غُرْبَة

أَحَاطَ بِهِم بَحْرٌ مِن الرُّومِ زَاخِرٌ
وبَحْرٌ عَمِيقٌ ذُو ظَلامٍ وَلُجَّة

سَلامٌ عَلَيْكُم مِن عَبِيْدٍ أَصَابَهُم
مُصَابٌ عَظِيمٌ يا لَهَا مِن مُصِيبَة

سَلامٌ عَلَيْكُم مِن شُيُوخٍ تَمَزَّقَتْ
شُيُوبُهُم بالنَّتْفِ مِن بَعْدِ عِزَّة

سَلامٌ عَلَيْكُم مِن وُجُوهٍ تَكَشَّفَتْ
عَلَى جُمْلَةِ الأَعْلاجِ[٤] مِن بَعْدِ سُتْرَة

سَلامٌ عَلَيْكُم مِن بَنَاتٍ عَوَاتِقٍ
يَسُوقُهُمُ اللِّيَاطُ[٥] قَهْرًا لِخَلْوَة

سَلامٌ عَلَيْكُم مِن عَجَائِزَ أُكْرِهَتْ
عَلَى أَكْلِ الخِنْزِيرِ مِن لَحمِ جِيْفَة

وَأَبْدَى لَنَا كُتُبًا بِعَهْدٍ مُوَثَّقٍ
وَقَالَ لَنَا هَذَا أَمَانِي وَذِمَّتِي

فَكُونُوا عَلَى أَمْوَالِكُم وَدِيَارِكُم
كَمَا كُنْتُمُ مِن قَبْلُ دُونَ أَذِيَّة

فَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ عَقْدِ ذِمَامِهِم
بَدَا غَدْرُهُم فِيْنَا بِنَقْضِ العَزِيْمَة

وَخَانَ عُهُودًا كَانَ قَدْ غَرَّنَا بِهَا
ونَصَّرَنَا كُرْهًا بِعُنْفٍ وَسَطْوَة

وَأَحْرَقَ مَا كَانَتْ لَنَا مِن مَصَاحِفٍ
وَخَلَّطَهَا بالزِّبْلِ[٦] أو بالنَّجَاسَة

وكُلُّ كِتَابٍ كَانَ في أَمْرِ دِيْنِنَا
فَفِي النَّارِ أَلْقَوه بِهُزْءٍ وَحَقْرَة

---

١. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، مرجع سابق، ١٦٧، ١٦٨.

٢. أربوا: زادوا.

٣. المسلمون المنصرون، د. عبد الله جمال الدين، مرجع سابق، ص٤٥.

٤. الأعلاج: جمع عِلج، وهو كل جافٍ وشديد من الرِّجال، والعِلْج يأتي بمعنى الحمار أيضًا.

٥. اللِّيَاط: جمع اللِّيطة، وهي قشرة القصبة والقوس والقناة، وكل شيء له متانة.

٦. الزِّبْل: الجفاف واليُبُوسة التي تصيب النبات أو الزرع.

وَمَنْ صَامَ أَوْ صَلَّى وَيُعْلَمُ حَالُه
فَفِي النَّار أَلْقَوه عَلَى كُلِّ حَالَة
ومَنْ لَمْ يَجِئْ مِنَّا لمَوْضِعِ كُفْرِهِم
يُعَاقِبُهُ اللَّيَاطُ شَرَّ عُقُوبَة
ويَلْطِمُ خَدَّيْهِ ويَأْخُذُ مَالَه
ويَجْعَلُه في السِّجْنِ في سُوءِ حَالَة
وفي رَمَضَانَ يُفْسِدُونَ صِيَامَنَا
بِأَكْلٍ وَشُرْبٍ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة
إلى غَيْرِ هَذَا مِن أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
قِبَاحٍ وَأَفْعَالٍ غِزَارٍ رَدِيَّة[1]
وقَدْ بُدِّلَتْ أَسْمَاؤنا وتَحَوَّلَتْ
لغَيْرِ رِضًا مِنَّا وَغَيْرِ إِرَادَة
فَهَا نَحْنُ يَا مَوْلاي نَشْكُو إِلَيْكُمُ
فَهَذَا الذي نِلْنَاهُ مِنْ شَرِّ فُرْقَة
عَسَى دِينُنَا يَبْقى لَنَا وَصَلاتُنَا
كَمَا عَاهَدُوْنَا قَبْلَ نَقْضِ العَزِيمة
وإِلَّا فَيُجْلُوْنَا جميعًا مِن أَرْضِهِم
بِأَمْوَالِنَا لِلْغَرْبِ دَارَ الأَحِبَّة
فَإِجْلاؤنَا خَيْرٌ لَنَا مِن مُقامِنَا
عَلَى الكُفْرِ في عِزٍّ عَلَى غَيْرِ مِلَّة
فَهَذَا الذي نَرْجُوهُ مِن عِزِّ جَاهِكُمْ
وَمِنْ عنْدِكمَ تُقْضَى لَنَا كُلُّ حَاجَة[2]

وليت الأمر كان قاصرًا على حقب التاريخ الغابرة[3]، وإنما امتدت هذه الروح المتعصبة الحاقدة تجاه الإسلام والمسلمين إلى التاريخ الحاضر؛ حيث الشعارات البراقة والعبارات الرنانة التي يطلقها الغرب حول الإخاء الإنساني، وحقوق الإنسان في ظل العولمة. بينما تحدثنا الأخبار بغير ذلك على أرض الممارسة والواقع الحقيقي في عقر دار الغرب نفسه، حول هذا اقرأ مثلًا الخبرين الآتيين:

- **سكان لندن يرفضون مئذنة مسجد:**

اعترض سكان مدينة أكسفورد البريطانية على مشروع بناء منارة مسجد سترتفع بين أبراج المدينة. إن الأكاديميين والسكان في مدينة أكسفورد ثائرون ويرون أن هذا المشروع سيكون ـ على حد وصفهم ـ نشازًا على البيئة المعمارية والطبيعية للمدينة، ويشوه الجمال المعماري للمدينة، في حين أيد الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا ـ الذي وُصِف بأنه من دعاة الانفتاح على الإسلام في المجتمع البريطاني ـ هذا المشروع[4].

- **النازيون الجدد يعتدون على المساجد، ويهددون المسلمين في ألمانيا والحكومة صامتة:**

قامت مجموعة من المتطرفين اليمينيين الألمان بمهاجمة جامع في مدينة جيرا بولاية ثورنجن في ألمانيا الشرقية حسبما أوردت الشرطة.

ونقلت صحيفة زوددويتشه الصادرة بمدينة ميونيخ عن مسئولين في البوليس السري بولاية سكسونيا، أن جماعات من المتطرفين اليمينيين الألمان يستخدمون مراكز تدريب عسكرية، كانت سابقًا تخص جيش ألمانيا

---

١. الرَّدِيَّة: القبيحة، أو المُهلِكة.
٢. المسلمون المنصرون، د. عبد الله جمال الدين، مرجع سابق، ص٤١: ٤٣.
٣. الغَابرة: البعيدة في الزمن.
٤. جريدة الأيام القاهرية، عدد ١٧١٣٠، ٢٠٠٠م.

الشرقية؛ للتدريب على استخدام الأسلحة.

٤ . نكبات المسلمين في القوقاز:

ونعود إلى مغول القبجاق - حيث القوقاز الآن - لنرى ماذا حل بالمسلمين - مقابل تسامحهم العميم السابق - على أيدي القياصرة الروس، ثم الزعماء البلاشفة السوفيت حين ضعفت القوى الإسلامية هناك، وانقلبت الحال لصالح أعدائهم.

فقد تعرض مسلمو القوقاز - على نحو ما تعرضت له دار الإسلام منذ مطالع العصر الحديث - لأطماع استعمارية شرسة، حمل لواءها الروس الذين تمكنوا في ذلك الوقت من جعل موسكو - تلك الإمارة الصغيرة الناشئة في البداية، والتي خضعت للتتار المسلمين ودفعت لهم الجزية مدة قرنين ونصف قرن من الزمان - عاصمة لدولة لهم.

وقد شهدت هذه الدولة في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - ظهور مجموعة من حكامها القياصرة، الذين رسموا سياستهم على أساس التوسع على حساب القوى الإسلامية المجاورة لهم في كل من مناطق نهر الفولجا شمالي بحر قزوين، وبلاد القوقاز في غربي هذا البحر، وآسيا الوسطى شرقي البحر نفسه.

وقد بدأ التمهيد للطغيان الروسي على القوقاز حين تولى قيصرية روسيا سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م حاكم عدواني هو القيصر إيفان الثالث، الذي قاد حملة ضد التتار المسلمين، وأخرجهم من موسكو بعد أن دامت في أيديهم ٢٤٠ عامًا، وبذا انتقل من التَبَعِيَّة لإمارة المسلمين في قازان التترية على نهر الفولجا، إلى العدوان على تلك الإمارة، وإنزال الهزائم بقواتها العسكرية.

فقد فتح هذا العدوان الروسي السبيل لهدم السور الإسلامي ببلاد الفولجا، الذي كان يقف سدًّا منيعًا يحمي بلاد القوقاز من خطر الشمال، ثم تولى فاسيلي الثالث، وقد توطدت العلاقة بينه وبين البابا الذي طلب منه أن يعجل بطرد المسلمين إلى سيبيريا وتشتيتهم، واعدًا إياه بالقسطنطينية التي كان السلطان العثماني محمد الفاتح قد فتحها ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م.

ولكن أخطر هؤلاء القياصرة هو إيفان "الرهيب"، الذي أطلق المسلمون عليه هذا اللقب لحرب الإبادة الشاملة التي شنها ضدهم؛ فقد فرض عليهم أن يتنصروا أو يتركوا أوطانهم ويهاجروا، واستولت قواته الروسية على إمارة قازان الإسلامية ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م، وفرض على أهلها المسلمين أشد ألوان الطغيان، وهو حملهم على ترك دينهم، أو ترك وطنهم والهجرة إلى خارج البلاد. وطبق إيفان السياسة الطاغية ذاتها على المركز الإسلامي الثاني على نهر الفولجا، وهو إمارة استراخان، وصارت القوات الروسية الباغية على مداخل بلاد القوقاز.

عُد بذاكرتك - أيها القارئ - وقارن هذه الأفاعيل بعهود الأمان التي منحها المسلمون لأهالي القوقاز، كعهد السلطان أوزبك لكنيسة القديس بطرس - السابق ذكره - ولك أن تعجب، ثم تَتَّعِظ بعد ذلك.

وفي عهد بطرس الأكبر (١٠٩٢ - ١١٣٨ هـ/ ١٦٨٢ - ١٧٢٥م) تجدَّدَت سياسةُ أسلافِه، ففرض على المسلمين التنصير أو الفرار من أراضيهم وأوطانهم.

وسارت الإمبراطورة حنًّا (١٧٣٨ - ١٧٥٥م) على نهج إيفان الرهيب، ففرضت التنصير في المجرى

الأوسط لنهر الفولجا، وصادرت الأوقاف، وغَلَّقت المساجد، وأصدرت أمرًا بإعفاء التتار المرتدين عن الإسلام إلى النصرانية من الضرائب والخدمة العسكرية، ومعاملتهم معاملة حسنة؛ ليحذو بقية المسلمين حذوهم، وبالمقابل ازداد الضغط على المسلمين الصامدين على دينهم، وأُثْقِلوا بالضرائب الفادحة، وأُجْبِروا على الخدمة في أخس الوظائف، ومُنِعوا من ممارسة شعائرهم الدينية، وأُغْلِقت جميع مدارسهم ومساجدهم، وصودرت أوقافهم الدينية، واختُطِفت منهم أبناؤهم الصغار، وأُدْخلوا المدارس التبشيرية حتى يُنَشَّئوا على النصرانية الأرثوذكسية، أما المسلم الذي كان يدعو للإسلام، حتى بين إخوانه المسلمين، فكان يحكم عليه بالإعدام[1].

وبقيام الثورة البلشفية الشيوعية في أكتوبر ١٩١٧م تعرض مسلمو القوقاز لخديعة كبرى، ومعاناة شديدة؛ ففي بداية الثورة تَطَلَّع قادتُها - وعلى رأسهم لِيْنِيْن - وهم يقودون القتال ضد خصومهم إلى الحصول على تأييد مسلمي القوقاز المشهورين بالشجاعة، ومعهم سائر المسلمين في البلاد الأخرى حول نهر الفولجا ووسط آسيا، وأصدر لينين - جريًا على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة - في بداية توليه السلطة بيانًا إلى مسلمي القوقاز، وإلى غيرهم من المسلمين داخل روسيا وخارجها يبشرهم بوعود خلابة قوامها تحرر المسلمين داخل روسيا من حكم القياصرة البغيض. وقد بادر مسلمو القوقاز إلى انتهاز تلك الوعود التي قدمها لينين لهم، وأعلنوا استقلالهم ١٩١٨م، غير أنه سرعان ما تبين لهم خداع لينين، وذلك حين قام هو بنفسه بقيادة الحملة على المناطق الإسلامية بروسيا في أبريل ١٩١٨م.

وأخذت بلاد القوقاز تشهد مع غيرها من بلاد المسلمين في روسيا طغيانًا شيوعيًّا رهيبًا، اتجه إلى الهجوم مباشرة على الدين الإسلامي في مظهرين خطيرين:

أولها: إغلاق المساجد والمدارس الدينية، وتشريد من كان بها من المعلمين.

ثانيهما: شن حملة من الدعاية الضخمة ضد الإسلام، حيث شارك في ذلك الأجهزة الروسية كافة من صحافة، وإذاعة، وتليفزيون، وسينما، ومسرح.

وتركزت الحملات ضد الإسلام بصفة خاصة على موضوع المرأة المسلمة، وعقيدة اليوم الآخر، والجنة والنار بوصفهما من الأمور الغيبية التي يُخَدَّرُ بها الشعورُ، وأن الإسلام مع غيره من الأديان - وجريًا على الدعوة الإلحادية الروسية - أفيون الشعوب.

وقد شهدت فترة حكم ستالين التي دامت حتى عام ١٩٥٣م ألوانًا من القهر، والسخرة في العمل، وتعرض المسلمون خلال تلك الفترة لصنوف من القهر والتعذيب، والتشريد، والتهجير الإجباري، وإلى تقسيم أراضيهم والاقتطاع منها، وتهجير الروس والأوكرانيين إليها؛ بغية تغيير التكوين الديموغرافي والعِرْقي والديني لهذه الأقاليم، وفُرِضت عليهم اللغة الروسية

---

١. المسلمون في القوقاز، د. إبراهيم العدوي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٤٠ : ٤٣. المسلمون في القوقاز والبلقان زمن العثمانيين، د. جمال فوزي، مرجع سابق، ص٣٩ : ٤٢. المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، مصطفى كسبة، هدية مجلة الأزهر، ١٤١٤هـ، ص١٣٠ : ١٣٣.

لغةً رسمية، ولغة للتعامل في كل نواحي الحياة، فانفصل معظم المسلمين عن كتاب الله وسنة رسوله، وعن كتب الفقه التي لم تكن مكتوبة باللغة الروسية، وصار من بقي من علماء المسلمين المسنين يعلِّمون الإسلام لمن تيسر له ذلك سرًّا.

تجاه هذا التسلط الروسي بدأت الصحوة الإسلامية ببلاد القوقاز في المجالات المختلفة مدنيًّا، وعسكريًّا، وحمل لواءها ومنحها طابعها ومفهومها الإسلامي قادةٌ من المتُصوِّفة المجاهدين العظام، وسقط معظمهم شهيدًا في ميدان الجهاد، بدءًا بالشيخ منصور أشرمة الذي استشهد سنة ١٧٩٤م في السجن، ومرورًا بالإمام حمزة الذي استشهد سنة ١٨٣٤م، والمجاهد الأشهر الإمام شامل توفي ١٨٧١م في منفاه بالمدينة المنورة، حتى وصلنا إلى الفترة الحالية حيث جوهر دوداييف، وأصلان مسخادوف، وأمير خطاب - رحمهم الله - وشامل باساييف[1].

ولعل أصدق ما يعبر عما أصاب المسلمين في هذا الدور الأخير من أدوار المقاومة والجهاد، من بطش وتنكيل وتدمير لا مثيل له - ما جاء في مقال للأستاذ فهمي هويدي قال فيه: "ما يحدث في شيشينيا من اجتياح وتدمير وقتل منظم لا جديد فيه بالنسبة لي، حيث أحسبه تكرارًا لمشهد وقعتُ عليه من قبل حين زرت جروزني عام ١٩٩٥م، في أعقاب اجتياح القوات الروسية لها في عام ١٩٩٤م، ونشرت في هذا المكان آنذاك مقالًا تحت عنوان "مشاهد القيامة في جروزني"، حيث كان انطباعي حين رأيت ما رأيت أن ما شاهدته أشبه بما يمكن أن يحدث يوم القيامة، يوم تزلزل الأرض زلزالها، وتَفْنَى الدنيا بعد أن تنقلب رأسًا على عقب، آنذاك وجدت جروزني قد تحولت إلى مدينة من الأشباح، أبرز ما فيها تلال المخلفات المسكونة بالكلاب الضالة والفئران.

كان كل شيء يشهد بقسوة الجيش الروسي، ويعبر عن رغبته في الانتقام والتدمير، الأمر الذي أصابني بالدهشة والحيرة حتى تساءلت آنذاك: إذا كانت روسيا تعتبر هذه البلاد جزءًا من أراضيها، فَلِمَ تنتقم من شعبها بتلك الصورة المروِّعَة؟ وهل يمكن بعد الذي جرى أن يغفر الشيشانيون أو ينسوا؟ ويقبلوا بالعيش راضين في ظل الاتحاد الروسي.

كان واضحًا أن الروس لا يريدون كسر شوكة الشيشانيين فحسب، وإنما كسر إرادتهم أيضًا، عبر إذلالهم وتمريغ أنوفهم في الأوحال، وهم الذين يعرفون أكثر من غيرهم ما الذي تعنيه انتفاضة الشيشانيين الذين دَوَّخُوا - هم وأشقاؤهم الداغستانيون تحت قيادة الإمام منصور - جيوش القياصرة في أواخر القرن الثامن عشر، ثم تحت قيادة الإمام شامل حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وحين جاءت الشيوعية فإن ستالين ظل متشككًا في ولائهم حتى نَفَى ألوفًا منهم إلى سيبيريا، إِبَّان الحرب العالمية الثانية، كان بينهم كل شعب الأنجوش المسلم، وظل هؤلاء منفيين طيلة ثلاثة عشر عامًا إلى أن أعادهم خروتشوف إلى ديارهم في عام ١٩٥٦م، لكنهم لم ينسوا

١. الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا، د. أحمد عبد القادر الشاذلي، طبعة خاصة، ١٩٩٤م، ص٦٩ وما بعدها. الغرب والإسلام في أوزبكستان، منروف، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٩٥، ٤٠١ وما بعدها.

أحزانهم ولا ثأرهم، فاهتبلوا أول فرصة لاحت لهم بعد سقوط الشيوعية، فخرج قائدهم جوهر دوداييف عام ١٩٩١م وأعلن مواصلة مسيرة الإمام شامل، مجسدًا حلم بلاده في الاستقلال، والخروج من أسر الهيمنة الروسية، ورغم أن الرجل دفع حياته ثمنًا لذلك، فإنه فتح الطريق لاعتراف موسكو بحكومة الشيشان المنتخبة بعد الاجتياح عام ١٩٩٤م، ومن ثم أصبحت شيشنيا شبه مستقلة من الناحية العملية، وإن كان قد تم الاتفاق مع موسكو على بحث الوضع النهائي لجمهورية الشيشان في وقت لاحق.

البطش الروسي كان واحدًا حقًّا، لكنه اختلف في الحملة الراهنة عن سابقتها التي تمت في عام ١٩٩٤م من زاوية الإخراج فقط، في المرة السابقة كانت حملة القمع والسحق مكشوفة سافرة؛ ولذلك فإنها صدمت الرأي العام في داخل شيشنيا وخارجها، وكسب الشيشانيون تعاطفًا واسع النطاق آنذاك، ولكن الروس استوعبوا الدرس، فاختلف الإخراج هذه المرة".

بعد هذا يشير الكاتب إلى أن الحملة الأخيرة سُبِقَت بسلسلة من التفجيرات شهدتها موسكو، نُسِبَت ــ مباشرة ودون تحقيق ــ لمن أسموهم "إرهابيين شيشانيين"، وانطلقت الصحف تعبئ الرأي العام ضد الإرهاب الإسلامي الأصولي القادم من شمال القوقاز، وبذلك ظهرت روسيا هذه المرة وكأنها لا تقمع شعبًا ينادي بالاستقلال كغيره ممن استقلوا ممن كان ضمن الاتحاد السوفيتي السابق، وإنما بدت كأنها تلاحق إرهابًا أصوليًّا ادعت أنه يهددها، ونجحت ـ باستخدام مصطلحي الإرهاب والأصولية ـ في إخفاء الوجه القبيح للحملة، وكسْب الرأي العام في الداخل والخارج إلى جانبها؛ ولذا فإن أحدًا، حتى من بين الدول العربية والإسلامية ـ إلا نادرًا ـ لم يعترض على مبدأ الحملة، وإنما فقط على شكل الأداء.

ثم يقول الكاتب: "الآن تجاوز عدد القتلى ٥٠ ألفًا، وزاد عدد اللاجئين الذين يعانون الأمرَّين وسط الثلوج ـ الآن ـ على مائتي ألف، وكل الذي فعله المجتمع الدولي لم يزد على كلام وتصريحات أطلقت في الهواء".

ثم يُجري الكاتب مقارنة مغرية بين هذه الحالة ونقيضها، حين هبَّ الغرب مؤيدًا بالقوة والضغوط استقلال تيمور الشرقية، حين قال: "قامت قيامة الغرب غَيْرة على مقتل ٥٠ شخصًا في تيمور الشرقية، بينما تراضى الجميع ومَطُّوا شفاههم أسفًا، ثم دعوا إلى ضبط النفس حين قُتِل خمسون ألفًا في شيشنيا. لماذا؟!

ببساطة لأن التيموريين كان لهم ظهر في الغرب، تمثل في البرتغال ـ المستعمر السابق ـ التي حملت لواء الدفاع عن التيموريين، وفرضت قضيتهم على جدول أعمال الاتحاد الأوربي، والأمم المتحدة، إن شئت مزيدًا من الدقة فقل: إنها الكنيسة البرتغالية التي حركت المشهد كله، بعدما نجحت خلال ثلاثة قرون من الاحتلال في تحويل نسبة غير قليلة من التيموريين إلى الكاثوليكية، وتعهدت هؤلاء بالرعاية حتى استنفرت الفاتيكان الذي جنّد طاقاته لصالح انتزاع استقلال تيمور الشرقية، وتحرير مواطنيها الكاثوليك من الحكم القمعي الذي مارسته أندونيسيا"[1].

١. هل نعلن موت الأمة؟! فهمي هويدي، مقال بجريدة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٩م.

وبهذا يتبين لنا موقف الإسلام من الآخر مقابل موقف الآخر من المسلمين، حيث وجدنا ثمَّة اختلافًا بيّنًا بين معاملة المسلمين لأهالي البلاد التي فتحوها، سواء في مصر أو الشام أو الأندلس أو القوقاز أو القسطنطينية، حيث وجد أهل هذه البلاد تسامحًا غير مسبوق حتى من إخوانهم في الدين، مما ساعدهم على الدخول في الإسلام طواعية ودون إكراه حسبما قرر القرآن: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقرر النبي ﷺ في قوله: "ألا من ظلم معاهدًا، أو كلّفه فوق طاقته، أو انتقصه، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة"[1]. أما ما فعله الآخر بالمسلمين في البلاد التي ضعفت فيها القوة الإسلامية، فنجد الإيذاء والتعذيب والاضطهاد، والإكراه على التنصير، والقتل والتشريد صفة ملازمة لهذا الآخر، والأمثلة على ذلك كثيرة، إذ لا يغيب عن أذهاننا ما فعله الصليبيون بالمسلمين في بيت المقدس، وما فعله الإسبانيون بالمسلمين في الأندلس، وما فعله الروس بالمسلمين في القوقاز كالشيشان وغيرها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى قسوتهم في معاملة الآخر، وخاصة المسلمين. وبناء على هذا فإن الذي انتشر بحد السيف هو التنصير لا الإسلام كما يدعون.

الخلاصة:

- إن القاعدة الإسلامية في التعامل مع أهل الذمة وأهل البلاد المفتوحة هي عدم الإكراه في الدين: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾.
- إن أحاديث الرسول ﷺ أوصت المسلمين بحسن معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى، وحذرتهم من ظلمهم ما داموا ملتزمين بالعهد، وكذلك كانت سياسة الخلفاء معهم، حيث استعملوهم في دواوين الدولة الإسلامية وولّوهم عددًا من الوظائف الإدارية العليا كالوزارة والكتابة وغيرها.
- ولقد سار النبي وصحابته على هذا النَّهج، وأحداث التاريخ تبرهن عمليًّا ـ بوضوح ـ على هذا، ومن ثمَّ فقد أثمرت الفتوحات الإسلامية ـ على عكس موجات الاستعمار ـ نتائج مثمرة في البلاد المفتوحة، ولتكن الأندلس نموذجًا، والتي تحوَّلت ـ باعتراف الغربيين أنفسهم ـ إلى كعبة علم ومنارة حضارة، أما الاحتلال فأرض تُغتصَب، وموارد تُنْهب، وشُعوب تُستعبد، كما يحدث على أيدي غير المسلمين حينما تكون لهم الغلبة.
- لم يُؤْذَن للمسلمين طوال الفترة المكية بقتال رغم صنوف الظلم والعذاب التي نزلت بهم، ولكن لمّا لَجَّ أهل الكفر في عنادهم وألجئوا المسلمين إلى الهجرة جاء الإذن بالقتال، ومع ذلك لم ينسَ القرآن أن يستوصي بالمسالمين للمسلمين من غيرهم: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٨) ﴾ (الممتحنة).
- على الرغم من هذه الضَّجة حول رفعه ﷺ

١. صحيح: أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم (١٨٥١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

٢. هل نعلن موت الأمة؟ فهمي هويدي، مقال بجريدة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٩م.

السيف وخوضه الغزوات، فإن المتأمل للآثار النَّاجمة[1] عن هذا القتال، وأعداد ضحاياه يتبين مدى ضآلة هذه الآثار قياسًا على الحروب الطاحنة في تاريخ الأديان الأخرى.

- ليس أدلّ على أن دعوة الإسلام قائمة على السلم من استغلال النبي ﷺ لصلح الحديبية ليعود بالدعوة إلى أصلها ـ وهو السلم ـ فأخذ يُكاتب زعماء الأرض برسائل صيغت بمنتهى الحكمة واللين؛ إذ إن الرسول ﷺ سَمْحٌ يدعو ولا يتهدَّد، ويتلطَّف ولا يتوعَّد، ويخاطب الملوك مُقِرًّا بسلطانهم ومعترفًا بمكانتهم.

- وعلى الرغم من سماحة الخطاب ووقار الكتاب إلا أن الردود جاءت متباينة، فمنهم من تلطَّف، ومنهم من أغلظ في الرد ومزَّق الكتاب، وجاهر بالعداوة، وصار طاغوتًا يقف في سبيل نشر الدعوة، الأمر الذي دعا إلى استئناف الجهاد، وانطلاق موجة الفتح الإسلامي نحو جبهتي فارس والروم اللتين اتخذتا خطوات عملية في سبيل القضاء على الدعوة والدولة الوليدتين، ولم تكن هذه الحروب ضد الشعوب، وإنما كانت ضد الطواغيت من القياصرة والأكاسرة وجيوشهم.

- لقد كانت النُّبوات السابقة محليَّة مؤقَّتة، محدودة الزمان والمكان، حيث كان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، ورغم محدوديَّة طبيعة هذه النبوَّات إلا أن بعض الأديان السماوية، وكثيرًا من الديانات الوضعية قد حاولت نشر مبادئها بالعنف والقهر اللذين صاحبا غالبية هذه المحاولات، ويكفي للتدليل على هذا ما قام به "أمنحتب"، حيث فرض على شعبه عبادة إله الشمس "آتون"، وأغلق معابد الآلهة، واضطهد المخالفين.

- من يطالع نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يجد نصوصًا صريحة تُدلِّل على صحة ما ذهبنا إليه، ولم يقتصر الأمر على المخالفين في العقيدة، بل شمل أبناء العقيدة الواحدة، مثل ما حدث للبروتستانت على يد الكاثوليك في باريس، وما حدث للأرثوذكس في مصر على يد الكاثوليك الرومان بعد "مؤتمر خلقدونيا" لبحث طبيعة المسيح؛ حيث وصل عدد القتلى إلى أكثر من مليون قتيل أرثوذكسي.

- ولم تكن الكشوف الجغرافية الأوربية في مَطْلَع العصر الحديث خالصة لوجه الحضارة والمدنية، فقد ارتكب المنصِّرون الذين رافقوا هذه الرحلات من الأعمال البشعة ما لا يليق بالإنسانية، فقد أبادوا مثلًا الهنود الحُمْر السكان الأصليين لأمريكا، وكذا فعلوا في بقية مستعمراتهم الجديدة، فحين اكتشف الإسبان جزيرة هاييتي في بحر الكاريبي أَبْدوا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل، متفنِّنين في تعذيب سُكَّانها بقطع أناملهم، وفَقْء عيونهم، وصبِّ الزيت المغلي والرصاص المُذَاب في جراحهم، أو بإحراقهم أحياء على مَرْأى ومسمع من الأسرى؛ ليعترفوا بمخابئ الذهب، أو ليهتدوا إلى الدين.

- لما ضعفت شوكة المسلمين في الأندلس والقوقاز والبلقان وغيرها أبدى النصارى حقدهم وعنصريتهم تجاه المسلمين، ففعلوا بهم ما يندى له الجبين، فسيف الإسلام الطاهر أم هذه الهمجية العنصرية؟!

---

1. الناجمة: المترتبة أو الناتجة.

فالحرب إذن سُنَّة كَونيَّة لم يخلُ منها تاريخ أُمَّة بشرية، لكنّ هناك فرقًا بين أن تكون استبداديَّة استعمارية، وبين أن تكون شرعيَّة جهاديَّة.

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أن مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار تدبير عسكري(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إنما كانت تدبيرًا عسكريًّا، أراد به النبي ﷺ أن يُوجِد بين المهاجرين والأنصار انسجامًا عسكريًّا في ميدان القتال، وأنه لم يقصد بها ناحية من النواحي الاجتماعية والإنسانية.

وجها إبطال الشبهة:

١) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في الإسلام تدور في إطار عَقَديٍّ واجتماعي وإنساني سامٍ، ولا دخل للتدابير العسكرية فيه:

- اجتماعيًّا: هدف إلى دمج عناصر هذا المجتمع الجديد في بَوْتَقَة[1] تنصهر فيها كل الفوارق، حتى تصبح جميعًا جسدًا واحدًا.
- إنسانيًّا: هدف إلى التكافل بين المهاجرين والأنصار في الأموال والمعيشة وفي كل شيء، وهو ما برع فيه الأنصار.
- عقديًّا: هدف إلى أن تكون آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين المسلمين، إليها المرجع ومنها المنطلَق، وهي مقدَّمَةٌ على رابطة النَّسب وغيرها من الروابط.

٢) في الوقت الذي تمت فيه المؤاخاة لم تكن فكرة الحرب وميدان القتال قد ظهرت إلى الوجود. ثم إن المهمات العسكرية الأولى قبل غزوة بدر لم يشترك فيها إلا المهاجرون، فلِمَ لمْ يشترك الأنصار فيها إذا كانت المؤاخاة تدبيرًا عسكريًّا؟!

التفصيل:

أولا. أهداف المؤاخاة تدور في إطار عَقَدي واجتماعي وإنساني، ولا دخل للتدابير العسكرية فيه:

دخل المهاجرون إلى المدينة بلا مال، فقد خلَّفوا بيوتهم وأموالهم وأهليهم في مكة، فأين ينزلون وماذا يعملون؟ لهذا بادر رسول الله ﷺ إلى علاج الموقف بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إلى درجة أنهم صاروا يتوارثون بهذه المؤاخاة، وكانت مقدَّمة على القرابة إلى أن أنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ (الأحزاب).

والمؤاخاة كانت من أهم الأسس التي اعتمدها النبي ﷺ في سبيل بناء المجتمع والدولة الإسلامية، وتظهر أهميتها في تحقيق الأهداف الآتية:

- **الوحدة القائمة على العدالة الاجتماعية:**

إن أية دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر، مرجع سابق.

١. البَوْتَقَة: وعاء تُصْهَر فيه المعادن.

أساس من وحدة الأمة وتساندها، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلِّف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقي، لا يمكن أن تتحد حول مبدأٍ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة[1].

لقد كانت خطة النبي ﷺ فعّالة في دمج عناصر هذا المجتمع الجديد في أخوة في الله تنصهر فيها كل الفوارق في النَّسب والغِنَى والفقر. لقد أصبحوا جسدًا واحدًا "إذا اشتكى منه عضو تَداعَى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى"[2].

وإنه لأمر جليل أن نرى قدرة النبي ﷺ - بل قدرة دين الله - على علاج مشاكل الواقع بأسلوب مثالي، إذ لم نسمع من قبل أن أناسًا قبلوا أن يقاسموا غيرهم أموالهم، لقد رأينا الاشتراكيين يطمحون إلى شيء من ذلك، لكنهم أرغموا الناس عليه إرغامًا فسقطوا، وتناثرت بلدانهم إلى قِطَعٍ ثائرة تسعى للاستقلال عنهم.

والجميل أن هذه الأُخوَّة لم يستغلها فريق على حساب فريق، بل طبقها كل فريق بالتضحية والإخلاص، فانظر إلى عبد الرحمن بن عوف - وهو مُعْدَم - يواجه كرم الأنصارى بالتعفف وعزة النفس، شاكرًا له مواساته وسائلًا عن السوق.

وانظر إلى باقي المهاجرين يعبِّرون عن امتناعهم وخجلهم من إيثار الأنصار لهم، وقد خافوا من ضياع أجورهم أمام عظمة الأنصار في إيثارهم[3].

يقول الدكتور البوطي موضحًا أثر التآخي في إقامة وحدة اجتماعية قائمة على العدالة: "من أجل هذا اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساسًا لمبادئ العدالة الاجتماعية، التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم، ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية مُلْزِمة، ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك "الأرضية" الأولى، ألا وهي الأخوة الإسلامية، ولولا هذه الأخوة العظيمة، التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية، لما كان لتلك المبادئ أي أثر تطبيقي وإيجابي في شد أَزْر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه"[4].

ويفصِّل القول في مسألة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار - موضحًا الأهداف الاجتماعية والإنسانية والعقدية لهذه المؤاخاة - د. علي الصلابي، يقول في سياق حديثه عن الهدف الاجتماعي: ساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حَمِيَّة إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

---

١. فقه السيرة، د. البوطي، مرجع سابق، ص١٥٦.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٧٥١).

٣. هدي السيرة النبوية، حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٧٠، ١٧١ بتصرف يسير.

٤. فقه السيرة، د. البوطي، مرجع سابق، ص١٥٧.

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأُخُوَّة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[١].

- **التكافل الاجتماعي الوثيق:**

لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ التآخي مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين، ولذلك جعل النبي ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة، وكانت هذه المسئولية تُؤدَّى فيما بينهم على أكمل وجه[٢].

كانت نفوس الأنصار صافية خالصة في حبها وطاعتها للرسول ﷺ.. حتى وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ (الحشر)؛ فلقد كان عطاؤهم عن محبة وتقدير لما لقي إخوانهم المهاجرون من عَنَتٍ ومشقة وحرمان في إيمانهم وهجرتهم، فكانوا مقتنعين بما يُعطَى المهاجرون من عطايا.

كان المسلمون ـ وخاصة المهاجرين ـ يدركون قيمة العمل في دينهم، وأن اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى، ولهذا لم يركنوا إلى مساعدة الأنصار لهم، وسعوا إلى عمل ما يقدرون عليه، ورفضوا أن يكونوا عالة، ونرى النشاط والفعالية متمثلًا في أحدهم ـ عبد الرحمن بن عوف ـ إذ لم تمضِ عليه أيام حتى أصبح ميسورًا، وتزوج ودفع مهرًا من الذهب وأَوْلَم بشاة، لقد مارس العمل الذي يتقنه، وأهل مكة ماهرون في التجارة.

كان إيمانهم يدفعهم إلى النشاط والفعالية، وبَذْلِ كل ما في الوسع، أما إيماننا الآن فيُمِيْتُ حركة الفكر واليد بدعوى أن كل شيء من عند الله، فالرزق على الله، والمصائب مِحَنٌ من عند الله، لقد حذفنا أنفسنا من الوجود كليًّا.

بينما أثبت الصحابي وجوده في كل مجال... واعتبر المصائب ناتجة عن تقصيره وذنوبه و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

لقد حفظ رسول الله ﷺ للأنصار أموالهم، ولم يقبل ـ ولا المهاجرون قبلوا ـ أن يُقسِّم الأرض والنخيل بينهما.. وفي ذلك احترام لحق الملكية، ودفع للإنسان أن يفعل الخير تطوعًا من نفسه، وتعليم للجميع ألا يُستغل الدين لتحقيق مآرب شخصية.. وفَرَضَ التآخي في البداية أن يتوارث المهاجرون والأنصار بعضهم بعضًا، فلما تحقق الغرض، وتكافل المجتمع، واستقرت أوضاع المهاجرين أرجع الله الأمر إلى نصابه، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث... إلا من تطوع خيرًا ضمن شروط الوصية بحيث لا يُحرم صاحبُ حقٍّ من الميراث[٣].

---

١. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٥١٨.

٢. فقه السيرة، د. البوطي، مرجع سابق، ص١٥٧، ١٥٨.

٣. هدي السيرة النبوية، حنان اللحام، مرجع سابق، ص١٧١، ١٧٢.

ويقول د. الصلابي موضحًا أثر الأخوة الإيمانية في إقامة حقيقة التكافل: "والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار، هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده نشَّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلَّمهم الإيمان جميعًا، فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة، وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ (النور).

وهذا الذي درج عليه المسلمون كَفَلَ البقاء والاستمرار لهذه الأخوة، التي شدَّ الله تبارك وتعالى بها أزر دينه ورسوله ﷺ حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته ﷺ، وامتد أثرها فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصديق ﷺ، دون أن تُطوِّع للأنصار أنفسُهم أن يُحدِثوا صَدْعًا[1] في شمل الأمة، مستجيبين في ذلك لشهوات السلطة وغريزة السيطرة، لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من السبق السياسي الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تأصيل المودة وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار، الذين سهروا جميعًا على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون ويتنافسون في تنفيذ بنوده، ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكُتَّاب والباحثون - مهما تساموا إلى ذروة البيان - خيرًا من حديث الله ﷻ عنهم، قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ (الحشر)، ونلحظ في الآية السابقة أن الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

- تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم.
- يحبون من هاجر إليهم.
- لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا.
- ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.
- ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

وفي الآية السابقة فوائد عظيمة وحِكَم جليلة، ففي التعبير عن المدينة بلفظ (الدار) إشعار بأنها دار خاصة لكل متوطِّن بها متبوِّئ لها، فهي بالنسبة لأهلها كدار خاصة للفرد يهنأ بالأمن والاستقرار وهو في داخلها، وفي هذا الإشعار نوع من الأُنس السري في النفس، يزيدها روحًا وطمأنينة، تتنزل عليهم السكينة فتحفّهم بنورها، كأنها سِياج[2] من الرحمة مضروب عليهم، لا يلحقهم فزع ولا يدخل عليهم قلق"[3].

- **الارتباط العَقَدي الوثيق:**

ومن الفوائد العقدية للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أن صارت آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين المسلمين جميعًا.

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقديًّا يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة، والفكر، والروح.

---

١. الصَّدْع: الشّق.

٢. السِّياج: السُّور.

٣. السيرة النبوية، الصلابي، مرجع سابق، ص٥١٩، ٥٢٠.

إن الولاء لله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين من أهم الآثار والنتائج المترتبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربي المسلمين على هذه المعاني الرفيعة، فقد بيَّن الحق ﷻ أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة، لكنه لم يعد من أهله لما فارق الحق، وكفر بالله ولم يتبع نبي الله، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (هود)، وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط، قال تبارك تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات).

وَقَطَع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم، ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم، مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (التوبة)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ (الممتحنة) فإذا كان الله تعالى يحذر المؤمنين في الآيات السابقة من موالاة الكفار عامة، فهناك آيات قرآنية كثيرة وردت في تحذير المؤمنين ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصة، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (المائدة) [١].

قال صاحب "الظلال": "هذا النداء موجَّه إلى الجماعة المسلمة في المدينة، ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ فقد كانت هناك علاقات ولاء وحِلْف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصُحبة، وكان هذا كله طبيعيًّا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود

١. المرجع السابق، ص٥٢٣، ٥٢٤.

أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله، بكل صنوف الكيد التي عدَّدتها وكشفتها النصوص القرآنية.

ونزل القرآن الكريم ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته؛ لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة، المفاصلة التي لا تُنْهِي السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم دائمًا ولكنها تُنْهِي الولاءَ الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله تبارك وتعالى ورسوله والذين آمنوا.. الوعي والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل.

بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ.. وقد مضت القرون تِلو القرون ترسم مصداق هذه ألقولة الصادقة، ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد، واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو (بعضهم أولياء بعض) ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل"[1].

ثانيًا. وقت المؤاخاة سابق على وقت الإذن بالقتال، والمهاجرون كانوا وحدهم في المهمات العسكرية الأولى:

إن المشهور عند العلماء أن الجهاد قد أَذِنَ الله به إذا ابتدأ المعتدون من الكفار والمشركين، وذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية الشريفة، فكيف نقبل هذه النظرية التي يُروِّجُها المستشرقون، وقد تمت المؤاخاة في وقت لم تكن فكرة الحرب وميدان القتال قد ظهرت إلى الوجود[2]؟!

وعلاوة على هذا فإننا نلاحظ أن السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر، كان جميع أفرادها من المهاجرين فقط، ليس من بينهم رجل واحد من الأنصار. وهذا ما يؤكده المؤرخون. يقول ابن سعد في "الطبقات": "والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعًا من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا"[3].

وبهذا يتجدد رفضنا لنظرية المستشرقين تلك؛ إذ لو كانت المؤاخاة تدبيرًا عسكريًّا فلماذا يشترك المهاجرون فقط دون غيرهم في المهمات العسكرية الأولى؟!

أضف إلى ذلك أنه يُفهم من الروايات أن المؤاخاة مع المهاجرين القادمين ظلت قائمة مع الأنصار حتى فتح مكة، بل يمكن أن نجد لها أمثلة بعد فتح مكة.

وعلى كل حال، فإنه يتضح من المصادر أن المؤاخاة كانت محاولة لإيجاد مجتمع متجانس كانت فيه قضية حق الوراثة قضية عَرَضية، أما بقية النظام فقد ظل موجودًا حتى النهاية، وهو النظام الذي بُني عليه المجتمع الإسلامي وتطور وارتقى، بل وكان وجوده

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٩١٠، ٩١١ بتصرف يسير.

٢. الجهاد في الإسلام، د. أحمد محمود كريمة، طبعة خاصة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٣٤.

٣. السيرة النبوية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، مرجع سابق، ص٢٨٤، ٢٨٥.

منحصرًا عليه تمامًا[1].

الخلاصة:

- كانت المؤاخاة تدور في إطار اجتماعي وإنساني وعقدي لا دخل للتدابير العسكرية فيه، فقد هدفت من الناحية الاجتماعية إلى دمج عناصر هذا المجتمع الجديد في بوتقة تنصهر فيها كل الفوارق؛ حتى تصبح جميعًا جسدًا واحدًا، وهدفت من الناحية الإنسانية إلى التكافل بين المهاجرين والأنصار في الأموال والمعيشة، وهو ما برع فيه الأنصار، كما هدفت من الناحية العقدية إلى أن تكون آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين المسلمين، إليها المرجع ومنها المنطلق، وهي مقدَّمة على النسب وغيره من الروابط.
- ثبت لنا بطلان النظرية التي يُروِّج لها المستشرقون؛ إذ إنه في الوقت الذي تمت فيه المؤاخاة لم تكن فكرة الحرب وميدان القتال قد ظهرت إلى الوجود، كما أن المهمات العسكرية الأولى كان المهاجرون فقط - دون غيرهم - هم الذين اشتركوا فيها، ولو كانت المؤاخاة تدبيرًا عسكريًّا لاشترك معهم الأنصار في تلك المهمات.

---

١. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، مرجع سابق، ص٦٨.

الشبهة الثالثة عشرة

ادعاء أن الصحابة انتهكوا حُرْمَة الأشهر الحُرُم(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن المسلمين انتهكوا حرمة الأشهر الحُرم بقتالهم فيها، ويستدلون على ذلك بسَرِيَّة عبد الله بن جحش، التي أرسلها الرسول ﷺ إلى نخلة بين مكة والطائف. ويتساءلون: كيف يَدَّعي محمد أنه يحترم الأشهر الحُرم ومع ذلك يُقاتل فيها، ويسفك الدم، ويأخذ الأموال، ويأسر الرجال؟! ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام النبي ﷺ وصحابته ﷺ بانتهاك حرمات الله.

وجه إبطال الشبهة:

لقد برَّأ القرآن الكريم الرسول ﷺ وصحابته ﷺ من هذه التهمة؛ إذ قرر أن الكفر بالله، والصد عن سبيله، وإخراج المسلمين من مكة والمسجد الحرام أشد إثمًا من القتال في الأشهر الحرم، ولذلك كان على المسلمين أن يقاتلوهم أنَّى وجدوهم.

التفصيل:

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة - في عام ٢ هـ - في اثني عشر رجلًا من المهاجرين، "وكان ﷺ كتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، مرجع سابق

® في **"ردّ القرآن الكريم على مستنكري قتال المسلمين في الأشهر الحُرُم"** طالع: الشبهة السادسة والستين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

يومين، ثم ينظر فيه، فسار عبد الله، ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: "إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عِيْر قريش، وتعلم لنا من أخبارهم"، فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلَّفا في طلبه، وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرَّت عِيْر لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة"[1].

وتفيد بعض الروايات أن الصحابة ظنوا أن هذا اليوم الذي وقع فيه القتال هو آخر يوم من جمادى الآخرة، والدليل على ذلك أنهم ندموا على ما فعلوه بعد ما تبين لهم، فقد كانوا يعلمون حرمة الأشهر الحرم، وحرمة القتال فيها، فقد ذهب عبد الله بن جحش ومعه ستة من المهاجرين إلى "بطن نخلة"، فوجدوا عمرو بن الحضرمي ومعه ثلاثة على عير لقريش، فدخلوا معهم في معركة، وكان هذا اليوم في ظنهم هو آخر جمادى الآخرة، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب؛ أي أنه أحد أيام شهر حرام.

وقتل المسلمون ابن الحضرمي، قتله واقد بن عبد الله من أصحاب عبد الله بن جحش، وأسروا اثنين ممن معه، وفر واحد، فلما حدث هذا، وتبين لهم أنهم فعلوا ذلك في أول رجب، عند ذلك اعتبروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمة شهر رجب[2].

فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ، قال: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"، فوقف العير والأسيرين، وأَبَى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقِطَ في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال... حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧)[3].

نعم. لقد نزلت هذه الآيات تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، ولكن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١٧).

١. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، السعودية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٠٠.

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، ج٢، ص٩٢٩ بتصرف يسير.

٣. إسناده حسن: أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب البكاء عند التشيع (٨٨٠٣) بلفظ: أنه بعث رهطًا فبعث عليهم أبا عبيدة، وأبو يعلى في مسنده، مسند جندب بن عبد الله البجلي (١٥٣٤) بلفظ: أن رسول الله ﷺ بعث رهطًا، وحسن إسناده سليم أسد في تعليقاته على مسند أبي يعلى (١٥٣٤).

لقد قطعت هذه الآيات كل قول، وفصلت في الموقف بالحق، فقبض الرسول ﷺ الأسيرين والغنيمة[١].

فالله ﷻ يقول للمشركين في هذه الآيات: "نحن مسلِّمون أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتم مع عبادنا، وقارنوا بين كِبَر هذا وكبر ذاك، أنتم تقولون: إن القتال في الشهر الحرام مسألة كبيرة، ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال في الشهر الحرام، ثم تأخذكم الغيرة على الحرمات"[٢].

"فقد صرح الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها؛ فإن الحرمات المقدسة قد انتُهِكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم، وقتل نبيهم؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها مَعَرَّة وشناعة"[٣]؟

إن المسلمين لم يبدءوا بالقتال، ولم يبدءوا بالعدوان، ولكن المشركين هم الذين وقع منهم الصَّدُّ عن سبيل الله؛ فلقد كفروا بالله، وجعلوا الناس يكفرون، وكفروا بالمسجد الحرام، وانتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال فيه[٤].

إن التلويحَ بحُرْمَة الشهر الحرام كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فهي مجرد ستار كان يحتمي خلفه المشركون؛ لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي، وهم المعتدون ابتداءً، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء، والإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويُشَدِّد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تُتَّخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر، وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تُصان.

ولذلك وجب على المسلمين أن يقاتلوهم أنَّى وجدوهم؛ لأنهم عادون باغون أشرار لا يرقبون حرمة ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم[٥].

الخلاصة:

- لقد وجد المشركون فيما حدث في سرية نخلة فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام، ولكن القرآن الكريم نزل ليؤكد براءة المسلمين من هذه التهمة، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٥، ٢٢٦ بتصرف يسير.

٢. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج٢، ص٩٣٠.

٣. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٢٠١.

٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٦.

٥. المرجع السابق، ص٢٢٦، ٢٢٧ بتصرف.

وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

- أفادت بعض الروايات أن المسلمين ظنوا أن هذا اليوم الذي وقع منهم القتال فيه هو آخر يوم من جمادى الآخرة؛ لذلك ندموا على ما فعلوا بعدما تبين لهم خطؤهم، حيث سُقِط في أيديهم، وظنوا أنهم هلكوا حتى أنزل الله براءتهم.
- لقد صرَّح القرآن بأن القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ولكن ما عليه المشركون أكبر وأعظم؛ فهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداءً، بإخراج أهله منه؛ ولذلك كان على المسلمين أن يقاتلوهم في أي مكان وزمان.

الشبهة الرابعة عشرة

ادعاء أن انتصار المسلمين في غزوة بدر كان بسبب عدم رغبة المشركين في القتال(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن انتصار المسلمين في غزوة بدر لم يكن راجعًا لقوة المسلمين آنذاك، بل لعدم رغبة المشركين في القتال؛ خوفًا على أقاربهم الذين أسلموا مع محمد ﷺ من إراقة دمهم. ويهدفون من وراء ذلك إلى التهوين من شأن الانتصارات الإسلامية في تاريخ المسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) خروج قريش في قوة تزيد على قوة المسلمين يدل على استعدادها التام لقتال محمد ﷺ وأصحابه، واستئصال شأفتهم.

٢) لم يكن لدى المسلمين نية في القتال، ولو لم يكن الأمر كذلك لأعدوا له عُدَّته.

٣) ابتدأ المشركون المسلمين بالقتال، ولو لم يفعلوا لما بدأهم المسلمون به.

٤) إصرار المشركين على مواصلة السَّيْر والمبيت لقتال المسلمين بعد نجاة القافلة، دليل على الاستعداد التامِّ لمواجهة المسلمين.

التفصيل:

أولا. خروج قريش في قوة تزيد على قوة المسلمين يدل على استعدادها التامِّ لمواجهة النبي ﷺ وأصحابه:

أتخرج قريش فيما يقرب من أَلْفٍ من رجالها، معهم عدتهم وعَتَادهم وفيهم مائة فارس بدروعهم، ثم يقال: إنهم كانوا لا يرغبون في القتال، فهل يُعقل أن قومًا يخرجون في مثل هذه التعبئة، وهم لا يريدون قتالًا أو لا يرغبون فيه ؟!

لقد نجت قافلة أبي سفيان من هجوم مَنْ تعرض لها من المسلمين، وكان من الممكن ألا يخرج المشركون لمواجهة المسلمين، طالما أن قافلتهم لم تُصَبْ بأذى، ولكنّ أبا جهل أصرَّ على مواصلة السير إلى بدر؛ لاستعراض قوة قريش أمام العرب جميعًا، ومحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى لا يعودوا مرة أخرى إلى التعرض لأموالهم وتجارتهم.

ويستعرض كُتَّاب السِّيَر مَبْلَغَ قوة المسلمين في مقابل قوات المشركين، يقول صاحب "الرحيق المختوم": "استعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة

(*) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق.

عشر رجلًا (٣١٣، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلًا)، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين، و ٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج، ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالًا بليغًا، ولا اتخذوا أُهْبَتَهُم كاملة؛ وذلك لأنهم لم يخرجوا لقتال، إنما خرجوا لعير قريش القادمة من الشام ليستولوا عليها أخذًا بحقهم من قريش، فلم يكن معهم إلا فَرَسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمِقداد بن الأسود الكِندي، وكان معهم سبعون بعيرًا ليعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعلي ﷺ ومَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرًا واحدًا.

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء[1] ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيضَ. وقسم جيشه إلى كتيبتين:

- كتيبة المهاجرين، وأعطى عَلَمها علي بن أبي طالب.
- كتيبة الأنصار، وأعطى علمها سعد بن معاذ.

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو ـ وكانا هما الفارسيْنِ الوحيديْنِ في الجيش كما أسلفنا ـ وجعل على الساقة[2] قيس بن أبي صعصعة، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ بوصفه قائدًا أعلى للجيش.

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نَقْب[3] المدينة، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء، ولما ارتحل منها ترك طريق مكة بيساره، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرًا)، فسلك في ناحية منها، حتى جزع واديًا يقال له رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، وهنالك بعث بَسْبَسَ بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير.

وأما خبر العير فإن أبا سفيان ـ وهو المسئول عنها ـ كان على غاية من الحيطة والحذر؛ فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته أن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه ليُوقِع بالعير، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة، مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم؛ ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه، وخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة، فصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، وقد جدع أنفه، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد ﷺ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغَوْث الغوث. فتحفَّزَ الناس سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا، والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين؛ إما خارج، وإما باعثٌ مكانه رجلًا، وأسرعوا في الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي

١. الروحاء: موضع بين مكة والمدينة، على بعد أربعين ميلًا من المدينة.

٢. الساقة: مؤخرة الجيش.

٣. النَّقْب: الطريق الضيق.

لهب، فإنه عوض عنه رجلًا كان له عليه دين، وحشدوا مَن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج منهم أحد.

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجِمال كثيرة لا يُعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبو جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل[1].

يقول الأستاذ محمد رضا في حديثه عن قوة جيش قريش في مقابل جيش المسلمين: كان الذين خرجوا من قريش نحو ١٠٠٠، منهم ٦٠٠ دارع، ومعهم ١٠٠ فرس، عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة، وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد الذي أسلم ﷺ بعد ذلك، وهو الأب الخامس للإمام الشافعي، وكان معهم أيضًا ٧٠٠ بعير، وخرجوا ومعهم القِيان - وهن الإماء المغنيات - يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين -، وهم في غاية البَطَر والخُيَلَاء حين خروجهم؛ اعتمادًا على كثرة عددهم وعدَّتهم، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنفال).

بينما كان عدة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ٣١٣ رجلًا - وهذا قول عامة السلف - وقيل: لما عدّ ﷺ أصحابه فوجدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فرح، وقال: عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وخرجت الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج لبس درعه ذات الفضول وتقلّد سيفه العضب، وردّ رسول الله ﷺ من استصغر، فكان ممن رده أسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأُسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت، وردّ عمير بن أبي وقاص فبكى فأجازه.

وتخلف ثمانية من أصحابه ﷺ بسهامهم وأجورهم: ثلاثة من المهاجرين: عثمان بن عفان خلفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فأقام عليها حتى ماتت، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بعثهما يتجسسان خبر العير وخرجا في طريق الشام، وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري أجمع الخروج إلى بدر، وكانت أمه مريضة فأمره ﷺ بالمقام على أمه.

وخمسة من الأنصار: أبو لبابة بن عبد المنذر الأوسي خلفه على المدينة، وعاصم بن عدي العجلاني خلفه على أهل العالية، والحارث بن حاطب العمري رده من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمة كُسر بالروحاء، وخوات بن جبير كسر أيضًا. وهؤلاء ثمانية لا اختلاف فيهم.

وكان أمام رسول ﷺ رايتان سوداوان؛ إحداهما مع علي بن أبي طالب يُقال لها "العقاب"، وكانت من ثوب عائشة، وكان عُمْرُ علي يومئذ عشرين سنة، والأخرى مع بعض الأنصار. وجعل على الساقة (المؤخرة) قيس بن أبي صعصعة الأنصاري، فكانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لقوة عدوِّهم، واستعمل ﷺ أبا لبابة واليًا

---

١. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٢٠٤: ٢٠٦.

على المدينة ورده، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة[١].

فبالمقارنة بين القوتين نستطيع أن ندرك - بما لا يدع مجالًا للشك - استعداد قريش التام لحرب المسلمين في هذه الغزوة، وإرادتها القضاء على دعوة محمد ﷺ وأصحابه.

ثانيًا. لم يكن للمسلمين - في الأصل - رغبة في القتال، وإلا لأعدوا العدة لذلك:

لم يكن لدى المسلمين نيَّة للقتال، بل ولم يعلموا بخروج قريش لقتالهم، حتى أخبرهم بذلك بعض عبيد قريش، ولكنهم بعد أن رأوا قريشًا قد خرجت في هذه التعبئة لقتالهم، لم يكن أمامهم بُدٌّ من المواجهة، وكانوا هم الذين لا يرغبون في القتال، ويرغبون في الفوز بالقافلة وما فيها من أموال، ولكن قدّر الله لهم مواجهة أهل الشرك لِيُحِقَّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين.

وقد حكى القرآن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الأنفال).

ولعلنا ندرك دقة موقف المسلمين حين نعلم أن عددهم كان ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا في مقابل ما يقرب من ألف من المشركين، فانعدم بذلك توازن القوى بين الجانبين فأي الفريقين كان يرغب في القتال؟ الذي كان لا يملك إلا عددًا محدودًا من الرجال، وكان القتال بالنسبة له مفاجأة وهم المسلمون، أم الذي خرج في كامل عدته وعتاده وهيئته وهم المشركون ؟!

ومما يدلنا على عدم رغبة المسلمين في القتال، أو في دخول حرب مع قريش على الأقل في هذه الأثناء - سبب الغزوة نفسه، يقول الدكتور علي الصلابي: بلغ المسلمين تحركُ قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالًا عظيمة لقريش، يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلًا، فأرسل الرسول ﷺ بَسْبَس بن عمرو، لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج، وقال لهم: "هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُموها"[٢]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا[٣].

ومما يؤكد عدم رغبة المسلمين في القتال ما جاء على لسان سعد بن معاذ حينما اقترح على النبي ﷺ أن يبنوا له عريشًا؛ خوفًا عليه من أن يناله أذى قريش، وكان مما

---

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١٦٢ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر سبب خروج النبي ﷺ، هذا أبو سفيان قافلا بتجارة قريش (٨٧٤)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٢١٨).

٣. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥.

قاله سعد في اقتراحه: "يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك". فأثنى النبي ﷺ عليه ودعا له بخير. ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر ﷺ، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ[1].

فقول سعد ﷺ: "ولو ظنّوا أنك تلقى حربًا ما تخلّفوا عنك..." يقطع بأن نية القتال لم تكن مبيَّتة عند رسول الله ﷺ، ولا عند أصحابه الكرام ﷺ.

ثالثًا. بدأ المشركون بالقتال، ولو لم يخرجوا لقتال المسلمين ما بدءوهم به:

الذين بدءوا بالقتال هم المشركون، وذلك حين شدَّ عامر بن الحضرمي بفرسه على جيش المسلمين، وبدأ عُتْبَة بن ربيعة بدعوة المسلمين للمبارزة، أيقال بعد ذلك: إن المشركين كانوا لا يرغبون في القتال ؟!

يقول الدكتور الصلابي: "اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، ولكن الرسول ﷺ أرجعهم؛ لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعضُ أهله من ذوي قرباه، ولذلك قال الرسول ﷺ: "قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي"، وبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة مُوجِعة، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلوه، وحَمَلا عبيدة وأتباعه إلى رسول الله ﷺ، ولكن ما لبث أن استشهد متأثرًا بجراحه، وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (20) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (22) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (24)﴾ (الحج)[2].

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضبًا وهجموا على المسلمين هجومًا عامًّا، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم رسول الله ﷺ، وكان شعار المسلمين: أحد أحد، ثم أمرهم رسول الله ﷺ بالهجوم المضاد محرِّضًا لهم على القتال وقائلًا لهم: "شدوا"، وواعدًا من يُقْتَل صابرًا محتسبًا بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في

---

1. المرجع السابق، ص٢٢.

2. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب ﷺ (٩٤٨) بنحوه، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في المبارزة (٢٦٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢١).

القتال سماعهم قول رسول الله ﷺ: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (القمر)، وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين، وتقليل المسلمين بأعين المشركين[١].

رابعًا. الإصرار على مواصلة السير لقتال المسلمين دليل على الاستعداد القرشي التام والمبيَّت لمواجهة المسلمين، لا لمجرد إنقاذ العير والأموال:

كانت هناك محاولات من شخصين اثنين فقط من المشركين حاولا أن يُثبِّطَا المشركين عن القتال، هما: حكيم بن حزام، وعتبة بن ربيعة، ولكن لم تكن محاولات التثبيط هذه لعدم الرغبة في القتال، ولكن خوفًا من الهزيمة على أيدي المسلمين، وكان مما قاله عتبة في ذلك: إني أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم أعصِبُوها، اليوم برأسي وقولوا: جَبُن عتبة، ولقد علمتم أني لست بأجبنكم، فاحتدَّ عليه جمهور المشركين وعلى رأسهم أبو جهل قائلًا له: لقد مُلِئَتْ رِئَتُك وجوفُك رُعبًا! فقال له عتبة: ستعلم اليوم أينا أجبن! وهكذا فشلت محاولات عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، بسبب عناد أبي جهل وأمثاله. فهل يصح بعد هذا أن يقال: إن الهزيمة التي لحقت بمشركي مكة في بدر كانت بسبب عدم رغبتهم في القتال؟!

وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلًا، بينما قُتل من صناديد قريش سبعون أو يزيد، وأُسِر منهم سبعون أو يزيد.

- **وصف خروج جيش مكة:**

خرج المشركون من ديارهم، كما قال ﷻ: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٤٧)، وأقبلوا بحدهم وحديدهم، يحادّون الله ويحادّون رسوله، ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (القلم)، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لاجتراء هؤلاء على قوافلهم، تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان، ثم قديد، ثم الجحفة، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتُحْرِزوا[٢] عِيْركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا.

- **العِيْر تفلَّت:**

وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظًا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدم عيره، حتى لقي مجدي بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أني قد رأيت راكبيْن قَد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شنٍّ لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففتّه، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعًا، وضرب وجهها محوِّلًا اتجاهها نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجُحْفَة[٣].

---

١. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣، ٣٤.

٢. تُحْرِزوا: تحفظوا.

٣. الجُحْفة: موضع بين مكة والمدينة.

- **الإصرار على المضي تجاه بدر لقتال محمد ﷺ:**

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة همَّ بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلًا: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القِيان[1]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة - وكان حليفًا لهم ورئيسًا عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدرًا زهري واحد، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعًا معظَّمًا، وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع، فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة - وهو يقصد بدرًا - فواصل سيره حتى نزل قريبًا من بدر، وراء كَثِيب[2] يقع بالعُدْوَة القصوى على حدود وادي بدر[3].

- **الجيش المكي في عَرْصة[4] القتال ورغم وقوع الانشقاق فيه إلا أنه عازم على قتال المسلمين:**

أما قريش فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ، فقال: دعوهم، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قُتِل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني من يوم بدر، فلما اطمأنت قريش بعثت عمير بن وهب الجمحي؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة.

فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نَواضِح[5] يَثْرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتَل رجل منهم حتى يَقْتُل رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم.

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمّم على المعركة - تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش، وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة: قد فعلت، أنت ضامن عليَّ بذلك، إنما هو حليفي فعليَّ عَقْلُه[6] وما أصيب من ماله. ثم قال عتبة لحكيم بن حزام: فأت ابن الحنظلية

١. القِيان: جمع القَيْنَةُ، وهي الأَمَةُ مُغنيّةً كانت أو غير مغنّية.
٢. الكَثِيب: الرَّمل المستطيل.
٣. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٢٠٧، ٢٠٨.
٤. العَرْصَة: الموضع الواسع الذي لا بناء فيه.
٥. النَّواضح: جمع الناضح، وهي الدَّابة.
٦. العَقْل: الدِّية.

- أبا جهل، والحنظلية أمه - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك أَلْفاكُم[1] ولم تعرضوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهيّئ درعًا له - قال: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديمًا وهاجر - فتخوفكم عليه.

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل: انتفخ والله سحره، قال عتبة: سيعلم - وأغلظ في هجائه - استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخي عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال: هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر وصرخ: واعمراه، واعمراه، فحمي القوم، وحقب أمرهم، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى[2].

فهل يُعْقَل بعد هذا كله أن يدّعي مُدَّعٍ أن انتصار المسلمين على قريش في بدر كان بسبب عدم استعداد قريش للمعركة، وعدم رغبتها في القتال؟!

إن هذا زعم ثبت بطلانه بالأدلة التاريخية التي روتها كتب السِّيَر والتاريخ.

الخلاصة:

- خرجت قريش في كامل عدتها وعتادها فيما يقرب من ألف من رجالها فيهم مائة فارس بدروعهم، أيمكن أن يقال عن مثل هذا الجيش المدجَّج: إنه لا يرغب في القتال؟! إن مثل هذه الاستعدادات تدل - بلا شك - على أنهم خرجوا يريدون استئصال شأفة المسلمين والقضاء عليهم.
- في المقابل نجد أن المسلمين خرجوا في عدد محدود من الرجال، وكانوا لا يتوقعون الحرب، بل كان القتال لهم مفاجأة، إنهم خرجوا يريدون قافلة أبي سفيان، ولم يخطر ببالهم أن الأمر سينقلب إلى حرب عَوان[3] ينتصرون فيها على المشركين، ويحفظها لهم التاريخ.
- الذين بدءوا بالقتال هم المشركون حين شد عامر بن الحضرمي بفرسه على جيش المسلمين، ودعا عتبة بن ربيعة المسلمين للمبارزة.

١. أَلْفاكم: وجدكم.

٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٢١٣: ٢١٥.

٣. الحرب العَوان: هي الحرب التي قُوتِل فيها مرة بعد أخرى، والمقصود: الحرب الشديدة.

• كانت هناك محاولة لتثبيط المشركين عن القتال خوفًا عليهم من الهزيمة، قام بها عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، ولكنها باءت بالفشل أمام إصرار أبي جهل واستكباره وعناده، فكانت الحرب، وهذا إن دَلَّ على شيء فإنما يدل على الإصرار القرشي المُبيَّت لقتال المسلمين.

الشبهة الخامسة عشرة

ادِّعاء أن المسلمين قتلوا عددًا من أسرى بدر؛ تعطشًا منهم للدماء، وحبًّا للانتقام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن المسلمين قتلوا عددًا من الأسرى بعد انتهاء غزوة بدر؛ تعطشًا منهم لإراقة الدماء، وحبًّا للانتقام من عدوهم، ويرمون من وراء ذلك إلى إظهار المسلمين بمظهر المتعَطِّش إلى الدماء.

وجوه إبطال الشبهة:

١) حُكْم الأسير في الإسلام: المنّ أو الفداء أو القتل، حسبما يرى الحاكم، وقد أمر الإسلام بحسن معاملته، وتجلَّى ذلك في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

٢) قَبِلَ الرسول ﷺ الفداء في أسرى بدر، ومنَّ على بعضهم دون مقابل، وجعل التعليم مقابل الفداء لآخرين، مما يؤكد سمو النظرة الإسلامية.

٣) لم يقتل الرسول ﷺ من أسرى بدر سوى رجلين، هما: عقبة بن أبي مُعَيْطٍ، والنضر بن الحارث، وكان قتلهما قبل تقرير مصير الأسرى، كما كان هذا القتل واجبًا من حيث وجهة الحرب، لا حقدًا أو حبًّا للانتقام، فأين العدد الذي قتله المسلمون إذن؟!

٤) إذا كان هؤلاء يثيرون هذه الضجة على قتل النبي ﷺ لأسيرين فقط، فهل نسوا ما وقع فيه أقوامهم بشأن الأسرى على مدى التاريخ في العديد من الجهات الإسلامية؟!

التفصيل:

أولا. للأسرى أحكام في الإسلام، وقد أمر الإسلام بحسن معاملتهم:

أسرى الحرب هم من الغنائم، وهم على قسمين: الأول: النساء والصبيان، والثاني: الرجال البالغون المقاتلون من الكفار، إذا ظفر المسلمون بهم أحياء، وقد جعل الإسلام الحق للحاكم في أن يفعل بالرجال المقاتلين - إذا ظفر بهم ووقعوا أسرى - ما هو الأنفع والأصلح، من المنِّ أو الفِداء أو القتل. والمنُّ هو إطلاق سراحهم بلا مقابل، والفداء قد يكون بالمال، وقد يكون بأسرى المسلمين، على أنه يجوز للإمام مع ذلك أن يقتل الأسير إذا كانت المصلحة تقتضي قتله.

وممن ذهب إلى هذا جمهور العلماء، فقالوا: للإمام الحق في أحد الأمور الثلاثة المتقدمة، وقال الحسن وعطاء: لا يُقتل الأسير، بل يُمنُّ عليه أو يُفادَى به، وقال الزهري ومجاهد وطائفة من العلماء: لا يجوز أخذ الفداء من أسرى الكفار أصلًا، وقال مالك: لا يجوز المن بغير فداء، وقال الأحناف: لا يجوز المنّ أصلًا،

(*) بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة.

لا بفداء ولا بغيره[١]. وقد عامل الإسلام الأسرى معاملة إنسانية رحيمة؛ فهو يدعو إلى إكرامهم والإحسان إليهم، ويمدح الذين يبرونهم، ويثني عليهم الثناء الجميل، يقول الله ﷻ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾ (الإنسان).

ويروي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "فكُّوا العاني - يعني الأسير - وأطعموا الجائع وعُودوا المريض"[٢].

ويُذْكر أن ثمامة بن أثال وقع أسيرًا في أيدي المسلمين، فجاءوا به إلى النبي ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأبى، وقال له: إن تَقْتُلني تقتل ذا دمٍ، وإن تُنْعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسَلْ منه ما شئت. فَمَنَّ عليه الرسول ﷺ، وأطلق سراحه بدون فداء، فكان ذلك من أسباب دخوله في الإسلام[٣].

وقد جاء في شأن أسرى غزوة بني المُصْطَلِق، وكان من بينهم جويرية بنت الحارث: أن أباها الحارث بن أبي ضرار حضر إلى المدينة ومعه كثير من الإبل؛ ليفتدي بها ابنته، وفي وادي العقيق قبل المدينة بأميال أخفى اثنين من الجمال أعجباه في شِعْبٍ بالجبل، فلما دخل على النبي ﷺ، قال له: يا محمد، أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال ﷺ: "فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا"؟ فقال الحارث: أشهد ألا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله ما أطلعك على ذلك إلا الله، وأسلم الحارث وابنان له[٤].

وأسلمت ابنته أيضًا، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها وتزوجها، فقال الناس: "أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم"[٥][٦].

ورُوي أن النبي ﷺ قال لأصحابه في أسرى بني قريظة بعدما احترق النهار في يوم صائف: "أحسنوا إسارهم وقيِّلوهم واسقوهم". وقال: "لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح"[٧] ®.

ثانيًا. قَبِلَ الرسول ﷺ الفداء في أسرى بدر، ومنَّ على بعضهم دون مقابل، وجعل التعليم مقابل الفداء لآخرين:

قال ابن عباس رضي الله عنه: ... فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -: "ما ترون في هؤلاء الأسارى"؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله،

---

١. فقه السنة، السيد السابق، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص٤٢٦، ٤٢٧ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير (٢٨٨١)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (٤٦٨٨).

٤. أسد الغابة، ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، ج١، ص٤٠٠.

٥. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٤٠٨)، وأبو داود في سننه، كتاب العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة (٣٩٣٣)، وصحح إسناده الألباني في الإرواء (١٢١٢).

٦. أسد الغابة، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٣، ص٤٢٨، ٤٢٩.

٧. سبل الهدى والرشاد، الصالحي، مرجع سابق، ج٥، ص٢٤. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٤، ص١٩٨.

® في "**معاملة الأسرى في الإسلام**" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "ما ترى يا ابن الخطاب"؟ قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكِّنَّا منهم فنضرب أعناقهم، فتمكِّنَ عليًّا من عَقِيل فيضرب عنقه، وتمكِّني من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصَناديدها[1]، فَهَوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئت - الكلام لعمر - فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: "أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة" - شجرة قريبة من نبي الله محمد ﷺ - وأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنفال: ٦٧) إلى قوله ﷻ: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنفال). فأحلَّ الله الغنيمة لهم[2][3].

وانطلاقًا من هذه الرحمة، فقد جاءت الوصية بإكرام أسرى بدر، وقد كان رسول الله ﷺ قد فرّقهم بين أصحابه وقال: "استوصوا بهم خيرًا"، وهذه غاية الرحمة والإنسانية؛ إذ أوصى بأناس طالما عذبوه وأصحابه، وحاولوا فتنتهم عن دينهم، وقد نَفَّذَ الصحابة وصية رسول ﷺ بأمانة، وكانوا سمحاء كرماء معهم، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول: "كنت في رهط الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحيي فأردها، فيردّها عليَّ ما يمسها"[4]. وكان في الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيبًا مِصْقعًا[5]، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتَي[6] سهيل بن عمرو يَدْلَع لسانه[7]، فلا يقوم خطيبًا عليك في موطن أبدًا، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب؛ احترازًا عن المُثْلَة[8]، وعن بطش الله ﷻ يوم القيامة[9].

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا، قال: "كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا، كنا إذا تعشَّينا أو تغدَّينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة

---

١. الصَّناديد: جمع صِنْدِيد، وهو كل عظيم شريف أو رئيس متغلب.

٢. السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٧، ٥٨.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٤٦٨٧).

٤. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٣.

٥. المِصْقَع: البليغ الذي يتفنَّن في القول، ولا يُتعتع فيه.

٦. الثَّنِيَّة: السِّنَّة الثانية في مُقدم الفم يمينًا أو شمالًا.

٧. يَدْلَع لسانه: يُخرجه.

٨. المُثْلَة: التَّشنيع في العقوبة والتَّنكيل.

٩. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٢٣٠.

فيدفعها إليَّ. وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، وكانوا يحملوننا ويمشون".

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن في ثنائه على المؤمنين، وذكَّر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خلقًا، وكان لهم طبيعة - قد أثَّر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عُقيب بدر بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة وتنفيذ وصية رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم، يتحدثون عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى، والإصلاح والخير، إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي؛ إذ نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار[1].

ومما يؤكد لنا سُمُوَّ النظرة الإسلامية أن الرسول ﷺ قد جعل التعليم مقابل الفداء لبعض الأسرى.

"قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يُعَلِّمُ عشرة من الغِلْمان يَفْدِي نفسه. وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال - يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾ (العلق)، واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، والسبق في هذا للإسلام"[2].

ثالثًا. لم يقتل الرسول ﷺ من أسرى بدر سوى أسيرين، وكان قتلهما واجبًا من حيث وجهة الحرب:

إذا كانت معاملة المسلمين للأسرى قد حفتها الرحمة واللين، فإن للحزم وقته وموضعه، لذلك تعددت أساليبه وتنوعت طرقه ﷺ في التعامل مع الأسرى، فإنه إذا كان قد قَبِلَ الفداء في بعضهم ومنّ على آخرين، فإنه أيضًا قد قتل اثنين فقط منهم، هما: عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث.

وقد علا طنين المستشرقين والمبشرين لقتل هذين الأسيرين من بين سبعين أسيرًا، وزعم أولئك تعطش الدين الجديد للدماء، وامتلاء قلب النبي ﷺ بالحقد.. قالوا هذا وتغافلوا عما قام به هذان على وجه الخصوص، وتناسوا أن قتلهما كان في الطريق إلى المدينة؛ أي قبل تقرير مصير باقي الأسري.

وقد كان هذان الرجلان من شر خلق الله، وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وإيذاء للنبي ﷺ والمسلمين، وهجاء للإسلام وأهله، ولم يأمر النبي بقتل أحد من الأسرى غيرهما، ذلك أنه لما بلغ النبي ﷺ في مرجعه

١. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٦٢.

٢. المرجع السابق، ص٦٧، ٦٨. وانظر: السيرة النبوية، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٤، ١٦٥.

الصفراء[1] عُرض عليه الأسرى، فنظر ﷺ إلى النَّضْر نظرة رأى فيها الموت، فلما رأى ذلك قال لمصعب بن عمير - وكان أقرب من هناك به رحمًا -: كلِّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذِّب أصحابه، فقال النضر: لو أَسَرَتْكَ قريشٌ ما قتلتك أبدًا وأنا حي، قال مصعب: والله إني لأراك صادقًا، ثم إني لستُ مثلك، فقد قطع الإسلام العهود!

وكان النضر أسير المقداد بن الأسود، وكان يطمع أن ينال في فدائه مالًا كثيرًا، فلما هموا بقتله صاح: النضر أسيري، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: "اضرب عنقه، واللهم أغْنِ المقداد من فضلك"[2].

أما عُقبة بن أبي مُعَيْط فقد قُتل بعرق الظُّبْيَة[3]، ولما أمر رسول الله ﷺ بقتله قال: فمن للصِّبية يا محمد؟ قال: "النار"، ثم قال: أتقتلني من بين قريش؟ فقال النبي ﷺ: "نعم"، ثم التفت إلى أصحابه وقال: "أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خَلف المقام فوضع رجله على عُنُقي، وغمزها، فما رفعها حتى ظننتُ أن عيني ستندران[4]، وجاء مرَّة بسَلَى شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي".

والقصة الثانية التي جاءت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "بينما رسول الله ﷺ يُصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جُلُوس، وقد نُحِرت جَزُور بالأمس، فقال أبو جهل: أيُّكم إلى سَلَى جزور بني فلان فيأتي به، فإذا سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه؟! قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي مَنَعَة طَرَحْتُه عن ظَهْر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهي جُوَيْرِيَة - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم"[5].

وقد كان قتل هذين الطاغيتين واجبًا من حيث وجهة الحرب، فلم يكونا من الأسارى فحسب، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث[6]. وبمقتل هذين المجرِمَيْن تعلَّم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر وقادة الضلال، فلا هوداة معهم؛ لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح بأعمالهم الشنيعة[7].

رابعًا. هل نسي مثيرو الشبهة ما وقع فيه أقوامهم بشأن الأسرى على مدى التاريخ؟!

لعل مقارنة سريعة بين الرسول ﷺ وغيره من القادة

1. وادي الصفراء: وادٍ كثير النخل والزرع من ناحية المدينة.
2. أخرجه ابن زنجويه في الأموال، كتاب فتوح الأرضين وسننها وأحكامها، باب ما أمر به من قتل الأسارى (٤١٨)، وأبو داود في المراسيل، باب في فضل الجهاد، قتل يوم بدر ثلاثة رهط من قريش صبرا (٣١٥).
3. عِرْق الظُّبية: مكان بين مكة والمدينة.
4. ستندران: ستخرجان من مكانهما.
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب إذا أُلقي على ظهر المصلي قذر أو جيف لم تفسد عليه صلاته (٢٣٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٠)، واللفظ له.
6. الرحيق المختوم، المباركفوري، مرجع سابق، ص٢٢٨.
7. السيرة النبوية، الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٦١.

على مرِّ التاريخ بشأن معاملة الأسرى ـ تثبت لنا الفرق الشاسع بين تَحَضُّرِه ﷺ وتسامحه وهمجية غيره، ولينه ﷺ وغلظة غيره.

"لقد حلَّ أسرى بَدْر ضيوفًا على أهل المدينة أنصارًا ومهاجرين، وراحوا يتلقون منهم الحفاوة والتكريم، بل بدأ المسلمون يتقرَّبون إلى ربهم بإطعام اليتيم والمسكين، فلم يعاملوهم كأَسْرَى في زِنزانات الأَسْر المظلمة، ولم تعرف شريعتنا ألوان التعذيب وطرقه التي يستحدثها الصليبيون في العراق، ولم يحدث ما يُسمع عنه العالم الآن في جوانْتنامو، وما يشاهده في سجن أبي غريب مما تطبقه المدنية المعاصرة، وفي ظل معاهدات جِنيف"[1].

فما رأي هؤلاء في فعل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ؟ ثم ما رأيهم فيما تقوم به الدول المتحضرة اليوم في الشرق والغرب من قتل للمسلمين ومصادرة لأموالهم وانتهاك لحرماتهم، وما جرى في الحَرْبَيْنِ العالميتَيْنِ الأولى والثانية من قتل الأسارى قتلًا جماعيًّا والتنكيل بهم تنكيلًا جاوز حدود الإنسانية؟! فلماذا أغمضوا عن كل هذا عيونهم وأصموا آذانهم، وفتحوها لقتل أسيرَيْنِ حفلت حياتهما بالمساوئ والجرائم تجاه رسول الله ﷺ والمسلمين؟! فأين هذا مما صنعه المسلمون مع الأسارى في بدر من الإحسان إليهم حسب وصية نبيهم لهم، حتى كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب[2]؟!

الخلاصة:

- جعل الإسلام الحق للحاكم في أن يفعل بالأسرى ما هو الأنفع والأجدى من المنّ أو الفداء أو القتل إذا اقتضت المصلحة ذلك.
- أوصى الإسلام الحنيف السمح بالأسرى خيرًا وأمر بحسن معاملتهم، وقد انعكس هذا على سيرة النبي ﷺ وصحابته كما في أسرى بدر؛ إذ كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب والمركب، وقد منَّ الرسول ﷺ على بعض الأسرى دون مقابل، وجعل فداء من يعرف الكتابة منهم أن يعلمها عشرة من المسلمين.
- لم يقتل رسول ﷺ من أسرى بدر سوى عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، ولم يأمر بقتل أحد من الأسرى غيرهما، وكان قتلهما قبل تقرير مصير الأسرى، وكانا من شر عباد الله؛ فلا يُنكر وجوب قتلهما ـ من حيث وجهة الحرب ـ منصف أو عاقل.
- لم يعرف عصر رسول الله ﷺ ما نشاهده من الدول المتحضرة الآن من زنزانات الأسْر المظلمة، وألوان التعذيب والإهانة، والقتل الجماعي للأسرى، ولم يكن لديه ما لدى هؤلاء من اتفاقيات الأسرى إلا شرْع ربه تبارك وتعالى وحسن خلقه وكمال عدله ﷺ.



---

١. الرد على القس بوش، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٨٧، ٢٨٨ بتصرف.

٢. انظر: السيرة النبوية، محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٨.

الشبهة السادسة عشرة

الزعم أن معارك المسلمين الأولى ضد أهل مكة كانت مواجهاتٍ يائسة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتخرِّصين على التاريخ الإسلامي أن معارك المسلمين الأولى مع مشركي مكة كانت مواجهات يائسة. ويهدفون من وراء هذا الوصف إلى إزراء هذا الجهاد والحطِّ من قدره وقيمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) معنى اليأس الذي وصف به أصحاب هذه الدعوى معارك المسلمين معنى مبهم لا يعطي دلالة بيِّنة.

٢) أقبل المسلمون على الجهاد بنفوس طامحة إلى غايات مشروعة لا يشوبها يأس أو قنوط، وإنما هي النصر أو الشهادة.

٣) أسفرت الغزوات الإسلامية عن نتائج تسمو بها بعيدًا عن وصف اليأس إلى أن تصبح جهادًا موفقًا فيما هدف إليه.

٤) المقاييس البشرية في النصر من زيادة العدد والرجال ونحو ذلك، لا تَحْسِمُ ـ وحدَها ـ المعاركَ.

التفصيل:

أولا. "يائسة".. لفظة مبهمة:

إن صفة "يائسة" التي نُعِت بها جهاد المسلمين الأُوَل ضد مشركي مكة صفة مبهمة في معناها، وفيما تستند إليه من شواهد، لكن لها ـ على هذا ـ توظيفًا واضحًا، يظهر في أنها تُلقي على تلك الغزوات ظلالًا قاتمة تُزري بها وتضع من شأنها وقيمتها.

وهذه الدعوى تنساح في جهات شتى من المعاني والدلالات، مما يجعل محاولة مناقشتها أمرًا عسيرًا؛ إذ هو ـ إذن ـ خوض في الاحتمالات والظنون، وفيما عساه يكون الأدنى إلى فكر هؤلاء الزاعمين؛ ومن ثَمّ لا يبقى بُدٌّ من سرد ما تحتمله الكلمة سردًا مجملًا مع بيان وجيز فيما عساها تحمله من حق.

ثانيًا. "يائسة".. روح قانطة؟

إن معارك المسلمين الأولى لا يجوز أن تكون يائسة، بمعنى أن هزيمة نفسية أصابتهم في عَقِبِها أو قبلَ اقتحامها؛ بسببٍ من ضعفهم أو ضعف التكافؤ بينهم وبين عدوهم؛ فإن كلا الأمرين يرده الوقوف على تاريخ هذه الغزوات وتصوُّر دوافعها ونتائجها تصوّرًا سليمًا.

لقد افتتح المسلمون جهادهم الكبير وهم يحملون في نفوسهم غايات رفيعة، هي من دوافع النفس بالطبيعة قبل أن تكون أمرًا دينيًّا، فإذا انضما معًا فقد استوى لهم جميع ما يَسْتبعد مشاعر القنوط أو اليأس.

ولقد اجتمع يومئذ للمسلمين من عوامل الصبر والثبات ما لا نظنه تهيأ لجماعة تسعى إلى غاياتها قطُّ: من إيمان ثابت يتجملون به ساعة العسرة، وقرآن يُتلى بينهم يعدهم بنصر أو شهادة ويقول لهم: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(*) القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، مرجع سابق.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ (الرعد)، ثم قيادة نبوية تهوي إليها الأفئدة[١]، ومن وراء هذا كله غايات مشروعة، وهل كان سعيهم هذا لغير دفع ظلم أو إرجاع حق، أو تحرير المستضعفين والمستخفين بإسلامهم[٢]؟!

ثالثًا. "يائسة".. خسارة فادحة؟

لعل الذي نعت جهاد المسلمين بأنه يائس أراد أنه لم يحقق نتائجه التي سعى إليها، وأن ما مُنُوا به[٣] من خسارة في أموالهم وأنفسهم لا يقاس إلى ما أحرزوه من مغنم مادي أو منزلة عسكرية في قبائل العرب.

فإن يكن هذا المراد من اليأس، فهو كالذي قبله ظنٌّ قائلٍ لا يقوم على تصور تاريخي وثيق لحقيقة ما خسره المسلمون وأعداؤهم، وإذن لَتَبَيَّنَ أن عدة ما فقده المسلمون في جهادهم أقل كثيرًا مما مُني به أهل مكة في أنفسهم وأموالهم.

فأما على المدى البعيد فنجاح الدعوة الإسلامية في إنجاز مراميها الكبيرة العالية كالأمر المفروغ منه؛ فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصحت العقول العليلة، حتى تُركَت الأصنام، بل كُسِرَت، وأخذ الجو يَرْتَج بأصوات التوحيد، وسُمِع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القرّاء شمالًا وجنوبًا يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله.

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور، وسادات وعبيد، وحكام ومحكومون، وظالم ومظلوم، وإنما الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، ممتثلون لأحكامه، أذهب الله عنهم عُبِّيَّة الجاهلية[٤] ونخوتها وتعاظمها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب.

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفي مسائلها الأخروية، فتقلَّب مجرى الأيام، وتغيَّر وجهُ الأرض، وانعدل خط التاريخ، وتبدلت العقلية.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل

---

١. في عوامل الصبر والثبات انظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص١١٨: ١٢٤.

٢. راجع عن غايات الجهاد في الإسلام: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٣ ما بعدها.

٣. مُنُوا به: ابتُلوا به.

٤. عُبِّيَّة الجاهلية: أي كِبْرها وفَخْرها ونَخْوَتها.

الدعوة - ويتعفن ضميره، وتَأْسَنُ روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوسًا جامدة لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية خلَّصتْ روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرِّق، ومن الفساد والتعفُّن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب؛ لتنمية الحياة وترقيتها، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه فيها. وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تَأَلُّقَه في هذه الأيام الفريدة من عمرها[1].

رابعًا. "يائسة".. غير متكافئة؟

ما من شك أن المسلمين خاضوا كثيرًا من الحروب التي يبعد فيها احتمال النصر بالمقاييس البشرية التي تَعْتَبِرُ العدد والرجال، لكن هذه المقاييس ليست وحدها حَكَمًا فيما يقع به النصر أو الهزيمة؛ فإلى جوارها أسباب كثيرة ترجع إلى الإيمان وامتلاء الضمير بحقائقه، وإلى الغاية التي لأجلها قام الجهاد، أحقٌّ هي أم زيف وزُور؟، ولقد كان المسلمون واقفين على هذا المعنى؛ ففي القرآن أنه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ (البقرة)، وفيما يُتلى بينهم من قصص المرسلين والصالحين عظات وعبر.

على أن المسلمين في عامة ما اقتحموه من معارك ومنازعات مع المشركين قد أُلْجِئُوا إليه مكرهين، وما كان يوم بدر فَأَمْرٌ لم يُقدِّر المسلمون أن يصير حربًا، فقُصَاراه في تقديرهم يومئذ أنه تَعَرُّضٌ لقافلة تجارة ينالون منها بعض ما سُلِبُوه بمكة من دور ومتاع.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "دخل الإسلامُ المدينةَ وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية، فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوي الجندي إلى قلعته الشامخة، وأخذوا يستعدون حتى لا تُقْتَحم عليهم من أقطارها، وهم تعلَّموا من السنين الغُبر التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مَدْرَجةٌ إلى الهوان، مَزْلَقةٌ إلى الفتنة، والمرء لا يُقدِّرُ العافية حقَّ قَدْرِها إلا بعد الإبلال من المرض[2]، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلص من تلك الحاجة.

ومَنْ أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من عِبَرَ الماضي؟ وذلك نبيُّهم تعقَّبَه القتلةُ ألفَ ميل ليغتالوه، وذلك سواد المهاجرين، نُهِبَ مالهم وسلبت دورهم

١. سيد قطب في مقدمة كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للشيخ أبي الحسن النَّدَوي، مرجع سابق، ص٧، ٨ بتصرف.

٢. الإبلال من المرض: البُرء منه.

وشُرِّدوا من البلد الحرام، إن "حالة الحرب" قائمة بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد، ومن السَّفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام.

على أن العداوة للنبي ﷺ وصحبه تجاوزت قريشًا إلى غيرهم من مشركي الجزيرة الضالة، ولن تذهب الفروض بنا بعيدًا، فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام، وانضم إلى هؤلاء وأولئك اليهود الذين أَوْجَسوا خيفة من انتشار هذا الدين، واندحار الوثنية العربية أمامه. فلا بُدَّ - إذًا - من التَّأَهُّب لكل طارئ، والتَّرَبُّص بكل هاجم، وتجهيز القوة التي تُؤَدِّبُ المجرمين يوم يتطاولون"[1]!

الخلاصة:

- إن صفة "يائسة" التي نُعِتَ بها الجهاد الإسلامي المبكر إنما يراد ما توحي به من شعور أكثر مما تعطيه من معنى، ولقد أبان نقاش ما تحتمله الكلمة من معانٍ عن ضعفها على كل وجه فُسِّرت به.
- خاض المسلمون معاركهم الأولى هذه واليأس أبعد شيء عن نفوسهم، وخاطره أبعد شيء عن بالهم، فلهم من البواعث والأسباب ما يجعل جهادهم أمرًا يأتونه ولو بغير شرع أو أمر، فكيف والشرع يحضهم عليه ويعِدُهم الجنةَ؟!
- لم يُبْتَلَ المسلمون بشيء كثير من الخسارة في معاركهم في أموالهم وأنفسهم، قياسًا إلى ما فقده أعداؤهم.
- لم يسعَ المسلمون الأولون إلى افتعال نزاع مع مشركي مكة، وإنما كان المشركون هم الذين يبدءونهم بحرب أو نقض عهد، وما وقع يوم بدر فأمر لم يُقدِّر المسلمون أن يمضي على النحو الذي كان؛ إذ المعروف أنهم خرجوا للتربُّص بالقافلة وليس بنية الحرب، ولكنّ المشركين وقائدهم أبا جهل هم من أصرّوا - في غالبيتهم - على الصِّدام.

الشبهة السابعة عشرة

ادِّعاء أن المسلمين فتحوا مكة عَنْوَة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن المسلمين قد فتحوا مكة عَنْوَة[2]، ولم يكن قد مضى من الهُدنة التي أبرموها مع المشركين سوى عامين من العشرة المتفق عليها، وذلك حينما رأوا أنهم امتلكوا من القوة ما يُمَكِّنُهم من ذلك. ويتساءلون: ألا يتنافى فتح مكة عنوة مع قدسيتها وحرمتها؟! وأين وفاء المسلمين بعهدهم في صلح الحديبية؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) نَصَّ صلح الحديبية على وضع الحرب بين النبي ﷺ وقريش عشر سنوات، لكن قريشًا لم تفِ بالعهد.

٢) حرص النبي ﷺ على تجنب القتال، فلم يُجْرِ قتالًا إلا ما كان في (الخندمة)، ولم يطبق على مكة أحكام

---

١. فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٢٢٤.

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق.

٢. عَنْوة: بالقوة.

الأرض المفتوحة عنوة، فلم تُقسَّم ولم يُفرض عليها الخراج.

٣) كانت صفات العفو والتسامح والرحمة هي الاستراتيجية التي فتح بها رسول الله ﷺ مكة.

التفصيل:

أولا. ينص صلح الحديبية على وقف القتال بين النبي ﷺ وقريش، ولكن قريشًا نقضت عهدها:

كان من بين بنود صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، عقد هدنة مدتها عشر سنوات بين رسول الله ﷺ ومشركي قريش، وكان من بين هذه البنود أيضًا أن من أحب أن يدخل في عقد الرسول ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وبناء على ذلك دخلت قبيلة خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم.

والسؤال الآن: "لـِمَ كان القتال، وقد كان عهد لا ينقض إلا بسبب من التزامات هذا العقد؟ وما كان للرسول ﷺ أن ينقض إلا بأسباب منه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٧)، ولم يستقيموا، فكان هذا خيانة، فكان عليه أن يعمل بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ (الأنفال: ٥٨)، ولم يكن ثمة خوف خيانة، بل خيانة بالفعل في جزء من العقد.

والعقد كلٌّ يُكمِّلُ بعضُه بعضًا، فإذا دخل الغدر جزءًا منه فقد دخل النقض كله، وفقد الالتزام من الجانب الآخر كل إلزام به؛ إذ نقْض الأول جزءًا منه يبطله، ولو كان العهد يبقى ملزمًا ـ مع نقض جزئه ـ لتوالى النقض على كل أجزائه، فلا يبقى للعقد معنى ولا صورة، ويذهب هباء منثورًا، وتتبدد أوراقه في أدْرَاج الرِّيَاح"[1][2].

وقد ظلت قريش على جمودها القديم في إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية، وتُوشك أن تغيره في العالم كله. وقد جرَّها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغوًا، وذلك أنها ـ مع حلفائها من بني بكر ـ هاجموا خزاعة ـ وهي مع المسلمين في حِلْفٍ واحد ـ وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالًا، وانحازت خزاعة إلى الحرم؛ إذ لم تكن متأهبة لحرب، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم، وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغي، وأحس نفر من بني بكر أنهم دخلوا الحرم ـ حيث لا يجوز قتال ـ فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية: إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال نوفل: لا إله اليوم يا بني بكر.. أصيبوا ثأركم.. !

وفزعت خُزاعة لِما حلَّ بها، فَبَعَثَتْ إلى رسول الله ﷺ عمرو بن سالم يَقُصُّ عليه نبأها، فلما قدم المدينة، وقف على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس يقول:

يَـا ربِّ إنِّي ناشِـدٌ محمـدَا
حِلْـفَ أَبِيْنَـا وَأَبِيْـه الأَتْلَـدَا[3]

١. أدْرَاج الرِّيَاح: أي هَدَرًا.
٢. خاتم النبيين، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣، ص٨٧٧.
٣. الأَتْلَد: القديم.

قَــدْ كُنْــتُمُ وَلَــدًا وكُنَّــا وَالِــدا
ثُمَّــتَ أَسْــلَمْنَا فَلَــمْ نَنْــزِعْ يَــدَا
فَانْـصُرْ هَـدَاكَ الله نَـصْرًا أَعْتَـدَا[١]
وَادْعُ عِبَــادَ الله يَــأْتُوا مَــدَدَا
فِــيْهِم رَسُــولُ الله قَــدْ تَجَــرَّدَا
أَبْيَضُ مِثْـلَ البَـدْرِ يَـسْمُو صُـعَدَا
إِنْ سِيْمَ خَسْفًا[٢] وَجْهُـهُ تَرَبَّـدَا[٣]
في فَيْلَقٍ[٤] كالبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا[٥]
إِنَّ قُرَيْــشًا أَخْلَفُــوْكَ المَوْعِــدَا
وَنَقَــضُوا ميْثَاقَــكَ المُؤَكَّــدَا
وَجَعَلُــوا لِي في كَــدَاءٍ[٦] رُصَّــدَا
وَزَعَمُــوا أَنْ لَــسْتُ أَدْعُــو أَحَــدَا
هُــمْ بَيَّتُونَــا بِــالْوَتِيرِ[٧] هُجَّــدَا
وَقَتَلُونَــا رُكَّعًــا وسُــجَّدَا

فقـال لـه رسـول الله ﷺ: "نُـصرت يـا عمـرو بـن سالم"[٨][٩]، وجاء أبو سفيان كبيرهـا يـستغفر للخيانـة التي لم يمنعها، وأراد عجبًا أن يمنع رسـول الله ﷺ مـن أن يحمي من دخلوا في عهده، وأن يتركهم مـن غـير أن يحميهم عهدهم، وتَشَفَّعَ بابنته فما شَفَعَتْ، وتشفع بـأبي بكر فامتنع امتناعًا قاطعًا، وإن كان هادئًا كطبعه ﷺ إلا في الأمـور الـشديدة، وتـشفع بعُمَـر فـرَدَّه ردًّا عنيفًـا، وتشفع متوسلًا بالرَّحِم لعلي فما شفع هـو ولا الزهـراء فاطمة، وقالـت كلمـة حاسـمة: لا يُجار عـلى رسـول الله ﷺ.

وكان عجبًا أن يجير على قريش كلها، ليكون لها أمان من الغزو؛ لأنه شعر بالجريمة وقعت منهـا كلهـا، وإذا كانت حرب فعليها كلها.

ونقول: إنه قد جاء لتوثيق العهد وزيادة المدة، وإن ذلك يتضمن بلا ريب إلغاء العهد السابق، وما اشـتمل عليه، وربما توهم أن ذلـك ربـما يـسقط الغـدر الأول، ولعله ظن أن النبي ﷺ لم يعلم غدرة قـريش التـي تُعَـدّ فـسخًا للعقـد، فلـما رأى أن الخزاعـي سـبقه وأخـبر النبي ﷺ لم يكن بدٌّ من أن يطلب الأمان لقريش، ولكن لم يُجَبْ.

وروى موسى بـن عقبـة أن أبـا سـفيان دخـل عـلى النبي ﷺ قبل أن يدخل على أبي بكر وعمر وعلي، وقـال لـه: يـا محمـد، شـدد العقـد وزدنـا في المـدة، فقـال لـه النبي ﷺ: "ولذلك قدمت، هـل مـن حـدث قـبلكم"؟ قال: معاذ الله، نحن على عهدنا، لا نغير ولا نبدل[١٠].

ثم ذهب إلى الصحابة أبي بكر، ثم عمر، ثم عـثمان، إلى أن وصل إلى علي، فَلَانَ معـه المجاهـد الأول بعـض اللِّين.

---

١. أَعْتَدَا: مُهَيَّئًا ومُعَدًّا.
٢. سِيْمَ خَسْفًا: أُريد ذُلا، وهو يقصد بـذلك أن الـسكوت عـلى أفعال بني بكر وقريش من الـذلِّ الـذي سـيلحق المـسلمين إذا لم يَرُدُّوا على نقضهم للعهد.
٣. تَرَبَّدَ وجهه: احمرَّ حُمْرَة فيها سواد عند الغضب.
٤. الفَيْلَق: الكتيبة العظيمة من الجيش.
٥. مُزْبِد: ويقال للبحر مُزبد، إذا هاج موجه وكَثُرت رَغْوَة مائه.
٦. كَداء: موضع أو جبل بأعلى مكة، أو في الطريق إلى مكة.
٧. الوَتِير: اسم ماء بأسفل مكة لخُزاعة.
٨. فتح الباري، ابن حجر ، مرجع سابق، ج٧، ص٥٩٣.
٩. فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣٩٤، ٣٩٥.

---

١٠. السيرة النبوية، ابن كثير، دار المعرفـة، بـيروت ١٤٠٣هــ/ ١٩٨٣م، ج٣، ص٥٣٢.

وقد صرحت هذه الرواية بأنه ذهب إلى النبي ﷺ ليأخذ منه إقرارًا على ما قال في المسجد، فقال له النبي ﷺ بعد أن قال: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة - ردًّا على قوله: ما أظن أن تخفرني - أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة[1].

وقد عاد إلى قومه فاستَخَفُّوه إذ قصَّ عليهم خبر الرحلة، وقالوا له: رضيتَ بغير رضا، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئًا، وإنما لعب بك علي، لعمر الله ما جِوارك[2] بجائر[3]، وإن إخفارك[4] عليهم هَيِّن، وحدَّث امرأته بحديث الرحلة، فقالت له: قبَّحك الله من وافد قوم فما جئت بخير[5].

ومن ثمَّ فلا مجال للزعم بأن المسلمين نقضوا الهدنة التي بينهم وبين مشركي قريش، وإلا فلماذا جاء إليهم أبو سفيان بن حرب في محاولة منه لتأكيدها أو تجديدها؟!

ثانيًا. تجنُّب النبي ﷺ القتال يوم فتح مكة:

حرص رسول الله ﷺ على تحقيق مبدأ المباغتة في فتح مكة؛ حتى لا تستطيع قريش أن تعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه؛ وفي سبيل ذلك كتم الأمر حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر ﷺ، وزوجته عائشة - رضي الله عنها - أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية ولا اتجاه حركته، ولا العدو الذي ينوي قتاله.

ثم بعث رسول الله ﷺ قبل مسيره إلى مكة سَرِيَّة إلى بَطْن إضَم[6]؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، ليظن ظان أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية.

وبثَّ رسول الله ﷺ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها؛ حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وتوجَّه إلى الله ﷻ بالدعاء والتَّضرُّع قائلًا: "اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش؛ حتى نَبْغَتها في بلادها". ثم أحبط محاولة حاطب بن أبي بلتعة لإخبار أهل مكة بتحرك النبي ﷺ إليهم، بعدما أَطْلَعَ الله نُبيَّه عن طريق الوحي على هذه المحاولة[7].

وما سبق ذكره كان خاصًّا بالاستعدادات التي قام بها النبي ﷺ قبل مسيره إلى مكة، وقد وضع النبي ﷺ والمسلمون خطة لدخول مكة وفتحها دون إراقة دماء.

فعندما وصل النبي ﷺ إلى ذِي طُوًى[8]، وزّع المهام بين قادة الصحابة، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البَيَاذِقة[9]، وبطن الوادي، فقال: "يا أبا هريرة، ادع لي الأنصار"، فدعاهم فجاءوا يُهَرْوِلون، فقال: "يا معشر الأنصار، هل ترون أَوْباش[10] قريش"؟ قالوا: نعم. قال: "انظروا إذا لقيتموهم غدًا

---

١. المرجع السابق، ص٥٣٤.
٢. جوارك: حِماك.
٣. جائر: عاصم.
٤. الإخفار: نَقْض العهد.
٥. خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣، ص٨٨١.
٦. بَطْن إضَم: اسم مَوضع بالقرب من المدينة المنورة.
٧. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٩: ٥١١ بتصرف.
٨. ذي طوى: وادٍ من أودية مكة، بات به النبي ﷺ حتى اغتسل من ماء بئره وصلَّى، ثم دخل مكة.
٩. البَيَاذِقة: أي الرجَّالة.
١٠. الأَوباش: هم الأخلاط والسَّفِلَة، مفردها الوَبَش.

أن تحصدوهم حصدًا"، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: "موعدكم الصفا"[1].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخَيْلِهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحَجُون[2]، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وبهذا كانت المسئوليات واضحة، وكل قد عرف ما أُسْنِد إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه.

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آن واحد، ولم تلق تلك القوات مقاومة، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفُلُول[3] المشركين؛ حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوة في العَدَدِ والعَتَادِ، ونجحت خطة الرسول ﷺ؛ فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فَيْلَق منطقته التي وُجِّهَ إليها، في سلم واستسلام، إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض حلفائهم في مكان اسمه "الخندمة" وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا على القتال، فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة المكرمة.

وفي سبيل حرصه ﷺ على حفظ الدماء أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التَّجوُّل؛ لكي يتمكَّنوا من دخول مكة بأقل قَدْر من الاشتباكات والاستفزازات وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"[4]. وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانة خاصة؛ كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكِّيين بالسِّلْم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان من قلبه.

هذا وقد حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح؛ ولذلك عندما بلغته مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال ﷺ: "هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة"[5]. وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد، وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٤).
٢. الحَجُون: جبل بمكة.
٣. الفُلُول: جمع فَلّ، وهو المنهزِم.
٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٤).
٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٤٠٣٠).

في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يُثره، ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه[1].

وبهذه الإجراءات تجنَّبَ النبي ﷺ إراقة الدماء في مكة والبيت الحرام، وتحاشى القتال، فافتتحها وأهلها مسالمون، إلا ما وقع من بعض أوباش قريش في الخندمة وتصدِّي خالد بن الوليد ومن معه لهم. فهل في هذا ما ينافي قدسية مكة وحرمتها؟!

ثم إن مذهب جمهور العلماء الذين ذهبوا إلى أنها فُتِحتَ عَنْوَةً إنما هو خلاف ما يَعْنِيه مُثِيرو الشبهة، من أنها فُتِحَت بحدّ السيف، وإراقة الدماء، وإشاعة القتل والتدمير، وذلك في رأيهم يتنافى مع حرمتها، ولا يتنافى كَوْنُها فُتِحَت عَنْوَةً - على رأي الجمهور - مع قدسيتها وحرمتها وكونها دار النسك ومُتعبَّد الخلق.

وقد استدل جمهور العلماء على مذهبهم بمثل حديث البخاري أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من الدهر، لا يُنفَّر صيدها، ولا يُعْضَد شوكها، ولا يُخْتَلى خلاؤها، ولا تحل لُقطَتها إلا لمُنْشِد". فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذْخِر[2] يا رسول الله، فإنه لا بد منه لِلْقَيْنِ[3] والبيوت؟ فسكت، ثم قال: "إلا الإذخر فإنه حلال"[4].

واستدلوا كذلك بالوقعة التي كانت في الخَنْدَمَة[5]، وقد قُتل فيها قريب من عشرين نفسًا من المسلمين والمشركين.

أما الشافعي فيستدل على أنها فُتِحَت صُلْحًا بأنها لم تُقسَّم، وبقوله ﷺ ليلة الفتح: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الحَرَم فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن"[6]. ولو كانت مكة مفتوحة عَنْوة - شأنها شأن المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوة - لَمَا أُبْقِيَت الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، ولفُرِض الخَرَاج عليها.

ثالثًا. صفات العفو والتسامح والرحمة والإنسانية كانت هي الاستراتيجية التي فتح بها رسول الله ﷺ مكة:

قال تبارك وتعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف)، بهذا الأمر الرباني حدث أعظم عفو عرفه الوجود الإنساني، ألا وهو عفو النبي ﷺ عن أهل مكة المكرمة، لقد اضطهدوه منذ

---

١. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٢٢: ٥٢٧ بتصرف.

٢. الإذْخِر: جمع إذخِرَة، وهي حشيشة طيبة الرائحة تُسقَّفُ بها البُيُوت فوق الخشبِ، وتستخدم في تطييب الموتى.

٣. القَيْن: هو التقيين: أي التزيين.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من شهد الفتح (٤٠٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (٣٣٦٨) بلفظ: إن هذا البلد حرمها الله.

٥. الخَنْدَمَة: جبل بمكة جمع عنده صَفْوان بن أُمَيَّة وعِكْرِمة بن أبي جهل وسُهَيْل بن عمرو جَمْعًا ليقاتلوا الرسول ﷺ.

٦. السيرة النبوية، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٣، ص٥٧٧، ٥٧٨. السيرة النبوية، د. الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٢٩.

البعثة، وهو في سن الأربعين، واستمر أذاهم حتى سنّ الستين، لا يتوانون في إيذائه، ثم قتاله، ثم الدس الخبيث له ولأصحابه، فلما غلب وتغلب بعد أكثر من عشرين عامًا، لم يقل ﷺ: ويل للمغلوب، كما يقول ساسة هذا الزمان، بل على العكس من ذلك، قال: مرحبًا بالإخوة وعفوًا عما مضى، وإن تنتهوا يُغْفر لكم ما قد سلف.

لقد قال رسول الله ﷺ لقريش وهم صفوف ينتظرون كلمته: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"[١].

بهذه الرحمة نال أهل مكة عفوًا عامًّا على الرغم من أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، وعلى الرغم كذلك من قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم[٢].

ما أجمل العفو عند المقدرة، وما أعظم النفس التي تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام، بل تسمو على أن تقابل السيئة بالسيئة، ولكن تعفو وتصفح عن قوم طالما عذبوه ﷺ وأصحابه، وهموا بقتله مرارًا، وأخرجوه وأتباعه من ديارهم، وأهليهم، وأموالهم، ولم ينفكُّوا عن محاربته والكيد له بعد الهجرة.

إن غايةَ ما يُرجى من نفس بشرية كانت مظلومة فانتصرت، أن تقتص من غير إسراف في إراقة الدماء، لكنه النبي ﷺ، والنبوة من خصائصها كَبْحُ النفس[٣] ومغالبة الهوى، والعفو، والتسامح، أليس من صفاته التي بَشّرت بها التوراة أنه ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يقابل السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح؟!

لقد ضرب النبي ﷺ بعفوه عن أهل مكة للدنيا كلها وللأجيال المتعاقبة أروع المثل في البر والرحمة، والعدل، والوفاء، وسمو النفس، لم تعرفه الدنيا في تاريخها السابق، ولن تعرفه في مستقبلها القادم. ارجع ببصرك قليلًا إلى ما فعله الغالبون بالمغلوبين في الحربين العالميتين في القَرْن الماضي، قرن الحضارة كما يدعون، لِتَعْلَمَ علم اليقين فرق ما بين النبوة وغير النبوة، والإسلام وغير الإسلام[٤].

دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة ومعه لواء أبيض، وعليه عِمامة سوداء، وهو يقرأ سورة الفتح، وهو راكب على ناقته، وكان يرجع فيها، فهو يترنم بها، ويرجع كلماتها مستطيبًا ألفاظها ومعانيها، وقد خفض رأسه متواضعًا لله تعالى، ولما انتهى إلى ذي طوى اعتَجَرَ[٥] بشُقَّة بُرْدَة حِبَرَة[٦] حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله تعالى، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح.

ويُرْوَى أن رجلًا كلَّم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال الرسول الذي يزيده التواضع عزًّا: "هون عليك، فإني لستُ بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٤).
٢. السيرة النبوية، د. الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٢٩.

٣. كَبْحُ النفس: مغالبة النفس والسيطرة عليها.
٤. السيرة النبوية، أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٤٤٨.
٥. اعتَجَرَ: لبس أو لفَّ.
٦. شُقَّة بُرْدَة حِبَرَة: جزء من ثوب يماني من قطن أو كِتَّان مُخَطَّط.

من قريش كانت تأكل القَدِيد"[1].

وإن العزيز الكريم لا تُزِيْدُه القوةُ إلا تواضعًا، يقول في ذلك ابن كثير: وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخول مكة المكرمة في مثل هذا الجيش الكثيف العَرَمْرَم[2] - بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أُمِروا أن يدخلوا باب بيت المقدس، وهم سجود - أي رُكَّع - يقولون: حِطَّة[3]، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهم[4]، وهم يقولون: حِنْطَة[5].

وأنى يكون بنو إسرائيل الذين تطغيهم النعمة من محمد الكريم ﷺ الذي تدفعه النعمة إلى التواضع، فيقوم بحقها وشكرها، فشُكْرُ كُلِّ نِعْمةٍ نعمةٌ من نوعها، فشُكْرُ القُوَّة الرِّفْق والعَدْل، وشكر الرِّفْعَة التَّواضُع، وقد رفع الله تعالى نبيه ﷺ بما لم يُرْفَع به رجل في العرب، وبما لم يرفع به نبي في أمته، فكان هذا التواضعُ الكريمُ الذي زاده عزًّا[6].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظُ الأنفُسِ من القتل أو السَّبْي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بِيَدِ أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً؛ لقُدْسِيَّتها وحُرْمتها، فإنها دار النُّسُكِ، ومُتَعَبَّدُ الخَلْقِ، وحَرَم الرب تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف

1. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).
2. العَرَمْرَم: الشديد والكثير.
3. الحِطَّة: طلب المغفرة.
4. الأَسْتَاه: الأعجاز.
5. الحِنطة: القمح.
6. خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣، ص٨٨٩.

إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها؛ فهي مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعباد القاصدين[7].

وكان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أعلن إهدار دمائهم، أن دخل أهل مكة رجالًا ونساءً، وأحرارًا وعبيدًا في دين الله طواعية واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتمَّت النعمة ووجب الشُّكر.

الخلاصة:

- كان من بنود صُلْح الحُديبية وقفُ الحرب بين النبي ﷺ وقريش، ولكن قريشًا نقضت عهدها مع النبي ﷺ، ودخلت في حرب مع بني بكر ضد قبيلة خزاعة حليفة المسلمين، وأحس أبو سفيان بخطورة ما فعلوه، فذهب إلى المدينة يطلب تجديد العهد مع النبي ﷺ، وفي ذهاب أبي سفيان إليه ﷺ دليل على نقضهم الهدنة.
- حَرَصَ الرسول ﷺ على تحقيق عنصر المباغتة في فتح مكة؛ حتى لا تستطيع قريش أن تعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يأتي إليها، وذلك لكي يتمكن من دخول مكة قبل الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

7. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٥٢٩.

• ذهب الشافعي إلى أن مكة فُتِحَتْ صلحًا؛ لأنها لم يجر عليها أحكام الأرض المفتوحة عَنْوَةً، فلم تُقَسَّم ولم يُفْرَضْ عليها الخراجُ، كما أن ما قصده جمهورُ العلماء من أن مكةَ فُتحَتْ عَنوةً، إنما هو خلافُ ما يقصِدُه مثيرو الشبهة؛ إذ لا يتنافى هذا مع قدسيتها وحرمتها.

• كانت صفات العفو والتسامح والرحمة هي الاستراتيجية التي فتح بها رسول الله ﷺ مكة، حيث قال لأهلها وهم صفوفٌ ينتظرون كلمته: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وبهذا ضرب أروع المَثَلِ في العَفْو عند المقدرة.

الشبهة الثامنة عشرة

ادِّعاء أن مؤتمر السَّقِيفة ضم أربعة أحزاب سياسية تصارعت على خلافة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن اجتماع السقيفة إثر وفاة النبي ﷺ ضمّ أربعة أحزاب سياسية تصارعت على الخلافة وهم: المهاجرون، والأنصار، والشيعة (أصحاب النص والتعيين)، وحزب الأرستقراطية الملكية، واستمرت نتائج هذا الصراع حتى تم ترشيح الصديق لعمر بن الخطاب للخلافة من بعده بناءً على اتفاق مُسْبق بينهما. ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في أخلاق الصحابة الكرام، وإلى تشويه مؤتمر السقيفة، وما تخلله من نظريات سياسية، رسمت معالم الخلافة الإسلامية في عهد الراشدين ومن تبعهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) أسّس النبي ﷺ الدولة الإسلامية، وأقام لها كيانًا مستقلًّا، بيد أنه ﷺ لم ينصّ على خليفة بعده؛ ليفتح المجال أمام المسلمين جميعهم في الاجتهاد، ويُرْسِي مبدأ الشورى في اختيار من يتولى أمرهم، خصوصًا وأن المسلمين يُدْرِكون أهميةَ الخلافَةِ ووجوبَ إقامةِ خليفةٍ للمسلمين.

٢) مؤتمر السَّقيفة من أهم المؤتمرات في تاريخ الإسلام كله؛ ففيه تَمَّ وضع دستور الخلافة الذي ينظم حياة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، فلا غَرْو[١] أن تُعْرَضَ فيه وجهات النظر بحرية وشفافية طالما أنها تمس حياة المسلمين، ولا صحة لما يدّعيه المتوهمون من أن المؤتمر ضم أربعة أحزاب سياسية تناحرت[٢] على خلافة المسلمين.

التفصيل:

أولا. لماذا لم ينصَّ النبي ﷺ على خليفة المسلمين بعده؟

الإسلام خَلَقَ الدولة الإسلامية:

تلك حقيقة لا يُجادِل فيها أحد، فالإسلام هو الذي خلق الدولة الإسلامية من العدم، ومدَّ أطْرَافَهَا في كل الاتجاهات، وجعل منها دولةً مرهوبةَ الجانب تدورُ في فَلَكِهَا الدِّوَلُ وتتقرَّبُ إليها الممالكُ.

والقرآن هو الذي وجّه المسلمين لتكوين هذه الدولة، حيث بشرهم بها، ووعدهم بقيامها، ودفعهم

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر، مرجع سابق.

١. غَرْو: عَجَب.
٢. تناحرت: تقاتلت.

لأن يعملوا لقيام الدولة، وأن يقيموها عندما تيسرت لهم سبل إقامتها[1].

وكان محمد بن عبد الله ﷺ أول رئيس لهذه الدولة الناشئة، فجمع برئاسته للدولة بين صِفَتَين: أُوْلاهما: صفةُ الرسول، فهو يبلِّغُ عن ربِّه ما أوحي إليه من الدين والتشريع ويبينه للناس، والثانية: صفة الحاكم، فهو يرأس الدولة ويديرها، فيُجيِّش الجُيوشَ ويسيرها ويعلن الحرب، ويعقد الصلح ويُبْرِم المعاهدات، ويعين القواد، والحكام، والقضاة، ويقبلهم، ويصرف الشئون المالية، والقضائية، والسياسية، والإدارية.

وكان ﷺ يؤدي وظيفته كحاكم في حدود الإسلام، فما جاءت فيه نصوص صريحة طبق عليه تلك النصوص، وما لم يرد فيه نص طبق عليه ما يُوحَى به إليه إن نزل فيه الوحي بشيء، فإن لم ينزل فيه وحي اجتهد في الحكم، ولم يخرج بالأمر عما تقتضيه روح التشريع الإسلامي واتجاهاته العليا[2].

وبعد وفاة الرسول ﷺ انقطع الوحي، وتحدد الإسلام، فلا زيادة، ولا نقصان، ولا تبديل، ولا تعديل، وأصبح السلطان الروحي مُمَثَّلًا فيما جاء به الرسول ﷺ وهو الإسلام، كما أصبح الإسلام مُحَدَّدًا بالقرآن والسنة.

وكل من يخلُف الرسولَ ﷺ على رئاسة الدولة ليس له من سلطان إلا السلطان المادي الذي كان يباشره الرسول ﷺ باعتباره رئيسًا للدولة، أما السلطان الروحي فهو للقرآن والسنة؛ أي لما جاء به الرسول ﷺ، على أنه لما كان السلطان المادي في الإسلام يقوم على السلطان الروحي ويندمج فيه، فإن رئيس الدولة الإسلامية حين يباشر وظيفته إنما يباشر سلطانًا ماديًّا وسلطانًا روحيًّا اندمج كلاهما في الآخر وامتزج به[3].

وعن النظام السياسي الذي أقره النبي ﷺ لدولة الإسلام يحدثنا د. ضياء الدين الريس قائلًا: وجد المسلمون أنهم ورثوا دولة؛ أي نظامًا سياسيًّا، وأُقر لكل فرد منهم بحق التفكير والبحث في شئون هذه الدولة، ولم تُفرض عليهم قيود تمنعهم من استعمال هذا الحق والبلوغ به إلى غايته، فمنذ الساعة الأولى التي بدءوا فيها يتداولون ويُعملون الفكر أخذت الآراء تظهر، وتتشعب وجهات النظر، وكان مظهر ذلك لأول مرة في التاريخ في "اجتماع السقيفة".

وقد اختلف المسلمون في الإمامة؛ لأن رسول الله ﷺ - وهذا هو الثابت تاريخيًّا - لم يبين هذا الأمر بوضوح، فلم يُعَيِّنْ من يخلفه، ولم يبين الطريقة التي ينتقل بها الاستخلاف، ولم يحدد الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم، وما إلى ذلك من التفصيلات، وإنما وضَّح القواعد العامة، وبين المُثُل الأخلاقية التي تصنعُ الخليفة وتقوِّمه وترشده.

افتراءات حول تَرْك النبي ﷺ تحديد من يخلفه في قيادة المسلمين:

يحاول بعض المستشرقين أن يجد تعليلًا لترك رسول الله ﷺ هذا الأمر، فيقول بعضهم: لعل مرضه في أيامه الأخيرة هو الذي منعه من ذلك، ولكن ينبغي أن

١. الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٠٦.

٢. المرجع السابق، ص١٠٩، ١١٠.

٣. المرجع السابق، ص١٢٠.

يُسأل: وماذا كان المانع طوال السنين العديدة قبل تلك الأيام الأخيرة؟ وهل كان المرض هكذا من الشدة، بحيث جعله غير قادر على التحدث لمن حوله؟ ويرى الأستاذ أرنولد أن السبب: هو أن النبي ﷺ لم يشأ أن يخالف التقاليد العربية التي كانت متبعة في عصره، ومن تلك التقاليد ـ كما زعم ـ أن القبيلة كانت تُترك حرةً لتختار من يحكمها! وهذا رأي ظاهر البطلان؛ لأنه لم يكن هناك تقليد معين واحد بين العرب، بل كانت هناك تقاليد عديدة، وقد وُجِدَت بينهم الحكوماتُ الوراثية، كما عرفوا الفوضى وترك الأمور على فطرتها؛ ولأن المجتمع الإسلامي قد قام على أساس الرابطة الدينية لا القبلية، والشيء الذي عُنِي به الإسلام تمامًا هو محو التنظيم القبلي، وتنشئة مجتمع سياسي على نسق جديد.

وإنما السبب الذي نراه حقيقيًّا ـ لأنه من الممكن أن يقام عليه الدليل العقلي، ولأنه قياس على ما ثبت تاريخيًّا عن الإسلام، واتجاهه في تشريعاته وأنظمته ـ هو أنه كانت هناك حكمة تشريعية مقصودة من عدم تحديد هذا الأمر، وتلك هي عدم تقييد الجماعة بقوانين جامدة، قد تثبت الأيام أنها لا تَتَّفِقُ مع التطورات التي تحدث، ولا تلائم الظروف والأحوال، فإن من الصفات الظاهرة التي حرص عليها المشرِّعُ أن تظَلَّ القوانين الإسلامية مَرِنة، حتى تعطي مرونتها الفرصة للعقل للتفكير، وللجماعة أن تشكل أوضاعها حسب مصالحها المتجددة.

وهذه إحدي الخصائص التي يُعرف بها التشريع الإسلامي، فالتشريع السياسي فيه لم يخرج عن هذه القاعدة، والذي يرجِّحُه الذهنُ ـ بل يكاد يقطع به ـ أن هذه الحكمة كانت مراعاةً ومتعمدًا تحقيقُها، وأن هذا وحده هو التفسير الذي ينبغي أن يُقبلَ، لا أن ينسبَ ذلك إلى عدم القدرة للمرض، أو لمجرد الترك، أو لمتابعة التقاليد العربية، إلى غير ذلك مما يزعم المستشرقون.

والخلاصة أن ترك هذا الأمر بدون تحديد هو في ذاته اعتراف بالرأي العام للجماعة، أو كما نقول في تعبيرنا الحديث "إرادة الأمة"[(١)]®.

فرضية الخلافة الإسلامية وحرص الصحابة رضي الله عنهم على إقامة خليفة:

الخلافة أو الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعن فرضيتها ووجوبها شرعًا وعقلًا يحدثنا الفقيه عبد القادر عودة، فيذكر أن الخلافة أو الإمامة فريضة شرعية يوجبُها الشرع على كل مسلم ومسلمة، ويخاطب الجميع بها، وعليهم أن يعملوا حتى تؤدَّى هذه الفريضة، فإذا أُدِّيَتْ سقطت عنهم حتى تتجددَ بعَزْل الخليفة أو موته[(٢)].

هذا ما وعاه الصحابة وأدركوه من أن الخلافة موضوعة لخلافة النبوة وحراسة الدين والدنيا؛ لذا تحركوا سريعًا نحو تنصيب خليفة للمسلمين حتى وإن

١. النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٦، ١٩٧٦م، ص٣٤ : ٣٦ بتصرف يسير.

® في **"بطلان زعم استخلاف النبي لعلي بالنصّ عليه"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية والثلاثين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

٢. الإسلام وأوضاعنا السياسة، عبد القادر عودة، مرجع سابق، ص١٢٧.

كان رسولهم لم يدفن بعد! وربما يطعن بعض الجاهلين قائلًا: فَعَل الصحابة ذلك حرصًا منهم على الخلافة، وكأن نفوسهم قد تاقت إلى ذلك ورغبت فيه، حتى أطلقوا لها العنانَ فور وفاته ﷺ.

ولكننا بدورنا نُجلي خَبَثَ أفكارهم، بأن ما فعله الصحابةُ لم يَتَعَدّ أن يكون تنفيذًا لسنة النبي ﷺ حتى في أصعب الظروف والأوقات، وحرصًا منهم على ألا ينفرط عِقدُ المسلمين. وهم يعلمون وجود المتربصين بالإسلام ودولته، والذين ينتظرون مثل هذه الفرص؛ لِبَثِّ نار العداوة، والشقاق، والخلاف بين المسلمين. أضف إلى ذلك أن الأمر لم يستغرق إلا وقتًا قصيرًا حُسمتْ فيه الأمور، وعاد المسلمون إلى فجيعتهم في موت النبي ﷺ، ولكن بعد أن أغلقوا أبواب الفتنة، وَفوَّتوا الفرصة على أعدائهم لاستغلال هذه الفرصة®.

ثانيًا. الأهمية التاريخية لمؤتمر السقيفة، والرد على فرية "الأحزاب السياسية الأربعة المتصارعة":

مؤتمر السقيفة من أهم المؤتمرات وأخطرها في تاريخ الإسلام، ففيه دستور الخلافة الذي ينظم حياة المسلمين، فلا عجب أن تُعرَضَ فيه وجهاتُ النظرِ بحريَّةٍ وشفافية ما دامت تَمَسُّ حياة المسلمين ومستقبلهم.

عن حيثيات هذا المؤتمر ووقائعه والنظريات السياسية التي برزت فيه ووجهة نظر أصحابها، يُسَطِّرُ لنا العلامة المؤرخ الدكتور ضياء الدين الريس ذلك قائلًا:

تم عقد اجتماع "السقيفة"، وحين بلغ نبؤه أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - وبعض المهاجرين أسرعوا إلى حضوره، وغاب عنهم بعض كبار الشخصيات، وما درى الحاضرون في هذا الاجتماع أنهم كانوا يعقدون أهم اجتماع أو مؤتمر في تاريخ الإسلام كله، وما أشبهه بجمعية وطنية أو تأسيسية تبحث في مصير أمة لأجيال عديدة لاحقة، وتضع لها دستورًا، يكون أساسًا لحياتها في المستقبل. وإن أكبرَ نتيجة لهذا الاجتماع أنه على أساسه قام "نظام الخلافة" الذي بقي منذ ذلك الوقت - في شكل أو آخر - إلى القرن العشرين.

وتضمن قيامها على الصورة التي أقرها المجتمعون معاني كانت لها نتائج دستورية خطيرة، ونحن لا نريد أن نذكر الآن - أيضًا - ما جرى من مناقشات في هذا الاجتماع بالتفصيل، وإنما يكفي أن نقرر أن مساجلات الرأي دارت في هذا الاجتماع بحرية وفي صراحة، بحيث مثَّلَتْ وِجْهَاتِ النظر المختلفة، حتى إنها دعت كاتبًا غربيًّا - هو الأستاذ ماكدونالد - أن يشهد: "بأن هذا الاجتماع يُذكِّر - إلى حد بعيد - بمؤتمر سياسي دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة".

ونستطيع أن نُلخِّص أهم النظريات التي عُرِضت في هذا الاجتماع على النحو الآتي:

- **نظريةُ الدِّفاع عن حق المهاجرين في الخلافة:**

قامت هذه النظرية على الدفاع عن حق المهاجرين، وإثبات أولويتهم في استحقاق الخلافة على غيرهم، على اعتبار أنهم - على حد ما عبر أبو بكر رضي الله عنه في خطابه: "أول من عبد الله في الأرض، وهم أولياء الرسول

® في "إجماع المسلمين على وجوب الإمامة" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من الجزء الخامس (النظم الحضارية).

وعشيرته، والذين صبروا معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف زارٍ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وإجماع قومهم عليهم"، وجاء في ثنايا هذا الدفاع لأول مرة فكرة التنويه بفضل قريش: "الأئمة من قريش"[١]، وستكون أساسًا لنظرية أحقية القرشيين للخلافة أو انحصار هذا الحق فيهم.

- **نظرية الدفاع عن حق الأنصار في الخلافة:**

قامت هذه النظرية على دعوى استحقاق الأنصار للخلافة على أساس أنهم هم الذين دافعوا عن الإسلام، وحموه بأنفسهم وأموالهم، وهم الذين آووا ونصروا وأنهم أصحاب الدار.

- **نظرية تعدد الإمارة والسيادة:** هذه النظرية دعا إليها الحبَّابُ بن المُنْذِر بن الجَمُوح، وهي إمكان اقتسام السيادة أو تعدد الإمارة؛ أي بأن يكون هناك خليفتان، وذلك حين قال: "منا أمير ومنكم أمير"، ولكن المجتمعين - على اختلاف وجهات نظرهم - قد أقروا مبدأ خطيرًا هو: أن اختيار رئيس الجماعة أو الدولة إنما هو بالبيعة؛ أي الانتخاب، ونبذوا جميعًا بسلوكهم الفعلي مبدأ الوراثة.

استقر الرأي على انتخاب أبي بكر، وليس انتخابه - كما يقول الأستاذ أرنولد جريًا مع فكرته الخاطئة التي سبق أن أبنَّا زيفها من تشبيهه هذا المجتمع الجديد بالتنظيم القبلي - متابعة للتقاليد المألوفة عند العرب منذ القدم، من النظر إلى السِّنِّ والنفوذ، ولكن لما كان يتمتع به أبو بكر ﷺ بين الصحابة من مكانة دينية عالية يقر له بها الجميع، راجعة إلى سبقه في الإسلام، وحسن بلائه في سبيله، وطول صحْبته للرسول ﷺ، وإخلاصه ورسوخ إيمانه، ثم إلى صفاته العقلية والخلقية النادرة التي جعلت من شخصيته المَثَلَ الكاملَ للمسلم، والتي عبر عنها عمر ﷺ في قول موجز: "ليس فيكم من تنقطعُ الأعناقُ إليه مثلُ أبي بكر".

ولو جرت الأمور وفق تقاليد العرب لآثروا انتخاب ابن عبادة (زعيم الخزرج)، أو أبي سفيان (رأس شيوخ بني أمية)، أو العباس (عميد الهاشميين)، وقد كان فيهم من هو أسنُّ من أبي بكر، ولَمَا عدل المنتخبون عن هذه الأُسَر القوية إلى فرع تَيْم البعيد الذي كان أقل نفوذًا[٢].

وأيًّا ما كان الأمر، فقد اختار المسلمون الصديق أبا بكر خليفة للمسلمين، ورَضِيَت به نفوسهم وعقولهم إمامًا وقائدًا لهم، وكيف لا ترضى هذه النفوس الذكية والعقول الطاهرة برجل له من الفضائل الكثير والكثير، فهو صِدِّيق هذه الأمة، وهو ثاني اثنين في الشجاعة والرجولة، وهو من الدين ملء السمع والبصر، وهو إمام المسلمين في الصلاة وقت مرض المصطفى ﷺ، وكأني بهؤلاء الصحابة العظام يقولون: لقد اختاره رسول الله ﷺ لإمامتنا في الصلاة، فكيف لا نختاره لإمامتنا في الحياة!!

بيد أن هذه الهامات الشامخات لا بد وأن يُنْظَرَ إليها من قِبَل أعداء الإسلام بعين الحقد والحسد، فذهب

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢٩٢٣)، وأبو يعلى في مسنده، مسند سهل أبو الأسود عن أنس (٤٠٣٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٤٥٢٤).

٢. النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مرجع سابق، ص٣٨: ٤٠ بتصرف.

بعض الحاقدين مذاهب شتى يخلطون الحق بالباطل، ويقلبون الأمور، ويغيرون الحقائق فأخذوا يفترون على أبي بكر افتراءات هو منها براء. ومن ذلك: أن بيعة الصديق كانت فَلْتَةً وقى الله الأمة شرها، ويقولون: إذا كانت كذلك فهل هي بيعة شرعية؟! لكن التساؤل الذي يطرح نفسه: من قائل هذه العبارة؟ وما الظروف التي قيلت فيها العبارة؟ وما معنى العبارة؟ حتى نصل إلى كلمة سواء في هذا الزعم.

في البدء نذكر أن الفاروق عمر هو صاحب المقولة، ولكن هل الفاروق عمر يقصد من مقولته الطعن في خلافة الصديق والذهاب إلى عدم شرعيتها؟!!

لندع المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ عليه رحمة الله ـ ليوضح القول، ويزيل اللبس، ويكشف الإبهام، يقول: "كان ظهور فضيلة أبي بكر ﷺ على من سواه، وتقديم رسول الله ﷺ له على سائر الصحابة ـ أمرًا ظاهرًا معلومًا. فكانت دلالة النصوص على تعيينه تغني عن مشاورة وانتظار وتريُّث، بخلاف غيره، فإنه لا تجوز مبايعته إلا بعد المشاورة والانتظار والتريث. فمن بايع غير أبي بكر عن غير انتظار وتشاور لم يكن له ذلك، وهذا المعنى قد جاء مفسرًا في حديث عمر ﷺ، في خطبته المشهورة الثابتة في الصحيح، التي خطب بها بعد مرجعه من الحج في آخر عمره، وهذه الخطبة معروفة عند أهل العلم، وقد رواها البخاري في صحيحه عن ابن عباس، قال: "كنت أُقرئ رجالًا من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمِنًى، وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها، إذ رجع إليَّ عبد الرحمن بن عوف، فقال: لو رأيت رجلًا أتى أمير المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلانًا، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فغضب عمر ثم قال: إني ـ إن شاء الله ـ لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم، فقال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الموسم يجمع رِعاع الناس وغوغاءهم، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك حتى تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالةً يُطيِّرُهَا عنك كُلُّ مُطَيِّرٍ[1]، وألَّا يَعُوْهَا، وألَّا يضعوها على مواضعها، فأمهلْ حتى تَقْدُمَ المدينةَ، فإنها دار الهجرة والسُّنَّة، فَتَخْلُصَ بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول مقالَتَك مُتَمَكِّنًا، فيَعِي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها.

فقال عمر: والله ـ إن شاء الله ـ لأقومن بذلك في أول مقام أقومه بالمدينة. قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجَّلتُ الرَّواحَ حين زاغت الشمس، حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسًا إلى ركن المنبر، فجلست حوله تَمَسُّ ركبتي ركبَتَه، فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب ﷺ، فلما رأيته مقبلًا قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولنَّ العشية مقالة لم يقلها منذ استُخلِفَ. فأنكر عليَّ، وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقل قبله؟

فجلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فإني قائل

١. المُطَيِّر: المقصود به هنا كل من ينشر الخبر ويذيعه بين الناس.

لكم مقالة قد قُدِّرَ لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي ألا يعقلها فلا أُحِلُّ لأحد أن يكذب عليَّ، إن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آيةُ الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده.

فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله؛ فيضلُّوا بتَرْك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحَبَلُ[١] أو الاعتراف. ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: ألا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ثم إن رسول الله ﷺ قال: "لا تُطْرُوني[٢] كما أَطْرَت النصارى عيسى ابن مريم، وقولوا: عَبْد الله ورسوله"[٣].

ثم إنه بلغني أن قائلًا منكم يقول: والله لو قد مات عمر لبايعت فلانًا، فلا يغترَّنَّ امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فَلْتَة[٤]. فتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرها، وليس فيكم من تُقطع الأعناقُ إليه مثل أبي بكر[٥]. من بايع رجلًا من غير مشورة من المسلمين، فلا يُبايَع هو ولا الذي بايعه تغِرَّةَ أن يُقتلا[٦]، وإنه قد كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع

---

١. الحَبَل: الحَمْل.

٢. الإطْراءُ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في المَدْح والكذب فيه.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٦١)، وفي موضع آخر.

٤. قوله: "كانت بيعة أبي بكر فلتة": أراد بالفلتة الفجأة، ومثل هذه البيعة جديرة بأن تكون مهيجة للشر والفتنة، فعصم الله من ذلك ووقى. والفلتة: كل شيء فعل من غير رويَّة، وإنما بُودر بها خوف انتشار الأمر. وقيل: أراد الفلتة الخلسة؛ أي إن الإمامة يوم السقيفة مالت إلى توليها الأنفس، ولذلك كثر فيها التشاجر، فما قلدها أبو بكر إلا انتزاعًا من الأيدي واختلاسًا، وقال الحافظ في "الفتح": وقى الله المسلمين الشر، ولم ينشأ عن بيعة أبي بكر شر، بل أطاعه الناس كلهم، من حضر البيعة ومن غاب عنها، ووقاهم ما في العجلة غالبًا من الشر؛ لأن من العادة أن من لم يطلع على الحكمة في الشيء الذي يفعل بغتة لا يرضاه، وقد بين عمر سبب إسراعهم ببيعة أبي بكر لما خشوا أن يبايع الأنصار سعد بن عبادة، قال أبو عبيدة: عاجلوا ببيعة أبي بكر خيفة انتشار الأمر وأن يتعلق به من لا يستحقه فيقع الشر.

٥. قوله: "وليس فيكم من تُقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر". قال الخطابي: يريد أن السابق منكم الذي لا يلحق في الفضل لا يصل إلى منزلة أبي بكر، فلا يطمع أحد أن يقع له مثل ما وقع لأبي بكر من المبايعة له أولا في الملأ اليسير، ثم اجتماع الناس عليه وعدم اختلافهم عليه لما تحققوا من استحقاقه، فلم يحتاجوا في أمره إلى نظر ولا إلى مشاورة أخرى، وليس غيره في ذلك مثله.

٦. قوله: "الذي بايعه تغِرَّة أن يقتلا": التغرة: مصدر غررته إذا ألقيته في الغرر، هي من التغرير، كالتعِلَّة من التعليل. وفي الكلام مضاف محذوف تقديره: خوف تغرة أن يقتلا، أي خوف وقوعهما في القتل، فحذف المضاف الذي هو الخوف، وأقام المضاف إليه الذي هو تغرة مقامه، وانتصب على أنه مفعول له. ويجوز أن يكون قوله: "أن يقتلا" بدلا من "تغرة" ويكون المضاف إليه محذوفًا كالأول. ومن أضاف "تغرة" إلى "أن يقتلا" فمعناه خوف تغرة قتلهما.

ومعنى الحديث: أن البيعة حقها أن تقع صادرة عن المشورة والاتفاق، فإذا استبد رجلان دون الجماعة فبايع أحدهما الآخر، فذلك تظاهر منهما بشق العصا واطِّراح الجماعة، فإن عقد لأحد بيعة فلا يكون المعقود له واحدًا منهما، وليكونا معزولين من الطائفة التي تتفق على تمييز الإمام منها؛ لأنه لو عقد لواحد منهما، وقد ارتكبا تلك الفعلة الشنعية التي أحفظت الجماعة، من التهاون بهم والاستغناء عن رأيهم - لم يؤمن أن يقتلا.

المهاجرون إلى أبي بكر. فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم ألا تقربوهم، اقضوا أمركم[1]، فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مُزَمَّلٌ بين ظهرانيهم[2]، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: يُوعَك[3].

فلما جلسنا قليلًا تَشَهَّد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رَهْطٌ، وقد دَفَّت دافَّة[4] من قومكم، فإذا هم يريدون أن يَخْتَزِلونا[5] من أصلنا وأن يَحْضُنُونا[6] من الأمر، فلما سكت أردتُ أن أتكلم، وكنت زوَّرتُ[7] مقالةً أعجبتني أريدُ أن أُقدمَها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحِدَّة، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رِسْلِك[8]، فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر. والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها، حتى سكت، فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أُقدَّم فتُضرَب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسوِّل لي نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جُذَيلُهَا المُحَكَّك[9] وعُذَيقُها المُرَجَّب[10]. مِنَّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللَّغَط[11]، وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته

١. قوله: "اقضوا أمركم": وقع في رواية سفيان: "أمهلوا حتى تقضوا أمركم"، ويؤخذ من هذا أن الأنصار كلها لم تجتمع على سعد بن عبادة.

٢. قوله: "مزمل بين ظهرانيهم": مزمل أي ملفف ومغطى مدثر، يعني سعد بن عبادة. وبين ظهرانيهم: أي في وسطهم.

٣. قوله: "يوعك": بضم أوله وفتح المهملة؛ أي يحصل له الوعك، ولذلك زمل.

٤. قوله: "وقد دَفَّت دافَّة من قومكم": بالدال المهملة والفاء؛ أي عدد قليل، وأصله من الدف وهو السير البطيء في جماعة.

٥. قوله: "يختزلونا": بخاء معجمة وزاي؛ أي يقتطعونا عن الأمر وينفردوا به دوننا. وقال أبو زيد: خزلته عن حاجته عوقته عنها، والمراد هنا بالأصل ما يستحقونه من الأمر.

٦. قوله: "وأن يحضنونا": بحاء مهملة وضاد معجمة؛ أي يخرجونا، قاله أبو عبيدة، وهو كما يقال حضنه واحتضنه عن الأمر: أخرجه في ناحية واستبد به أو حبسه عنه.

٧. زوَّرت: هَيَّأتُ وأَعدَدتُ.

٨. قوله: "على رِسْلك": بكسر الراء وسكون المهملة ويجوز الفتح أي على مهلك بفتحتين.

٩. الجُذَيلُ المُحَكَّك: الجُذَيل هو تصغير للجذل، وهو أصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع، وهو أيضًا عود يُنْصَب للإبل الجَرْبَى لتحتَكَّ به، والمقصود بعبارة "جُذَيلُها المُحَكَّك": أي من يُستَشفَى برأيه.

١٠. العُذَيق المُرَجَّب": الرجبة: هو أن تعمد النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خِيْف عليها ـ لطولها وكثرة حملها ـ أن تقع. والعُذيق: تصغير العَذْق، وهي النخلة، وهو تصغير تعظيم، والمراد أنه شديد البأس، والذي قالها هو الحباب بن المنذر.

١١. اللَّغَط: علوُّ الصَّوت واضطرابه.

الأنصار، ونَزَوْنَا[1] على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة، قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلًا منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين فلا يُتابَع هو ولا الذي بايعه تَغِرَّة أن يُقْتَلا"[2][3].

زعم تآمر الصديق مع الفاروق عمر وأبي عبيدة بن الجراح على الاستئثار بالأمر - الخلافة - بين ثلاثتهم:

من الأشياء التي رددها بعض المستشرقين أيضًا: أن مبايعة أبي بكر بالخلافة كانت نتيجة اتفاق سابق بين أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة على الاستئثار بالأمر، ويستدلون على ذلك بولاية عمر بعد أبي بكر، وبقول عمر عند وفاته: لو كان أبو عبيدة حيًّا استخلفته.

وهذا زعم غير مقبول؛ وذلك لأن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ﷺ لم يعقدوا مؤتمر السقيفة ولا أعدوا له، وإنما عقده الأنصار ووصلت أخباره إلى بعض المهاجرين، فأسرع أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة إلى هناك دون اتفاق على ما يقال لإخوانهم الأنصار، ودون اتفاق على من يبدأ الحديث، فلقد أراد عمر أن يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: "والله ما أردت بذلك إلى أني قد هيأت كلامًا قد أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس، فما ترك شيئًا كنت قد زورت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت، إلا جاء به أو بأحسن منه".

إن هؤلاء الثلاثة كانوا يعرفون قيمة الشورى في الإسلام؛ فلا ينبغي أبدًا أن يتهمهم أحد بالتآمر على أمر كهذا، ولقد ورد عن عمر ﷺ أنه قال: "فلا يغترنَّ امرؤ أن يقول: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقد كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها، وليس فيكم من تنقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، فمن بايع رجلًا من غير مشورة من المسلمين فإنه لا يبايع هو ولا الذي بايعه بعد".

فمعنى كلمة فلتة؛ أي: وقعت على غير تدبير ولا إحكام، ولكن الأمة رضيتها وقبلتها وبايعت لأبي بكر عن اقتناع كامل كما رأينا من قبل؛ استنادًا إلى مناقب أبي بكر وشمائله، ولقد قبل أبو بكر الخلافة في السقيفة حسمًا للنزاع وللخروج بنتيجة واضحة كما ذكرنا من قبل، وتحملًا للمسئولية، ولقد قال ﷺ في خطبته بعد اختياره للخلافة: "وايم الله، ما حرصت عليها ليلًا ولا نهارًا، ولا سألتها قطّ في سر ولا علانية".

وترشيح أبي بكر الصديق عمرَ بن الخطاب - رضي الله عنهما - للخلافة من بعده لم يكن جانبًا من جوانب تنفيذ المؤامرة المزعومة؛ فأبو بكر الصديق اجتهد واختار، وعرض الأمر على كبار الصحابة واستقصى الجهد في الشورى، حتى اطمأن إلى ارتياح الناس لخلافة عمر بن الخطاب، والاستدلال بقول عمر بن الخطاب: "لو كان أبو عبيدة حيًّا استخلفته" على المؤامرة المزعومة - باطل ومبتور؛ لأن عمر بيَّن

---

١. نزونا: أي وثبنا.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت (٦٤٤٢).

٣. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج٥، ص٢٤٦: ٢٥٠.

العلة في استخلاف أبي عبيدة فقال: "لو كان حيًّا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك ﷺ يقول: إنه أمين هذه الأمة"، فهل كان أبو عبيدة رضي الله عنه داخلًا في هذه المؤامرة[1]؟

أما القول بوجود حزب للشيعة في مؤتمر السقيفة فقول عجيب؛ إذ إن هذا المؤتمر على ما دار فيه من مناقشات وآراء لم يرد فيه ذكر لترشيح الإمام علي للخلافة، ولم يدر بخَلَد أحد من المجتمعين في السقيفة أن تكون وراثية في بيت رسول الله ﷺ، ولقد كان هناك من بين الصحابة من رأى عقب وفاة رسول الله ﷺ أن عليًّا رضي الله عنه أولى بالخلافة من غيره، فهو إلى جانب فضله وسبقه يمتاز بقرابته من رسول الله ﷺ، وكان من هؤلاء: جابر بن عبد الله، وحذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، ولكن هؤلاء لم يكوِّنوا حزبًا، ولم يطلق عليهم مصطلح الشيعة، ولم يطالب علي رضي الله عنه بالخلافة حتى يظهر مدى تأييدهم له، ولم يروا الخلافة حقًّا مقدسًا لعلي أو لغيره، وكانوا يدركون مكانة الشورى في الإسلام؛ ولذلك لم يصروا على رأيهم وبايعوا أبا بكر رضي الله عنه كما بايعه الإمام علي رضي الله عنه، وصار الجميع يؤيد أبا بكر في حروبه ويعملون إلى جانبه، فالقول بوجود حزب للشيعة ظهر في مؤتمر السقيفة قول غير صحيح، وكذلك القول بوجود حزب للشيعة بالمعنى الفني لكلمة "حزب" في أيام أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - قول غير صحيح؛ إذ إن الحزب الشيعي بدأ في التكوين بوصفه حزبًا سياسيًّا منذ أيام علي رضي الله عنه أو في أواخر عهد عثمان[2].

حقيقة حزب الأرستقراطية الملكية:

ومن غرائب افتراءات المستشرقين ما يدعونه بحزب الأرستقراطية الملكية، ويتساءل د. ضياء الدين الريس: ما هذا الحزب الذي يسمى حزب "الأرستقراطية الملكية"؟ إن الذي يبدو أنه يعني هذا النفر من كفار قريش الذين لم يسلموا إلا عند الفتح، وعلى رأسهم أبو سفيان. ولكن لماذا يقصر وصف "الأرستقراطية" عليهم؟ ألم يكن في المهاجرين أيضًا من بني أمية، ومن بني مخزوم، وبني عدي، وبني أسد، ومن أشراف قريش والعرب وأثريائهم؟ وأليس بنو هاشم وبنو أمية فرعين من أصل واحد، من عبد مناف؟ وأين كان صوت هؤلاء الأرستقراطيين يوم اجتماع "السقيفة"؟ ومن نطق باسمهم؟ فهذا الحزب ليس له وجود حقيقي.

من هذا كله يتبين أن هذه الدعاوى ما هي إلا خلط وتشويش، وقلب لترتيب الحوادث، وأنها تعطي صورة مشوهة عن التاريخ، وعن الصحابة الكرام، وقصارَى القول: أنه بعد أن اجتمعت كلمة المؤمنين على أبي بكر رضي الله عنه - الخليفة الأول - عاد المجتمع إلى استئناف حياته على النحو الذي كانت تسير عليه في عهد الرسول ﷺ نفسه، وقد أحس المسلمون أن مُثُلَهم العليا متحققة، وأن الحياة السياسية تسير وفق المبادئ الخلقية التي يؤمنون بها، وانطلقوا إلى الجهاد والعمل لنشر دين الله، ولتحرير الإنسانية من الاستعباد، ومقاومة دول الكفر والطغيان، حتى فتح الله عليهم بهذه الفتوح التي دوَّنها التاريخ، والتي لم يكن لها مثيل في تاريخ أية أمة

١. دولة الخلفاء الراشدين، د. أحمد كامل، دار الهاني، طبعة خاصة، ص٦٥، ٦٦.

٢. المرجع السابق، ص٦٧.

من قبل، ولذا فقد شعروا أن حياتهم لم تكن إلا امتدادًا لعهد رسول الله ﷺ، وبقيت وحدتهم متينة سليمة، ولم يكن هناك دافع لأي خلاف.

وعلى هذه الوتيرة استمرت حياتهم طوال عهدي أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ثم طوال النصف الأول من خلافة عثمان ﷺ، وهي حقبة كانت كافية لنشأة جيل جديد. وإذا أُضيفت إلى السنوات العشر الأولى من الهجرة في حياة رسول الله ﷺ فإنها تكون عهدًا مستقلًّا قائمًا بذاته، كانت مميزات حياة المسلمين فيه: الاتحاد، والتكافل، والتعاون في الخير، وسيادة روح الأخوة والإيثار والحرص على تحقيق العدالة ومراعاة المصلحة العامة. ثم تتغير أمور ليبدأ عهد آخر: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب)[1].

الخلاصة:

- وجّه القرآن الكريم أنظار المسلمين لتكوين دولة؛ حيث بشرهم بها، ووعدهم بقيامها، ودفعهم لأن يعملوا على قيامها، وقامت هذه الدولة وكان رسول الله ﷺ أول رئيس لها، جمع برئاسته لها بين صفتين: صفة الرسول، وصفة الحاكم، فتحقق فيه ﷺ السلطان الروحي والسلطان المادي.
- تُوفي ﷺ ولم ينص على من يخلفه، ليس ذلك تقصيرًا منه أو تشاغلًا، بل لحكمة تشريعية بالغة مقصودة من عدم تحديد هذا الأمر، وهي عدم تقييد الجماعة بقوانين جامدة قد تُثبِتُ الأيامُ أنها لا تتفق مع التطورات التي تحدث، ولا تلائم الظروف والأحوال، فإن من أهم الصفات الظاهرة التي حرص عليها الشارع أن تظل القوانين الإسلامية مرنة حتى تعطي مرونتُها الفرصةَ للعقل والتفكير، وللجماعة أن تشكل نظمها وأوضاعها بحسب المصالح المتجددة.
- حَرَصَ المسلمون على تولية خليفة لرسول الله ﷺ لعلمهم اليقيني أن أمر الخلافة جدّ خطير، ويتطلب الحسم السريع في ظل الظروف المحيطة بالمدينة آنذاك؛ حروب خارجية، ورِدَّة داخلية، فضلًا عن أهمية ووجوب هذا الأمر شرعًا.
- كان مؤتمر السَّقِيفة من أهم المؤتمرات وأخطرها في تاريخ الإسلام، فعلى إثْرِه وُضِعَ دُستورُ الخلافة للمسلمين، وذلك بعد مساجلات نقاشية - لا بعد صراعات كما يدعي المتوهمون - مثلت وجهات النظر المختلفة، وكانت هناك ثلاث نظريات: نظرية الدفاع عن حق المهاجرين في الخلافة، ونظرية الدفاع عن حق الأنصار في الخلافة، ونظرية تعدد الإمارة والسيادة، وانتهى الأمر - في مدة قليلة - إلى تولية الصديق أبي بكر الخلافة؛ لاجتماع الحاضرين عليه واتفاقهم على أحقيته بالخلافة بعد رسول الله ﷺ.
- لم يكن ثمة تآمر بين الصديق والفاروق وأبي عبيدة على الخلافة، وغاية ما هنالك أنهم تقابلوا على غير موعد، وذهبوا لسقيفة بني ساعدة؛ لعلمهم باجتماع الأنصار، وكان ما كان في السقيفة.
- أما مقولة الفاروق عمر ﷺ: "إن بيعة الصديق كان فلتة وقى الله الأمة شرها"، فكانت تعني أنها جاءت

---

١. النظريات السياسية الإسلامية، د. ضياء الدين الريس، مرجع سابق، ص٤٣، ٤٤ بتصرف يسير.

على غير ترتيب ومرت بسرعة، وحفظ الله الأمة بها من الانقسام والمخالفة.

- أثبتت المصادر التاريخية الموثوق بها أن اجتماع السقيفة لم يكن فيه ترشيح لعلي رضي الله عنه من قِبَل الحاضرين، ولم يكن هناك ما يسمى بالشيعة؛ إذ إن الشيعة نشأت في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه وأوائل عهد علي رضي الله عنه، أما ما يروجه المروِّجون من حرمان علي وشيعته من الخلافة فقول لا يقبله عقل ولا يقره تاريخ.

- أما القول بوجود حزب للأرستقراطية الملكية في مؤتمر السقيفة فلا ندري ما الذي يقصدونه بهذا الحزب؟ ثم كيف ظهر هذا الحزب في مؤتمر السقيفة؟ ومن الذي نطق بلسانه؟ وماذا كانت وجهة نظره؟

- وصَفْوَة القول أن هذه الحقبة التاريخية شهدت أنقى وأصفى قلوب عرفتها البشرية، ويكفيهم شرفًا أن قال النبي ﷺ في حقهم: "خير الناس قَرْنِي، ثم الذين يَلُونهم..."[1].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٦٦٣٥).

الشبهة التاسعة عشرة

ادِّعاء التباغض بين الصِّدِّيق وعلي - رضي الله عنهما - بسبب الخلافة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه قد ساءت عليًّا وطائفة من أهل البيت، وأنه - من أجل ذلك - تأخَّر عن بيعته، فمكث نحوًا من ستة أشهر لا يأتيه، وقد ظلَّ مُدَّة خلافته مُكْرَهًا على السكوت عن حقه في الإمامة، يُسِرُّ لأبي بكر بُغْضًا هو بُغْض الإنسان لمن غَصَبه ما يستحق. وهو زعم يصوِّر الإمْرَة غُنْمًا يتنازعه صحابة النبي ﷺ، هادفين من وراء ذلك إلى الحطِّ من شأن ذلك الرعيل الخَيِّر من المسلمين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) سيرة الصحابة الكرام رضي الله عنهم تُظهر ما كان بينهم من أواصر الودِّ والإخاء.

٢) سيرة أبي بكر وعلي - رضي الله عنهما - خاصةً تُجَلِّي ما كان بينهما من تصافٍ ومصاهرات.

٣) الروايات الصَّحيحة تُثْبت مبادرة علي مع الصحابة إلى مبايعة الصِّدِّيق.

٤) بلاء علي رضي الله عنه ونُصحه في خلافة الصِّدِّيق يُبعِد إبعادًا تامًّا وَهْمَ الضغينة المُدَّعاة التي كانت بينهما.

التفصيل:

أولا. فضل أصحاب النبي ﷺ ومنزلتهم:

لقد جاء القرآن الكريم مثنيًا على الصحابة، وكذلك

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، مرجع سابق.

أثنى عليهم رسول الله ﷺ، وحذَّر من سبِّهم وانتقاصهم، بل وشهد الواقع على حبِّ بعضهم لبعض، وثناء بعضهم على بعض، فلا يغرنَّك اختلافهم الظاهري، فإنه تكاملي لا تضاد فيه ولا شقاق، بل هو رحمة للأمة كلها، وليس للمسلم إلا الاعتراف بفضلهم، والكفُّ عما شَجَر بينهم.

يقول د. محمد أمحزون: "لقد دلَّت النصوص المتواترة على وجوب حبِّ أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم وتوقيرهم، والاحتجاج بإجماعهم والاستنان بآثارهم وحُرْمة سبِّ أحد منهم؛ لما شرَّفهم الله به من صُحْبة رسوله ﷺ والجهاد معه، والصبر على أذى المشركين، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم وأولادهم، وتقديم حبِّ الله ورسوله على ذلك كله، فاستحقوا بذلك الثناء عليهم، والتجاوز عمَّن فرَّط منهم، إذ نزل الوحي من الله بأنه رضي عنهم ووعدهم بالجنة، وبشَّرهم الرسول ﷺ بها، ونادى بإجلالهم وتوقيرهم، وأخبر أنهم أَمَنَةُ أُمَّته ونجومُها الذين يُقْتَدى بهم.

ومن النصوص الدالة على تزكيتهم ما ورد في القرآن الكريم من أنهم خير أمة أُخْرِجت للناس، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وذكرهم الله ﷻ بأنهم القائمون على رعاية الحق وحراسته والعمل بمقتضاه بموجب تكليف ربَّاني، لذلك فهم العُدُول الذين يشهدون على الناس بما عملوا؛ لأن الشهادة لا يقوم بها إلا العدل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ووعدهم الله ﷻ حُسْنَ الثواب وحسن الخاتمة، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾ (الحديد). وقال في مقام آخر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾ (الأنبياء). وقال تعالى في مدحهم وذكر ما أعدَّه لهم: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ (التوبة).

وقد أوصى النبي ﷺ الأمة بأصحابه وأبان فضلهم ومنزلتهم، ومن ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية[١]، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال: "استوصوا بأصحابي خيرًا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خير الناس قَرْنِي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه

---

١. الجابية: قرية من قرى دمشق.

٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١١٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب فضل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم (٧٢٥٤)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد (١١٤).

ويمينه شهادته"[1].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأُمَّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"[2].

وجاء عن جابر ﷺ أنه قال: حدثنا أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "يأتي على الناس زمان فيغزو فِئام من الناس فيقولون: فيكم من صَاحبَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفْتَح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيُقال: فيكم من صَاحبَ أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم"[3].

وفي تحريم سبِّهم قال ﷺ: "لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيْفَه"[4].

وهكذا يلاحظ أن الله تعالى جعل أمر عدالة الصحابة لنفسه ورسوله ﷺ، ولم يجعل ذلك لأحد من المسلمين غيرهما، فكل شاهد وكل ناقل يُفتش عن عدالته إلا أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا ما أجمع عليه أهل السنة.

قال الخطيب البغدادي: "عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن".

ثم حكى الإجماع على ذلك بقوله: "هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتدُّ بقوله من الفقهاء"، وقال ابن الصَّلاح: "ثم إن الأمَّة المسلمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة ومن لابس الفتن منهم، فكذلك بإجماع العلماء الذين يعتد بهم في الإجماع، إحسانًا للظن بهم، ونظرًا إلى ما تمهّد لهم من المآثر، وكأنَّ الله ﷻ أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة، والله أعلم".

وقال ابن حجر: "اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة".

وعليه، فإنه ينبغي للمسلم أن يردَّ كل خبر يطعن في هذه العدالة، وأن ينزِّه أصحاب رسول الله ﷺ عن الطمع والشح والغدر والخديعة والغفلة واللؤم والفسق والظلم والاستبداد وأكل الأموال بالباطل، وكل الأخلاق التي تطعن في العدالة وتعدُّ من الفسق وخوارم المروءة، وأنهم وإن كانوا غير معصومين فهم عدول، وأن ما اجتهدوا فيه سواء تعلق بالدماء أم الأموال فهم فيه مأجورون، وأنهم وإن جازت عليهم المعاصي إلا أنهم يتوبون ويستغفرون، فيتوب الله عليهم ويغفر لهم، وأن لهم فضل الصحبة التي خُصُّوا بها، وهو

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذ شهد (٢٥٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٦٦٣٥).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي أمان لأصحابه (٦٦٢٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٤٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٦٦٣٠).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٧٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (٦٦٥١)، واللفظ له.

فضل ما لم يدركه أحد بعدهم.

موقف المسلم مما روي في قدح بعض الصحابة:

مذهب أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وَسَطٌ عَدْلٌ بين طرفي الإفراط والتفريط، وسط بين الغُلاة الذين يرفعون من يعظمونه من الصحابة إلى مصافِّ النَّبيين والمرسلين أو أكثر من ذلك، وبين الجفاة الذين ينتقصونهم ويسبُّونهم ولا يعرفون لهم قدرهم ومكانتهم. فأهل السنَّة وسط بين هؤلاء وأولئك، يحبُّون أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالإنصاف والعدل، فيعرفون لكلٍّ فضله وقدره، فلا يرفعونهم إلى ما لا يستحقون، ولا يقصرون بهم عما يليق بهم، وما صحَّ فيما جرى بينهم من خلاف فهم فيه مجتهدون، إما مصيبون لهم أجران: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإما مخطئون لهم أجر الاجتهاد، خطؤهم مغفور؛ لأنهم اجتهدوا عن حسن نية، وهم ليسوا معصومين، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم، وما أَقَلَّ خطأهم إذا نُسب إلى خطأ غيرهم، وقد وعدهم الله المغفرة والرضوان.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: "ومن الحجَّة الواضحة البيِّنة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكفُّ عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ أو أحدًا منهم أو تنقَّصه أو طعن عليهم أو عرَّض بعيبهم أو عاب أحدًا منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، بل حبُّهم سنَّة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وأصحاب رسول الله هم خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساوئهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ: "ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ... ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبُّونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المَرْوِيَّة في مساوئهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زِيْدَ فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه مَعْذُورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يُوجب مغفرة ما يصدر منهم ـ إن صدر ـ حتى أنهم يُغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم... ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما منَّ الله به عليهم من الفضائل ـ علم يقينًا أنهم خير خلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله".

وبناء عليه، فيجب صيانة القلم واللسان عن ذكر ما نُسب إليهم ؓ من مساوئ، وإحسان الظن بهم، والترضي عنهم أجمعين، ومعرفة حقهم ومنزلتهم، والتماس أحسن المخارج لما ثبت صدوره من بعضهم؛ لأن القضايا كانت مشتبهة بسبب الفتنة، ولشدة

اشتباهها اختلف اجتهادهم، والمجتهد منهم مغفور له خطؤه إن أخطأ.

ثم إن الأخبار المروية في ذلك لم تُوضَع في سياقاتها الصحيحة، فمنها ما هو كذب، ومنها ما قد زِيْد فيه أو نقص منه حتى تحرَّف عن أصله وتشوه مضمونه.

وعلى الباحث أن يعلم أن أهل السنَّة قد عارضوا هذه الأخطاء ونفوها، وأن لهم مصادرهم الموثوقة التي يُعتمد عليها، يقول ابن تيمية: "ومن الذي يَدَعُ كتب النقل التي اتفق أهل العلم بالمنقولات على صحتها، ويدع ما تواتر به النقل في كتب الحديث على نفسها؛ كالصحاح والسنن والمسانيد والمعجمات والأسماء والفضائل وكتب أخبار الصحابة وغير ذلك، وكتب السير والمغازي وإن كانت دون ذلك، وكتب التفسير والفقه وغير ذلك من الكتب التي من نظر فيها علم بالتواتر النفسي صدق ما في النقل، وعلم أن الصحابة ﷺ كانوا أئمة الهدى ومصابيح الدُّجَى، وأن أصل كل فتنة وبليَّة هم الشيعة ومن انضوى إليهم"[1].

لقد وصل الحب والتآخي بينهم إلى درجة التوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين واقعة بدر، فلما أنزل ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ (الأنفال:٧٥) ردَّ التوارث، دون عقد الأخوة.

وحتى دعا بعضهم بعضًا إلى اقتسام الأموال والزوجات، فقد جاء عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: "لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع - رضي الله عنهما -، قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالًا، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّها لي، أُطَلِّقْهَا، فإذا انقضت عِدَّتها فتزوَّجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم"[2]؟

وجاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: "لا". فقالوا: فتَكْفُونا المُؤْنَة ونُشْرِككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا[3][4]®.

وهذه الرتبة من الإيثار مما لا يُتصور لثقافة أخرى أن تعرفه أو تدانيه، وما كان ليعرف رأسًا لولا أن الإسلام نقل المشاعر العربية نقلة بعيدة عن المستوى العام الذي كانت الإنسانية جميعها تألفه في تلك الأيّام.

ثانيًا. ما كان بين الصديق وعلي - رضي الله عنهما - من ودٍّ ومصاهرة ينفي هذا الزعم:

كان بين الصحابة ﷺ علاقات ومصاهرة، فضلًا عن أخوة الإسلام، وكان هذا واضحًا في علاقة أبي بكر الصديق بعلي بن الخطاب - رضي الله عنهما -، فلقد كان بين الصحابة عامة علاقة حب وإيثار، وتضحية في سبيل الآخر، وقد وصفهم الله تعالى بهذا الوصف في

---

١. تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، د. محمد أمحزون، دار السلام، مصر، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٩٢: ١٠٠ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار (٣٥٦٩)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في المعاملة (٢٥٧٠)، وفي موضع آخر.

٤. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص١٨٥، ١٨٦ بتصرف.

® في **"المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار"** طالع: الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحشر).

"كانت صلة سيدنا أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ بأهل البيت، صلة ودية تقديرية تليق به وبهم، كانت هذه المودة والثقة متبادلة، وكانت من المتانة بحيث لا يُتَصَوَّرُ معها التباعد والاختلاف مهما نسج المسامرون الأساطير والأباطيل.

فالصدِّيقة عائشة بنت الصديق - رضي الله عنهما - كانت زوجة النبي ﷺ، ومن أحب الناس إليه مهما احترق الحُسَّاد ونقم المخالفون، فإنها حقيقة ثابتة، وهي طاهرة مطهرة بشهادة القرآن مهما جحدها المبطلون وأنكرها المنكرون، ثم أسماء بنت عُمَيْس التي كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب شقيق علي، فمات عنها وتزوجها الصديق وولدت له ولدًا أسماه محمدًا الذي ولاه علي مصر، ولما مات أبو بكر تزوجها علي بن أبي طالب فولدت له ولدًا سماه يحيى.

وحفيدة الصديق كانت متزوجة من محمد الباقر - الإمام الخامس عند الروافض وحفيد علي رضي الله عنه - وقد نقل الأستاذ إحسان إلهي ظهير من كتب الروافض ما يثبت التلاحم والمصاهرة بين بيت النبوة وبيت الصديق، فقد أثبت أن القاسم بن محمد بن أبي بكر حفيد أبي بكر، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد علي كانا ابني خالة، فأم القاسم بن محمد وعلي بن الحسين هما بنتا يزدجرد بن شهريار بن كسرى، اللتان كانتا من سبايا الفرس في عهد عمر رضي الله عنه، وتوسع إحسان إلهي ظهير في إثبات المصاهرات وعلاقات المودة والتراحم والاحترام المتبادل بين أهل البيت وبيت الصدِّيق، وكان من حب أهل البيت للصديق والتوادّ فيما بينهم أنهم سمُّوا أبناءهم بأسماء أبي بكر رضي الله عنه، فأولهم علي بن أبي طالب حيث سمَّى أحد أبنائه أبا بكر، وهذا دليل على حب علي ومؤاخاته وتقديره للصديق رضي الله عنه.

والجدير بالذكر أنه ولد له هذا الولد بعد تولية الصديق الخلافة والإمامة، بل وبعد وفاته كما هو معروف بداهة، وهل يوجد في الشيعة اليوم المتزعمين حب علي وأولاده رجل يسمِّي بهذا الاسم، وهل هم موالون له أو مخالفون؟ وعلي رضي الله عنه لم يسمِّ بهذا الاسم ابنه إلا متيمنًا بالصديق مُظهرًا المحبة له والوفاء حتى بعد وفاته، وإلا فلا يوجد في بني هاشم رجل قبل علي سمَّى ابنه بهذا الاسم، ثم لم يقتصر على هذا التيمن والتبرك وإظهار المحبة والصداقة للصديق، بل بعده بنوه أيضًا مشوا مشيه ونهجوا منهجه، فالحسن والحسين، سمَّى كل واحد منهما أحد أولاده أبا بكر، فقد ذكر ذلك اليعقوبي والمسعودي.

واستمر أهل البيت يسمُّون من أسماء أولادهم بأبي بكر، فقد سمَّى ابن أخي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب - سمَّى أحد أبنائه باسم أبي بكر، وهذا من إحدى علائم الحب والود بين القوم، خلاف ما يزعمه الروافض اليوم من العداوة والبغضاء والقتال الشديد والجدال الدائم بينهم.

وقد كان جعفر بن محمد بن علي بن الحسين - الذي يُلقَّب بالصادق عند الشيعة الروافض - يقول: ولدني

أبو بكر مرتين، فأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد بن أبي بكر كان أحد فقهاء المدينة السبعة، تربى في حجر أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، وأما أمه فهي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان جعفر يغضب من الرافضة ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر، فكيف يرضى من يدَّعي محبة جعفر وآل البيت أن يلعن جد جعفر؟

ومما يزيد الأمر وضوحًا ما روي عن عروة بن عبد الله قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيوف؟ فقال: لا بأس به، قد حَلَّى أبو بكر الصدِّيق سيفه، قال: قلت: وتقول الصديق؟ قال: فوثب وثبة واستقبل القبلة، ثم قال: نعم الصديق، نعم الصِّديق، نعم الصِّديق، من لم يقل له الصِّديق فلا صَدَّق الله له قولًا في الدنيا والآخرة[1].

ثالثًا. ثبوت الروايات الصحيحة التي تثبت مبادرة علي إلى البيعة:

أثبت أهل الحديث والأثر صحة الروايات التي تنصُّ على مبايعة علي بن أبي طالب لأبي بكر الصديق - رضي الله عنهما -، في حين جاءت الرِّوايات التي تنص على امتناع علي ﷺ عن البيعة، أو تأخره طويلًا ضعيفة باطلة، لا تثبت أمام النقد الحديثي الذي وضعه المحدِّثون لقبول الأخبار.

يقول الدكتور محمد الصلابي: وردت أخبار كثيرة في شأن تأخر علي عن مبايعة الصديق - رضي الله عنهما - وكذا تأخر الزبير بن العوام، وجُلّ هذه الأخبار ليس بصحيح إلا ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "إن عليًّا والزبير ومن كان معهما تخلَّفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ"، فقد كان انشغال جماعة من المهاجرين وعلى رأسهم علي بن أبي طالب بأمر جهاز رسول الله ﷺ من تغسيل وتكفين، ويبدو ذلك واضحًا فيما رواه الصحابي سالم بن عبيد ﷺ من أن أبا بكر قال لأهل بيت النبي وعلى رأسهم علي: عندكم صاحبكم، فأمرهم يغسلونه.

وقد بايع الزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - أبا بكر الصديق في اليوم التالي لوفاة الرسول ﷺ، وهو يوم الثلاثاء، قال أبو سعيد الخدري: "لما صعد أبو بكر المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير الزبير بن العوام، فدعا بالزبير فجاء، فقال له أبو بكر: يا ابن عمة رسول الله ﷺ وحوارِيه، أتريد أن تشقَّ عصا المسلمين؟ فقال الزبير: لا تثريب عليك يا خليفة رسول الله، فقام الزبير، فبايع أبا بكر، ثم نظر أبو بكر في وجوه القوم، فلم يرَ علي بن أبي طالب، فدعا بعلي فجاء، فقال له أبو بكر: يا ابن عمّ رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته، أتريد أن تشقَّ عصا المسلمين؟ فقال علي: لا تثريب عليك يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، فبايع أبا بكر"[2].

ومما يدل على أهمية حديث أبي سعيد الخدري الصحيح أن الإمام مسلم بن الحجاج صاحب "الجامع الصحيح" الذي هو أصح الكتب الحديثية بعد صحيح

---

1. أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ص١٦٤: ١٦٦.
2. السيرة النبوية، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٤٩٤.

البخاري - ذهب إلى شيخه الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة - صاحب صحيح ابن خُزَيمة - فسأله عن هذا الحديث، فكتب له ابن خُزَيمة الحديث، وقرأه عليه، فقال مسلم لشيخه ابن خزيمة: "هذا الحديث يساوي بدنة[1]، فقال ابن خزيمة: هذا الحديث لا يساوي بَدَنَة فقط، إنه يساوي بَدْرَة[2] مال"، وعلَّق على هذا الحديث ابن كثير فقال: "هذا إسناد صحيح محفوظ، وفيه فائدة جليلة، وهي أن مبايعة علي لأبي بكر كانت إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة، وهذا حق، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه".

وفي رواية حبيب بن أبي ثابت قال: "كان علي بن أبي طالب في بيته، فأتاه رجل، فقال له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج علي إلى المسجد في قميص له، ما عليه إزار ولا رداء، وهو متعجِّل؛ كراهة أن يبطئ عن البيعة، فبايع أبا بكر، ثم جلس، وبعث إلى ردائه، فجاءوه به، فلبسه فوق قميصه".

وقد سأل عمرو بن حريث سعيد بن زيد ﷺ، فقال له: أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال له: متى بويع أبو بكر؟ قال سعيد: يوم مات رسول الله ﷺ كره المسلمون أن يبقوا بعض يوم، وليسوا في جماعة. قال: هل خالف أحد أبا بكر؟ قال سعيد: لا، لم يخالفه إلا مرتد، أو كاد أن يرتد، وقد أنقذ الله الأنصار، فجمعهم عليه وبايعوه. قال: هل قعد أحد من المهاجرين عن بيعته؟ قال سعيد: لا، لقد تتابع المهاجرون على بيعته!!

وأما علي ﷺ فلم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات، وكان يشاركه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين.

ويرى ابن كثير وكثير من أهل العلم أن عليًّا جدّد بيعته بعد ستة أشهر من البيعة الأولى؛ أي بعد وفاة فاطمة - رضي الله عنها - وجاءت في هذه البيعة روايات صحيحة.

وكان علي في خلافة أبي بكر عيبة (موضع) نصح له، مرجِّحًا لما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين على أي شيء آخر، ومن الدلائل الساطعة على إخلاصه لأبي بكر ونصحه للإسلام والمسلمين وحرصه على الاحتفاظ ببقاء الخلافة واجتماع شمل المسلمين - ما جاء من موقفه من توجه أبي بكر ﷺ بنفسه إلى ذي القصة (من المدينة على مراحل) وعزمه على محاربة المرتدين، وقيادته للتحركات العسكرية ضدهم بنفسه، وما كان في ذلك من مخاطرة وخطر على الوجود الإسلامي. فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما برز أبو بكر إلى ذي القصة، واستوى على راحلته أخذ علي بن أبي طالب بزمامها، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: لمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدًا، فرجع.

فلو كان علي ﷺ - أعاذه الله من ذلك - لم ينشرح صدره لأبي بكر وقد بايعه علي رغم من نفسه، فقد كانت هذه فرصة ذهبية ينتهزها علي، فيترك أبا بكر وشأنه، لعله يحدث به حدث فيستريح منه ويصفو الجو

١. البَدَنَة: النَّاقة أو البقرة تُنحر بمكة، سُمِّيت بهذا الاسم ولعِظَمها وضخامتها.

٢. البَدْرَة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف دينار، والمعنى: أنه كنز ثمين.

له، وإذا كان فوق ذلك ـ حاشاه عنه ـ من كراهته له وحرصه علي التخلُّص منه، فما أسهل أن يغري به أحدًا يغتاله، كما يفعل الرجال السياسيون بمنافسيهم وأعدائهم[1].

إن اختلاف الروايات في قضية مبايعة علي للصديق ـ رضي الله عنهما ـ بين مثبت لبيعة فوريَّة وبين مُخْبِر عن بيعة متأخرة، في نظرنا لا تعويل عليه؛ لأننا لا نظن أن التوقيت ـ مع أهميته نظرًا لمكانة علي ـ مهم بقدر أهمية كونه قد بايع، والأهم من هذا كله طبيعة العلاقة بينهما، والتي كانت على صورة طيبة تليق بمنزلتهما وتقواهما، وهذا ما يُعبِّر عنه د. عبد الفتاح فتحي بقوله: "تختلف الروايات التاريخية في قضية مبايعة علي بن أبي طالب للصديق، فتذكر بعض النصوص أن علي ـ يوم بويع الصديق بيعته الخاصة بالسقيفة ـ كان مشغولًا بتجهيز النبي ﷺ، لكنه في اليوم التالي بايع بالمسجد مع عامة المسلمين، فيما عرف بـ "البيعة العامة"، وسواء أسرع علي بنفسه مبايعًا أم أبطأ في ذلك حتى أحضره بعضهم إلى المسجد، فالمحصلة الأخيرة أنه بايع، ويُعلِّق الإمام ابن كثير قائلًا: وهذا حق، فإن عليًّا لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه، وخرج معه شاهرًا سيفه يريد قتال أهل الرِّدَّة"[2].

بل إن بعض الباحثين يرون الاختلاف في وجهات النظر والتنوع في الأفكار دليل صحة وعافية، يقول د. حمدي شاهين: "تختلف الروايات فيما بينها اختلافًا عظيمًا بشأن جماعة من كبار الصحابة قيل إنهم تخلفوا ـ لأمور رأوها ـ عن بيعة أبي بكر ﷺ، وقيل: بل سارعوا إليها بغير معارضة ولا تسويف، وأول هؤلاء سعد بن عبادة زعيم الخزرج، ومرشحهم للخلافة في مؤتمر السقيفة، ومنهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام.

وقد حاول الرواة جاهدين أن يثبتوا أن هؤلاء النفر الثلاثة قد بايعوا أبا بكر الصديق مع أول المبايعين، ظانين بذلك أنهم يبرئون كبار الصحابة من شبهة الخلاف السياسي، وكأن الاختلاف بينهم تهمة ينبغي نفيها، أليس ذلك دليلًا على نضج الوعي السياسي للأمة وقياداتها، وقبولها للمعارضة السياسية واختلاف الرأي"[3]؟

رابعًا. ثناء علي على الصِّديق وبلاؤه في خلافته:

من الثابت تاريخيًّا أن علي بن أبي طالب أثنى على أبي بكر في خطبته على منبر الكوفة، وسانده في حروب الردة، وقدَّم أبا بكر على نفسه يوم سُئل: أي الناس خير؟ فشهد بتقدمه، إلى غير ذلك، مما ينفي شبهة الخلاف بينهما، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

يقول علي مثنيًا على أبي بكر على منبر الكوفة: "فأعطى المسلمون البيعة طائعين، فكان أول من سبق في ذلك من ولد عبد المطلب أنا"، وجاءت روايات أشارت إلى مبايعة علي لأبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ في

---

١. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٢٠٤: ٢٠٨.

٢. المسلمون في عصر الراشدين، د. عبد الفتاح فتحي، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٦٥، ٦٦.

٣. الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدي شاهين، دار النصر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣١ بتصرف.

أول الأمر وإن لم تصرِّح بذلك، فعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: إن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر بن الخطاب ﷺ، ثم قام أبو بكر فخطب الناس، واعتذر إليهم وقال: "والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله ﷻ في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قُلِّدتُ أمرًا عظيمًا ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله ﷻ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم"، فقبل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به، قال علي ﷺ والزبير: "ما غضبنا إلا لأنا قد أُخِّرنا عن المشاورة، وإنَّا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنَّا لنعلم بشرفه وكبَره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي".

وعن قيس العبدي قال: شهدت خُطْبة علي يوم البصرة قال: "فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ وما عالج من الناس، ثم قبضه الله ﷻ إليه، ثم رأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ﷺ فبايعوا وعاهدوا وسلَّموا، وبايعت وعاهدت وسلَّمت، ورضوا ورضيت، وفعل من الخير وجاهد حتى قبضه الله ﷻ.

إن عليًّا ﷺ لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات، وكان يشاركه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين، ويرى ابن كثير ومجموعة من أهل العلم أن عليًّا جدَّد بيعته بعد ستة أشهر من البيعة الأولى؛ أي بعد وفاة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وجاءت في هذه البيعة روايات صحيحة، ولكن لما وقعت البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن عليّ بن أبي طالب لم يبايع قبلها، فنفى ذلك، والمُثْبِتُ مقدَّم على النافي.

ويتجلَّى تقدير علي للصديق في مظاهر كثيرة؛ منها:

- **مساندته إياه مع جمهور المسلمين فيما عرف بـ "حروب الردة"**، ولقد اجتمعت كلمة الصحابة ومشاعرهم في ذلك الظرف القلق، وكان علي خير ناصح لأبي بكر، لا يُقدِّم على مصلحة الإسلام والمسلمين شيئًا من مطامح شخصية مزعومة.
- **تقديمه أبا بكر على نفسه**، فقد تواترت الأخبار عن علي ﷺ في تفضيله لأبي بكر وتقديمه؛ ومن ذلك:
  - عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر. وخشيت أن يقول: عثمان، قلت: ثم أنت! قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.
  - عن علي ﷺ قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها! أبو بكر، ثم قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر! عمر.
  - عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ: ألا تستخلف علينا؟ قال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم.
  - وقال علي ﷺ: لا يفضِّلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جَلَدتُه حدَّ المُفترِي.
  - وقول علي لأبي سفيان: إنا وجدنا أبا بكر لها أهلًا.

وهناك آثار يستأنس بها في إيضاح العلاقة الطيبة بين علي وأبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ؛ منها:

- عن عقبة بن الحارث ﷺ قال: خرجت مع أبي بكر الصديق من صلاة العصر بعد وفاة النبي ﷺ بليال وعليٌّ يمشي إلى جنبه، فمرَّ بالحسن بن علي يلعب مع غِلْمان، فاحتمله على رقبته وهو يقول:

بـأبي شَـبَهُ النَّبِـي

لَيْسَ شَـبِيْـهـًا بِعَـلِي

قال: وعلي ﷺ يضحك.

- وعن علي ﷺ قال: "من فارق الجماعة شبرًا فقد نزع رِبْقَة الإسلام من عنقه"، فهل كان علي يفعل ذلك؟ لقد كان ﷺ يكره الاختلاف ويحرص على الجماعة. قال القرطبي: من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة ومن الاعتذار، وما تضمَّن ذلك من الاتفاق ـ عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحيانًا، لكن الديانة تردُّ ذلك ـ والله الموفق ـ وأما ما قيل من تخلُّف الزبير بن العوام عن البيعة لأبي بكر، فإنه لم يرد من طريق صحيح، بل ورد ما ينفي هذا القول، ويثبت مبايعته في أول الأمر، وذلك في أثر أبي سعيد السابق الصحيح وغيره من الآثار.

- قال ابن تيمية: "وقد تواتر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: "خير الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر". وقد جاء هذا عنه من طرق كثيرة قيل إنها تبلغ ثمانين طريقًا، وعنه أنه كان يقول: "لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري.. " وقال إمام أهل السنة ابن تيمية أيضًا: "ولم يقل أحد قط إنه أحق بهذا ـ أي الخلافة ـ من أبي بكر، ولا قال أحد في أحد بعينه: إن فلانًا أحق بهذا الأمر من أبي بكر، وإنما قال من فيه أثر الجاهلية عربية أو فارسية: إن بيت الرسول أحق بالولاية؛ لأن العرب في جاهليتها كانت تقدِّم أهل الرؤساء، وكذلك الفرس يقدمون أهل بيت الملك، فنقل عمن نقل عنه كلام يشير به إلى هذا".

- **ومنها ثناؤه على صفة الصديق وشهادته له بالسبق والشجاعة:**

فعن يحيى بن حكيم بن سعد قال: سمعت عليًّا ﷺ يحلف: "أنه أُنزل اسم أبي بكر من السماء **الصديق**"، وعن صلة بن زفر العبسي قال: كان أبو بكر إذا ذُكر عند علي قال: "السبَّاقَ تذكرون، والذي نفسي بيده، ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر".

وعن محمد بن عقيل بن أبي طالب قال: خطبنا علي فقال: "أيها الناس، من أشجع الناس؟ قلنا: أنت يا أمير المؤمنين. قال: ذاك أبو بكر الصديق، إنه لما كان في يوم بدر وضعنا لرسول الله العريش فقلنا: من يقيم عنده لا يدنو إليه أحد من المشركين؟ فما قام عليه إلا أبو بكر، وإنه كان شاهرًا السيف على رأسه كلما دنا إليه أحد هوى إليه أبو بكر بالسيف، ولقد رأيت رسول الله وأخذته قريش عند الكعبة، فجعلوا يُتَعتعونه ويُترترونه[1]، ويقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا؟ فوالله ما دنا إليه إلا أبو بكر، ولأبي بكر يومئذ ضَفِيرتان، فأقبل يجأ[2] هذا ويدفع هذا ويقول: ويلكم،

---

١. الترترة: تحريك الشيء.

٢. يجأ: يدفع.

أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟! وقُطِعَت إحدى ضفيرتي أبي بكر.

فقال علي لأصحابه: ناشدتكم الله، أي الرجلين خير، مؤمن آل فرعون أو أبو بكر؟ فأمسك القوم، فقال علي ﷺ: والله ليوم من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون، ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه، وهذا أبو بكر بذل نفسه ودمه لله".

- **ومنها تأسيه بصلاة الصديق، ومشاركته في معاملاته وقضاياه، وقبول هداياه:**

فقد كان علي بن أبي طالب ﷺ راضيًا بخلافة أبي بكر الصديق ﷺ ومشاركًا له في معاملاته وقضاياه، قابلًا منه الهدايا رافعًا إليه الشكاوى، مصليًا خلفه، محبًّا له، مُبغضًا من أبغضه، وشهد بهذه الحقيقة أكبر خصوم الخلفاء الراشدين وأصحاب النبي ﷺ، فهذا اليعقوبي في تاريخه يذكر أيام خلافة أبي بكر الصديق فيقول: وأراد أبو بكر أن يغزو الروم، فشاور جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقدَّموا وأخَّروا، فاستشار علي بن أبي طالب فأشار أن يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت؟ فقال: بشِّرت بخير، فقام أبو بكر في الناس خطيبًا، وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم، وفي رواية سأل الصديق عليًّا: كيف ومن أين تبشِّر؟ قال: من النبي ﷺ، حيث سمعته يبشِّر بتلك البشارة، فقال أبو بكر: سررتني بما أسمعتني من رسول الله يا أبا الحسن سرَّك الله.

ويقول اليعقوبي أيضًا: وكان ممن يؤخذ عنه الفقه في أيام أبي بكر علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود. فقدَّم عليًّا على جميع أصحابه، وهذا دليل واضح على تعاملهم مع بعضهم وتقديمهم عليًّا في المشورة والقضاء، فعندما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر بقوله له: إنه وجد رجلًا في بعض نواحي العرب يُنكح كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي، فقال علي: إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أُمَّة واحدة، ففعل الله تعالى بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله أن يُحْرَق بالنار، فأمر به أبو بكر الصديق أن يحرق بالنار[1].

وكان علي ﷺ يمتثل أوامر الصديق، فعندما جاء وفد من الكفار إلى المدينة، ورأوا بالمسلمين ضعفًا وقلة لذهابهم إلى الجهات المختلفة للجهاد واستئصال شَأْفَة المرتدين، وأحس منهم الصديق خطرًا على عاصمة الإسلام والمسلمين، فأمر بحراسة المدينة وجعل الحرس على أنقابها يبيتون بالجيوش، وأمر عليًّا والزبير وطلحة وابن مسعود أن يرأسوا هؤلاء الحراس وبقوا على ذلك حتى أمنوا منهم[2].

وللتعامل الموجود بينهم وللتعاطف والوئام الكامل كان علي - وهو سيد أهل البيت ووالد سِبْطي الرسول - يتقبَّل الهدايا والتحف دأب الإخوة المُتَصافِين فيما بينهم والمتحابين، كما قبل الصهباء الجارية التي سُبيت في معركة عين التمر، وولدت له عمر ورقية، وأيضًا منحه

١. سيرة علي بن أبي طالب، د. الصلابي، مرجع سابق، ص١٥٢.

٢. تاريخ الطبري، (٤/ ٦٤). الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهي ظهير، ص٧١، نقلا عن: سيرة علي بن أبي طالب، د. الصلابي، مرجع سابق، ص١٥٢.

الصديق خولة بنت جعفر بن قيس التي أُسرت مع من أُسر في حرب اليمامة، وولدت له أفضل أولاده بعد الحسن والحسين وهو محمد بن الحنفية[1].

يقول الإمام الجويني عن بيعة الصحابة لأبي بكر: وقد اندرجوا تحت الطاعة عن بكرة أبيهم لأبي بكر ﷺ، وكان علي ﷺ سامعًا لأمره، وبايع أبا بكر على ملأ من الأشهاد، ونهض إلى غزو بني حنيفة.

ووردت روايات عديدة في قبوله هو وأولاده الهدايا المالية والخُمس وأموال الفيء من الصديق ﷺ، وكان علي هو القاسم والمتولي في عهده على الخمس والفيء، وكانت هذه الأموال بيد علي، ثم كانت بيد الحسن، ثم بيد الحسين، ثم الحسن بن الحسن، ثم زيد بن الحسن، وكان علي ﷺ يؤدي الصلوات الخمس في المسجد خلف الصديق، راضيًا بإمامته، ومُظهرًا للناس اتفاقه ووئامه معه، وكان علي ﷺ يروي عن أبي بكر بعض أحاديث رسول الله ﷺ.

فعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت عليًّا ﷺ يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله علمًا نفعني الله به، وكان إذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له"[2].

ولما قُبض رسول الله ﷺ اختلف أصحابه فقالوا: ادفنوه في البقيع، وقال آخرون: ادفنوه في موضع الجنائز، وقال آخرون: ادفنوه في مقابل أصحابه، فقال أبو بكر: تأخروا؛ فإنه لا ينبغي رفع الصوت عند النبي حيًّا ولا ميتًا، فقال علي ﷺ: أبو بكر مؤتمن على ما جاء به، قال أبو بكر: عهد إليَّ رسول الله ﷺ أنه ليس من نبي يموت إلا دُفِنَ حيث يُقبض.

وشهد علي للصديق - رضي الله عنهما - بعظيم أجره في المصاحف، فعن عبد خير قال: سمعت عليًّا ﷺ يقول: أعظم الناس أجرًا في المصاحف: أبو بكر الصديق، هو أول من جمع بين اللوحين[3][4].

ومما سبق يتضح مدى المحبة المتبادلة التي كانت بين الصحابيين الجليلين أبي بكر وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - مما ينفي وجود أي تباغض أو عداوة بينهما.

الخلاصة:

- لقد عَلِمَ الصحابة ثناء القرآن والنبي عليهم، بل علموا كذلك حرمة التعدِّي عليهم بالانتقاص، مما يمنع وقوع الشقاق والخلاف فيما بينهم، بل استحالته؛ لما عُلِم عنهم من حُبِّ بعضهم بعضًا وإيثار كل واحد منهم صاحبه على نفسه، حتى قال قائلهم: خذ نصف مالي، وانظر إحدى زوجاتي أطلقها فتتزوجها.
- وقد تأكدت الصِّلات بين أبي بكر وعلي - رضي الله عنهما - خاصّةً بما كان بينهما من مصاهرات كثيرة،

---

١. الطبقات الكبير، ابن سعد، مرجع سابق، ج٣، ص١٨ بتصرف يسير.

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب في الاستغفار (١٥٢٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١٠٦٧٦).

٣. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، باب أن أول من أسلم أبو بكر (٢٨٠) بنحوه.

٤. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص١٤٧: ١٥٣.

وبكثرة ما استعان أبو بكر بعلي في قضاياه ومعاملاته، وما كان يحتاج إليه فيما يجدّ من مشكلات ونوازل تحث للأمة.

- بايع علي أبا بكر بالخلافة فيما نقله الثقات من أهل الحديث والأثر بالأسانيد المتصلة الصحيحة، وكل ما رُوي في شأن تأخر علي عن البيعة فهو من الأخبار الضعيفة الباطلة، والتي لا تثبت صحتها أمام النقد العلمي الحديثي، اللهم إلا ما رواه بعض المؤرخين من أن عليًّا جدّد بيعته بعد ستة أشهر من البيعة الأولى؛ أي بعد وفاة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، وواضح أن هذه البيعة لا تلغي ثبوت البيعة الأولى، ولا تتعارض معها.
- كان ثناء علي بن أبي طالب ﷺ على أبي بكر الصديق ﷺ ثناء عظيمًا اتخذ مظاهر كثيرة، تجاوزت حد المعاونة في مسائل الفتيا والقضاء إلى إشادة بمناقبه وشمائله، بدءًا من صفته الكريمة التي يحملها "الصديق"، إلى تذكير بسابقته في الدين والجهاد، وذوده عن رسول الله ﷺ ودعوته، وكذا جهده في جمع المصحف الشريف.

الشبهة العشرون

ادِّعاء أن حروب الرِّدَّة دافعها السياسة لا الدين(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن حروب الردة لم تكن ضرورة دينية، ولكنها ضرورة سياسية؛ فقد كان الغرض منها توطيد سلطان الخلافة الإسلامية، ويدّعون كذلك أن حركة الردة كانت محاولة للحصول على الحرية قوبلت بالإجهاض والقسوة غير المبررة، ومن الخطأ لديهم إطلاق مصطلح "الردة" على هذه الحركة؛ لأنه يستلزم أن يكون أصحابها أسلموا، ثم تركوا الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وهذا ما لم يكن. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في جهاد الصحابة ضد المرتدين.

وجها إبطال الشبهة:

١) حركة الردة هي الحركة التي نبذت الإسلام بعد إيمانها جملة أو تفصيلًا، متخذة أشكالًا ثلاثة: ادعاء النبوة، ومنع الزكاة، وترك الدين، وكلها تمثل خروجًا عن الإسلام وإنكارًا له أو لركن من أركانه، وهذا ما يمنح أصحابها لقب "مرتدين" عن جدارة واستحقاق، فكان قتالهم حتمًا؛ حفظًا للدين وحماية للأمة.

٢) لم تكن حركة الردة محاولة للحصول على الحرية، بل كانت حركة لها دوافع أخرى، وقد مثلت خروجًا على الجماعة وطعنت في الإسلام، وهو ما يعدّ خيانة عظمى تستوجب العقوبة.

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. حركة الردّة: نشأتها ومفهومها وضرورة مقاومتها:

حركة الردة[1] هي الحركة التي نبذت الإسلام بعد الإيمان به، متخذة أشكالًا مختلفة، كلها تمثل خروجًا عن الإسلام، منكرةً له جملة أو لبعض أركانه، وهذا مما منح أصحابها لقب أو اصطلاح "مرتدين" عن جدارة واستحقاق؛ فكان حربهم ضرورة دينية وسياسية في آن واحد؛ حماية للدين وحفظًا للأمة.

يقول د. الصلابي عن بداية الردة: "بدأت هذه الردة منذ العام التاسع للهجرة المسمى بعام الوفود، وهو العام الذي أسلمت فيه الجزيرة العربية قيادها لرسول الله ﷺ ممثلة بزعمائها الذين قَدِمُوا عليه من أَصْقاعها[2] المختلفة، وكانت حركة الردة في هذه الأثناء لما تستعلن بشكل واسع، حتى إذا كان أواخر العام العاشر الهجري، وهو عام حجة الوداع التي حجها رسول الله ﷺ، ونزل به وجعه الذي مات فيه وتسامع بذلك الناس، بدأ الجمر يتململ من تحت الرماد، وأخذت الأفاعي تطلُّ برءوسها من جحورها، وتُجَرَّأ الذين في قلوبهم مرض على الخروج، فوَثَبَ الأَسْود العَنْسِي باليمن، ومُسَيْلِمة الكذَّاب باليمامة، وطُلَيْحة الأسدي في بلاد قومه.

ولما كان أخطر متمرديْنِ على الإسلام هما الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب، وأنهما مصممان ـ كما يبدو ـ على المضي في طريق رِدَّتهما قُدُمًا دون أن يُفكِّرا في الرجوع، وأنهما مشايَعانِ بقُوَى غفيرة وإمكانيات وفيرة ـ فقد أرى الله نبيه محمد ﷺ من أمرهما ما تقرُّ به عينُه، ومن ثم ما تقر به عيونُ أمته من بعده.

فقد قال يومًا وهو يخطب على منبره: "بَيْنَا أنا نائم أُتِيتُ بخزائن الأرض فوُضِعَ في كَفِّي سِواران من ذهب، فكَبُرَ عليَّ، فأُوحي إليَّ أن أنفخهما، فنفختهما فذَهَبَا ، فأوَّلتهما الكذَّابين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة"[3].

وقد فسر أهل العلم بالتعبير هذه الرؤيا على هذه الصورة، فقالوا: إن نفخه ﷺ لهما يدل على أنهما يُقْتلان بريحه، لأنه لا يغزوهما بنفسه، وإن وصفه لهما بأنهما من ذهب دلالة على كذبهما؛ لأن شأنهما زخرف وتمويه، كما دل لفظ السوارين علي أنهما مَلِكان؛ لأن الأساورة هم الملوك، ودلًّا بكونهما يحيطان باليدين أن أمرهما يشتدّ على المسلمين فترة، لكون السوار

١. عرف النووي الردة بأنها: قطع الإسلام بنية أو قول كفر أو فعل، سواء قاله استهزاءً أو عنادًا أو اعتقادًا، فمن نفى الصانع أو الرسل، أو كذب رسولًا أو حلل محرمًا بالإجماع، كالزنا وعكسه، أو نفى وجوبًا مُجْمعًا عليه أو عكسه أو عزم على الكفر أو تردد فيه، كَفَرَ.
وعرفها عليش المالكي بأنها: كفر المسلم بقول صريح أو لفظ يقتضيه أو بفعل يتضمنه. وعرفها ابن حزم الظاهري بأنها: كل من صح عنه أنه كان مسلمًا متبرئًا من كل دين حاشا دين الإسلام، ثم ثبت عنه أنه ارتد عن الإسلام وخرج إلى دين كتابي أو غير كتابي أو إلى غير دين.
ومعنى هذا أن المرتد: هو كل من أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، كالصلاة والزكاة والنبوة وموالاة المؤمنين، أو أتى بقول أو فعل لا يحتمل تأويلًا غير الكفر. (أبو بكر الصديق، د. الصلابي، مرجع سابق، ص٢٣٣).
٢. الأَصْقاع: النَّواحي، ومفردها صُقْع.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٦)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي (٦٠٧٥).

مضيِّقًا على الذراع.

وعبّر الدكتور على العتوم عن ذلك بقوله: ... إن طيرانها بالنفخ دلالة على ضعف كيدهما مهما تضاخم، فشأنهما زَبَد لابد أن يئول إلى جُفَاء ما دام هذا الكيد مستمدًّا من الشيطان، فهو واهن لا محالة؛ إذ أقل هجمة مركزة في سبيل الله تحيلهما أثرًا بعد عين، وكونهما من ذهب دلالة على أنهما يقصدان من عملهما الدنيا؛ لأن الذهب رمز لحطامها الذي يسعى المغترون بها خلفه، وأنهما سواران إشارة إلى محاولتهما الإطاحة بكيان المسلمين عن طريق الإحاطة بهم من كل جانب تمامًا كما يحيط السوار بالمعصم"[١].

ومعلوم في مصادر التاريخ أن أهل الرِّدَّة كانوا على أصناف ثلاثة: مُتنبِّين، ومرتدِّين، ومانعي الزكاة، وكلها إنكار للدين، أو لجُزْءٍ منه، أو لركن من أركانه، وهو ما يُوجِبُ في حَدِّه الأدنى المقاتلة والمجاهدة؛ لتثبيت العقيدة وحفظ بيضة الدين، والحق أن الجانب الدنيوي متداخل مع الديني في الإسلام، أو أن الدين مهتم بالدنيا كما هو منصرف للآخرة، فليس روحيًّا تَعَبُّديًّا فقط، فدولة المسلمين أو الدولة الإسلامية دولة عقيدة بالأساس أقامت مُلْكًا دُنْيَويًّا على أساس ديني وللتمكين للدين في الأرض، وتوثيق صلتها بالسماء، فكلُّ خطر على هذه الدولة وكيانها فيه زعزعة لسلطان الدِّين وتفريق لكلمة أهله.

وفي زماننا المعاصر، ألا يُعدُّ الخروج على سلطان الدولة خَرْقًا لدستورها، وتهديدًا للنظام الذي قامت عليه، يستوجب أقصى العقاب؟! ثم ألم يُعَدُّ انحلال الاتحاد السوفيتي وانهيار دول المنظومة الاشتراكية في شرقي أوربا انهزامًا للفكرة الشيوعية والعقيدة الماركسية التي تأسست عليها هذه النُّظُم ؟! فَلِمَ تُعَدُّ الرِّدَّة خروجًا سياسيًّا لا انتفاضًا دينيًّا؟ ومقاومَتُها حفاظًا على سلطان السياسة لا هيبة الدين؟!

والمشهور المتواتر في المصادر التاريخية أن الصحابة والمسلمين لم يتوقفوا أمام الصِّنفين الأوَّلين من أهل الرِّدَّة ـ وهم المتنبئون والمرتدون ـ فَرِدَّتُهم عن الدين واضحة صريحة، وإنما التبس على بعضهم الأمر بخصوص مانعي الزكاة المُقِرِّين لبقية الأركان، فقد سأل عمرُ أبا بكر الصديقَ ـ رضي الله عنهما ـ حين أصرَّ أبو بكر ﷺ على التسوية بين الصنف الأخير ـ مانعي الزكاة ـ وبين الصنفين الأوَّلين، وعلى ضرورة مجاهدتهم جميعًا قائلًا: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: "أُمِرْتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منِّي ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله"؟ فقال: والله لأقاتِلَنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عِناقًا كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على مَنْعِها. قال عمر ﷺ: فوالله ما هو إلا أن قد شرح صدر أبي بكر ﷺ للقتال فعرفت أنه الحق[٢].

وفي هذا يقول د. حمدي شاهين: "ورَأْي أبي بكر ﷺ هنا يعبِّر عن الفهم الشامل للإسلام، وأن للعقيدة

---

١. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق شخصيته وعصره، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ص٢٣٧، ٢٣٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (١٣٣).

محتواها المادي الذي ينبغي أن تُعبِّر عنه، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن أهل الردة من مانعي الزكاة كانوا هم البادئين بالعدوان على المدينة وعلى المسلمين الذين ظلوا على إسلامهم من قبائلهم، فضلًا عن امتناعهم المُسلَّح عن طاعة الخليفة. ولذلك فَهُم يُعَدُّون في التشريع الإسلامي بُغَاة، وهم الجماعة التي تَنْصِبُ القتال لِوَلِي الأمر، وقد قال بعض علمائنا: إن من جحد شيئًا مما جاء به رسول الله ﷺ ودُعي إليه فامتنع ونصب القتال يجب قتاله وقتله إذا أصرّ، وإن أبا بكر ﷺ إنما قاتلهم ولم يعذرهم بالجهل؛ لأنهم نصبوا القتال فجهَّز إليهم من دعاهم إلى الرجوع، فلما أصرُّوا قاتلهم"[1]، فالأمر كله إذن ينطلق من الدين، وإليه يرجع، وحوله يتمحور، وعلى حفظ أركانه يركِّز.

ويقول د. هاشم عبد الراضي: "ومما هو جدير بالذكر أن حركة الرِّدَّة جاءت على ثلاث صور، الأولى منها: المتنبئون، وهم الذين ادَّعوا النُّبوَّة، والثانية: المُرتدُّون، أي: الذين تركوا الإسلام وعادوا لأديان الجاهلية، والثالثة: مانعو الزكاة، وهم الذين تَوَقَّفُوا عن دفع الزكاة، وهذه الأسماء وإن كانت مختلفة، إلا أنها يجمعها جميعًا هدف واحد، وهو التَّمرُّد والعداوة للإسلام، ومحاولة القضاء على نفوذه"[2].

ثانيًا. دوافع الردة وأصنافها:

ظلّ انتشار الإسلام محدودًا محصورًا في بقاع معينة حتى فتح الله على المسلمين مكة، فكان فتحًا مبينًا؛ إذ فشا الإسلام في جزيرة العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وجاءت النبيَّ ﷺ وفودُ القبائل تعلن إسلامها، كل ذلك تمّ في عجالة سريعة في السنتين الأخيرتين من حياة النبي ﷺ، وتوفي النبي ﷺ والإسلام لَّما تترسخْ عقيدته في قلوب كثير من حديثي العهد به، خصوصًا في أطراف الجزيرة؛ فلم يزل إيمانهم هشًّا ضعيفًا. روى ابن الأثير في أخبار الردة: أنه حين انهزم الناس عن طُلَيحة الأسدي أُسِرَ عُيَيْنة بن حِصْن الفَزارِي، فقُدِمَ به على أبي بكر ﷺ، فكان صِبْيان المدينة يَنْخُسونه[3]، ويقولون له وهو مكتوف: يا عدو الله أكفرتَ بعد إيمانك؟ فيقول: والله ما آمنت بالله طرفة عين[4].

في هذه الأثناء كانت العصبيَّة القبليَّة ما تزال مُستحكمة في هذه النفوس حديثة العهد بالإسلام ضعيفة الإيمان؛ مما عجَّل بارتدادها عنه عند أول بادرة. وقد جمع ابن الأثير أخبار الردة في حوادث العام الحادي عشر للهجرة فكان مما قال في أسبابها: "وأما أخبار الردة فإنه لما مات النبي ﷺ، وسيَّر أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرَّمت الأرض نارًا، وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشًا وثقيفًا، واستغلظ أمر مُسيْلمة وطليحة، واجتمع على طليحة عوامّ طيء وأسد، وارتدت غَطَفان تبعًا لعيينة بن حصن، فإنه قال: نبي من الحليفين ـ يعني أسدًا وغطفان ـ أحب إلينا من نبي من قريش، وقد مات محمد ﷺ وطليحة حي، فاتبعه

1. الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدي شاهين، مرجع سابق، ص٥٧.
2. قضايا ومواقف من تاريخ الراشدين، د. هاشم عبد الراضي، دار النصر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٩٢.
3. يَنْخُسونه: يُهَيِّجونه ويُزعِجُونه.
4. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مرجع سابق، ج٢، ص٢٣٥.

وتبعته غطفان[١].

كان الرسول ﷺ قد أرسل عمرو بن العاص إلى جيفر عند منصرفه من حجة الوداع، فمات الرسول ﷺ وعمرو بعمان، فأقبل حتى انتهى إلى البحرين فوجد المنذر بن ساوي في الموت، ثم خرج عنه إلى بلاد بني عامر فنزل بِقُرَّة بن هبيرة، وقُرَّة يقدِّم رِجْلًا ويؤخِّر أخرى، ومعه عسكر من بني عامر منيع له، فذبح له وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلا به قُرة، وقال: يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فتستمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم، فقال له عمرو: أكفرت يا قرة؟ أتخوفنا بالعرب"؟!

ويقول العلامة ابن الأثير في موضع آخر عن مُسيْلمة الكذَّاب: "وقيل: جاءه طلحة النمري فسأله عن حاله فأخبره أنه يأتيه رجل في ظلمة، فقال: أشهد أنك الكاذب وأنَّ محمدًا بن عبد الله ﷺ صادق، ولكن كذّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر، فقُتِل معه يوم عَقْرَباء[٢] كافرًا. ولما بلغ مُسَيْلمةَ الكذاب دُنُوُّ خالد ضرب عسكره بعقرباء، وخرج إليه الناس، وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثأرًا لهم في بني عامر، فأخذه المسلمون وأصحابه، فقتلهم خالد، واستبقاه لشرفه في بني حنيفة، وكانوا ما بين أربعين إلى ستين، وترك مسيلمة الأموال وراء ظهره!!

فقال شُرَحْبِيل بن مسيلمة: يا بني حنيفة، قاتلوا، فإن اليوم يوم الغيرة، فإن انهزمتم تُستَرَدَف النساء[٣] سبيات وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم[٤].

ويصف د. الصلابي أسباب الردة ودوافعها بقوله: "إن الردة التي قامت بها القبائل العربية بعد وفاة رسول الله ﷺ لها أسباب؛ منها: الصدمة بموت رسول الله ﷺ، رقة الدين والسقم في فهم نصوصه، الحنين إلى الجاهلية ومقارفة موبقاتها، التفلُّت من النظام والخروج على السلطة الشرعية، العصبية القبلية، الطمع في الملك، التكسب بالدين والشح بالمال، التحاسد، المؤثرات الأجنبية، كدور اليهود والنصارى والمجوس.

وأما أصنافها: فمنهم من ترك الإسلام جملة وتفصيلًا وعاد إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، ومنهم من ادعى النبوة، ومنهم من دعا إلى ترك الصلاة، ومنهم من بقي يعترف بالإسلام ويقيم الصلاة، ولكنه امتنع عن أداء زكاته، ومنهم من شمت بموت الرسول ﷺ وعاد أدراجه يمارس عاداته الجاهلية، ومنهم من تحير وتردد وانتظر على من تكون الدَّبْرَة[٥]، وكل ذلك وضّحه علماء الفقه والسِّيَر.

قال الخطابي: إن أهل الردة كانوا صنفين: صنفًا ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر، وهذه الفرقة طائفتان: إحداهما أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم الذين صدقوه على دعواه في النبوة، وأصحاب الأسود العنسي ومن كان من مستجيبيه من

١. المرجع السابق، ص٢٣١.
٢. عَقْرَباء: هي مدينة الجُوْلان بدمشق.
٣. استردف: طلب من غيره أن يردفه أو يركبه خلفه على دابة أو نحوها، والمقصود من تسترد ف النساء: أي تُؤخذ وتُؤسَر.
٤. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مرجع سابق، ص٢٤٥.
٥. الدَّبْرَة: الهزيمة.

أهل اليمن وغيرهم.

وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة سيدنا محمد ﷺ مدعية النبوة لغيره. والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين، وأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية. والصنف الآخر هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة فأقروا بالصلاة، وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام.

وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بها ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدّوهم عن ذلك وقبضوا أيديهم على ذلك.

وقريب من هذا التقسيم لأصناف المرتدين تقسيمُ القاضي عياض، غير أنهم عنده ثلاثة: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان، وصنف تبعوا مسيلمة والأسود العنسي، وكل منهما ادعى النبوة، وصنف ثالث استمروا على الإسلام، ولكنهم جحدوا الزكاة وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي ﷺ.

وقسم د. عبد الرحمن بن صالح المحمود المرتدين إلى أربعة أصناف: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان والأصنام، وصنف اتبعوا المتنبئين الكذبة: الأسود العنسي ومسيلمة وسجاح، وصنف أنكروا وجوب الزكاة وجحدوها، وصنف لم ينكروا وجوبها، ولكنهم أبوا أن يدفعوها إلى أبي بكر رضي الله عنه[1].

وواضح من هذه النصوص المتتابعة أن دوافع الرِّدة كانت عصبية قبلية متمكنة من نفوس غَضَّة الدين هَشَّة الإيمان تعودت الاستقلالية، وعدم الخضوع لسلطة مركزية وحكومة عادلة؛ فليس الأمر إذًا أمر كفاح من أجل نَيْل حُرِّية سُلبت أو كرامة اغتُصِبَت؛ فلم تكن الحكومة الإسلامية - أي الحكم الإسلامي - زمن النبي ﷺ سلطة احتلال واستعمار جاثمة على صدور البلاد، والعباد يتحيَّنون الفرصة لنيل حريتهم من استعبادها لهم ويضحُّون في سبيل ذلك.

وقد أجمل دوافعَ الردة الحقيقية وملابساتها د. أحمد شلبي في قوله: رأينا في حديثنا عن الغزوات، وانتشار الإسلام أن الإسلام بدأ ينتشر بعد صلح الحديبية، أي بعد السنة السادسة للهجرة، وأنه بعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود تَرِدُ إلى الرسول ﷺ معلنة إسلامها، وكان ذلك في العام التاسع، ومن هذا يتضح لنا أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام آنذاك لم يدخلوه عن اقتناع تام، فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنها دفاعية فدخل الإسلام تجنُّبًا لخوض الحروب ضد المسلمين، ومنهم من دخل الإسلام طمعًا في مغنم أو جاه، فلما تُوفِّي الرسول ﷺ أبرز هؤلاء ما كانوا يخفون، وضعاف الإيمان هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم فرصة، كما فعل المنافقون بعد غزوة بني المُصْطَلِق، وفي مطلع غزوة تَبُوك، وكالأعراب الذين وصف القرآن إيمانهم في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، ولكن وفاة الرسول ﷺ كانت أعظم فرصة لهؤلاء ليظهروا ما أخفوا، وليعلنوا ارتدادهم.

---

١. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق شخصيته وعصره، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص٢٣٥، ٢٣٦.

وبجانب عدم التعمُّق في الإسلام كانت هناك العصبيَّة، وقد حارب الإسلام العصبية ودعا لتكوين أسرة واحدة هي أسرة الإسلام، ولكن العصبية كانت تتجدَّد من حين لآخر، وكان الرسول ﷺ عدو العصبية يهجم عليها بعنف كلما ظهرت، ومع ذلك لم تَمُتْ العصبية، بل ظلت تظهر كلما أُتيحت لها فرصة، وكان كثيرون من العرب يرون في الإسلام وسيلة فرضت عليهم سلطان قريش، فلما مات الرسول ﷺ، وظهر للعرب أن قريشًا أخذت السلطة ولن تدعها، قويت هذه الحركات واشتدت، فظهر في كثير من القبائل من ادَّعى النبوة وأيَّده قومه باسم العصبية، مع أنه كان واضحًا لهم كذبه وبهتانه. وهناك فريق ثالث أساء تأويل بعض آيات القرآن، وبخاصة تلك المرتبطة بالزكاة، أو أساء فهمها، فضلَّ واتَّبع طريقًا غير طريق المسلمين.

ولهذه الأسباب نَجِد الجزيرة العربية تنقلب على عقبيها بعد وفاة الرسول ﷺ، ونجد الإسلام يواجه أزمة قاسية أوشكت أن تُقوِّض أركانه، فهنا جماعة ارتدوا عن الإسلام، وهناك آخرون أعلنوا أنهم أنبياء وتبعهم حوارِيُّون وأَشْياع، وفريق ثالث منعوا الزكاة، وتمَرَّدوا على ما سمّوه "الإتاوة والضريبة". وهكذا ظهر المرتدون والمتنبئون ومانعو الزكاة، وشمل هؤلاء أغلب الجزيرة، ولم يبق مُتَّبع لدين الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف، وقد قامت هذه المدن بواجبها خير قيام، في إعادة الحق إلى نِصَابه، ولم تبخل بشيء لإعادة مجد الإسلام.

وكان التنبؤ ظاهرة تدعو لسخرية الباحث بهؤلاء المتنبئين؛ لأن العرب وجدوا أنه في رحاب النبي ﷺ تحققت معجزة لم يصل لها خيال العرب، وهي وحدة العرب، وبذلك ظهر المتنبئون متخذين ادِّعاء النبوة وسيلة لجمع الناس حولهم، وقد بدأ ذلك الاتجاه في أواخر حياة الرسول ﷺ عندما بدأ نجاح رسالته يظهر، وقوي ذلك الاتجاه بعد وفاة الرسول ﷺ وانتشار الفتن في الجزيرة[١] ®.

وبهذا يتبين أن الحروب للمرتدين كانت لأهداف دينية في المقام الأول، لا سياسية فقط.

الخلاصة:

- لم تكن العرب زمن النبوَّة مُستعبدة حتى تكافح لنَيْل حريتها واستقلالها، وإنما اندفعت بعض قبائل العرب ـ خصوصًا في مناطق الأطراف من شبه الجزيرة ـ إلى الردة بدوافع عَصبيَّة قبليَّة تمكنت من نفوس هشَّة الدين غضَّة الإيمان، لم تتعود الخضوع لحكومة مركزية وسلطة عامة.
- كان كثير ممن دخلوا الإسلام قبل وفاة النبي ﷺ مباشرة لم يفهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، ولم تترسخ عقيدته في قلوبهم، وبخاصة ممن كانوا يسكنون في أطراف الجزيرة، فكان أكثر المرتدين من هؤلاء.
- قد تعددت دوافع المرتدين عن الإسلام، فكان من هذه الدوافع العصبية القبلية، وسوء فهم الإسلام ومبادئه، والطمع في مغنم أو جاه... إلخ، فلما توفي

---

١. موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مرجع سابق، ج١، ص٥٧٧، ٥٧٨.

® في **"حدّ الرِّدّة وحرية الاعتقاد"** طالع: الشبهة الثامنة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية).

الرسول ﷺ أظهروا ما في قلوبهم المريضة و أعلنوا ارتدادهم عن الإسلام.

- إن الدين الإسلامي أعطى الحرية لمعتنقيه، وأيضًا لمخالفيه، ولم يجبر أحدًا على اعتناقه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (الكهف: ٢٩)، فلم يُفْرَض الإسلام على أحد، ولم يقيد حرية أحد حتى يبحث عن حريته وينتهز الفرصة للحصول عليها.

- الإسلام لا يفرِّق بين الدِّين والدنيا والسياسة؛ فالدين هو مرجعيَّة الدنيا والسياسة، والدولة فيه دولة لها عقيدة، والاعتداء عليها وتهديدها تهديد للعقيدة نفسها، ودفع هذا الاعتداء جهاد ورباط.

- ولهذا لم يفرِّق الصحابة والمسلمون بين صنوف أهل الرِّدَّة، من مُتنبِّين ومرتدِّين ومانعي زكاة، فكلها إنكار للدين أو لِرُكْنٍ منه، وهو ما يستلزم المجاهدة والمقاتلة، فالأمر ينطلق كله من الدين وإليه يرجع وعلى الحفاظ على أركانه يَنْصَبُّ.

- إن حروب الردة حروب دينية وسياسية في الوقت نفسه؛ فهي دينية لإنكار المرتدين للدين أو لركن من أركانه، وهي سياسية لضرورة مواجهة كل ما من شأنه زعزعة نظام الدولة الإسلامية.

- إن الخروج على جماعة المسلمين من شأنه تفريق الكلمة، من هنا فإن مواجهة أمثال هؤلاء ضرورة للحفاظ على وحدة الأمة وتوحيد الكلمة؛ لذلك أحل الرسول ﷺ دم المسلم في ثلاث حالات كان من بينها: التارك لدينه المفارق للجماعة، وذلك في قوله ﷺ: "لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثَّيِّب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة"[1].

الشبهة الحادية والعشرون

الزعم أن أبا بكر رضي الله عنه كان يفتقد كثيرًا من الصفات المؤهلة للقيادة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن الخليفة الأول أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه كان يفتقد كثيرًا من الصفات المؤهِّلة للقيادة، ويستدلون على ذلك بأنه كان سريع البكاء كالنساء، وأنه كان يصدّق النبي ﷺ تصديقًا أعمى، وأن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه: "وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر رضي الله عنه" لا ينطبق عليه، كما يستدلون بأنه لم يكن له سابقة جهادية مميزة أو نصٌّ يؤهِّله للقيادة.

ويعقد هؤلاء مقارنة بين أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فيَرَوْن عليًّا جامعًا لما افتقده أبو بكر.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ (المائدة: ٤٥) (٦٤٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم (٤٤٧٠).

(*) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق. شبهات وردود: الرد على شبهات أحمد الكاتب حول إمامة أهل البيت ووجود المهدي المنتظر، السيد سامي البدري، نشر المؤلف، ط٣، ١٤٢١هـ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لأبي بكر الصديق العديد من الصفات التي كانت تؤهِّله للقيادة.

٢) كان أبو بكر الصديق قائدًا محنكًا، وعسكريًّا ملهمًا.

٣) لقد سبق أبو بكر الصديق رضي الله عنه الاستراتيجيات الحديثة بمئات السنين، وهذا يدل على تميزه، وتفوقه في القيادة.

٤) إن دعوى عدم صلاحية أبي بكر للخلافة والقيادة وتميز علي عنه في ذلك - دعوى باطلة استندت إلى أدلة ثبت عدم صلاحيتها.

التفصيل:

أولا. لأبي بكر الصديق رضي الله عنه العديد من الصفات التي تؤهله للقيادة:

لقد تمتع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالعديد من الصفات المميِّزة التي تؤهله لقيادة المسلمين، سواء أكان في الجاهلية أم الإسلام.

أما الجاهلية فقد كان رضي الله عنه فيها من وجهاء قريش وأشرافهم، وكان من بني تيم، وكانت إليه الأشناق، وهي الديات والمغارم، وكان الصديق من خيارهم في ذلك المجتمع، يستعينون به فيما نابهم، وكانت له بمكة ضيافات ومكارم لا يتجشَّم[1] مثلها أحد.

وقد اشتهر بعدة أمور منها:

- العلم بالأنساب، فقد كان أبو بكر عالمًا بالأنساب.

١. يتجشَّم: يتكلَّف الأمر على مشقة، والمقصود من هذا أن مكارمه تَفُوق مكارم غيره.

- التجارة، قد كان تاجرًا، ورحَّالة لأجل التجارة.
- كان موضع الألفة بين قومه، تميل القلوب إليه، فقد كان قومه يحبونه، ويحبون مجالسته، ويعترفون له بالفضل العظيم، والخلق الكريم، كالإعانة على النوائب وفعل المعروف، وغير ذلك من الأخلاق الكريمة.
- لم يشرب الخمر في الجاهلية قطّ، وذلك أنه حرّمها على نفسه قبل الإسلام، وبعد الإسلام بالطبع.
- لم يسجد لصنم قط، وكان يفتخر بذلك بعد دخوله الإسلام فيقول: ما سجدت لصنم[2].

كانت هذه بعضًا من الصفات التي يتحلى بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل إسلامه، وهي بلا شك لا غنى عنها لكل من يتصدَّى لحمل أمانة قيادة الأمة، وإذا كانت هذه بعضًا من الصفات الحميدة التي تحلّى بها قبل الإسلام، فبدخوله الإسلام تمتع بميزات كثيرة، وصفات حميدة تزيد عن الصفات التي تخلّق بها قبل الإسلام، وقد اكتسبها من معاشرته لرسول الله ﷺ، وتلمذته على الكتاب والسنة، ومن هذه الصفات التي شرف بها وشرفت به بعد دخوله الإسلام ما يأتي:

١. **الصديقية:** فقد لُقِّب أبو بكر بـ"الصديق"، وقد مضى هذا الاسم علمًا عليه، لم ينازعه فيه أحد، وهذه الصديقية منبثقة من الإيمان الذي وقر في قلبه رضي الله عنه، فقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان

٢. حديث الإفك دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، دار القمة، الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص٢٧٦، ٢٧٧ بتصرف يسير.

أهل الأرض لرجحهم"[1].

ومقام الصديقية الذي مُنحه أبو بكر ﷺ من أعلى المقامات في الوجود، بعد مقام الأنبياء، ولقد لقبّه إياه محمد ﷺ، ولم تُلَقِّبْه به الأمةُ؛ فقد ورد في البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ صعد أُحُدًا، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرَجَفَ[2] بهم، فقال رسول الله ﷺ: "اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان"[3].

بل نجد في رواية أخرى أن هذه التسمية جاءت من عند الله ﷻ؛ فعن حكيم بن سعد، قال: سمعت عليًّا يحلف: لله أنزل اسم أبي بكر من السماء: الصدّيق[4].

٢. **الأمانة**: فهو الأمين الزاهد في الدنيا والراغب في الآخرة.

ولا شك أن الصديقية هي مفتاح شخصيته، فقد كان يأخذ كل أمر بقوة كما ورد عن النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٩٣)، ولا يرد إلى قلبه - لحظة - الوهن أو الضعف أو الشك. وحين نعرف هذا المفتاح، نعرف سر عظمة هذه الشخصية التي قدّر الله تعالى لها أن تكون الرجل الأول بجوار رسول الله ﷺ، والرجل الأول بعده.

٣. **تمثُّله الصفات النبوية**: فقد تمثل أبو بكر الصفات النبوية، فوجدنا أن كثيرًا من الصفات التي كان يُوصَف بها رسول الله ﷺ يوصف بها الصديق ﷺ، ويكفي في التدليل على ذلك، ما ورد في قصة جواره مع ابن الدغنة:

فعن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشيًّا، فلما ابتُلي المسلمون، خرج أبو بكر ﷺ مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة، وهو سيد - قبيلة - القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرَج، ولا يَخرج، إنك تُكسِب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك[5].

أليست هذه الصفات هي الصفات نفسُها التي وَصَفت بها خديجة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ، بعد عودته إليها يرتجف بعد نزول الوحي عليه، حيث قالت له: "إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق"[6]؟!

---

١. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، باب ومن فضائل عمر بن الخطاب من حديث أبي بكر بن مالك عن مشائخه غير عبد الله (٦٥٣).

٢. رجف: اهتزَّ.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٧٢).

٤. أخرجه الطبراني في الكبير، العشرة المبشرين بالجنة، نسبة أبي بكر الصديق واسمه ﷺ أبو بكر عبد الله بن عثمان (١٤)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة باب وسماه الرسول ﷺ صديقًا، أنزل اسمه أبي بكر من السماء الصديق (٥٩).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩٢)، وفي موضع آخر.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

وكذلك كان أبو بكر ﷺ بكّاءً من خشية الله، سريع الدمعة، كثير الإشفاق من الموقف العظيم يوم القيامة، وكذلك كان محمد ﷺ.

٤. **سماحة أبي بكر ونظرته إلى المال**: لقد أنفق أبو بكر ﷺ ماله راضيًا للدعوة إلى الله تعالى، وفي مساندة النبي ﷺ، ومن الأحاديث التي تناولت هذا الأمر، وأشارت إليه:

- قول رسول الله ﷺ: "إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر"[١].
- قول رسول الله ﷺ: "إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله"[٢].
- قول رسول الله ﷺ: "ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر"، فبكى أبو بكر، وقال: "وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله"[٣][٤].

ولا شك أن إنفاق أبي بكر لماله في سبيل الله تعالى، يدل دلالة قاطعة على فضيلته؛ فالمال محك أصيل في كشف معادن الناس؛ إذ التعلق به تعلق شديد يصل إلى حالة الشغف الذي يوصل بعض الناس إلى درجة العشق، وتعس عبد الدنيا، عبد الدرهم والدِّينار.. فعندما يبذل المرء هذا المال في سبيل الله ﷻ لا لدنيا، ولا لفخر، ولا لرياء وسمعة، فلا شك أن تَصَرُّفَهُ هذا يدل على خير وفضيلة، وعمق إيمان، وقوة يقين بالله ﷻ.

٥. **شجاعته وجرأته**: لقد كان الصديق ﷺ شجاعًا مقدامًا، لايهاب أحدًا في الحق، لا تأخذه في الله تبارك وتعالى لومة لائم، غير هيَّاب ولا متردد، يقدم على الشأن من الشئون، للدفاع عن الحق، لنصرة دين الله، والدفاع عن رسوله ﷺ، رابط الجأش، قوي الجَنان.

ويكفي للتدليل على شجاعته ﷺ، ما ورد في حديث علي ﷺ، فقد قام خطيبًا، وقال: يا أيها الناس، من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفتُ منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا فقال لنا: من يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يهوي عليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، قائلًا: لا يهوي إليه أحد إلا أهوي إليه، فهذا أشجع الناس. قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يحاده، وهذا يقاتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله مادنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب ويجاهد هذا، ويُتَلْتِل[٥] هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، ثم رفع عليٌّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضَلَّت[٦]

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٤)، وفي مواضع أخرى.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٦١)، وفي موضع آخر.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل أبي بكر الصديق ﷺ (٩٤)، وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٣).

٤. التربية القيادية، د. منير الغضبان، دار الوفاء، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج١، ص٤٥: ٥٣ بتصرف.

٥. يُتَلتِل: أي يُقلِق ويُحرك بعنف، والمقصود أن أبا بكر تصدَّى لهم.

٦. اخضلَّت: نَدِيَت وابتَلَّت.

لِحيَتَه، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فبكى القوم، فقال علي ﷺ: فوالله لساعة من أبي بكر، خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[1].

كانت هذه بعضًا من الصفات التي تحلى بها أبو بكر الصديق ﷺ قبل الإسلام وبعده، وغيرها الكثير، ولكننا سنقتصر على ما ذكرناه حتى لا يتضخم الرد، مع العلم أن هذه الصفات تحتاج إلى مجلدات ومجلدات.

ثانيًا. كان أبو بكر ﷺ قائدًا محنكًا، وعسكريًّا ملهمًا:

لقد وضع الماوردي في الأحكام السلطانية، الشروط المعتبرة في أهل الإمامة، وجعلها سبعة وهي:

- العدالة على شروطها الجامعة.
- العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.
- سلامة الحواسِّ، من السمع والبصر واللسان؛ ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.
- سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة، وسرعة النهوض.
- الرأي المفضي إلى سياسة الرعية، وتدبير المصالح.
- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البَيْضَة[2].
- النسب، وهو أن يكون من قريش؛ لورود النص فيه، وانعقاد الإجماع عليه، ولا اعتبار بضرار حين شذّ فجوّزها في جميع الناس[3].

والناظر في هذه الشروط التي وضعها الماوردي يجدها متحققة جميعها في أبي بكر الصديق ﷺ، ولعل نجاحاته التي حققها في فترة خلافته خير دليل على ذلك. وسنقف أمام خطته التي وضعها لمواجهة المرتدين في حروب الردة، وهذه الخطة على النحو التالي:

١. ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع.

٢. نظَّم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة، ويبيتون حولها حتى يدفعوا أية غارة قادمة.

٣. عين على الحرس أمراءهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود ﷺ جميعًا.

٤. بعث أبو بكر ﷺ إلي من كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام، من أَسْلم، وغفار، ومُزَيْنة، وأَشْجَع، وجُهَيْنَة، وكَعْب ـ يأمرهم بجهاد أهل الرِّدَّة، فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة المنورة بهم، وكانت معهم الخيل والجمال التي وضعوها تحت تصرُّف الصديق ﷺ، ومما يدل على كثرة رجال هذه القبائلِ، وكبر حجم دعمها للصديق أن جهينة وحدها قَدِمت إلى الصديق ﷺ في أربعمائة من رجالها، ومعهم الظهر والخيل، وساق عمرو بن مرة الجهني مائة بعير لإعانة المسلمين، فوزعها أبو بكر في الناس.

٥. ومن ابتعد من المرتدين عن المدينة، وأبطأ خطره، حاربه بالكتب يبعث بها إلى الولاة المسلمين في أقاليمهم، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، يحرّضهم على

---

١. أخرجه البخاري في مسنده، مسند علي بن أبي طالب (٧٦١)، وأبو نعيم في فضائل الخلفاء الراشدين، باب خلافة أمير المؤمنين علي ﷺ، إنما لما كان يوم بدر جعلنا لرسول ﷺ (٢٣٧).

٢. البَيْضَة: الحِمَى.

٣. الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٦.

النهوض لقتال المرتدين.

٦. وأما من قرب منهم من المدينة واشتد خطره، كبني عبس وذبيان ـ فإنه لم ير بدًّا من محاربتهم على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تعيشها مدينة رسول الله ﷺ، فكان أن آوى الذَّراري[١] والعيال إلى الحصون والشِّعاب؛ محافظة عليهم من غدر المرتدين، واستعد للنِزال[٢] بنفسه ورجاله[٣].

لا شك أن هذه الخطة المحكمة التي وضعها أبو بكر ﷺ لقتال المرتدين تؤكِّد بما لايدع مجالًا للشك، أنه كان قائدًا محنكًا، وبطلًا مغوارًا، بالإضافة إلى رقته، وحنانه، ولا شك أن هذه الصفات معًا، تشكل عناصر القوة في شخصية أبي بكر الصديق ﷺ، وتدل أعظم دلالة على ما توفّر فيه من كفاءة في قيادة العمليات، ومن قدرة لتطبيق مبادئ الحرب بصورة رائعة.

ثالثًا. لقد سبق أبو بكر الصديق ﷺ الاستراتيجيات الحديثة بمئات السنوات، وهذا يدل على تميزه، وتفوقه في القيادة:

إن التسميات الحديثة لمبادئ الحرب والاستراتيجية هي من نتاج الفكر الحربي المعاصر، ولكن هذه التسميات في حد ذاتها ليست منقطعة الصلة عن جذورها الموغلة في عمق التاريخ وتجاربه؛ فالأشياء تُخْلَقُ قبل معرفتها، ويتم التعرف عليها بأشكالها وألوانها قبل إطلاق الأسماء عليها؛ ولذا نقول بكل ثقة: إن الصديق ﷺ مارس قيادته العسكرية بنجاح رائع اعتمادًا منه على "مبادئ الحرب" و"أسس السياسة الاستراتيجية".

لقد فعل الصديق ذلك كله بمعرفة تامة وإدراك عميق، غير أنه لم يكن يعرف يقينًا التسميات الحديثة لمبادئ الحرب والاستراتيجية، وإلا بماذا يمكن تسمية إعطاء الصّدّيق الأفضلية لحروب الردة، والانطلاق منها إلى الفتوح؟

هل هناك تسمية أفضل من "بناء القاعدة الصلبة"، وهو اصطلاح عسكري حديث؟

وهل يمكن تسمية قيادة الخليفة الصديق ﷺ لقوات المسلمين في بُهْمة الليل[٤] ومع التحرك بصمت ـ لا همسًا ولا حسًّا ـ حتي أصبحوا والعدو على صعيد واحد، ولم يشعر بهم، هل يمكن تسميتها بغير "المباغتة"؟

وما الاسم المناسب لحركة جيوش المسلمين، وقد ضجت بها أرض الجزيرة كلها، من أقصاها إلى أقصاها، وكيف يمكن وصفها وهي تنتقل من هدف إلى هدف ومن منطقة إلى منطقة؟

أليس اسم "حرب الحركة" هو الاسم الأفضل والأمثل لها؟

وسنقف على بعض تسميات القيادة الحديثة، والتي تعود بجذورها إلى أبي بكر الصديق ﷺ:

١. **قواعد الضبط والربط**: قبل ظهور هذه التسمية في الجيوش الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا كانت

١. الذَّرارِي: جمع ذُرِّيَّة، وهي نسل الإنسان.
٢. النِّزال: الحرب.
٣. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص٢٤٢: ٢٤٤ بتصرف يسير.

٤. بُهْمة الليل: ظلام الليل الشديد الظلمة، والبُهمة من الليالي هي التي لا يطلع فيها القمر.

وصايا الخليفة الصديق إلى قادته تمثل غاية أسس الانضباط، وقواعد الضبط والربط في أسمى صورها، يقول الصديق في وصيته للقادة المسلمين: "كن والدًا لمن معك، واقتصد بالمسلمين، وارفق بهم في السير والمنزل، وتفقّدهم، واستوص بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول"، وما أعظم العلاقة التي كانت تشد مجاهدي المسلمين بعضهم إلى بعض!

٢. **وحدة القيادة والقاعدة الصلبة:** لقد كان أهم ما عمله الصديق هو "إعادة توحيد المسلمين" وتوجيههم في تيار واحد، لا انحراف فيه، ولا حيدة عنه، وقد ضمن بذلك القدرة على العمل تحت قيادة واحدة، أو ما هو معروف باسم مبدأ "وحدة القيادة"، وكان دعم القاعدة الصلبة بالإنسان المسلم، هدف الدولة الإسلامية ووسيلتها في آن واحد، وصمدت القاعدة الصلبة للردة.

٣. **استراتيجية التقرب غير المباشر:** لقد كان البحث عن "الحسم في الصراع المسلح" بهدف الحد من ويلات الحرب هو الحافز الأساسي الذي دفع الصديق لتبنّي ما أصبح معروفًا في الأزمنة الحديثة باسم "استراتيجية التقرب غير المباشر"، وذلك للوصول إلى مؤخرات العدو، أو بلوغ العمق الاستراتيجي لمسرح العمليات، ويظهر هذا التوجه واضحًا عند الصديق ﷺ من خلال دفعه الجيوش إلى عمق بلاد الشام - حمص - وعمق بلاد العراق - أعالي الفرات، ولقد أصبح لاستراتيجية التقرب غير المباشر في الحروب الحديثة أهداف واحدة وطرائق مميزة، أهمها الوصول إلى عمق مسرح العمليات والاستناد إلى حاجز العمليات؛ لعزل مسرح العمليات وتدمير التجمعات القتالية الموجودة فيه، والعاملة على أرضه.

غير أن هدف "استراتيجية التقرب غير المباشر" عند الصدّيق كان في أساسه تطوير الاتصالات مع جماهير سكان البلاد، وتعريفهم بفضائل المسلمين، وما تحمله رسالة الإسلام السمحة من خير للإنسانية، واستثارة مشاعر الخير لدى الناس واكتساب الأنصار، مع العمل في الوقت ذاته على إعداد الظروف المناسبة؛ لحسم الصراع المسلح مع كتلة جيوش الأعداء، فكانت "استراتيجية التقرب غير المباشر" تعالج ما يمكن تسميته وفقًا للاصطلاحات الحديثة بـ "الحرب النفسية" جنبًا إلى جنب مع البحث عن "الحسم في الصراع المسلح".

كانت هذه بعضًا من صور الاستراتيجيات الحديثة التي تمُتُّ بصلة إلى أبي بكر الصديق ﷺ، وهي إن دلت فإنها تدل على تميزه القيادي والعسكري، فلو تم الأخذ بكل واحد من الأسس الاستراتيجية التي استخدمها الصديق بوضوح تام، كالأخذ بالمبادأة، والمباغتة، وحرب الحركة، والحرب التشتيتية، وتحقيق التوازن في القوى بنقل مسرح العمليات - لكان ذلك وحده كافيًا لوضعه على مستوى المفكرين الاستراتيجيين العالميين.

فكيف وقد وضع - أو بالأحرى حدَّد وأوضح - مجموعة من الأسس الاستراتيجية بصورة متكاملة، يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا بحيث يمكن اعتبارها في حد ذاتها مذهبًا عسكريًّا مستقلًا.

ويكفي دليلًا على تكامل الفكر الاستراتيجي لدى الخليفة أن المسلمين في عهده لم تنتكس لهم راية، ولم

يُهْزَم لهم جمع.

ولقد فَصَل الصدِّيق القائد بين السياسة الاستراتيجية وبين إدارة العمليات، أو قيادة الأعمال القتالية، وترك لقادته حرية العمل العسكري لإدارة العمليات القتالية بالأساليب التي يرونها مناسبة، وظاهرة الفصل بين ممارسة القيادة الاستراتيجية، وبين قيادة العمليات سبْق كبير في مجال "فن الحرب" لم تعرفه إلا الجيوش الحديثة[١].

رابعًا. الردّ على دعوى عدم صلاحية أبي بكر الصديق ﷺ للخلافة والقيادة، وتميز علي ﷺ عنه في ذلك:

لقد ادعتْ بعض الفرق عدم أهلية أبي بكر ﷺ للخلافة، وأفضلية علي بن أبي طالب ﷺ عليه في ذلك، مستدلين على دعواهم بالعديد من الأدلة التي سنفصلها مع الجواب عنها[٢] فيما يأتي بإذن الله تبارك وتعالى:

الدليل الأول: قالوا: إن النبي ﷺ لم يولِّ أبا بكر ﷺ عملًا يقيم فيه قوانين الشرع والسياسة، بل قد ولى عليه غيره، فدلّ ذلك على أنه لا يحسنها، وإذا لم يحسنها لم تصحَّ إمامته.

مناقشة هذا القول:

إن قولهم: إن رسول الله ﷺ لم يولِّ أبا بكر ﷺ شيئًا من الأعمال قولٌ باطلٌ؛ بدليل ما جاء عن سَلَمة بن الأكوع ﷺ قال: "غزوتُ مع النبي ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات، مرَّة علينا أبو بكر، ومرة علينا أسامة"[٣].

وقد أمَّره رسول الله ﷺ على الناس لما غزوا بني فَزَارة، وكان أميرًا على الحج في السنة التاسعة؛ فقد جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: "بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مُؤذِّنين يوم النَّحْر نُؤذِّن بمِنًى: ألا لا يَحُجُّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان". ثم أرسل رسول الله ﷺ عليًّا وراء أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ لقراءة سورة براءة[٤]، وكان فيها نَبْذ لعهود المشركين؛ وإنما أرسله لأن عادة العرب في أخذ العهد ونبذه ألا ينقض العهود ويحلها إلا رجل من قبيلة المطاع، ولذلك أرسل رسول الله ﷺ عليًّا ليبلغ سورة براءة، فبلغها وهو تحت إمرة أبي بكر، بدليل أن عليًّا أذَّن مع مؤذني أبي بكر، قال أبو هريرة: "فأذَّن معنا عليٌّ في أهل مِنًى يوم النَّحْر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان"[٥].

---

١. فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد بن حسين العفّاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٨: ١٥١ بتصرف.

٢. موقف الشيعة الاثنى عشرية من صحابة رسول الله ﷺ، د. عبد القادر بن محمد عطا صوفي، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٥٤٨: ٥٨٤ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات (٤٠٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب عدد غزوات النبي (٤٨٠٠).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب الصلاة في الثياب، باب ما يستر العورة (٣٦٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (٣٣٥٣).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب الصلاة في الثياب، باب ما يستر العورة (٣٦٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (٣٣٥٣).

وجَعْلُ المؤذنين شركاء لعلي بن أبي طالب في التبليغ صريح في أن عليًّا ﷺ إنما جاء بسبب عادة العرب التي تقدم ذكرها، ولم يأت لعزل أبي بكر ﷺ كما زعم الشيعة، وإلا لم يسع أبو بكر أن يُبقي مؤذنيه يؤذنون مع علي.

ويدل على ذلك أيضًا قول علي لما سأله أبو بكر: أمير أو مأمور؟ فقال علي: بل مأمور.

وكان علي يصلي خلف أبي بكر مع سائر المسلمين، ويأتمر لأمره كما يأتمر له سائر من معه، ونادى علي مع الناس في هذه الحَجَّة بأمر أبي بكر.

الدليل الثاني: وقالوا: كيف يصلح للإمامة من يستعين بالرعية على تقويمه، ومن يخبر عن نفسه أن الشيطان يدخل في أفعاله بقوله: "إن لي شيطانًا يعتريني"، ومن يحذّر الناس من نفسه بقوله: "فإذا رأيتموني مغضبًا فاجتنبوني"؛ فقد ذكروا أن أبا بكر صعد المنبر بعد مبايعته بالخلافة وقال: "وُلِّيتُ أمركم ولست بخيركم، فإن استقمتُ فاتبعوني، وإن اعوججت فقوِّموني، فإن لي شيطانًا يَعْتَرِيني، فإذا رأيتموني مغضبًا فاجتنبوني..."[1].

ويقال للشيعة: "إن هذه الأقوال من أبي بكر من أكبر فضائله ﷺ، وأدلها على أنه لم يكن يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فلم يكن طالب رئاسة، ولا كان ظالمًا، وإنه إنما كان يأمر الناس بطاعة الله ورسوله".

أما قوله: "إن لي شيطانًا يعتريني.. فليس فيه ذم له؛ لأن الشيطان الذي يعتريه يعتري جميع بني آدم، فإنه ما من أحد إلا وقد وكَّل الله به قرينه من الجن، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله! قال: وإياي. إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير"[2].

أما قول القائل: كيف تجوز إمامة من يستعين على تقويمه بالرعية؟ فهو كلام جاهل بحقيقة الإمامة؛ فإن الإمام ليس ربًّا لرعيته حتى يستغني عنهم، ولا هو رسول الله إليهم حتى يكون هو الواسطة بينهم وبين الله. وإنما هو والرعية شركاء، يتعاونون هم وهو على مصلحة الدين والدنيا؛ فلا بد له من إعانتهم، ولا بد لهم من إعانته، كأمير القافلة الذي يسير بهم في الطريق، إن سلك بهم الطريق اتبعوه، وإن أخطأ عن الطريق نبَّهوه وأرشدوه، وإن خرج عليهم صائل يصول عليهم تعاون هو وهم على دفعه.

الدليل الثالث: وقالوا: لا يصلح للخلافة من يقول: "أقيلوني، أقيلوني، فلستُ بخيركم وعليٌّ فيكم". فهذا القول من أبي بكر دليل على عدم صحة خلافته وأن عليًّا كان أولى بالأمر منه.

ويقال ردًّا على أصحاب هذا القول: "إن هذا كذب ليس في كتاب من كتب الحديث، وليس له إسناد معلوم، فإنه لم يقل: "وعلي فيكم"، بل الذي ثبت عنه في

1. أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق (٢٠٧٠١)، وأبو داود في الزهد، كتاب من كلام أبي بكر ﷺ، باب وليت أمركم ولست بخيركم، فإني أنا أحسنت فأعينوني (٣١).

2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحرش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٧٢٨٦).

الصحيح ما جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ يوم السَّقِيفة أن أبا بكر قال: "قد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عُبَيدة بن الجَرَّاح وهو جالس بيننا، فلم أكرهُ مما قال غيرها، كان والله أن أُقَدَّم فتُضْرَب عُنُقي لا يُقَرِّبُني ذلك من إثم أحبَّ إلي من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر"[١].

أما قوله: "أقيلوني، أقيلوني": فإن صحَّت نِسْبَته إليه فلا مَطْعَن فيه بسبب ذلك؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن صح هذا عن أبي بكر لم تَجُزْ معارضته بقول القائل: الإمام لا يجوز له طلب الإقالة، فإن هذه دعوى مُجَرَّدة لا دليل عليها، فلم لا يجوز له طلب الإقالة إن كان قال ذلك.

الدليل الرابع: قالوا: إنه ندم عند موته على أمور فعلها، منها قبول الخلافة، وهذا الندم منه يدل على أنه ليس مستحقًّا لها، وعلى أنه كان ظالمًا في غصبه للخلافة؛ فقد ذكروا أن أبا بكر ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: "ليتني كنت تركت بيت فاطمة لم أكشفه، وليتني في ظلة بني ساعدة ضربت على يد أحد الرجلين فكان هو الأمير وكنت وزيرًا، وليتني كنت سألت رسول الله ﷺ هل للأنصار في هذا الأمر حق". وقالوا: وهذا يدل على شكِّه في صحة بيعة نفسه، وفي استحقاقه للإمامة، ومن كان كذلك فلا يصلح للخلافة.

ويقال لهم: إن هذا الذي نُسِبَ إلى أبي بكر لا يثبت منه شيء، ولم يصح في مصدر من المصادر، ولا ذِكر له إسناد صحيح. ومعلوم أن من احتج في أية مسألة بشيء من النقل، فلا بد أن يذكر إسنادًا تقوم به الحجة، فكيف بمن يطعن في السابقين الأولين بمجرد حكاية لا إسناد لها.

الدليل الخامس: قالوا: والذي يدل على أن بيعة أبي بكر كانت فاسدة، وعلى أنه لا يصلح للإمامة قولُ الفاروق عمر عنها: "إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتَة وقى الله المسلمين شرَّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه"[٢].

وقالوا: إن قوله: "فلتة"، أي: أنها كانت خطأ وغير صواب، ولم تقع عن رأي صحيح، وقوله: "وقى الله المسلمين شرها": يدل على أنها كانت ذات شر، وما كان كذلك فالفساد أولى به. واعتبروا هذا القول من عمر ذمًّا لأبي بكر وتخطئة له.

ويقال لهؤلاء: إن قول عمر ﷺ عن بيعة أبي بكر: "إنها كانت فلتة" ليس فيه مطعن في أبي بكر ﷺ؛ فإن "فلتة" ليس معناها: زلة، أو خطيئة، بل قد نقل علماء اللغة أن معناها: الفجأة، التي لم تكن بعد استعداد لها، أو: هي آخر ليلة من كل شهر؛ قال ابن حجر: "الفلتة: هي الليلة التي يشك فيها، هل هي من رجب أو شعبان؟ وهل من المحرم أو صفر؟".

ومما يدل على أن مقالة عمر هذه ليس فيها مطعن بأبي بكر قوله في نفس الرواية: "وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر".

وإنها غاية ما قصد عمر ﷺ أن يقوله: إنها ـ أي: بيعة

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت (٦٤٤٢).

٢. إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب المغازي، باب ما جاء في خلافة أبي بكر وسيرته في الردة (٣٧٠٤٢)، وأحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ﷺ (٣٩١)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد (٣٩١).

أبي بكر - بودر إليها من غير تريث أو انتظار، ومن غير روية ومشاورة؛ وذلك لأن "ظهور فضيلة أبي بكر على من سواه، وتقديم رسول الله ﷺ له على سائر الصحابة أمر ظاهر معلوم، فكانت دلالة النصوص على تعيينه تغني عن المشاورة والانتظار والروية والتريث، وليس غيره مثله؛ فمن بايع غير أبي بكر عن غير انتظار وتشاور لم يكن له ذلك".

وليس معنى قول عمر: "ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى المسلمين شرها": أنها كانت ذات شر كما زعموا، بل مراده أن الله ﷻ وقاهم ما في العجلة من الشر، بدليل قوله: "فلتة"، أي: فجأة وعن غير مشاورة، قال ابن حبان: "معنى قوله: "كانت فلتة": أن ابتداءها كان عن غير ملأ كثير، والشيء إذا كان كذلك يقال له: فلتة، فيتوقع فيه ما لعله يحدث من الشر بمخالفة من يخالف في ذلك عادة، فكفى الله المسلمين الشر المتوقع في ذلك عادة، لا أن بيعة أبي بكر كان فيها الشر".

وقال ابن تيمية: "ومعنى ذلك أنها وقعت فجأة، ولم نكن قد استعددنا لها ولا تهيأنا، لأن أبا بكر كان متعينًا لذلك، فلم يكن يحتاج في ذلك إلى أن يجتمع لها الناس؛ إذ كلهم يعلمون أنه أحق بها، وليس بعد أبي بكر من يجتمع الناس على تفضيله واستحقاقه كما اجتمعوا على ذلك في أبي بكر، فمن أراد أن ينفرد ببيعة رجل دون ملأ من المسلمين فاقتلوه. وهو لم يسأل وقاية شرها، بل أخبر أن الله وقى شر الفتنة بالإجماع".

الدليل السادس: قالوا: إنه تخلّف عن جيش أسامة رغم لعْن رسول الله ﷺ لمن تخلّف عنه، والملعون من مثل رسول الله ﷺ لا يصلح للخلافة.

المناقشة: إن دعوى أن أبا بكر ؓ كان في جيش أسامة ثم تخلَّف عنه دعوى باطلة يردها ما تواتر من أمر النبي ﷺ له بالصلاة بالناس، ولو فرض جدلًا أن النبي ﷺ انتدب أبا بكر للخروج بجيش أسامة - لأن مرضه ﷺ كان بعد تعبئة الجيش بيوم واحد - فإنه ﷺ استثناه في اليوم التالي من انتدابه، حيث أمره أن يصلي بالناس كما تواتر ذلك؛ قال الحافظ ابن كثير: "ومن قال إن أبا بكر كان فيهم فقد غلط؛ فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة مخيم بالجرف. وقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس. فكيف يكون في الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين؟! ولو فُرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، ثم لما توفي ﷺ استطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب، فأذن له في المقام عند الصديق، وأنفذ الصديق بَعْث أسامة".

أما الحديث الذي نسبوه إلى رسول الله ﷺ: "لعن الله من تخلف عن جيش أسامة": فهو كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالنقل، فإن النبي ﷺ لم يقل: "لعن الله من تخلف عنه"، ولا نقل هذا بإسناد ثبت، بل ليس له إسناد في كتب أهل الحديث أصلًا".

الدليل السابع: قالوا: ومما يدل على عدم صلاحية أبي بكر للخلافة: جهله بكثير من أحكام الشرع؛ قال الزنجاني: "أبو بكر لم يكن عارفًا بالأحكام، فلا يجوز نصبه للإمامة".

وقد استدلوا على هذه الدعوى بالأدلة الآتية:

- **قالوا:** إنه أحرق الفجاءة السلمي من أجل غلطة بسيطة منه، مع أنه لا يحرق بالنار إلا رب النار.

ويقال لهم: إن هذا الذي ذكرتموه، هو في حق علي ﷺ أظهر منه في حق أبي بكر؛ فقد ثبت أن عليًّا أوتي بزَنَادِقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنتُ أنا لم أحرقهم؛ لنَهْي رسول الله ﷺ: "لا تُعذِّبوا بعذاب الله"، ولقتلْتهم؛ لقول رسول الله ﷺ: "من بدَّل دينه فاقتلوه"[1].

وقد ذكروا أن عليًّا أحرق بالنار عدة مرات؛ منها: مرة أمات فيها سبعين من أهل البصرة خنقًا بدخان نار أوقدها بجوارهم في بئر مغطًّى، ومرة قتل عشرة زعموا فيه الألوهية، وأحرق سوى هؤلاء قومًا آخرين، وكل هذا ثابت في كتبهم برواياتهم، عند الصدوق والكشي والطوسي وغيرهم.

ولهذا قال ابن تيمية: "إن كان ما فعله أبو بكر مُنْكرًا، ففِعْلُ عليٍّ أنكر منه، وإن كان فِعْلُ علي مما لا يُنكر مثله على الأئمة، فأبو بكر أَوْلَى أَلَّا يُنكر عليه".

- **قالوا:** إنه قطع يسار السارق، مع أن السارق إنما تقطع يده اليمنى.

وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "إن قول القائل: إن أبا بكر يجهل هذا من أظهر الكذب، ولو قدر أن أبا بكر كان يجيز ذلك لكان ذلك قولًا سائغًا؛ لأن القرآن ليس في ظاهره ما يعيِّن اليمين، لكن تعيين اليمين في قراءة ابن مسعود: (فاقطعوا أيمانهما)، وبذلك مضت السنة، ولكن أين النقل بذلك عن أبي بكر ﷺ أنه قطع اليسرى؟ وأين الإسناد الثابت بذلك؟ وهذه كتب أهل العلم بالآثار موجودة ليس فيها ذلك، ولا نقل أهل العلم بالاختلاف في ذلك قولًا، مع تعظيمهم لأبي بكر ﷺ".

- **وقالوا:** إنه لم يكن يعرف اللغة؛ حتى إنه سُئِلَ عن معنى "الأبّ"، فلم يعرف معناه. وهذا لم يصح عن الصديق ﷺ، بل روي عنه بإسناد منقطع.

- **وقالوا:** إن أبا بكر لم يكن يعرف معنى "الكلالة"، حتى قضى فيها برأيه، وقد سئل عنها فقال: أقول فيها برأيي، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان. قالوا: ولا يجوز إدخال الرأي في الأحكام الشرعية.

ويقال لهم: إن الصحابة ﷺ كانوا إذا تكلموا في مسألة باجتهادهم، قال أحدهم: أقول فيها برأيي، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

وهذا القول مروي عن جمع من الصحابة منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وغيرهم من الصحابة الثقات.

وكان الصحابة ﷺ يصيبون في أكثر اجتهاداتهم، ويأتي النص موافقًا لهذه الاجتهادات، وهذا ما حصل من أبي بكر ﷺ؛ فإن هذا الرأي الذي رآه في الكلالة قد اتفق عليه جماهير العلماء بعده؛ فإنهم أخذوا بقوله فيه: "هو من لا ولد له ولا والد".

- **وقالوا:** إنه قد خفي عليه أكثر أحكام الشريعة، حتى إن الجَدَّة جاءت إليه تطلب ميراثها، فقال لها: "لا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم (٦٥٢٤)، وفي موضع آخر.

أجد لك شيئًا"، واضطرب في أحكامه حتى إنه قضى في الجَدِّ بسبعين قضية.

ويقال لهم: إن ما ذكرتموه من كون الصديق رضي الله عنه قضى في الجد بأكثر من سبعين قضية؛ لا يصح، ولم ينقل عنه ذلك في أي كتاب من كتب أهل السنة والجماعة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في ردّه على مزاعم هؤلاء: "وأما ما ذكره من قضائه في الجد بسبعين قضية فهذا كذب، وليس هو قول أبي بكر، ولا نُقِلَ هذا عن أبي بكر، بل نَقْلُ هذا عنه يدل على غاية جهل هؤلاء الرَّوافِض وكذبهم".

أما الجَدَّات: فقد رُوي أن الجَدَّة جاءت إلى أبي بكر تسأله ميراثها. فقال لها: ما أعلمُ لكِ في كتاب الله شيئًا، ولا أعلمُ لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء حتى أسأل الناس، فسأل، فقال المُغِيرة بن شُعْبَة: سمعتُ رسول الله ﷺ جعل لها السُّدُس. فقال أبو بكر: مَن يشهد معك - أو من يعلم معك؟ فقام محمد بن مَسْلَمة الأنصاري، فقال مثل ذلك، فأَنْفَذه لها أبو بكر[1].

وهذا الحديث يدل على ورعه رضي الله عنه، فإنه لم يفصل في القضية رغم مبلغه من العلم، بل أرجأ فيها حتى يسأل من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما سألهم وجد عند بعضهم علمًا، فأخذ به.

وليس من شرط الإمام أن يعلم كل صغيرة وكبيرة من أمور الدين، بل قد يغيب عنه شيء من أمر الدين فيستدركه بنفسه بعد أن يجتهد فيه وينظر فيه، أو يستكمله بغيره ممن يعلمه.

- **قال سليم بن قيس عن الصديق رضي الله عنه:** بلغ من جهله أنه حكم بأن الجُنُب إذا لم يجد الماء لا يتيمَّم ولا يصلي ولو سنة.

وهذا من الكذب عليه والبهتان، ولم يورده إلا ابن قيس.

- **وقالوا:** وبلغ من جهله أنه أهمل حدود الله فترك إقامة الحد على خالد بن الوليد بن المغيرة الذي قتل مالك بن نويرة، وزنى بامرأته، ولم يقتله أبو بكر مع أن عمر أشار عليه بقتله، وقال عن خالد: "إنه زانٍ". وقالوا: إن مما يدل على أنه ترك إقامة الحد عليه رغم وضوح جرمه: كونه وَدَّ عند موته لو أنه حدَّ خالدًا على فعلته بمالك بن نويرة وزوجه.

ويقال لهم: أما قتل خالد مالك بن نويرة، فلعبارات صدرت منه ظاهرها الكفر؛ كقوله عن النبي ﷺ: "صاحبكم"؛ كأنه لا يعترف بنبوته ﷺ.

وأما امرأة مالك فإنه روي أنه تزوجها، ولم يثبت دخوله بها. أما دعوى أنه زنى بها ففِرْيَةٌ لا أساس لها ولا أصل عند أهل العلم بالأسانيد.

أما ما ذكروه من أن أبا بكر تمنَّى أن لو كان حدَّ خالدًا: فهذا افتراء مَحْضٌ لم يرد بطريق صحيح أو ضعيف، ولم ينقل أحد ذلك عنه، بل الثابت أنه كان في عدم معاقبته خالدًا وعزله مستنًّا برسول الله ﷺ لما ترك عزله حين قتل بني جَذِيْمة متأوِّلًا.

- **قالوا:** ومن الأدلة على جهله: قصة مجيء اليهودي إليه وسؤاله عن الله تعالى أين هو؟ أفي السماء أم في الأرض؟ فقد ذكر المفيد "أن بعض أحبار اليهود

---

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث محمد بن مسلمة النصارى رضي الله عنه (١٨٠٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة (٢٧٢٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد (١٨٠٠٩).

جاء إلى أبي بكرﷺ، فقال: أنت خليفة نبي هذه الأمة؟ فقال له: نعم، فقال: إنا نجد في التوراة أن خلفاء الأنبياء أعلم أممهم، فأخبرني عن الله تعالى أين هو، أفي السماء أم في الأرض؟ فقال أبو بكر: هو في السماء على العرش.

فقال اليهودي: فأرى الأرض خالية منه؟ وأراه على هذا القول في مكان دون مكان؟ فقال أبو بكر؛ هذا كلام الزنادقة، اغرب عني وإلا قتلتك. فولى الحبر متعجبًا يستهزئ بالإسلام. فاستقبله عليٌّ، فقال: يا يهودي قد عرفت ما سألت عنه وما أُجِبْتَ به، وإنّا نقول إن الله ﷻ أيّن الأين، فلا أين له، وجل أن يحويه مكان، وهو في كل مكان بغير مماسة ولا مجاورة، يحيط علمًا بما فيها، ولا يخلو شيء منها من تدبيره...".

ونقول للرد على هذه الفرية وهذه الأقوال التي نسبوها إلى علي: إنها لا تصح نسبتها إليه، ولا يقولها إلا جاهل، مخالف لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، يتقوّل على الله بغير علم، وهي أشبه ما تكون بقول الحلولية وأصحاب وحدة الوجود.

ولا شك أن إجابة أبي بكر هي الإجابة التي وافقت الكتاب والسنة؛ فهناك آيات كثيرة في القرآن أخبر الله ﷻ فيها عن استوائه على العرش صراحة، بحيث لا يفهم المخاطبون منها غير استوائه تعالى على عرشه، وارتفاعه، وعلوه فوق مخلوقاته، فهو ﷻ فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه، ولا يخلو شيء من علمه.

وكُتُبُ هؤلاء مليئةٌ بأمثال هذه القصص المكذوبة، والتي قصدوا من وراء ذكرها التدليل على أن عليًّا أحق بالخلافة لعلمه الجم الغزير، وأن أبا بكر لا يصلح للخلافة لجهله المطبق.

ولا ريب في أن أبا بكر الصديق ﷺ كان أعلم الصحابة، وأن الصحابة ﷺ كانوا يرجعون إليه في كثير من المسائل التي تعرض لهم، فيجيبهم عنها ﷺ، حتى علي ﷺ.

ومما يدل على أن أبا بكر ﷺ كان أعلم الصحابة بمراد رسول الله ﷺ ومقاصده في كلامه: ما جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: خطب النبي ﷺ فقال: "إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله". فبكى أبو بكر، فقلتُ في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ؟ فكان رسول الله هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا[1].

ونخلص من هذا كله إلى أن الله ﷻ منح أبا بكر الصديق ﷺ قبل الإسلام صفات خلقية، لم تجتمع - إذا استثنينا رسول الله ﷺ - في غيره؛ فلم يكن إلا صادقًا أمينًا، غير شارب لخمر، ولا ساجدًا لصنم، فلما جاء الإسلام كان أول معتنقيه وأعظم الذَّابِّين[2] عن رسوله ﷺ، فلما قدَّر الله أن يكون أول خليفة للمسلمين - كان أعظم خليفة، وكانت خلافته أعظم خلافة؛ فلم تنته فترة خلافته - ولم تتجاوز السنتين - إلا والإسلام راسخ قوي، والمرتدون عنه مغلوبون مقهورون، والفتوحات الإسلامية واسعة المدى شرقًا وغربًا. فهل يُعقَل بعد هذا أن يدَّعي مُدَّعٍ أنه كان يفتقد كثيرًا من

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٠) بلفظ: عبد خيره الله.

٢. الذَّابِّين: المدافعين.

الصفات المؤهلة للقيادة؟!

الخلاصة:

- كان أبو بكر رضي الله عنه يحمل الكثير من الصفات التي أهّلته للقيادة؛ كَوَجاهته في الجاهلية واستقامته وفضله آنذاك، ومسارعته إلى تصديق النبي ﷺ، والتبكير إلى دخول الإسلام، وأمانته الشديدة، وتمثله صفات النبي ﷺ، ومنها كثرة بكائه من خشية الله ورقة قلبه وعمق إيمانه.

- كان أبو بكر رضي الله عنه قائدًا محنكًا، وعسكريًّا ملهمًا؛ ففي خلال سنتين، هما كل فترة خلافته، أعاد العرب إلى حظيرة الإسلام، وثَبَّتَ مُلْك الإسلام وسلطانه في الجزيرة، وأَذِن لجيوش الإسلام بالانطلاق إلى خارج الجزيرة؛ لنشر دعوة الإسلام حيث حقق المسلمون في عهده انتصارات كبيرة على كلتا الجبهتين: الرومية والفارسية.

- سبق أبو بكر بفكره الحربي الاستراتيجيات العسكرية الحديثة، حيث نستطيع التأصيل لكثير منها بالرجوع إلى سيرة الخليفة الأول، واستقراء ملفه الجهادي العظيم.

- دعى عدم صلاحية أبي بكر للخلافة، وأن عليًّا رضي الله عنه كانو أفضل منه وأحق بها منه، إنما هي دعوى ساقطة لا تستند إلى أية حقيقة ثابتة أو دليل صحيح، إلا ما كان من الحقد الأعمى والكراهية السوداء للصحابة الكرام، وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه.

الشبهة الثانية والعشرون

الزَّعم أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان دكتاتورًا مستبدًّا لا يَقْبَل النَّقد والتوجيه (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه كان مستبِدَّ الرأي، وكان أشد ما يُزعجه النقد والتوجيه، مستدلين على ذلك بموقفه رضي الله عنه من المرتدين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الخطاب السياسي الأول لأبي بكر رضي الله عنه كان بمنزلة بيان دستوري يدور حول إرساء العدل وحرية النقد واستنصاح الأمة.

٢) أبو بكر رضي الله عنه ظل ملتزمًا بمبدأ المشاورة طوال مدة خلافته.

٣) لم يستبد أبو بكر رضي الله عنه برأيه في قتال المرتدين، بل شاور الصحابة وأقنعهم برأيه، فشرح الله صدورهم جميعًا للقتال.

التفصيل:

أولا. الخطاب السياسي الأول لأبي بكر رضي الله عنه كان يدور حول إرساء العدل وحرية النقد واستنصاح الأمة:

كان أبو بكر رضي الله عنه مثالًا للحاكم المسلم الملتزم بتعليمات القرآن والسنة، الحريص على إرساء مبادئ العدل والشورى والمساواة، وهذا ما أوضحه منذ اللحظة الأولى لتَوَلِّيه أمر الأمة. ولندع أحد الصحابة الكرام يصف لنا موقف أبي بكر رضي الله عنه ويروي لنا خطابه

(*) بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، مرجع سابق.

السياسي الأول، كما ينقله د. علي محمد محمد الصلابي:

قال أنس بن مالك: لما بُويع أبو بكر ﷺ في السَّقِيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر ﷺ فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أَهْلُه، ثم قال: "أيها الناس إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكنني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا ـ يقول يكون آخرنا ـ (يقصد: آخرهم موتًا)، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله ورسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه"، فبايع الناس أبا بكر ﷺ بعد بيعة السقيفة، فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: "أما بعد، أيها الناس؛ فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُرْجِعَ عليه حقه ـ إن شاء الله ـ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ـ إن شاء الله ـ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

وتُعَدُّ هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرر الصِّدِّيق ﷺ فيها قواعد العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركَّز على أن طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونصَّ على الجهاد في سبيل الله لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد[1].

وهي ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ميثاق سَامٍ للعلاقة بين الحاكم والمحكومين، وما بينهما من علاقات التناصح واقتسام مسئولية إقامة الشريعة الإسلامية، وإحقاق الحقوق ونشر العدل وبسط الأمن.

ويلزمنا ـ من حق أبي بكر ﷺ علينا ـ أن نتوقف قليلًا أمام بعض عباراته المضيئة في هذه الخطبة المباركة، والتي يتناولها د. الصلَّابي بالتحليل الدقيق:

قال أبو بكر ﷺ: فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني.

فهذا الصديق ﷺ يُقرُّ بحق الأمة وأفرادها في الرقابة على أعماله ومحاسبته عليها، بل في مقاومته لمنع كل منكر يرتكبه، وإلزامه بما يعتبرونه الطريق الصحيح والسلوك الشرعي، وقد أقرَّ الصديق ﷺ في بداية خطابه للأمة أن كل حاكم مُعرَّض للخطأ والمحاسبة، وأنه لا يستمد سلطته من أي امتياز شخصي يجعل له أفضلية على غيره؛ لأن عهد الرسالات والرسل المعصومين قد انتهى، وإن آخر رسول كان يتلقى الوحي انتقل إلى جوار ربه، وقد كانت له سلطة دينية مستمدة من عصمته بوصفه نبيًّا، ومن صفته بوصفه رسولًا يتلقَّى التوجيه من السماء، ولكنَّ هذه العصمة قد انتهت بوفاته ﷺ، وبعد وفاته ﷺ أصبح الحكم والسلطة

---

١. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص١٦٨، ١٦٩ بتصرف يسير.

مُسْتَمَدَّيْن من عقد البيعة وتفويض الأمة له.

إن الأمة في فقه أبي بكر ﷺ لها إدارة حية واعية، لها القدرة على المناصرة والمناصحة والمتابعة والتقويم، فالواجب على الرعية نُصرة الإمام الحاكم بما أنزل الله، ومعاضدته ومناصرته في أمور الدين والجهاد، ومن نصرة الإمام ألا يُهان، ومن معاضدته أن يُحترم وأن يُكرَّم، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله تستوجب تبجيله؛ إجلالًا وإكرامًا لشرع الله الذي يُنَافِحُ عنه ويُدافع.

قال رسول الله ﷺ: "إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيْبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المُقْسِط"[1]. والأمة واجب عليها أن تُناصح وُلَاة أَمْرِها، قال ﷺ: "الدين النصيحة". ثلاث مرات، فقال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ﷻ ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[2].

ولقد استقر في مفهوم الصحابة أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن باستقامة وُلاتها، ولذلك كان من واجبات الرعية تجاه حكامهم نصحهم وتقويمهم، ولقد أخذت الدولة الحديثة تلك السياسة الرائدة للصديق ﷺ وترجمت ذلك إلى لجان متخصصة ومجالس شورية، تمد الحاكم بالخطط، وتزوده بالمعلومات، وتشير عليه بما يحسن أن يقرره، والشيء المحزن أن كثيرًا من الدول الإسلامية تُعرض عن هذا النظام الحكيم، فعظمت مصيبتها في تسلط الحكام وجبروتهم، والتخلف الذي يَعُمُّ معظم ديار المسلمين ما هو إلا نتيجة لتسلط بغيض، ودكتاتورية لَعِيْنَة، أماتت في الأمة روح التناصح والشجاعة، وبذرت فيها وزرعت بها الجبن والفزع إلا من رحم ربي، وأما الأمة التي تقوم بدورها في مراقبة الحاكم ومناصحته فهي أمة تأخذ بأسباب القوة والتمكين في الأرض، فتنطلق إلى آفاق الدنيا تُبلِّغ دعوة الله.

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد: الشورى، والعدل، والمساواة، والحريات؛ ففي خطاب الصديق ﷺ للأمة أقرَّ هذه المبادئ؛ فالشورى تظهر في طريقة اختياره وبيعته وفي خطبته في المسجد الجامع، بمحضر من جمهور المسلمين، ولا شك أن العدل في فكر أبي بكر ﷺ هو عدل الإسلام الذي هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي، فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل.

وأما مبدأ المساواة الذي أقرَّه الصديق في بيانه الذي ألقاه على الأمة، فيُعَدُّ أحد المبادئ العامة التي أقرَّها الإسلام، وهي من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم، وسبق به تشريعات العصر الحاضر وقوانينه، ومما ورد في القرآن الكريم تأكيدًا لمبدأ المساواة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ

---

1. حسن: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب السير، باب ما جاء في الإمام العادل (٣٢٥٦١)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب إجلال الكبير (٣٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨).
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٢٠٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات).

إن الناس جميعًا في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود.

لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة، والحكام والمحكومون كلهم في نظر الشرع سواء، وجاءت ممارسة الصِّدِّيق لهذا المبدأ خير شاهد على ذلك؛ حيث يقول: "وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه".

لقد اتبع أبو بكر ﷺ المنهج الرباني في إقرار العدل، وتحقيق المساواة بين الناس، وراعى خقوق الضعفاء؛ فرأى أن يضع نفسه في كفة هؤلاء الواهنة أصواتهم، فيتبعهم بسمع مرهف، وبصر حادٍّ، وإرادة واعية لا تستذلها عوامل القوة الأرضية فتملي كلمتها.. إنه الإسلام في فقه رجل الدولة النَّابِه الذي قام يضع القهر تحت أقدام قومه، ويرفع بالعدل رءوسهم، فيُؤَمِّن به كيان دولته، ويحفظ لها دورها في حراسة الملة والأمة.

لقد قام أبو بكر الصديق ﷺ منذ أول لحظة بتطبيق هذه المبادئ السامية، فقد ﷺ كان يدرك أن العدل عزٌّ للحاكم والمحكوم، ولهذا وضع الصديق ﷺ سياسته تلك موضع التنفيذ وهو يردد قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ (النحل).

كان أبو بكر يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم، وحرية الدعوة إليه، وإنما تتم الطمأنينة للمسلمين ما دام الحاكم قائمًا فيهم على أساس من العدل المجرد عن الهوى.

والحكم على هذا الأساس يقتضي الحاكم أن يسمو فوق كل اعتبار شخصي، وأن يكون العدل والرحمة مجتمِعَيْن، وقد كانت نظرية أبي بكر ﷺ في تولي أمور الدولة قائمة على إنكار الذات، والتجرد لله تجردًا مطلقًا، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المجتمع، ويسمو بعدله على كل هوى، وينسى في سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله، ثم يتتبع أمور الدولة جليلها ورقيقها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر[1].

وهكذا أرسى أبو بكر ﷺ مبادئ الشورى والعدالة في أول خطبة له بعد بيعته الميمونة، وقد اتخذ هذه الخطبة منهجًا لحكمه لم يَحِدْ عنه قط.

ثانيًا. لقد ظل أبو بكر الصديق ملتزمًا بمبدأ المشاورة وخفض الجناح للنقد طول مدة خلافته الراشدة:

بدأ أبو بكر ﷺ خلافته بذلك الدستور الذي أعلنه على الناس، والذي كان نِبْرَاسًا[2] لحُكْمه، وملخصًا لمنهجه في خلافته القصيرة، وقد التزم ﷺ بروح الشورى، وخفض جناحه لمقالات النقد والتقويم مع التزامه التام بتعاليم الإسلام وأوامر النبي ﷺ، ومن المواقف التي تَبْرُزُ فيها هذه الروح الرائعة:

١. **بعث أسامة والخلاف حول إنفاذه:** كان النبي ﷺ

---

١. أبو بكر الصديق، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص١٧٣: ١٧٩ بتصرف.

٢. النِّبْراس: المصباح.

قد أوصى خليفته بإنفاذ بعث أسامة؛ لتأديب قبائل قضاعة؛ لموالاتهم للروم ضد جيش المسلمين، ولكن عندما ارتدت العرب، ورَمَت المسلمين عن قوس واحدة، خشي الصحابة أن تخلو المدينة من الجند، فيدهمها المرتدون، وأشار بعضهم على أبي بكر ﷺ بتأجيل إنفاذ بعث أسامة، وأفضوا إليه بمخاوفهم وهواجسهم، واستمع أبو بكر ﷺ لآرائهم ووجهات نظرهم، وفي النهاية ذكَّرهم بأمر النبي ﷺ بخصوص بعث أسامة وضرورة إنفاذه، وأنه ليس محلًا للنقاش والتشاور؛ إذ سبق أمر النبي ﷺ فيه. وقد وجد الصحابة ـ بعدُ ـ بَرَكة رأي أبي بكر وسداده. يقول د. الصلابي: "ومما نستفيده من هذه القصة أنه قد يحدث الخلاف بين المؤمنين الصادقين حول بعض الأمور، فقد اختلفت الآراء حول إنفاذ جيش أسامة ﷺ في تلك الظروف الصعبة، وقد تعددت الأقوال حول إمارته ولم يَجُرُّهم الخلاف في الرأي إلى التباغض والتشاجر، والتدابر والتقاطع، والتقاتل، ولم يُصِرُّ أحد على رأي بعد وضوح فساده وبطلانه، وقد ردَّ الصِّدِّيق الخلاف إلى ما ثبت من أمر النبي ﷺ ببعث أسامة، وبيَّن ﷺ أنه ما كان ليفرِّط فيما أمر به رسول الله ﷺ مهما تغيرت الأحوال وتبدلت، واستجاب بقية الصحابة لحكم النبي ﷺ بعدما وضَّحه لهم الصِّدِّيق، كما أنه لا عبرة برأي الأغلبية إذا كان مخالفًا للنص، فقد رأى عامة الصحابة حبس جيش أسامة، وقالوا للصديق: إن العرب قد انتقضت عليك وإنك لا تضع بتفريق الناس شيئًا. فأولئك الناس لم يكونوا كعامة الناس، بل كانوا من الصحابة الذين هم خير مَن وُجدوا على الأرض بعد الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ، لكن الصديق ﷺ لم يستجب لهم مُبيِّنًا أن أمر الرسول ﷺ أجل وأكرم وأوجب وألزم من رأيهم لهم.

وقد تجلَّت هذه الحقيقة في حادثة وفاة النبي ﷺ حين ظَنَّ بعض الصحابة ﷺ ـ وفيهم عمر ﷺ ـ أن النبي ﷺ لم يَمُت، ورأى عدد قليل منهم ـ منهم أبو بكر ﷺ ـ أنه ﷺ قد مات، وقد تمسَّك أبو بكر بالنصِّ وبيَّن خطأ من قال: إن رسول الله ﷺ لم يمت.

فخلاصة الكلام أن مما نستفيده من قصة إنفاذ الصديق جيش أسامة ـ رضي الله عنهما ـ أن تأييد الكثرة لرأي ليس دليلًا على إصابته، ومما يستفاد من هذه القصة انقياد المؤمنين وخضوعهم للحق إذا اتضح لهم، فعندما ذكَّرهم الصِّدِّيق أن النبي ﷺ قد أمر بإنفاذ جيش أسامة وهو الذي عَيَّن أسامة أميرًا على الجيش، انْقَاد أولئك الأبرار للأمر النبوي الكريم"[1].

وثمة لمحة مهمة نراها من الصديق حين كان يودِّع بعث أسامة، فإنه كان محتاجًا لعمر ﷺ للمشورة والمعاونة، لكنه ـ وهو الخليفة ـ لم يتقدم القائد العام للجيش ـ وعمر جندي فيه ـ، فقال لأسامة ـ بكل أدب ـ: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له"[2].

٢. مفاوضات الصلح مع وفود المرتدين: عندما جاءت هذه الوفود إلى أبي بكر ﷺ لم ينفرد بالرأي في مناقشتهم، بل أشرك ـ كعادته ـ عمر ﷺ. فعن طارق بن شهاب قال: جاء وفد بذاخة وأسد وغطفان إلى أبي

---

١. أبو بكر الصديق، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

٢. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، مرجع سابق، ج١، ص٨٥.

بكر يسألونه الصلح، فخيَّرهم أبو بكر بين الحرب المجلية أو السلم المخزية، قال: فقالوا: هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية؟

قال أبو بكر الصديق: تُؤدُّون الحَلْقَة[١] والكُرَاع[٢]، وتتركون أقوامًا يتَّبعون أَذْناب الإبل، حتى يُرِيَ الله تبارك وتعالى خليفةَ نبيِّه والمسلمين أمرًا يَعْذِرُونكم به، وتَدُونَ قتلانا ولا نَدِي قتلاكم[٣]، وقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، وتَرُدُّون ما أصبتم منا ونَغْنَمُ ما أصبنا منكم.

قال: فقال عمر: رأيت رأيًا وسأشير عليك: أما أن يُؤدُّوا الحلقة والكراع فَنِعْمَ ما رأيت، وأما أن يتركوا أقوامًا يتبعون أذناب الإبل حتى يُرِي الله خليفةَ نبيِّه والمسلمين أمرًا يعذرونهم به فَنِعْمَ ما رأيت، وأما أن نغنم ما أصبنا منهم ويردُّون ما أصابوا منا فَنِعْمَ ما رأيت، وأما أن قتلاهم في النار وقتلانا في الجنة فَنِعْمَ ما رأيت، وأما أن يَدُوا قتلانا فَلَا، قتلانا قُتِلوا على أمر الله فلا دِيَّات لهم، فتتابع الناس على ذلك[٤].

٣. وفي فتوح الشام: يروي لنا د. الصلابي موقف أبي بكر ﷺ حينئذٍ، فيقول: وحين أراد أبو بكر ﷺ أن يغزو الروم ويُعِدَّ الجيوش لفتح بلاد الشام شاور في ذلك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وبعد أن أخذ رأيهم وما أجمعوا عليه أَمَرَ الجند بالتجهيز للتوجه لما أُمروا به، وكان مما أوصى به الصِّدِّيق ﷺ أمراء جند الشام وقادتهم أن يعملوا بالمشورة، فَمِن ذلك ما قاله ليزيد بن أبي سفيان: هذا ربيعة بن عامر من ذوي العلاء والمفاخر، قد علمت صولته، وقد ضممتُه إليك وأمَّرتُك عليه، فاجعله في مقدمتك، وشاوره في أمرك ولا تخالفه، قال يزيد حبًّا وكرامة، وأضاف أبو بكر ﷺ قائلًا: إذا سرت فلا تضيِّق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك، وشاورهم في الأمر واستعمل العدل. كما قال ليزيد بن أبي سفيان حول مبدأ الشورى والالتزام بها: وإذا اسْتَشَرْتَ فاصْدُق الخبر تَصْدُقْ لك المشورة، ولا تكتم المستشار فَتُؤْتَى من قِبَل نفسك.. إلى غير ذلك مما قاله ليزيد. وقد أوصى أمراء جند الشام بما لا يخرج عن ذلك، وامتثل قادة الصديق بما أُمروا به من إجراء المشورة فيما بينهم، فقد قال أبو عبيدة بن الجراح لعمرو بن العاص: ياعمرو، لرب يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك، وإنما أنا رجل منكم ولست ـ وإن كنت الوالي عليكم ـ بقاطع أمرًا دونكم فاحضرني رأيك في كل يوم بما ترى، فإنه ليس بي عنك غنى. هذا بالإضافة إلى طلب القادة في أرض المعركة من القيادة العليا المركزية المشورة فيما أُشكل عليهم من أمور الإدارة العسكرية لمرحلة وضع الخطط الحربية والتنفيذ ومعاملة الأسرى[٥].

---

١. الحَلْقَة: السلاح.

٢. الكُرَاع: الخَيل.

٣. تَدُون قتلانا ولا نَدِي قتلاكم: أي تدفعون الدِّيَة لنا، ولا ندفعها لكم.

٤. موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، خديجة النبراوي، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٣٦٧.

٥. أبو بكر الصديق، د. الصلابي، مرجع سابق، ص٤٦٩، ٤٧٠.

٤. وصايا أبي بكر لعماله بالتزام المشاورة والمناصحة: تقول الدكتورة خديجة النبراوي: وهنا نرى توجيهات الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأمرائه بضرورة المشورة والبعد عن استبداد الرأي:

- عن الحارث بن الفضيل قال: لما عقد أبو بكر ليزيد بن أبي سفيان قال: يايزيد إنك شاب تُذْكَر بخير قد رُؤِي منك، وذلك شيء خلوت به في نفسك، وقد أردت أن أبلوك وأستخرجك من أهلك، فانظر كيف أنت وكيف ولايتك؟ وأَخْبُرُكَ فإن أحسنت زدتك، وإن أسأت عزلتك، وقد وليتك عمل خالد بن سعيد، ثم أوصاه وقال له: أوصيك بأبي عبيدة بن الجراح خيرًا، فقد عرفت مكانه من الإسلام، وإن رسول الله ﷺ قال: "لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عُبَيدة بن الجَرَّاح"[١]. فاعرف له فضله وسابقته، وانظر مُعاذ بن جبل فقد عرفت مشاهده مع رسول الله ﷺ، وإن رسول ﷺ قال: "معاذ بن جبل إمام العلماء بِرَتْوَة[٢] يوم القيامة"[٣]. فلا تقطع أمرًا دونهما، وإنهما لن يألوا بك خيرًا، قال يزيد: يا خليفة رسول الله، أوصهما بي كما أوصيتني بهما، قال أبو بكر: لن أدع أن أوصيهما بك، فقال يزيد: يرحمك الله، وجزاك الله تعالى عن الإسلام خيرًا[٤].

- وعن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي قال: لما عزل أبو بكر خالدَ بن سعيد أوصى شرحبيل بن حسنة، وكان أحد الأمراء، قال: انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرفه لك من الحق عليه لو خرج واليًا عليك، وقد عرفت مكانه من الإسلام، وأن رسول الله ﷺ تُوفي وهو له والٍ، وقد كنت ولَّيتُه ثم رأيت عزله، وعسى أن يكون ذلك خيرًا له في دينه، ما أغبط أحدًا بالإمارة، وقد خيرته في أمراء الأجناد، فاختارك على غيرك وعلى ابن عمه، فإذا نزل بك أمر يحتاج فيه إلى رأي التَّقِي الناصح، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، وليكن ثالثًا خالد بن سعيد، فإنك واجد عندهم نصحًا وخيرًا، وإياك واستبداد الرأي عنهم أو تطوي عنهم بعض الخبر[٥].

٥. استخلاف عمر: وهذه إحدى مناقب أبي بكر الكبرى، وحسناته العظيمة التي لا ينساها له التاريخ أبدًا، إذ استخلف عمر بن الخطاب (أبا حفص) الذي "كان إسلامه فتحًا، وهجرته نصرًا، وخلافته رحمة"، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

وفي استخلاف أبي بكر له يظهر نوع من الشورى الرفيعة... شورى أهل الحل والعقد، فعندما ثقل أبو بكر، واشتد به المرض وأحس بدنوِّ الأجل قام بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران (٤١٢١)، وفي موضع آخر.
٢. الرَّتْوة: المِيْل أو رَمْية سهم.
٣. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الميم، معاذ بن جبل الأنصاري، عقبي بدري يُكنى أبا عبد الرحمن (٤٠)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر مناقب أحد الفقهاء الستة من الصحابة معاذ بن جبل رضي الله عنه (٥١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٠٨٢٠).
٤. موسوعة أصول الفكر، خديجة النبراوي، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٨.
٥. المرجع السابق، ص٢٥٧.

يفصلها د. الصلَّابي قائلًا: وتشاوَرَ الصحابة ﷺ، وكلٌّ يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه، ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية؛ لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبدَ الرحمن بن عوف، فقال له: أخبرني عن عمر، فقال له: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني، فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تَرَكْتُهُ ما عَدَتْك.

ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يُسِرُّ خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وكذلك استشار سعيد بن زيد وعددًا من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريبًا كانوا برأي واحد في عمر إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقد قال لأبي بكر: ما أنت قائل لرَبِّك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني، أبالله تخوفوني؟ خاب من تزوّد من أمركم بظلم، أقول: اللهم اسْتَخْلَفْتُ عليهم خيرَ أَهْلِكَ.

وبَيَّنَ لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يراني رقيقًا ولو أُفْضِي الأمر إليه لترك كثيرًا مما عليه.

ثم كتب الصديق ﷺ عهدًا مكتوبًا يُقْرأ على الناس في المدينة وفي الأمصار عن طريق أمراء الأجناد فكان نص العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلًا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا، فإن عَدَلَ فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بَدَّلَ فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ (الشعراء).

إن عمر بن الخطاب هو نُصْح أبي بكر الأخير للأمة، فقد أبصر الدنيا مقبلة تتهادى وفي قومه فاقة قديمة يعرفها، فإذا ما طَلُّوا لها استشرفتهم شهواتها، فنكلت بهم واستبدت، وذاك ما حذرهم رسول الله ﷺ إياه، قال رسول الله ﷺ: "فوالله لا الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم، فَتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوهَا وتهلككم كما أهلكتهم"[1].

لقد أبصر أبو بكر الداء فأتى لهم ﷺ بدواء ناجع... جبل شاهق، إذا ما رأته الدنيا أيست وولت عنهم مدبرة، إنه الرجل الذي قال فيه النبي ﷺ: "إيهٍ يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أموال الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٩٨٨)، وفي مواضع اخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتية بن سعيد (٧٦١٤).

فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك"[1].

إن الأحداث الجسام التي مرت بالأمة، قد بدأت بقتل عمر، هذه القواصم خير شاهد على فراسة أبي بكر في العهد لعمر، فعن عبد الله بن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: صاحبة موسى التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ (القصص)، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (يوسف: ٢١)، وأبو بكر رضي الله عنه حين استخلف عمر[2]، فقد كان عمر هو سد الأمة المنيع الذي حال بينها وبين أمواج الفتن.

وقد أبلغ أبو بكر رضي الله عنه الناس بلسانه واعيًا مدركًا حتى لا يحصل أي لبس، فأشرف على الناس وقال لهم: أترضون بما أستخلف عليكم، فإني والله ما أَلَوْتُ[3] من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا. ثم توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيي، فولَّيت عليهم خيرهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم فهم عبادك.

وكلف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يتولى قراءة العهد على الناس وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبي بكر بعد أن ختمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر دون أي آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به.

إن الخطوات التي سار عليها أبو بكر الصديق في اختيار خليفته من بعده لا تتجاوز الشورى بأي حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة في تولية أبي بكر نفسه. وهكذا تم عقد الخلافة لعمر رضي الله عنه بالشورى والاتفاق، ولم يورد التاريخ أي خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أنَّ أحدًا نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته في أثناء حكمه، فكان الجميع وحدةً واحدة.

وبعد أن بايع الناس لعمر بن الخطاب اختلى به الصديق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإبراء ذمته من أي شيء، حتى يمضي إلى ربه خاليًا من أي تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده، وقد جاء في الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملًا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلًا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك (٥٧٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر (٦٣٥٥).

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، باب العين، عبد الله بن مسعود الهذلي يكنى أبا عبد الرحمن حليف بني زهرة بدري (٨٨٢٩)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة يوسف عليه السلام (٣٣٢٠)، وصححه الذهبي في التلخيص على المستدرك (٣٣٢٠).

٣. أَلَوْتُ: قصَّرت.

باتباعهم الباطل وحُقَّ لميزان يوضَع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راهبًا، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله..."[1] ®.

وهكذا كانت الشورى، ورحابة الصدر، وتقبل النقد صفات عاش بها الصِّدِّيق واتخذها منهجًا في حياته، وجعلها تراثًا لمن جاء بعده، وتركها علامة مضيئة في الصفحات الأولى من سجل التاريخ الإسلامي العظيم.

ثالثًا. موقف أبي بكر ﷺ من المرتدين:

لقد توعد الله تبارك وتعالى أولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فأنزل تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾ (البقرة).

ولذا لما بزغت الفتنة من جُحُورها، وانتفض المرتدون، وهُدِمت أركان الدين؛ قام أبو بكر ﷺ في الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمدًا ﷺ والعلم شَرِيد، والإسلام غريب طَرِيد، قد رَثَّ[2] حبلُه، وخَلَق ثوبه، وضلَّ أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرًا لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرًّا لشر عندهم، وقد غيَّروا كتابهم، وألحقوا فيه ما ليس منه.

والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من الله، لا يعبدونه، ولا يدعونه، فأجهدهم عيشًا، وأظلهم دينًا في ظَلَف[3] الأرض مع ما فيه من سحاب، فختمهم الله بمحمد وجعلهم الأمة الوسطى، ونصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيه ﷺ فركب منهم الشيطان مركبه، وبغِي هلكتهم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ (آل عمران).

إن من حولكم من الأعراب قد منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم، وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على متقدم من بركة نبيكم وقد وكلكم إلى المولى الكافي الذي وجده ضالًا فهداه، وعائلًا فأغناه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ (آل عمران).

---

١. أبو بكر الصديق، د. الصلابي، مرجع سابق، ص٤٧٣: ٤٧٧ بتصرف.

® في **"اعتماد استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب على مبدأ الشورى"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

٢. رَثَّ: بَلِي.

٣. الظَّلَف: ما غَلُظ من الأرض واشتد.

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله ﷻ وعده، ويوفي لنا عهده، ويقتل من قتل شهيدًا من أهل الجنة، ويبقي منها خليفته وذريته في أرضه قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)﴾ (النور)[1].

فقد بيّن ﷺ شيئًا من غدر الأعراب وجفائهم، وأن الشيطان بعد وفاة رسول الله ﷺ ركب منهم مركبه، وشرح الله تبارك وتعالى قلب أبي بكر الصديق واتخذ القرار بقتال مانعي الزكاة، وقد وجد بعض الصحابة حرجًا في صدورهم من هذا القرار؛ لأن مانعي الزكاة هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وقد أخبر ﷺ أن من قال: لا إله إلا الله فقد عُصم دمه وماله.

فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: لما تُوفِّي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال ﷺ: "أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله"، فقال أبو بكر: والله، لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله، لو منعوني عِناقًا[2] - وفي رواية: عِقالًا[3] - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها[4]. قال عمر: فوالله، ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر، فعرفت أنه الحق. ثم قال عمر بعد ذلك: والله، لقد رَجَحَ إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعًا في قتال أهل الرِّدَّة[5].

فها هو عمر الفاروق ﷺ قد شرح الله صدره وصدر باقي الصحابة لقتال المرتدين، وتخيل معي - أيها القارئ النبيه - لو لم يتخذ الصديق مثل هذا القرار! فلربما عاثَتْ[6] الجاهلية في الأرض كما كانت قبل الإسلام، ولكن الله أراد لدينه العِزَّة والمَنَعَة، فاستعمل لهذا الدين رجالًا أمثال أبي بكر.

والشورى في موقفه ﷺ من المرتدين تتضح جلية عندما سمع وجهات نظر الصحابة، ثم اتخذ قراره وعزم على خوض الحرب بعد أن شرح الله صدور الصحابة ﷺ لهذا الأمر، ولقد اقتنع المسلمون بصحة رأيه ورجعوا إلى قوله واستصوبوه[7]. فأين - إذًا - استبداده بالرأي؟!

الخلاصة:

- الخطاب السياسي الأول لأبي بكر ﷺ كان بيانًا

١. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. محمد الصلابي، مرجع سابق، ص٢٣٨، ٢٣٩.

٢. العِناق: الأنثى من ولد المعز.

٣. عقالًا: هو الحبل الذي يعقل به البعير.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٣٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (١٣٣).

٥. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. محمد علي الصلابي، مرجع سابق، ص٢٣٩.

٦. عاثت: أسرعت في الفساد.

٧. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. محمد علي الصلابي، مرجع سابق، ص٢٤٠ بتصرف.

دستوريًّا واضحًا أرسى فيه أبو بكر ﷺ قواعد العدل ومبادئ الشورى والحرية، واتخذه نبراسًا اهتدى به في خلافته، وتركه بعد رحيله لتهتدي به الدنيا كلها بعده.

- لقد ظل أبو بكر ﷺ وفيًّا لخطابه الأول، ملتزمًا ببنوده طول مدة خلافته الراشدة، وتجلى هذا الالتزام في وضوح روح الشورى وحرية النقد في خلال مدة الخلافة الوجيزة التي وليها.
- ومن مظاهر هذه الروح الفريدة إنفاذه بعث أسامة ﷺ بعد مداولات ومشاورات، وحرصه ﷺ على مشاورة أصحابه عندما جاءته وفود المرتدين للصلح، وعندما تجهَّز لحربهم، وعندما تجهَّز لفتوح الشام، وكذلك حرص الرجل على توصية عماله بالتشاور والتناصح مع من عندهم من الرجال الحكماء، وتجلَّى حرصه على الشورى أروع ما تجلَّى في مشاوراته مع أهل الحل والعقد لاختيار الخليفة من بعده، والتي أسفرت عن اختيار الفاروق العظيم لخلافة الصديق.
- وأما اتخاذ قراره بمحاربة المرتدين فإنه لم يستبد به كما يُدَّعى، وإنما شاور الصحابة ﷺ فأشار عليه بعضهم بحرمة قتال بعضهم ممن منع الزكاة، بعدما نطقوا شهادة التوحيد، ولكن الله شرح صدر الصحابة لرأي الصِّدِّيق، وقاموا معه لعِزِّ الإسلام ومحاربة المرتدين على اختلاف أصنافهم.

الشبهة الثالثة والعشرون

التَّشكيك في الجهود الدَّعويَّة لأبي بكر الصديق ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يُشكِّك بعض المغالطين في فضل أبي بكر الصديق وجهوده في الدعوة، ويشككون في إسلام مجموعة من السابقين إلى الإيمان على يديه مثل: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

هادفين من وراء ذلك إلى الغض من مكانته والنيل من منزلته وسبقه وفضله، بوصفه صاحب رسول الله ﷺ وخليفته، لكي يخلُصُوا في النهاية إلى الحطِّ من مَقام الصحابة الأخيار وقَدْرهم في نفوس الأمة.

وجها إبطال الشبهة:

١) مكانة أبي بكر الصديق ﷺ في الإسلام عظيمة، وجهده وسبقه معروفان.

٢) تتبُّع جهد أبي بكر ﷺ في الدعوة من خلال الروايات الموثوق بها يُطلعنا على الصورة الحقيقية له بوصفه أبرز من قامت الدولة الإسلامية على أكتافهم.

التفصيل:

أولا. مكانة أبي بكر الصديق ﷺ في الإسلام عظيمة، وجهده وسبقه معروفان:

أبو بكر ﷺ سيد الصديقين، وخير الصالحين بعد الأنبياء والمرسلين، فهو أفضل أصحاب رسول الله ﷺ

(*) موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مرجع سابق.

وأعلمهم وأشرفهم على الإطلاق، فقد قال رسول الله ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي"[1]. وقال عنه وعن عمر - رضي الله عنهما -: "اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي: أبي بكر وعمر"[2]. وهذا ما شهد له به عمر ﷺ: "أنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ"[3]. وقال عنه علي بن أبي طالب ﷺ لما سأله ابنه محمد: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر[4].

ولقد كان من مناقب أبي بكر ﷺ أن لقَّبه النبي ﷺ بالعتيق؛ فقد قال له: "أبشر؛ فأنت عتيق الله من النار"[5]. وكان أبو بكر يسمى في الجاهلية "عتيقًا" لجمال وجهه.

كذلك لقَّبه النبي ﷺ بالصديق؛ لكثرة تصديقه للنبي ﷺ، ولأنه لم يتردد في تصديق النبي حين دعاه إلى الإسلام، وحين أخبر بحدث الإسراء والمعراج، ولازم أبو بكر الصدق والتصديق، فلم تقع منه هَنَةٌ[6] أبدًا، ولهذا يقول له أبو محجن الثقفي ﷺ:

وَسُمِّيْتَ صِدِّيْقًا، وَكُلُّ مُهَاجِرٍ
سِواكَ يُسَمَّى بِاسْمِهِ غَيْرَ مُنْكَرِ

سَبَقْتَ إلى الإسْلامِ، واللهُ شَاهِدٌ
وَكُنْتَ جَلِيْسًا في العَرِيْشِ المُشَهَّرِ

وقد لقبه الله تعالى بـ "الصاحب" في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ (التوبة: ٤٠)، ولقبه بـ "الأتقى" في قوله ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾ (الليل).

كما كان أبو بكر ﷺ يلقب بـ "الأوَّاه"، فعن إبراهيم النخعي قال: كان أبو بكر يسمى بـ "الأواه"؛ لرأفته ورحمته[7].

والنصوص الواردة في مناقب أبي بكر ﷺ متعددة متواترة، يقول ابن تيمية: "ومن تأمل هذا وجد فضائل الصدِّيق التي في الصحاح كثيرة، وهي خصائص، مثل حديث: "إن الله معنا"، وحديث: "إنه أحب الرجال إلى النبي ﷺ"، وحديث كتابة العهد إليه بعده، وحديث تخصيصه بالتصديق ابتداءً والصحبة، وتركه له[8]، وهو قوله: "فهل أنتم تاركو لي صاحبي"؟[9]، وحديث دفعه عنه عُقبة بن أبي مُعَيط لَّما وضع الرداء في عنقه

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٢).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ (٢٣٢٩٣)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر (٣٦٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٣٣).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٦٧).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٦٨).

٥. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب منه (٣٦٧٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب ذكر السبب الذي من أجله سمي أبو بكر ﷺ عتيقًا (٦٨٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٧٤).

٦. الهَنَة: شر أو فساد.

٧. أبو بكر الصديق، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص١١، ١٢ بتصرف.

٨. تَرْكه له: أي طلب تركه له.

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي لو كنت متخذًا خليلًا (٣٤١٦).

حتى خلَّصه أبو بكر، وقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟![1] وحديث استخلافه في الصلاة وفي الحج، وصبره وثباته بعد موت النبي ﷺ، وانقياد الأمة له، وحديث الخصال التي اجتمعت فيه في يوم، وما اجتمعت في رجل إلا وجبت له الجنة، وأمثال ذلك"[2].

ومن أرفع هذه المناقب، وأعلى هذه الأوسمة التي تقلّدها أبو بكر رضي الله عنه وخُصَّ بها، ما ينقله ابن تيمية فيقول: "عن أنس عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلتُ: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما"[3]؟!

وهذا الحديث مع كونه مما اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقِّيه بالقبول والتصديق، فلم يختلف في ذلك اثنان منهم، فهو مما دل القرآن على معناه، يقول تعالى مخبرًا عن نبيه ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)"[4].

ويقول: "ولا نزاع بين أهل العلم بحال النبي ﷺ وأصحابه أن مصاحبة أبي بكر له كانت أكمل من مصاحبة سائر الصحابة من وجوه:

- أنه كان أدوم اجتماعًا به ليلًا ونهارًا، كما جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يومٌ إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَي النهار"[5].

فكان النبي ﷺ في أول الأمر يذهب إلى أبي بكر طرفي النهار، والإسلام إذ ذاك ضعيف، والأعداء كثيرة، وهذا غاية الفضيلة والاختصاص في الصحبة.

- كان أبو بكر رضي الله عنه يسمر عند النبي ﷺ بعد العشاء، يتحدث معه في أمور المسلمين، دون غيره من أصحابه.
- كان النبي ﷺ إذا استشار أصحابه، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من يتكلم في الشورى، وربما تكلَّم غيره، وربما لم يتكلم غيره، فيعمل برأيه وحده، فإذا خالفه غيره اتبع رأيه دون رأي من يخالفه"[6].
- وفي المواضع التي لا يكون مع النبي ﷺ من أكابر الصحابة إلا واحدٌ، كان يكون هو ذلك الواحد، مثل سفره في الهجرة، ومقامه يوم بدر في العريش، لم يكن معه فيه إلا أبو بكر، ومثل خروجه إلى قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام.

وهذا الاختصاص في الصحبة لم يكن لغيره باتفاق أهل المعرفة بأحوال النبي ﷺ، وأما من كان جاهلًا بأحوال النبي ﷺ أو كذابًا، فذلك يخاطب خطاب مِثْله، فقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي لو كنت متخذًا خليلًا (٣٤٧٥).

٢. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، ج٨، ص٢٢٢ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣١٩)، واللفظ له.

٤. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، ص٢٠٠.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩٢)، وفي مواضع أخرى.

٦. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، ص٢٠٩ بتصرف يسير.

تَحْـزَنْ ﴾(التوبـة: ٤٠)، لا يختص بمصاحبته في الغار، بل هو صـاحبه المطلـق، الـذي كمـل في الـصحبة كـمالًا لم يشركه فيه غيره، فصار مختصًّا بالأكملية من الصحبة.

فقد تبين أن النبي ﷺ خصَّه بكمال الـصحبة، ولهـذا قال من قال من العلماء: إن فضائل الصدِّيق خـصائص لم يشركه فيها غيره"[1].

ومعلوم أن إنفاق أبي بكر لماله كان دائمًا، وقـد أثنـى عليه النبي ﷺ بذلك. يقول ابن تيمية: إن إنفاق أبي بكر الصديق ﷺ منقول من الحديث الـصحيح مـن وجـوه كثيرة، حتى قال ﷺ: "ما نفعني مال قطُّ ما نفعني[2] مال أبي بكر"[3]. وقال: "إن أَمَنَّ النـاس علينـا في صُـحْبَته وماله أبو بكر"[4]. وثبت عنه أنه اشـترى المُعـذَّبين مـن ماله: بلالًا وعامر بن فُهَيْرة.. اشترى سبعة أنفس[5].

ويفصِّل ابن تيميـة وجـوه هـذا الإنفـاق، ودوره في خدمة الدعوة الإسلامية فيقـول: "وإنفـاق أبي بكـر في طاعة الله ورسوله هو من المتواتر، الـذي تعرفـه العامـة والخاصة، وكان له مال قبل الإسـلام، وكـان معظَّـمًا في قريش محببًا مؤلفًـا، خبـيرًا بأنـساب العـرب وأيـامهم، وكانوا يأتونه لمقاصد التجارة، ولعلمه وإحسانه؛ ولهـذا لَمَّا خرج من مكة قال له ابن الدُّغُنَّـة: "مثلـك لا يَخْـرج ولا يُخْرج"، ولم يُعلَم أحد من قريش وغيرهم عاب أبـا بكر بعيب، ولا نَقَصه ولا استرذله، كما كـانوا يفعلـون بضعفاء المؤمنين، ولم يكن له عندهم عيب إلا إيمانه بالله ورسوله.

وفي الصحيحين أن أبا بكـر ﷺ لمـا ابـتُلي المـسلمون خرج مهاجرًا إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدُّغُنَّة ـ وهو سـيد القـارة ـ فقـال: أيـن تريـد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قـومي، فأريـد أن أسـيح في الأرض وأعبـد ربي، فقـال ابـن الدغنـة: فـإن مثلـك لا يَخْـرُج ولا يُخْـرج، إنـك تكـسب المعـدوم، وتـصل الرحم، وتحمل الكَلَّ وتقري الضيف وتُعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجـع وارتحل معـه ابـن الدُّغُنَّـة، فطـاف ابـن الدُّغُنَّـة عـشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكـر لا يخـرج مثلـه ولا يُخرج، أتخرجون رجـلًا يُكـسب المعـدوم، ويـصل الرحم، ويحمل الكـل، ويقـري الـضيف، ويعـين عـلى نوائب الحق؟ فلم تكذب قـريش بجـوار ابـن الدُّغُنَّـة، وقالوا لابن الدُّغُنَّة: مُـرْ أبـا بكـر فليعبـد ربَّـه في داره، فليـصلِّ فيهـا، وليقـرأ مـا شـاء، ولا يؤذنـا بـذلك ولا يستعلن به، فإنَّا نخشى أن يفـتن نـساءنا وأبناءنـا، فقال ذلك ابن الدُّغُنَّة لأبي بكر، فلبث أبـو بكـر بـذلك يعبد ربَّه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا له فابتنى مسجدًا بفناء داره، فكـان يـصلِّي فيـه، ويقـرأ القـرآن، فيتقـصَّف عليـه نـساء المشركين

---

١. منهاج السنة النبويـة، ابـن تيميـة، مرجـع سـابق، ص٢٢٠، ٢٢١ بتصرف يسير.

٢. ما نفعني: أي مثل ما نفعني.

٣. صـحيح: أخرجـه أحمـد في مـسنده، مـسند المكثـرين مـن الـصحابة، مـسند أبي هريـرة ﷺ (٧٤٣٩)، وابـن حبـان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب ذكر البيان بأن المصطفى ﷺ ما انتفع بـمال أحـد مـا انتفـع بـمال أبي بكـر ﷺ (٦٨٥٨)، وصـححه الألبـاني في الجـامع الـصغير وزيادتـه (١٠٧٤٧).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبـواب المـساجد، بـاب الأبـواب والغلـق للكعبـة ولمساجدالمدينة (٤٥٤)، ومسلم في صـحيحه، كتـاب فـضائل الـصحابة، بـاب فـضائل أبي بكر(٦٣٢٠).

٥. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، مرجع سابق، ص٢٨٦.

وأبناؤهم، يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبـو بكـر رجلًا بكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلـك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدُّغُنَّـة، فقـدم إلـيهم، فقالوا: إنَّا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبـد ربّـه في داره، فجاوز ذلك، فابتنى مسجدًا بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة به، وإنَّـا قـد خـشينا أن يفـتن نـساءنا وأبناءنا، فَانْهَهُ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربّـه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلـن بـذلك، فـسله أن يـردَّ إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخفِـرك، ولـسنا مقـرّين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فأتى ابن الدُّغُنَّة إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تُرجـع إلى ذمتـي؛ فـإني لا أحب أن تسمع العرب أنّي أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردُّ عليك جـوارك، وأرضى بجـوار الله تعالى.

فقد وصفه ابن الدُّغُنَّة بحضرة أشراف قريش بمثـل ما وصفت به خديجـة ـ رضي الله عنهـا ـ رسـول الله ﷺ لما نزل عليـه الـوحي، وقـال لهـا: "لقـد خـشيت عـلى نفـسي"، فقالـت لـه: "كـلا والله مـا يخزيـك الله أبـدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمـل الكـل، وتقـري الـضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق"[١]. فهـذه صـفة النبـي ﷺ أفـضل النبيـين، وصـديقه أفـضل الصدِّيقين.

وعن أبي سعيد الخدري قال: خطب النبي ﷺ الناس فقال: "إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله"، فكان رسول الله ﷺ هو العبد وكان أبو بكر أعلمنا، وقال النبي ﷺ: "يا أبـا بكـر، لا تَبْـكِ، إن أَمَـنَّ الناس علي في صُحْبَته وماله أبو بكر، ولو كنتُ مُتَّخِـذًا خليلًا من أُمَّتي لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أُخُوَّة الإسـلام ومَوَدَّته، لا يبقينَّ في المسجد بـاب إلا سُـدَّ إلا بـاب أبي بكر"[٢].

وجاء عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قـال: "ما نفعني مال قطُّ ما نفعني مال أبي بكر"[٣]. ومنـه أعتـق بلالًا، وكان يقضي في مال أبي بكر كما يقضي الرجـل في مال نفسه"[٤].

ومما يدل على منزلة أبي بكر عنـد رسـول الله ﷺ مـا نراه في الحديث الشريف الذي رُوي عن أبي الدرداء ﷺ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبـو بكـر آخـذًا بطَرَف ثوبه حتى أَبْدَى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: "أمَّـا صاحبكم فقد غامر"، فسلم وقـال: يـا رسـول الله، إني كان بيني وبين ابـن الخطـاب شيء فأسرعـت إليـه ثـم

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيـف كـان بـدء الـوحي إلى رسـول الله ﷺ (٣) وفي مواضـع أخـرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الـوحي إلى رسـول الله (٤٢٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبـواب المساجد، بـاب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٤)، وفي مواضع أخرى، ومـسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مـن فـضائل أبي بكـر الصديق (٦٣٢٠).

٣. صـحيح: أخرجـه أحمـد في مـسنده، مـسند المكثـرين مـن الـصحابة، مـسند أبي هريـرة ﷺ (٧٤٣٩)، وابـن حبـان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب ذكر البيان بأن المصطفى ﷺ ما انتفع بمال أحد ما انتفع بمال أبي بكر رضـوان الله عليه (٦٨٥٨)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادتـه (١٠٧٤٧).

٤. منهاج السنة النبويـة، ابـن تيميـة، مرجـع سـابق، ص٢٨٩: ٢٩٢ بتصرف.

نَدمتُ، فسألته أن يغفر لي فأَبَى علي، فأقبلتُ إليك، فقال ﷺ: "يغفر الله لك يا أبا بكر". ثلاثًا.

ثم إن عمر بن الخطاب ندم، فأتى منزل أبي بكر الصديق فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ - يعني: هل أبو بكر هنا - فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يَتَمَعَّر، حتى أشفق أبو بكر فجثَا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، أنا كنتُ أَظْلَم أنا كنت أظلم، فقال النبي ﷺ: "إن الله بعثني إليكم، فقلتم كَذَبْتَ، وقال أبو بكر: صَدَق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ فهل أنتم تاركو لي صاحبي"[1]؟

وعن محمد بن سيرين قال: سئل أنس بن مالك عن خضاب رسول الله ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يكن شاب إلا يسيرًا، ولكن أبا بكر وعمر بعده خَضَّبَا بالحناء والكتم، قال: وجاء أبو بكر بأبيه - أبي قحافة - إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يحمله حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال لأبي بكر: "لو أقررت الشيخ في بيته لأتيناه مَكْرُمة لأبي بكر"[2]. وعن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة". فقلت: من الرجال؟ قال: "أبوها"[3].

وتتويجًا لكل هذا، فإن أبا بكر ﷺ يُدعى من أبواب الجنة الثمانية، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام وباب الريان"، فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعَى من تلك الأبواب من ضرورة، أو قال: وهل يُدْعى منها كلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر"[4].

يقول ابن القيم عن أبواب الجنة في نونيته:

وَلَسَوْف يُدْعَى المَرْءُ من أَبْوابِهَا
جَمْعًا إذا وفي حُلَى الإيمانِ
مِنْهُم أَبُو بَكْرٍ هُو الصِّدِّيقُ ذا
كَ خَلِيْفَة المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ[5]

ولا يستطيع المرء أن يعقل مبررًا منطقيًّا للحملات الباغية على الصديق ﷺ، وقد عُلِم فضله، وعُرِفت سابقته، وسبق ثناء الرسول ﷺ عليه، وثناء أهل البيت أنفسهم الذين يُزْعم أن أبا بكر ظلمهم، وسلبهم حقوقهم.

عن محمد بن علي أنه قال: أجمع بنو فاطمة على أن

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٦١).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢٦٥٦)، وأبو يعلى في مسنده، مسند محمد بن سيرين عن أنس (٢٨٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٦).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل (٤١٠٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٨).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٦٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (٢٤١٨).

٥. أصحاب الرسول، محمود المصري، مرجع سابق، ج١، ص٥٨، ٥٩ بتصرف يسير.

يقولوا في أبي بكر وعمر أحسن ما يكون من القول، وعنه ـ رحمه الله ـ أنه قال لجابر الجعفي: إن قومًا بالعراق يزعمون أني أمرتهم بذلك[١]؛ فأخبرهم أني أبرأ إلى الله تعالى منهم، والله بريء منهم، والذي نفس محمد بيده، لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد إن لم أكن أستغفر الله لهما، وأترحم عليهما، إن أعداء الله غافلون عنهما. وعن بسام الصيرفي قال: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر فقال: والله إني لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحدًا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما.

وعن زيد بن علي أنه قال: كان أبو بكر إمام الشاكرين، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران).

عن عبد الجبار بن العباس الهمداني، أن جعفر بن محمد الصادق أتاهم وهم يريدون أن يرتحلوا من المدينة فقال: إنكم إن شاء الله من صالحي أهل مصركم، فأبلغوا عني من زعم أني إمام معصوم مفترض الطاعة، فأنا منه بريء. ومن زعم أني أبرأ من أبي بكر وعمر، فأنا منه بريء، وعن سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال له: يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامَي هُدَي، ثم قال جعفر: أَيَسُبُّ الرجل جده؟ أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما.

وعن جعفر بن محمد أنه كان يقول: ما أرجو من شفاعة علي شيئًا، إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله، لقد ولدني مرتين، وعنه ـ رحمه الله ـ أنه سُئِل عن أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فقال: إنك تسألني عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة، وعنه أيضًا أنه قال: بَرِئَ الله ممن تبرأ من أبي بكر وعمر"[٢].

فهذا هو مقدار أبي بكر، وذلك هو بلاؤه وسبقه، فهل يشكِّك في شيء من هذا منصف أو عاقل؟!

ثانيًا. جهود أبي بكر الصديق في مجال الدعوة الإسلامية:

إن تتبُّع جهد أبي بكر في الدعوة من خلال الروايات الموثوق بها يطلعنا على الصورة الحقيقية له بوصفه واحدًا ممن قامت الدولة الإسلامية على أكتافهم.

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال، ومنذ اللحظة الأولى الإسلامية عَلِمَ ثِقَلَ الأمانة التي حُمِّلها ووطَّن نفسه على الصبر والمصابرة.

يقول د. الصلابي: "أسلم الصديق رضي الله عنه وحمل أمانة الدعوة مع رسول الله ﷺ، وتعلم من رسول الله ﷺ أن الإسلام دين العمل والدعوة والجهاد، وأن الايمان لا يكمل حتى يهب المسلم نفسه وما يملك لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام)، وقد كان الصديق رضي الله عنه كثير الحركة للدعوة الجديدة، وكثير البركة أينما تحرك، حقق مكاسب عظيمة، وقد كان نموذجًا حيًّا في تطبيقه لقول الله عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل).

كان تحرك الصديق رضي الله عنه في الدعوة إلى الله عز وجل يوضح

١. يقصد: النَّيل من أبي بكر وعمر والطعن فيهما.

٢. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص٢٥٥، ٢٥٦ بتصرف يسير.

صورة من صور الإيمان بهذا الدين والاستجابة لله ورسوله، صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة سرعان ما تخمد وتذبل وتزول، وقد استمر أبو بكر ﷺ في دعوته إلى الله ونشاطه وحماسه لنشر الإسلام إلى أن توفاه الله، وكان دائما يقول: "أينقص الدين وأنا حي"؟ لم يَفْتُر أو يضعف أو يمل أو يعجز.

وكانت أول ثمار الصديق الدعوية دخول صفوة من خير الخلق في الإسلام وهم: الزبير بن العَوَّام، وعثمان بن عفَّان، وطلحة بن عُبَيْد الله، وسعد بن أبي وقَّاص، وعثمان بن مَظْعُون، وأبو عُبَيْدة بن الجَرَّاح، وعبد الرحمن بن عَوْف، وأبو سَلَمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم ﷺ، وجاء بهؤلاء الصحابة الكرام فُرادى، فأسلموا بين يدي رسول الله ﷺ، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله على أيديهم أفواجًا رجالًا ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام. واهتم الصديق بأسرته فأسلمت أسماء وعائشة وعبد الله وزوجته أم رومان وخادمه عامر بن فهيرة.

لقد كانت الصفات الحميدة والخلال العظيمة والأخلاق الكريمة التي تجسدت في شخصية الصديق عاملًا مؤثرًا في الناس عند دعوتهم للإسلام، فقد كان رصيده الخلقي ضخمًا في قومه وكبيرًا في عشيرته، فقد كان رجلًا، مؤلفًا لقومه، محببًا لهم، سهلًا، أنسب قريش لقريش، بل كان فرد زمانه في هذا الفن، وكان رئيسًا مكرمًا سخيًّا يبذل المال، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد، وكان رجلًا بليغًا[1].

ولم تتوقف جهود أبي بكر الدعوية على الدعوة الفردية بلسانه، بل وقف ماله للدعوة والجهاد في سبيل الله، وقد مَرَّ بيان صور من هذا، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

قال الإمام القرطبي: "والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر ﷺ"، فأي مَنْقَبة أعظم من هذه المنقبة، وأي وسام أغلى من هذا الوسام؟

فعن عبد الله بن الزبير أنه قال: قال أبو قُحافة لأبي بكر: أراك تَعْتِق رِقابًا ضِعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالًا جُلْدًا[2] يمنعونك ويقومون دونك. فقال أبو بكر: يا أبت، إني إنما أريد ما أريد لما نزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ

---

1. أبو بكر الصديق، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص٣٨، ٣٩ بتصرف يسير.
2. الجُلْد: جمع جَلْد، وهو الشديد.

﴿عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ (الليل)[1]، أي: سوف يعطيه في الجنة ما يرضى.

وكان عمر ﷺ يقول: "أبو بكر سَيِّدُنا وأعْتَق سيِّدَنا". يعني بلالًا[2].

أَبُو بَكْرٍ حَبَا في الله مَالًا
وَأَعْتَقَ في مَحَبَّتِه بِلالًا
وَقَد وَاسَى النبي بِكُلِّ فَضْلٍ
وَأَسْرَعَ في إجَابَتِه بِلالًا
لَو أَنَّ البَحْرَ يَقْصدُه بِبِعْض
لما تَرَكَ الإلهُ بِه بِلالًا

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدَّق، فوافقَ ذلك مالًا عندي، فقلتُ: اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يومًا ـ فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك"؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر بكُلِّ ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: "ما أبقيتَ لأهلك"؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلتُ: لا أسبقك إلى شيء أبدًا[3].

ولقد كان ﷺ مجاهدًا صادقًا، ومناصرًا فذًّا للنبي ﷺ صاحب دعوة، وهذا ما تُفصِح عنه الروايات التاريخية الصحيحة على ما يفصل بيانه الشيخ محمود المصري حيث يقول:

١. موقفه العظيم ليلة الهجرة المباركة: ولا ننسى أبدًا موقفه العظيم في ليلة الهجرة المباركة، فلقد اجتمع صَنادِيد[4] قريش في دار الندوة وقرروا قتل النبي ﷺ، والنبي ﷺ يومئذ بمكة، فقال النبي ﷺ للمسلمين: "إني أُرِيتُ دار هجرتكم، ذات نَخْل بين لَابَتَيْنِ"[5][6]، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: "على رِسْلك، فإني أرجو أن يؤذن"[7]، فقال أبو بكر ﷺ: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: "نعم"، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر[8].

ولما تم اتخاذ القرار[9] بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه ﷻ فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أَذِن له في الخروج، وحدَّد له وقت الهجرة قائلًا: "لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه"، وذهب النبي ﷺ في الهاجرة إلى أبي بكر ﷺ ليبرمَ

---

١. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، باب سئل عن فضائل أبي بكر الصديق رحمة الله عليه ورضوانه (٦٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ (الليل) (٣٩٤٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر (٣٥٤٤).

٣. حسن: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك "خروج الرجل من ماله" (١٦٨٠)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٧٥)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٢).

٤. الصَّنادِيد: جمع صِنْدِيد، وهو الشديد أو السَّيِّد المُتغلِّب.

٥. اللابَتَيْن: مثنى اللابَة، وهي الأرض ذات الحجارة السُّود.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩٢)، وفي مواضع أخرى.

٧. أي: في الصُّحْبَة.

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعهده (٢١٧٥)، وفي موضع آخر.

٩. القرار: يُقصد به قرار المشركين في مكة.

معه مراحل الهجرة.

قالت عائشة: لَقَلَّ يوم كان يأتي على النبي ﷺ إلا يأتي فيه بيت أبي بكر أحد طَرَفَي النهار، فلمَّا أُذِن له في الخروج إلى المدينة لم يَرُعْنَا إلا وقد أتانا ظُهْرًا، فخُبِّرَ به أبو بكر فقال: ما جاءنا النبي ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلمَّا دخل عليه قال لأبي بكر: "أَخْرِجْ من عندك"، قال: يا رسول الله، إنما هُمَا ابنَتَاي - يعني عائشة وأسماء -، قال: "أشعرتُ أنه قد أُذِن لي في الخروج"، قال: الصُّحْبَة يا رسول الله! قال: "الصحبة"، قال: يا رسول الله، إن عندي ناقتين أعددتها للخروج، فخُذْ إحداهما، قال: "قد أخذتها بالثَّمَن"[1].

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمِّيت "ذات النطاقين".

وأوعز الرسول ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدي بُرْدَه الذي ينام فيه، وأن يَتَسَجَّى[2] به على سريره، وفي هَجْعَة[3] من الليل وغفلة من الحرس، انسلَّ الرسول ﷺ من بيته إلى دار أبي بكر الصديق، ثم خرج الرجلان من خَوْخَة[4] في ظهرها إلى غار ثور، إلى الغار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل حضارة كاملة، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والانقطاع.

وأمر أبو بكر رضي الله عنه ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما، ثم يأتيهما في المساء بأخبار ذلك اليوم، واستعان الصديق رضي الله عنه بعامر بن فهيرة؛ ليرعى غنمه في النهار، ثم يريح عليهما في المساء بالغنم؛ فيحلبا ويأكلا.

وانطلق مشركو مكة في آثار المهاجرين يرصدون الطرق، ويفتشون كل مهرب، وراحوا ينقبون جبال مكة وكهوفها، حتى وصلوا قريبًا من غار ثور، وأنصت الرسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المطاردين تخفق إلى جوارهم، فأخذ الروع أبا بكر، وهمس يُحَدِّث رسول الله ﷺ: لو أن رفع أحدهم قدمه لرآنا، فقال الرسول ﷺ: "ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما"[5]؟! وتدبروا معي كيف حال أبي بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ أثناء الهجرة، وكيف كان خوفه عليه.

وجاء عن ابن مليكة أن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثَوْر، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرَّة، وخلفه مرة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك، فقال: إذا كنتُ خلفك خشيتُ أن تُؤْتَى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك. ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله، لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكَسَحَه[6]، ووجد في جانبه ثقبًا، فشَقَّ إزاره وسدَّه به، وبقي منها

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا أشترى متاعًا أو دابة فوضعه عند البائع أو مات قبل أن يقبض (٢٠٣١).

٢. يتسَجَّى: يَتَغَطَّى.

٣. الهَجْعَة: النَّومة الخفيفة من أول الليل.

٤. الخَوْخَة: باب صغير كالنَّافذة الكبيرة تكون بين بيتين يُنصَبُ عليها باب.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة براءة (التوبة) (٤٣٨٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣١٩).

٦. كَسَحَه: مَسَحَه.

اثنان فألقمهما رِجْلَيه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل، فدخل رسول الله ووضع رأسه في حجره ونام، فلُدِغَ أبو بكر في رجله من الجُحْر ولم يتحرك؛ مخافة أن ينتبه رسول الله، فسقطت دموعه على وجه رسول الله، فقال: "ما لك يا أبا بكر"؟ قال: لُدِغْتُ فداك أبي وأمي، فتَفَلَ رسول الله ﷺ فذهب ما يجده[١].

هكذا كان أبو بكر رضي الله عنه يتمنى أن يفدي الحبيب ﷺ بنفسه وماله وبكل ما يملك... وهذا هو كمال الحب لرسول الله ﷺ.

إن أبا بكر خرج مع النبي ﷺ وهو لا يريد الجاه ولا الوزارة، وإنما خرج ابتغاء وجه الله، وهو يعلم يقينًا أن سيوف المشركين تنتظره بالخارج، وعلى الرغم من ذلك خرج ليفوز بشرف الصُحبة. يقول عمر رضي الله عنه ليلة من أبي بكر خيرٌ من آل عمر ـ يقصد ليلة الغار ـ الدهر كله[٢].

فالهجرة حدث عظيم لا يُنسى أبدًا، فهي لم تكن مجرد هروب من بلدٍ إلى بلد آخر، وإنما كانت خطوة لإقامة دولة للمسلمين يمكّن فيها لدين الله عز وجل.

فهنيئًا لأبي بكر هذا الشرف العظيم الذي ناله بصحبة النبي ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة.

٢. موقفه العظيم يوم بدر: لقد شهد أبو بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وثبت معه ثباتًا لا نظير له، ففي يوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأجاد، وكانت المعركة. يقول علي رضي الله عنه: أشجع الناس أبو بكر؛ إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ؛ لئلا يقوى إليه أحد من المشركين فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه[٣].

وعن ابن سيرين أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يوم بدر مع المشركين!! فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت ـ أشرفت ـ إليَّ يوم بدر، فانصرفت عنك، ولم أقتلك، فقال أبو بكر: "لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك". ففي هذه المعركة التقي الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ ففصلت بينهم السيوف، وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتقدون، فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه الملحد، ويخاصمه في ذات الله، والقتال الذي دار بـ "بدر" سجّل صورًا من هذا النوع الحاد: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل، وهذه صورة عالية من الولاء والبراء.

قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة)، وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

---

١. الرحيق المختوم، صفي الدين المباركفوري، مرجع سابق، ص١٦٤.

٢. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفضائل، باب ما ذكر في أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٣١٩٥٧)، والحاكم في مستدركه، كتاب الهجرة (٤٢٦٨).

٣. أخرجه البزار في مسنده، مسند علي بن أبي طالب (٧٦١)، والهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المناقب، باب جامع في فضله (١٤٣٣٣).

﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ (المجادلة).

الصدّيق رضي الله عنه من الذين استجابوا لله تعالى وللرسول يوم أُحد: قالت عائشة لعروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾ (آل عمران)، قالت: يا ابن أختي، كان أبواك منهم (الزبير وأبو بكر) لما أصاب الرسول ما أصابه يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا قال: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلًا: كان فيهم أبو بكر والزبير.

٣. **ثباته رضي الله عنه في باقي المشاهد:** قال ابن القيم: وثبت أبو بكر رضي الله عنه ثبوت الجبال يوم أُحد حول رسول الله ﷺ يدافع. وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبي بكر رضي الله عنه، فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

وفي غزوة تبوك ساعة العسرة كانت راية المسلمين بيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ويوم حنين أُعجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغنهم شيئًا، وولوا مدبرين، بعد أن كمن لهم أعداء الله في شعاب الوادي، وكان أول من ثبت حول رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه[1].

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر ما تعرَّض له أبو بكر من أذى قريش بسبب الدعوة إلى الله، "فقد جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: "يا أبا بكر، إنا قليل"، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوه في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووُطِئ أبو بكر وضُرِب ضربًا شديدًا، ودَنَا منه الفاسق عُتْبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنَعْلَين مَخْصُوفَتَين[2] ويُحرِّفهما[3] لوجهه، ونَزَا[4] على بطن أبي بكر، حتى ما يُعْرَف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تميم يتعاودون فأَجْلَت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكُّون في موته.. فما تكلَّم إلا آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ ثم قال: فإن لله علي ألَّا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، فلما دخل عليه، أكبَّ عليه رسول الله فقبَّله، وأكب عليه المسلمون، ورَقَّ له رسول الله ﷺ رِقَّة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي[5]".

وبعد.. فهذا أبو بكر وجهاده وبلاؤه، وهذه

١. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، مرجع سابق، ج١، ص٦٥: ٦٩ بتصرف.

٢. مَخْصُوفَتَين: الخَصْفة هي قطعة مما تُخْصَف النَّعل، أو هي كل طبقة من النعل.
٣. يُحرِّف: يُميل.
٤. نزا: وثَب.
٥. أبو بكر الصديق، د. الصلابي، مرجع سابق، ص٤٠، ٤١.

تضحِيَّاته وجهوده، فرحمه الله ورضي عنه.

الخلاصة:

- لأبي بكر ﷺ مكانة عظيمة في الإسلام؛ فسبقه وجهاده معروفان، ومناقبه في الإسلام كثيرة، وخصائصه مرموقة، فهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، وهو رفيق الهجرة، وخليفة النبي ﷺ في الصلاة والحج، وأحب الناس إليه، وهو - تتويجًا لكل هذا - مَدْعُوٌّ يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية.
- إن تتبُّع جهود أبي بكر في الدعوة - من الروايات الموثوق بها - يطلعنا على الصورة الحقيقية له بوصفه أبرز من قامت على أكتافهم دولة الإسلام الناشئة؛ فقد كان ﷺ أول المستجيبين للإسلام من الرجال، وعلى يده أسلم كثير من الرعيل الأول، ثم انتشر الإسلام بعد ذلك على أيديهم جميعًا.
- ولم يكتف أبو بكر بهذا الجانب، فكانت له قدم راسخة في الجهاد بالمال والنفس إلى جوار النبي ﷺ، حتى توفي وهو عنه راض.

المصادر والمراجع

- أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد المحص، الدار المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- إتحاف الأخِصَّا بفضائل المسجد الأقصى، السيوطي، تحقيق: د. أحمد رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، مصر، ٢٠٠٤م.
- الأحكام السلطانية، أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- أخبار مكة، محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحن، دار الثقافة، مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الإرهاب صناعة غير إسلامية، نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ.
- الإسلام، سعيد حوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام العربية من وجهة أمريكية، برنارد لويس، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤م.
- الإسلام بعيون مسيحية، لطفي حداد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٦م.
- الإسلام دين عام خالد: تحليل دقيق لمبادئ الإسلام، محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، القاهرة، ١٤٢٦هـ.
- الإسلام في تصورات الغرب، محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا، ألمانيا، مجلة النور الكويتية، الترجمة العربية، ط١، ١٩٩٣م.
- الإسلام والغزو الفكري، محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام وأوربا: تعايش أم مجابهة، إنجمار كارلون، ترجمة: سمير بوتاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.

- أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، منشورات جمعية الدعوة العالمية الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٩م.
- الاعتداءات الباطنية على المقدسات الإسلامية، د. كامل سلامة الدقس، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٦م.
- إعلام الساجد، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: الشيخ أبو الوفا مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الإمبراطورية البيزنطية، بينز، ترجمة: د. حسين مؤنس، محمد زايد، د. ن، د. م، د. ت.
- الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان عبد القوي، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجيد الدين الحنبلي، مكتبة المحتسب، الأردن، توزيع دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.
- الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، د. ت.
- بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- البوسنة والهرسك أكبر سجن للحرية، مقال بمجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٣٧، رمضان ١٤١٤هـ.
- البوسنة والهرسك: من الفتح إلى الكارثة، د. محمد حرب، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: محمد عبد الغني شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، د. نظير سعداوي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، طبعة خاصة، د. ن، د. م، د. ت.
- تاريخ الشعوب العربية، ألبرت حوراني، ترجمة: نبيل صلاح الدين، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- تاريخ الطبري، ابن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧م.

- تاريخ العصور الوسطى، نورمان كانتور، ترجمة: د. علي الغمراوي، د. قاسم عبده، مكتبة سعيد رأفت، د. م، د. ت.
- التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، د. محمد أمحزون، دار السلام، مصر، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- التربية القيادية، د. منير الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- التعصب الصليبي، د. عمر عبد العزيز قريشي، دار الاستقامة، القاهرة، ١٩٩٦م.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م.
- تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، دار الوفاء، المنصورة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا، د. أحمد عبد القادر الشاذلي، طبعة خاصة، ١٩٩٤م.
- الجهاد في الإسلام، د. أحمد محمود كريمة، طبعة خاصة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- حديث الإفك: دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، دار الإيمان، مصر، ٢٠٠٥م.
- الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا، محمد هريدي، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
- حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، ترجمة: عبد العزيز جاويش، وعبد الحميد العبادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مطبعة مصر، القاهرة، ط٢، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة. د: حسن إبراهيم وآخرين، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.
- الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدي شاهين، دار النصر، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- دولة الخلفاء الراشدين، د. أحمد كامل، دار الهاني، القاهرة، طبعة خاصة، د. ت.
- الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. علي الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.

- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الرد على القس بوش، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- رسالة القتال من مجموع الرسائل النجدية، ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- روح الإسلام، عطية الإبراشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الروض الأنف، السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- سقوط العلمانية، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- سماحة الإسلام، د. عمر قريشي، مكتبة الأديب، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م.
- سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية منهاجًا وسيرة، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- السيرة النبوية، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، دار الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- شبهات وردود: الرد على شبهات أحمد الكاتب حول إمامة أهل البيت ووجود المهدي المنتظر، السيد سامي البدري، مطبعة قسم شريعت، إيران، ط٢، ١٤١٧هـ.
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي، تحقيق: محمد عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- صبح الأعشى، القلقشندي، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.
- صرب يوغوسلافيا وحرب إبادة المسلمين، مقال بمجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد ٣٣٢.
- صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشاري، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ظلام من الغرب، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٣م.
- العالم الإسلامي في العصر الأموي، د. عبد الشافي عبد اللطيف، طبعة خاصة، ط١، ١٩٨٤م، د. ن، د. م.

- عالمية الإسلام، د. علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٩٩٢.
- عالمية الإسلام، رجائي عطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- عالمية الإسلام بين وعي الذات وإنضاج الخصوصية، مجلة النبأ، العدد ٥٨، ربيع الأول ١٤٢٢هـ، حزيران ٢٠٠١م.
- عالمية السلام في الإسلام منهجًا وعقيدة في الكتاب والسُّنة، د. عادل السيد مرزوق، مؤتمر قضايا الإصلاح العربي، مكتبة الأسكندرية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- العدالة الاجتماعية، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- العرب والإسلام في أوزبكستان، منروف، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- عَرْف الطيب، محمد بن محمد العاقولي، تحقيق ودراسة: د. صلاح الدين بن عباس شكر، مطبوعات مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة، د. ت.
- فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد حسين العفاني، دار ماجد عسيري، السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- فقة السنة، السيد السابق، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- فقه النصر والتمكين، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.
- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، ترجمة: فاطمة نصر، د. محمد عناني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.

- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٢م.
- قصة الحضارة، وول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- القصص القرآني وأثره في استنباط الأحكام، د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، دار الفتح، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨م.
- قضايا إسلامية: مناقشات وردود، محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة، المنصورة، ١٩٨٤م.
- قضايا ومواقف من تاريخ الراشدين، د. هاشم عبد الراضي، دار النصر، القاهرة، ١٩٩٩م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- كتاب الأموال، ابن سلام، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، ١٩٨١م.
- كتاب الخراج، أبو يوسف، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، دار الإصلاح، القاهرة، د. ت.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده، عالم المعرفة، د. م، د. ت.
- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، د. ت.
- محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- محمد رسول الله، اتيين دينيه، سليمان الجزائري، ترجمة: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦م.
- محمد رسول الله، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، حسين عيسى، مراجعة د. أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- مروج الذهب، المسعودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والقرآن، إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المسلمون المنصَّرون، د. عبد الله جمال الدين، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، مصطفى كسبة، هدية مجلة الأزهر، القاهرة، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ.

- المسلمون في القوقاز، د. إبراهيم العدوي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- المسلمون في القوقاز والبلقان زمن العثمانيين، د. جمال فوزي، دار الثقافة العربية، ٢٠٠١.
- المسلمون في عصر الراشدين، د. عبد الفتاح فتحي، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- المسلمون والعولمة، د. يوسف القرضاوي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٣م.
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٢م.
- معالم تاريخ مصر الإسلامية، د. عبد الفتاح فتحي، د. جمال فوزي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، من منشورات جامعة بغداد، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط ١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ٢٠٠٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، خديجة النبراوي، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، النهضة المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٢م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- موقف الشيعة الاثنى عشرية من صحابة الرسول ﷺ، د. عبد القادر بن محمد عطا صوفي، دار أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- نبأ عظيم إلى جميع البشر، إعداد وإشراف: صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ.
- نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، حلمي صابر، طبعة خاصة، ٢٠٠١م.
- النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٧، ١٩٧٦م.
- نظرية الحرب في الإسلام، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الهجرة حدث غير مجرى التاريخ، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٥، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- هدي السيرة النبوية، حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- هل نعلن موت الأمة، فهمي هويدي، مقال بجريدة الأهرام القاهرية، بتاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٩م.
- هيمنة القرآن المجيد على ما جاء في العهد القديم والجديد، مها محمد فريد عقل، ٢٠٠٢م، د ن، د. م.
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الثالث

ج ٣

شبهات حول التاريخ الإسلامي (١)



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الأول: القرآن
المجلد الثالث (ج٣، ج٤، ج٥)

إشراف عام:

داليـا محمـد إبراهيـم

الترقيم الدولي: 977-14-4244-9
رقم الإيداع: 2010/10891
الطبعة الأولى: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة